الأمير شكيب أرسلان
نقّح وعلّق على حواشي مؤلّف

المختار

من رسائل أبي إسحق إبراهيم بن هلال ابن زهرون الصابي



الأمير شكيب أرسلان

المختـــار

من رسائل أبي اسحق ابراهيم بن هلال
ابن زهرون الصّابي

الدار التقدّمية

المختــار

من رسائل أبي اسحق ابراهيم بن

هلال ابن زهرون الصّابي

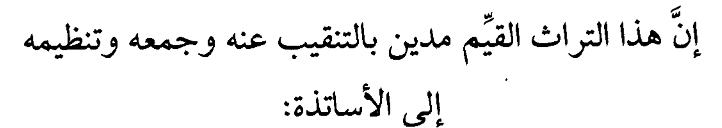
الأمير شكيب أرسلان / المختار من رسائل أبي اسحق ابراهيم
بن هلال ابن زهرون الصّابي

الدار التقدّمية
المختارة ـ الشوف ـ لبنان
هاتف: ٩٦١ـ٥/٣١٠٥٥٥ ـ ٩٦١ـ٥/٣١١٥٥٥
E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb
http ://www.daraltakadoumya.com

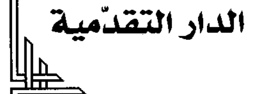
الطبعة الأولى / نيسان ٢٠١٠



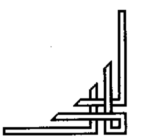
كلمة لا بدّ منها

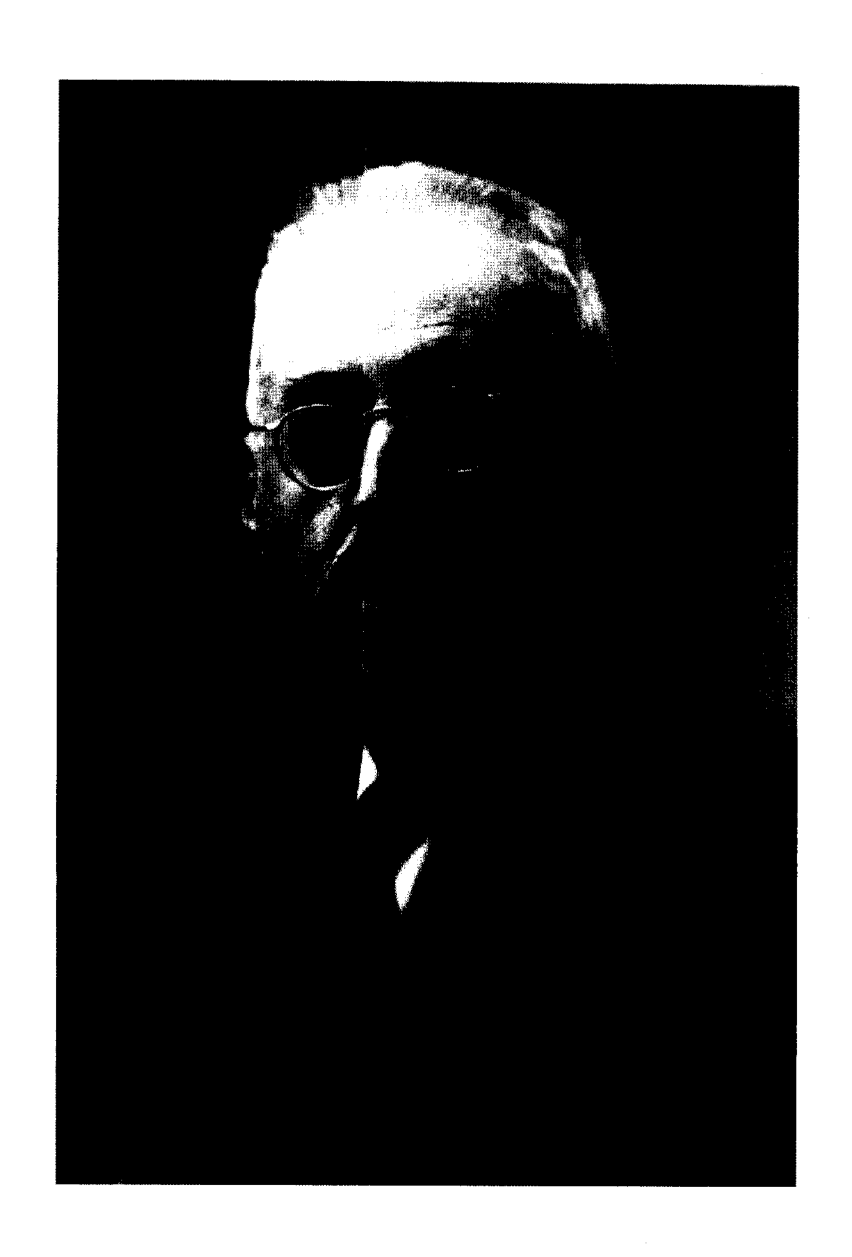


إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.



الدار التقدّمية





أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦

مقدّمة الناشر

نشأ (أسلوب الرسائل) في القرن الثامن للميلاد، على يد عبد الحميد الكاتب، الذي كان رئيس ديوان الرسائل في بلاط الأُمويين. وشاع فنّ هذا الأسلوب منذ ذلك العهد، ومن بين القلائل الذين لمعت أسماؤهم، في هذا الفنّ البياني، « أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي (الصابئ)» (٩٢٥ـ٩٩٤)م؛ الذي اشتُهر برسائله المتميّزة، وسبكه الرائع، وأسلوبه البليغ، حتّى أضحت رسائله عِلمًا يتدارسه المترسِّلون، ويقتبسون من دقّة تصويره وسلامة لغّته وجمال تعبيره، طوال تسعة قرون. فضلاً عن أنَّ تلك الرسائل، كانت تاريخًا لحقبةٍ من عصر دولة (بني بويه)، التي حكمت في اصفهان وشيراز وكرمان وبغداد من سنة ٩٣٢ إلى سنة ١٠٥٥م، وكان مشاهير وزرائها من الشعراء والأدباء، كالمُهلِّبي وابن العميد، والصاحب بن عبّاد.

وإنّنا لنجد، وراء اختيار الأمير شكيب أرسلان، لهذه الرسائل، عاملين: عامل الحسّ الفنّي والذوق الأدبي، عنده، وعامل التعلّق بكلّ حقبةٍ، ارتفعت فيها راية الإسلام.

تمثّل الذوق الأدبي فيما طغى على رسائل الصابي (الصابئ) من معاني الجلال ومثالات الجمال، وبما اجتمع في كاتبها من حسن الذات والصفات، كما تمثّل التعلّق بانتصار الإسلام وسماحه، في المواقف السياسية التي ساقها الصابي (الصابئ) في رسائله باَسم وزراء بني بويه؛ وقد دخل الأمير شكيب في تفاصيلها دخول من يُحسن الاطّلاع على دقائقها والاضطلاع بحقائقها؛ فعلّق حواشيها التاريخية، بيده، واستحضرها حيّةً في كتابه، كأنَّ حياة ذلك العصر ماجت أمامه بين السطور، فانفعل بها رغم بعد عصره عنها، فعِزّ الإسلام وحسّ الأدب موصولان بمشاعر أمير البيان، لا يضعفهما مرور الأزمان ولا كرور الأعوام، وهو الذي طوى فيهما مراحل الشباب وأنفق عمره لهما بغير حساب.

إنَّ الدار التقدّمية، إذ تضع في يد القارئ العربي هذا الكتاب، تدين لمؤلّفه المغفور له الأمير شكيب أرسلان، بإشراق سطوره وانبثاق نوره.

وهو الأولى بفضله والأحرى بمثله والناطق بذكره.

الدار التقدّمية

في، ٩ كانون الثاني ٢٠١٠

قال بعضهم:

أصبحتُ مشتاقًا حليفَ صبابةٍ	برسائل الصابي أبي اسحاقِ
صَوب البلاغة والحلاوة والحِجى	ذَوب البراعة سلوة العشاقِ
طورًا كما رقَّ النسيم وتارةً	يحكي لنا الأطواق في الأعناقِ
لا يبلغ البلغاءُ شأْوَ مُبَرِّزٍ	كُتِبت بدائعهُ على الأحداقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

أول مصدَّر به فاتحة كلّ كلام، وأولى مقدَّم في طليعة كلّ نظام، حمدُ الله وتمجيده، وتقديس الذات وتوحيده، حمدًا يستمري الصنيع ويستزيده، ويستجدي المزيد ويستجيده، على أفئدةٍ أفاض بياض الهدى على سويداواتها[١]، وألسنةٍ أسال لُهى الفصاحة على لَهواتها، وكتاب أنزله تعالى بأجزل مناطقها وأفصح لغاتها، على المختار في الأمم من صميم عُرْبها، والمبعوث إلى الكُرة من قطبها إلى قطبها، الذي أشرقت به الأرض بنور ربّها، وأشرق بفتوحاته أودية شرقها وفلَّ من غَرَب[٢] غربها، صلّى الله عليه وآله صلاةً كما يرضاه لنبيّه، وصلّى على كلّ نبيّ وآلهِ وحواريه، ما ألقحت الرياح المُزْنَ[٣] وأردف الوَسْميّ[٤] بوَلِيه[٥].

وبعد، فإنَّ من أطرف ما تطرف به أندية الأدب، ويُنثَل من كنائن[٦] البلاغة في خزائن العرب، وينشر من بين صفائح الصحائف بعد أن طال ما طوى واحتجب، المختار من رسائل الصابي المشهور المكنّى بأبي اسحاق رئيس كتاب الديوان ببغداد، والذاهب صيته إلى بَرْك الغِماد[٧] في الآفاق؛ إذ كان كلامه من أجل ما ألقحته أصلاب الأقلام وحملت به بطون الأوراق، وإنَّ كلّ مَن أصاب من الأدب ذِروًا[٨] وعرف للقلم بَريًا وللمداد جريًا، ليصبو إلى بيان الصابي وينتشي بإنشائه العالي. فهو ينظر فيه من خطط البلاغة ومراسمها، ويشهد من محافل الفصاحة ومواسمها، ما يعزّ الإتيان بمثل بدائعه على رائمها[٩]، وتخفر عذارى

---

(١) سويداواتها، مفردها سُوَيْداء، وسُوَيْداء القلب: حبَّته.

(٢) الغَرب، غرب السيف: حدَّه، وهو المقصود ها هنا.

(٣) المُزن: السحاب، أو ذو الماء منه.

(٤) الوسميّ: أول مطر الربيع.

(٥) بوَلِيه، تقول: وُلِيَ المكان: إذا مُطِرَ بالوليّ، وهو المطر بعد المطر.

(٦) كنائن، كنَّ الشيء: ستره وأخفاه، وقوله: يُنثَل من كنائن البلاغة (مجازًا) يُستخرج من أسرارها.

(٧) بَرْك الغِماد: هو موضع في اليمن، وقيل؛ بقعة في جهنّم، والمقصود به المكان البعيد.

(٨) ذِروًا، من ذِروة: المكان المرتفع.

(٩) رائمها: كلّ مَن لَزِمَ شيئًا وألِفه وأحبّه، فقد رَئِمَه.

خطبه دون خاطب كرائمها، ويتلو من آيات كتاب الدواوين وخطباء النوادي، ما تنسخ به جمل حُداة المهاري [١] ورعاة البوادي، فإنَّ هذه عيال في حسنها على جزالة المباني وفحولة الألفاظ، وإنَّ أعلى ما فيها، ما ورد من المفاخرة والمماتنة [٢] في سوق عكاظ، وما ندَّ عن ذلك فيكاد لا يخرج عن أوصاف الأحداج والأكوار [٣]، ولا يتعدّى مرامي الصعاليك في الموامي والقفار، وما ماثل ذلك ممّا لم يكن سواه بين أعاريض المضارب [٤] عند سكّان الأوبار [٥]. وإنَّ تلك جامعة بين متانة التعبير ورصانة الكلام، وبين نبالة الموضوع وفخامة المقام، ممّا تلتفّ على قرائته الجحافل والفيالق، ويُصات به في أبهاء القصور الشواهق، ما بين العُمَد [٦] والأساطين [٧] في حضرة الخلائف والسلاطين، يدور عليه ترتيب الولايات والممالك، وترتبط به مرابطة الثغور وسيطرة المسالك، وإنَّ من أقرح [٨] جياد هذا المضمار وأنبل رُماة هذا المرام، صاحب هذه الرسائل البديعة، الذي بذّ في الإنشاء خُوارزميَّه [٩] وبديعه [١٠]، فما زالت الكُتّاب تضرب بيراعته [١١] الأمثال، وتَحتذى من براعته على مثال، وآثاره مع ذلك متفرّقة شتات وواصلة إلى أيدي الطالبين أرسالاً وثُبات [١٢]، وهم صابون إلى مجموع يتمتّع الناظر منه بجميع غرره، وينتظم في سمط [١٣] واحد نفائس دُرَره. فحيث كنت من المنقّبين عن هذه الطبقة حبًّا بنشر آثارها، ورغبة في بروز تلك العرائس من أخدارها، أَظْفَرني الجدّ وأنا في دار الخلافة، بهذه النسخة النفيسة في إحدى المكاتب، مشتملة على أحسن ما دُوّن من فصول هذا الكاتب، فاجتهدت في إبراز ذلك الأثر للعين، بعد أن علّقت عليه ما يناسب من شرح

---

(١) حداة المهاري، حُداة، مفردها حادي: سائق الإبل، والمهاري: إبل كريمة منسوبة إلى مَهْرة بن حَيْدان.

(٢) المماتنة (في الشعر): المعارضة والمغالبة.

(٣) الأحداج والأكوار: شؤون الإبل والديار وحَسْب، من حدج الناقة الذي يُشَدّ على ظهرها. وأكوار البلاد مواضع معلومة فيها وفي سلاحها.

(٤) أعاريض المضارب: أوتاد الخيام.

(٥) سكّان الأوبار: البدو، لأنهم يسكنون في خيام من وبَر.

(٦) العُمَد، مفردها عُمْدَة: ما يُعتمد عليه ويُتّكل.

(٧) الأساطين: أفراد الزمان وحكماؤه.

(٨) أقرح، جواد أقرح: في جبهته بياض بقدر الدرهم، أو دونه.

(٩) خوارزميّه: نسبة إلى «أبي بكر الخُوارزمي» (٩٢٨م ـ ٩٩٣م) وهو عالِم من كبار الكُتّاب.

(١٠) بديعه: نسبة إلى «بديع الزمان الهمذاني» (٦٩٨ م ـ ١٠٠٧م) وهو شاعر من أئمّة الكُتّاب.

(١١) اليراعة: القلم.

(١٢) أرسالاً وثبات: تصل كالحُجَج رَسْلاً بعد رسل، حاملة برهانها، بذاتها.

(١٣) السمْط: الخيط ما دام الدر منتظمًا فيه.

الوقائع وذيّلته بما يلزم من تفسير الغريب، تتميمًا للفائدة، وإجزالاً للعائدة، ووقوفًا بالقارئ على أسرار الكلام وأنحائه، وما يطوى من الحكم والنكت في أثنائه، خصوصًا وأنَّ أكناه[1] الأسباب ضروريّ لتفهّم المسائل، وأنَّ معرفة الوقائع التاريخية تزيد في حلاوة الكتب والرسائل. فيأخذ الناظر من حواشي هذا الكتاب ملخّص تاريخ من بني بويه، وتأتي هذه الرسائل عضدًا للتاريخ مصدّقة لِما بين يديه. وها أنا ذا أرجو من أرباب النظر أن يتغمّدوا[2] ما يرون من مزل القلم، بما يعلمون من حسن القصد، اللّهم إنّي أبرأ إليك من العصمة والقوّة، وأنت وحدك من وراء القصد.

(١) أكناه، مفردها كُنْه: وهو جوهر الشيء وأصله وحقيقته.

(٢) يتغمّدوا: (ها هنا) بمعنى يستروا ويغضّوا الطرف عن سَقْطَة القلم.

ترجمة حال الصابي

هو ابراهيم بن هلال بن هرون الحرَّاني، قال في حقّه أبو منصور الثعالبي: هو أوحد العراق في البلاغة، ومن به تُثنى الخناصر في الكتابة، وتتّفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة في الصناعة. وكان قد بلغ التسعين في خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء، وتقلّد الأعمال الجلائل مع ديوان الرسائل، وحلب الدهر أشطُرَهُ[1]، وذاق حلوه ومُرَّه، ولابس خيره ومارس شرّه، ورئس ورأس، وخَدم وخُدم، ومدحه شعراء العراق في جملة الرؤساء، وشاع ذكره في الآفاق، ودُوِّنَ له من الكلام البهيّ النقيّ العُلوي ما تناثرت دُرره وتكاثرت غُرره، وممّا قيل فيه:

يـا بؤس مَن يُمني[2] بدمعٍ سـاجمٍ ... يَهمي على حُجُبِ الفؤاد الواجمِ
لـولا تـعلّلـه بـكأس مُـدامـةٍ ... ورسـائلِ الصـابي وشِعر كُشَـاجِمِ[3]

وكان الصابي نصرانيًا ولكنّه كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويصوم معهم شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم حفظًا يدور على طرف لسانه وسِنّ قلمه. وكان في أيام شبابه واقتباله، أرخى بالاً وأنعم حالاً منه في أيام استكماله، وفي زمن اكتهاله أسعد جدًّا منه حين مسّه الكبر، وفي ذلك يقول من قصيدة كتب بها إلى الصاحب بن عباد يشكو بثّه وحزنه ويستمطر سحابه ومُزنَهُ، بعد أن كان يخاطبه بالكاف ولا يرفعه عن رتبة إلاّ كاف.

عجبًـا لِحظّي إذ أراه مصـاحبي ... عصرَ الشباب وفي المشيب مُغاضِبي
أمنَ الغـواني كـان حتّى خـانني ... شيخًـا وكان لدى الشبيبة صاحبي
أَمَعَ التضعضع ملّني متجنّبًـا ... ومع الترعرع كـان غير مُجانبي
يـا ليتَ صَبوتَـهُ إلـيَّ تأخّرَت ... حتّى تـكـونَ ذَخيـرةً لِعـواقِبي

(١) حَلَبَ الدهر أشطره أي خَبَرَ ضروبه، يعني أنه مرّ به خير الدهر وشرّه، وهناؤه وشقاؤه، تشبيهًا بحلب جميع أخلاف الناقة.
(٢) يُمني: يُنزِل، والدمع الساجم: السائل قليلاً أو كثيرًا، أصلها السجم وتعني الماء كما تعني العين. والإمناء لا يكون إلاّ في السوائل.
(٣) كُشاجم: المتوفّي نحو سنة (٩٦٠م)، هو شاعر ومنشئ عراقي المولد فارسيّ الأصل، مدح الحمدانيين، وله ديوان شعر، وكتاب «أدب النديم».

وكان المُهَلَّبيّ[1] لا يرى الدنيا إلاّ به، ويعجب جدًّا ببراعته ويستدعيه في أوقات أنسه، فلمّا مات المُهَلَّبيّ اعتُقل في جملة عمّال المُهَلَّبي وأصحابه، فمن قوله في الاعتقال من قصيدة:

يا أيها الرؤساء دعوة خادمٍ ... أوفت رسائله على التعديدِ
أيجوز في حكم المروءة عندكم ... حبسي وطول تهددي ووعيدي
أنسيتم كُتبًا شَحَنتُ فصولها ... بفصول دُرٍّ عنكم مَنضودِ
يهتزّ سامعهنّ من طربٍ كما ... هزّ النديمَ سماعُ صوت العُودِ

ومنها:

قَصرت خطاه خلاخِل من قيده ... فتراه فيها كالفتاة الرُّوْدِ[2]
يمشي الهُوَيَنا[3] ذلةً لا عزّةً ... مَشيَ النزيف الخائف المَزْؤدِ[4]

ولمّا خُلِّي عنه وأعيد إلى عمله، لم يزل يطير ويقع وينخفض ويرتفع، إلى أن دُفع في أيام عضد الدولة، إلى النكبة العظمى والطامّة الكبرى؛ إذ كان في صدره حزازات كثيرة من إنشاءآت له عن الخليفة وعن بختيار، نقَمها منه واحتقدها عليه، قيل كان من أقوى أسباب تغيّر عضد الدولة على أبي اسحق بعد ميله إليه وضنّه به، فَصَلَ له من كتاب أنشأه عن الخليفة في شأن بختيار وهو «وقد جدّد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق، والمعالي السوامق، التي يلزم كلّ دانٍ وقاصٍ وعامٍّ وخاصٍ أن يعرف له حقّ ما أُكرم به منها، ويتزحزح عن رتبة المماثلة فيها». فإنَّ عضد الدولة أنكر هذه اللفظة أشدّ إنكار ولم يشك في التعريض به، وأسرّها في نفسه، إلى أنَّ ملك بغداد وسائر العراق، وأمر أبا اسحق بتأليف كتاب في أخبار الدولة الديلمية يشتمل على ذكر قديمه وحديثه، فامتثل أمره وسمّى كتابه بالتاجيّ، نسبة إلى تاج الملّة، من ألقاب عضد الدولة، وأخذ يشتغل في تصنيفه، وينفق عليه من روحه. فرُفع إلى عضد الدولة، أنَّ صديقًا للصابي دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التسويد والتبييض، فسأله عمّا يعمل فقال، أباطيل أُنمّقها وأكاذيب أُلفّقها، فانضاف تأثير

(١) المُهلّبي: هو «الحسن بن محمّد» المتوفّي سنة (٩٦٣م)، شاعر وأديب من كبار وزراء معزّ الدولة البُويهي.

(٢) الرود: التمهّل في المشي.

(٣) الهُوَينا: الرفق، والنزيف (ها هنا): السكران.

(٤) المزؤد: الخائف أشدّ الخوف.

هذه الكلمة في قلب عضد الدولة إلى ما سبق من حقده على أبي اسحق، وتحرّك لها كامِن ضِغنه، فأمر أن يلقى تحت أرجل الفِيَلة، فأكبّ جماعة من أرباب الديوان على الأرض، يقبّلونها بين يديه ويشفعون إليه، إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه واستصفاء أمواله. فبقي في الاعتقال بضع سنين إلى أن تخلّص في آخر أيام عضد الدولة، وقد ساءت حاله وتهتّك ستره، وكان الصاحب بن عباد يحبّه أشدّ الحبّ ويتعصّب له ويتعهدّه، على بعد الدار، بالمنح، والصابي يخدم حضرته بالمدح، وكان الصاحب يتمنّى انحيازه إليه وقدومه عليه، ويضمن له الرغائب على ذلك إمّا تشوّقًا أو تشرّفًا، والصابي يحتمل ثقل الخلّة وسوء أثر العطلة، ولا يتواضع للاتّصال بجملة الصاحب بعد كونه من نظرائه. وكان الصاحب كثيرًا ما يقول كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة، الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو اسحق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع يعني نفسه، فأمّا الترجيح بين هذين الصادين أعني الصاحب والصابي، فقد خاض فيه الخائضون، ومن أشفّ ما سمعته من ذلك، أنَّ الصاحب كان يكتب كما يريد والصابي يكتب كما يُراد، وبين الحالين بون بعيد. وكيف جرى الأمر فهما هما، ولقد وقف فلك البلاغة بعدهما، ثمَّ ذكر المترجم نبذًا من نثره، ستأتي في المختار من رسائله، ونخبًا من نظمه، اخترنا منها ما يأتي قال:

لست أشكو هواك يا من هواهُ ... كلّ يوم يَروعني منه خَطْبُ
مُرُّ ما مَرَّ بي من أجلك حلوٌ ... وعذابي في مثل حبّك عَذْبُ

وقال:

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد ... خفنا عليك به ظلمًا وعُدوانا
الغصن أحسن ما تلقاه مكتسيًا ... وأنت أحسن ما نلقاك عُريانا

وقال:

مرضت من الهوى حتّى إذا ما ... بدا ما بي لإخواني الحضورِ
تكَنَّفني ذوو الإشفاق منهم ... ولاذوا بالدعاء وبالنذورِ
وقالوا للطبيب أَشِرْ فإنّا ... نعدّك للمهمّ من الأمورِ
فقال شِفاؤه الرُّمان ممّا ... تضمنه حشاه من السعيرِ
فقلت لهم أصاب بغير عَمدٍ ... ولكن ذاك رُمَّانُ الصدورِ

وقال في شمامة كافور:

وشمـامة كـالبدر عند اعتراضـهِ ... وكالكوكب الدريِّ عند انقضاضهِ

يودُّ سـواد العين من شَـغَفٍ بهـا ... لـو اعتـاضهـا مسـتبدلاً ببيـاضهِ

وقال:

ومحرورة الأحشـاء تحسب أنها ... متيّمةٌ تشـكو من الحبّ تبريحـا

تناجيك نجوى يسمع الأنف وحيها ... وتجهله الأذن السـميعة إذ يُوحـى

تَحـرّق فيهـا النـدّ[1] عَـودًا وبـدأةً ... فتـأخـذهُ جسـمًا وتَنفثـه روحـا

ومن قوله مفتخرًا:

وقـد علـم السلطـان أنـي أمينـهُ ... وكـاتبه الكـافي السـديد المـوفّقُ

أُوازره فـيـمـا عَــرا وأمــده ... برأي يريه الشمسَ والليلُ أَغْسَقُ

يجدّد بي نهج العلى وهو دارسٌ ... ويفتح بي باب الهدى وهو مغلقُ

فيمنـاي يُمنـاه ولفـظي لفظـه ... وعيني له عين بهـا الدهر يرمقُ

ولي فِقَرٌ تُضحي الملـوك فقيـرةً ... إليهـا لـدى إحداثهـا حين تطرقُ

أردُّ بهـا رأس الجَمـوح فينثني ... وأجعلها سَوط الحَرون[2] فيعنقُ[3]

فإن حـاولت لطفًا فمـاءٌ مُرَوَّقٌ ... وإن حـاولـت عـنفًـا فنـار تَـأَلَّقُ

يُسلم لي قُسّ[4] وسَحبان[5] وائلٍ ... ويَرضى جريرٌ مذهبي والفرزدق[6]

فَيغُضي لنثري خاطب وهو مِصْقَعٌ ... ويَعنو لنظمي شـاعر وهو مُفَلِّقُ

مقال لو الأَعشى رآهن لم يقل ... وبات على النار الندى والمحلقُ

(١) الندّ: عُود طيّب الرائحة، لا يجود بطيبه إلاّ إذا احترق.

(٢) الحَرون: المُمسك عن السير، الصعب الانقياد.

(٣) يعنق: يسير سيرًا واسعًا.

(٤) قُسّ: خطيب جاهلي من حكماء العرب، كان أسقف نجران.

(٥) سَحبان: هو سحبان وائل المتوفّي سنة (٦٧٤م)، خطيب فصيح، ضُرب به المثل.

(٦) جرير والفرزدق: شاعران أُمويّان معروفان.

ومن قوله في المُهَلَّبي الوزير:

قـل للوزيـر أبـي محمَّـد الـذي	قد أعجزت كلّ الورى أوصـافُهُ
لك في المحافل منطق يشفي الجوى	ويَسـوغ في أُذْن الأديـب سُلافُهُ[1]
فـكـأنَّ لفـظـك لـؤلـؤٌ مُتَنخَّـلٌ	وكـأنّـمـا آذانـنـا أصـدافُـهُ

وقال في الملك عضد الدولة:

لا تحسـب الملك الـذي أُوتِيتـه	يُقضى وإن طال الزمان إلى مـدى
كالدَّوح في أفق السمـاء فُروعـه	وعُـروقه مُتَوَلِّجـاتٌ في النـدى
في كـلّ عـام يَسـتجـد شَبيبة	فيعـود مـاءُ العـودُ فيـه كمـا بـدا
حتّى كـأنّـك دائرٌ فـي حـلقـةٍ	فَلَكيـةٍ فـي مُنتهـاها المُبتـدا

ومن شعره:

تَشـابه دمعي إذ جرى ومُدامتي	فمن مثل ما في الكاس عيني تسكبُ
فـوالله مـا أدري أبـالخمر أُسبلـت	جفونيَ أم من عَبرةٍ كنت أشربُ

وهو شاهد عند أهل البيان على ترك التشبيه، والعدول إلى الحكم بالتشابه، ليكون كلّ واحد من الشيئين مشبِّهًا أو مشبَّهًا به، احترازًا من ترجيح أحد المتساويَيَن في وجه الشبه.

ومن قوله في مَن لا يخلو منهم زمان:

أيـهـا الـنَّـابـح الـذي يَتـصـدّى	بـقـبـيـحٍ يـقـولـه لِـجَـوابـي
لا تـؤمّـل أنـي أقـول لـكَ إخسـأ	لسـتُ أسخـو بهـا لِكُلّ الكـلابِ

ومع متانة شعره، فنثره أسمى طبقة، ولمّا توفّي الصابي، رثاه الشريف الرضي، بقصيدة طويلة مطلعها:

أَعَلِمْتَ مَن حُمِلوا على الأعوادِ	أَرأيـت كيـف خَبـا ضِيـاءُ النـادي

منها:

الفضل نـاسَـبَ بيننـا إذ لم يكن	شـرَفي مـنـاسِبَـهُ ولا مـيـلادي

---

(١) السلافة: الخمرة.

إن لم تكن من أُسرتي وعشيرتي		فلأَنتَ أَعلقُهم يدًا بفؤادي
أو لا تكن عالي الأُصول فقد وفى		عَظْمُ الجدود بسُؤدَدِ الأجدادِ

ورثاه بغير ذلك، وقد ليم على رثائه، فقال، إنّي رثيت عِلمه، والصحيح أنَّ الصابي كان يودّه ويرشحّه للخلافة كما هو معروف في الكتب.

انتهى ملخّصًا عن الثعالبي وغيره بتصرّف.



بسم الله الرحمن الرحيم

وعليه توكلت

نسخة كتاب أنشأه أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي عند فتح بغداد وانهزام المماليك عنها(١) في جمادى الأولى سنة أربع وستّين وثلثمائة بشرح الحال ووصف الخلاف

(١) سنة ثلاث وستّين وثلثمائة شبّت الفتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز، وسببها أنّ عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة بن بويه، قلّت الأموال لديه وكثر إدلال جنده عليه، فأخذ يفكّر في حيلة يجتبي بها مالاً. فخرج إلى الأهواز ونزل على بختكين آزادرويه متولّيها، فاتّفق أثناء مقامه بها أنّ بعض غلمان الديلم تنازعوا مع بعض غلمان الأتراك من أجل بناء معلف للدواب، فجرى من ذلك فتنة أدّت إلى قتل كثيرين من قوّاد الفريقين، وعندها أشار الديلم على بختيار باعتقال رؤساء الأتراك لتصفو له البلاد، فاعتقل آزادرويه في جماعة وأطلق الديلم في الأتراك وأباح دماءهم، واستولى على إقطاع سبكتكين التركي، صاحب الجيش ببغداد. فلمّا وصل الخبر إليه حصر دار بختيار وأحرقها واعتقل أخويه ووالدته، فسألوه الانحدار إلى واسط فأذن لهم وأوقع بالديلم، وانتصر لسبكتكين أهل السنّة وثاروا بالشيعة وأحرق الكرخ. ولمّا بلغ ذلك بختيار وكان قد جاء مشايخ الأتراك من البصرة، فعاتبوه على مبادأته لهم بالعدوان وقال له العقلاء من قومه الديلم: لا بدّ لنا في الحروب من الأتراك لأجل الرمي بالنشاب، اضطرب رأيه وأطلق آزادروية وجعله رئيس الجيش مكان سبكتكين وأفرج عن الباقين، وسار إلى إخوته بواسط وكتب إلى عمّه ركن الدولة وإلى ابن عمّه عضد الدولة وإلى أبي تغلب بن حمدان وإلى عمران ابن شاهين، يسألهم النجدة على سبكتكين، فجهّز ركن الدولة عسكرًا مع وزيره أبي الفتح بن العميد وكتب إلى ولده عضد الدولة يأمره بالمسير لنصرة ابن عمّه فوعد وتخلّف، متربّصًا ببختيار الدوائر طمعًا في ملك العراق، وأرسل أبو تغلب أخاه الحسين بن ناصر الدولة إلى تكريت في جيش وانتظر انحدار الأتراك عن بغداد، فلمّا انحدروا دخل المدينة فكفّ الفساد وكان الأتراك قد أخرجوا الخليفة الطائع لله وأباه المطيع المستقيل، فلمّا وصلوا إلى دير العاقول، توفّي المطيع ومرض سبكتكين وتوفّي، وسرّ بذلك عزّ الدولة بختيار، فقدم الأتراك عليهم الفتكين من موالي معزّ الدولة أبي بختيار، فناشبه القتال واستمرّ خمسين يومًا والغلبة فيها للأتراك، واشتدّ الحصار على بختيار، فوالى إنفاذ الرسل إلى ابن عمّه عضد الدولة يستصرخه وكتب إليه:

فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي ... وإلاّ فأدركني ولما أُمزّق

ولمّا رأى عضد الدولة أنّ الأمر بلغ ببختيار ما كان يرجوه، سار نحو العراق نجدة له في الظاهر وطموحًا إلى ملكه في الباطن، واجتمع بأبن العميد وزير أبيه ركن الدولة القادم بعساكر الريّ، وقصدوا واسط. فلمّا سمع الفتكين بخبر وصولهم عاد إلى بغداد وتهيّأ للقتال، فزحف عضد الدولة إلى دار السلام من الجانب الشرقي وأمر بختيار ابن عمّه أن يسير في الجانب الغربي، وكتب بختيار إلى ضبة بن محمَّد الأسدي من أهل عين التمر، وهو الذي هجاه المتنبّي في قوله « ما أنصف القوم ضبه » إلخ، أن يغير على أطراف المدينة، وكان ابن حمدان من ناحية الموصل يمنع عنها الميرة، فضاق بأهلها الخناق وثارت العامّة، وكبس الجند المنازل بطلب القوت وصمد عضد الدولة إلى الفتكين. فالتقى الجمعان بين ديالي والمداين، فانهزم أصحاب الفتكين وقتل منهم خلق كثير وغرق منهم أثناء الهزيمة من الزحام على نهر ديالي، وذلك رابع عشر جمادى الأولى سنة أربع وستّين وثلثمائة. وساروا إلى تكريت، ودخل العضد بغداد وكان الخليفة الطائع قد خرج مع المماليك كرهًا، فردّه عضد الدولة وأقرّه على سرير الخلافة وأعاد من تعظيم الخلافة ما كان ترك ونسي، ولمّا استوسق له الأمر أثار فتنة بين بختيار وجنده ووعد بالنصرة عليهم، وأشار عليه بالغلظة لهم، وأن يعرّفهم أنه لا يريد الإمارة، وأنه متى أعلن ذلك رضي الجند. وتوسّط عضد الدولة بينهم على ما يريد بختيار، فوقع بختيار في الشرك وأظهر الاستعفاء، فقبض عضد الدولة عليه وعلى إخوته في السادس والعشرين من جمادى الأولى وأعلن عجزه عن الإمارة، وقد التجأ إلى هذه الحيلة خوفًا من أبيه ركن الدولة. فلمّا بلغ الخبر أباه أنكر ذلك إنكارًا شديدًا، وقيل إنّه ألقى بنفسه عن سريره إلى الأرض وأخذ يتمرّغ عليها وامتنع من الأكل والشرب، ومرض من الغمّ مرضًا لازمه بقيّة عمره، وذلك وفاء مع ابن أخيه. وأرسل يأمر عضد الدولة بالخروج حالاً من بغداد وإعادة بختيار إلى ملكه، وكان المارزبان بن بختيار والي البصرة =

إلى الأمير ركن الدولة[1]

أمّا بعد، فإنَّ لله قضايا نافذة، وأقدارًا ماضية، فيهن النعَم السوابغ والنقَم الدوامغ، فأمّا النعم فيؤتيها عباده أجمعين بادية، ثمَّ يجتذبها الشاكرين منهم عائدة، وأمّا النقَم فلا تقع سلفًا وابتداءً، لكن قصاصًا وجزاءً، بعد إمهال وإنظار وتحذير وإنذار، فإذا حلّت بالقوم

= ومحمَّد بن بقية وعمران بن شاهين وغيرهم، قد خرجوا على عضد الدولة نصرة لبختيار، وسرح إليهم العضد جيشًا فخرجوا إليهم في الماء، فانهزم أصحاب عضد الدولة، وكتب ركن الدولة إليهم يحرّضهم على الثبات في مقاومة ولده ويعرّفهم أنه على المسير إلى العراق لإخراجه، ولمّا عرفت النواحي إنكار ركن الدولة على ولده، انتقضت عليه من كلّ جهة، فرأى إنفاذ الوزير ابن العميد إلى والده يشرح له واقع الحال، وما فرّق من الأموال، ويبيّن له ضعف بختيار عن حمل الإمارة وما يخشى في إعادته من خروج الدولة من يدهم، وعرض على والده أن يضمن منه أعمال العراق ويحمل إليه كلّ سنة ثلاثين ألف ألف درهم، ويبعث بختيار وإخوته إليه فيوليهم ما شاء من بلاد فارس، وإن شاء يحضر والده إلى بغداد ويلي أمور الخلافة، وينفذ بختيار إلى الريّ ويعود عضد الدولة إلى فارس. وقال لابن العميد فإذا أجاب إلى ذلك، وإلاّ فقل له أيها السيِّد الوالد أنت مطاع الأمر ولكن لا سبيل إلى إطلاق هؤلاء بعد المكاشفة بالعداوة، وإذا خرجوا قاتلونا بما استطاعت أيديهم، وانتشر واتّسع الخرق فإن قبلت ما عرضت، فأنا العبد الطائع وإن أبيت إلاّ انصرافي فإنّني قاتل بختيار وأخويه وخارج عن العراق تاركها لمن غلب. فخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة وأشار بإنفاذ رسول سواه وأنه يسير بعد ذلك مشيرًا على ركن الدولة بالقبول، فأنفذ عضد الدولة رسولاً فلمّا ذكر بعض الرسالة لركن الدولة وثب عليه ليقتله فهرب من بين يديه، ثمَّ ردّه بعد سكون غضبه، وقال له: قل لفلان، يعني عضد الدولة، وسمّاه بغير اسمه وشتمه، خرجت إلى نصرة ابن أخي فطمعت في ملكه، أما عرفت أني نصرت الحسن بن الفيرزان وهو غريب عنّي مرارًا أخاطر فيها بملكي ونفسي، فإذا ظفرت رددت عليه بلاده ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد، ونصرت ابراهيم بن المرزبان وأعدته إلى أذربيجان، وأنفذت وزيري وعساكري في نجدته، ولم أقبل منه درهمًا واحدًا، كلّ ذلك حبًّا بالمروءة ومحافظة على الفتوة. تريد أن تمن عليّ بدرهمين أنفقتهما أنت عليّ وعلى أولاد أخي، ثمَّ تطمع في ممالكهم وتهدّدني بقتلهم. فقفل الرسول، ووصل ابن العميد فحجبه وتهدّده بالهلاك، وأرسل يقول له، لأتركنّك وذلك الفاعل ـ يعني عضد الدولة ـ تجتهدان جهدكما، ثمَّ لا أخرج إليكما إلاّ في ثلاث مائة جمازة وعليها الرجال، ثمَّ اثبتوا إن شئتم فوالله لا قاتلتكما إلاّ بأقرب الناس إليكما. وكان يقول: إنّني أرى كلّ ليلة أخي معزّ الدولة في المنام يعضّ على أنامله، ويقول: يا أخي أهكذا ضمنت لي أن تخلفني في ولدي! فسعى الناس لابن العميد، وقالوا لركن الدولة، إنّه إنّما تحمّل هذه الرسالة من ابنك تخلّصًا منه، فأحضره بين يديه وأنفذه إليّ ولده بجليّة الحال. فلمّا رأى عضد الدولة إصرار أبيه، أجاب إلى الرجوع إلى فارس، وأخرج بختيار من محبسه وشرط عليه أن يكون بصفة نائب عنه في العراق، وأن يجعل على الجيش أخاه أبا اسحاق، وسار عن بغداد في شوال من تلك السنة وقد استوفينا شرح هذه القصّة لأنها من أحسن ما روي في الوفاء والبرّ بالأهل، وهكذا هكذا وإلاّ فلا لا.

(1) هو الأمير ركن الدولة أبو علي الحسن بن أبي شجاع بويه، بن فناخسرو ابن تمام، بن كوهي بن شيرزيل الأصغر ابن شيركنده، بن شيرزيل الأكبر ابن شيران شاه بن شيرويه، ابن سشتان شاه بن سيس فيروز، بن شيروزيل بن سنباد، ابن بهرام جور الملك، بن يزدجرد الملك، بن هرمزا الملك بن سابور الملك، بن سابور ذي الأكتاف، على أصحّ الروايات كان ملكًا في أصبهان والريّ وطبرستان وجرجان، استخلص هذه الممالك من وشمكير بن زيار أخي مرداويج، ومبدأ الدولة البويهية مشهور في التاريخ، ملخّصه أنه خرج من بلاد الديلم، ماكان بن كالي وليلى بن النعمان وأسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار، ومعهم خلق كثير من الديالمة لملك البلاد. فكان أولاد أبي شجاع بن بويه من جملة قوّاد ماكان، فتغلّب مرداويج على ماكان واستولى على ما بيده من طبرستان وجرجان، فلمّا رأى أبناء بويه ضعفه، قالوا له إنَّ الأصلح أن نفارقك لنخفّف عنك مؤنتنا، فساروا إلى مرداويج، واقتدى بهم جماعة من قوّاد ماكان، فلمّا صاروا إليه، أحسن قبولهم وقلّد كلّ واحد منهم ناحية من نواحي الجبل، وقلّد علي بن بويه كرج، ثمَّ ندم على ما فعل وأراد استرداد التقليدات، وكان ابن بويه قد بلغ كرج وتقوّى بها وأحسن السياسة فيها، فأطلق مرداويج عليه قوّادًا فاستمالهم إليه بكرمه وحلمه وحزمه، واستأمن إليه غيرهم من القوّاد. ولمّا اتّسقت أموره، سار إلى أصبهان، وهزم بتسعمائة رجل نحو عشرة آلاف من حاميتها، وفرّ ابن ياقوت متولّيها شريدًا إلى أرجان، فتبعه إلى أرجان وافتتحها، ثمَّ استولى على شيران، بعد حوادث يطول شرحها ووقائع مع مرداويج وأخيه وشمكير، واقتسم فارس بينه وبين أخيه ركن الدولة، ثمَّ سيّر أخاه الثالث معزّ الدولة إلى كرمان ثمَّ إلى الأهواز، فملكها مع أبي عبد الله البريدي، ثمَّ استولى على البصرة ثمَّ على بغداد، وذلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وفيها الخليفة المستكفي بالله، فلقّبه الخليفة بمعزّ الدولة واسمه أحمد، ولقّب أخاه الأكبر عماد الدولة واسمه علي، ولقّب الأوسط =

الظالمين فقد طُويَ في إنائها صنع لآخرين معتبرين، فلا يخلو أهل الطاعة من الثبات والاستبصار، وأهل المعصيّة من الارتداع والازدجار. ومن هناك شهدت العقول الراجحة ودلّت المناهج الواضحة، على أنَّ أولى ما فَغَر به الناطق فمه وافتتح به كَلِمَه[1]، حمد الله الذي هو الجالب لرحمته ورضاه، والذائد لسخطه وسطاه، والذريعة الموصِلة إلى الخيرات، والذخيرة النافعة في الملمّات، والموئل المانع مَن لجأ إليه، والمعقل العاصم مَن عَوّل عليه. والحمد لله ربّ العالمين الملك الحقّ المبين، الوحيد الفريد العليّ المجيد، الذي لا يوصف إلاّ بسلب الصفات[2]، ولا ينعت إلاّ برفع النعوت، الأزلي بلا ابتداء، الأبدي بلا انتهاء، القديم لا منذ أمد محدود، الدائم لا إلى أجل معلوم معدود، الفاعل لا عن مادّة استمدّها، الصانع لا بآلة استعملها، الذي لا تدركه الأعين بألحاظها، ولا تحدّه الألسن بألفاظها، ولا تخلقه العصور بمرورها، ولا تُهرِمه الدهور بكُرورها، ولا تضارعه الأجسام بأقطارها، ولا تجانسه الصور بأعراضها، ولا تجاريه أقدام النظراء والأشكال، ولا تزاحمه مناكب القُرَناء والأمثال،

= بركن الدولة واَسمه الحسن، وأخذ معزّ الدولة على يد الخليفة وقرن اسمه وأسماء إخوته بأَسمه، ثمَّ خلع المستكفي وأقام مكانه الفضل بن المقتدر، ولُقِّب بالمطيع لله فكان مطيعًا لله ولمعزّ الدولة. واستبدّ أبناء بويه بجميع أمور الخلافة وتقاسموا البلاد وصارت لهم دولة من أعزّ دول الإسلام، بعد أن كان والدهم صيّاد سمك، على رواية ابن خلكان. وروى ابن الأثير ما معناه، أنه توفّي لأبي شجاع بويه امرأة، هي أمّ بنيه الثلاثة فحزن عليها حزنًا شديدًا، فدعاه يومًا صديق له يسمّى شهريار بن رستم الديلمي إلى طعام، وأخذ يسلّيه في حزنه، فاجتاز بهم رجل يقول إنّه منجّم ومعبّر للأحلام، فاستدعاه أبو شجاع وقال له، رأيت في منامي كأني أبوّل، فخرج منّي نار عظيمة استطالت وعلت حتّى كادت تبلغ السماء، ثمَّ انفجرت فصارت ثلاث شعب، وتولّد من تلك الشعب عدّة شعب، فأضاءت الدنيا بتلك النيران وخضعت لها البلاد والعباد. فصاح المنجّم هذا منام عظيم لا أفسّره إلاّ بخلعة، فقال له بويه والله ما أملك إلاّ الثياب التي على بدني فكيف أعطيك خلعة. قال المنجّم فعشرة دنانير، قال والله ما أملك ما دينارًا فكيف عشرة. فأعطاه شيئًا، فقال المنجّم اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ويعلو ذكرهم في الآفاق، كما علت تلك النيران، ويلد لهم من الملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب، فقال أبو شجاع، أما تستحيي أن تسخر منّا، أنا رجل فقير وأولادي هؤلاء مساكين، كيف يصيرون ملوكًا، فقال ملوكًا، فقال له المنجّم أخبرني بوقت ميلادهم، فأخبره فجعل يحسب ثمَّ قبض على يد كلّ منهم وقبّلها، وقال هذا والله الذي يملك البلاد. فاغتاظ منه أبو شجاع وقال لأولاده، اصفعوا هذا الحكيم فقد أفرط في السخرية بنا فصفعوه وهو يستغيث، ثمَّ أمسكوا، فقال لهم اذكروا لي هذا إذا أتيتكم وأنتم ملوك، فضحكوا منه.

وكانت ولادة ركن الدولة سنة أربع وثمانين ومائتين، وتوفّي سنة ستّ وستّين وثلثمائة، وملك أربعًا وأربعين سنة وشهرًا وتسعة أيام، وقبل وفاته عهد بالملك لولده عضد الدولة، وجعل لولده فخر الدولة أبي الحسن، همذان، ولولده مؤيّد الدولة، أصبهان وأعمالها، وجعلهما في حكم أخيهما عضد الدولة، وكان أميرًا عظيمًا.

ذكر ابن الأثير [هو ضياء الدين (١١٦٢ ـ ١٢٣٩) وزير الملك الأفضل في دمشق وكاتب مترسِّل، له «المَثَل السائر في أدب الكاتب والشاعر»]، أنه كان واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعيّته وجنده، رؤوفًا بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمّة، عظيم الجدّ، متحرّجًا من الظلم، عفيفًا عن الدماء يرى حقنها واجبًا إلاّ فيما لا بدّ منه، وكان يحامي عن أهل البيوتات ويصونهم عن التبذّل، وينفق عليهم ويتعهّد العلويين بالأموال الكثيرة، وكان يقصد المساجد في أشهُر الصيام، وينتصب لردّ المظالم، وفيما سلف من قصّته مع ابن أخيه وابنه ما يدلّ على كمال مروته وصلته لرحمه، رحمه الله.

(١) الكَلِم: الكلام أو الكلمات.

(٢) أنه تعالى موصوف بسلب الصفات، لأنك لو وصفته بصفات الإيجاب، لوقع عليه التحديد، وهو سبحانه لا محدود.

بل هو الصمد الذي لا كفؤ له، والفذُّ الذي لا توأم معه، والحيّ الذي لا تَختَرِمه المَنُون، والقَيُّوم الذي لا تشغله الشؤون، والقدير الذي لا تَؤُوده المعضلات، والخبير الذي لا تُعييه المشكلات، خلق فأحسن، وأسّس فأتقن، ونطق ففصَّل، وحكم فعدل، وبرأ البرايا صنوفًا وضروبًا وقسّمها فرقًا وشعوبًا، واختصّ منها الناس بالألباب والإفهام وفضّلهم على الجمادات والأنعام، وأعدّ لمحسنهم جنّة وثوابًا ولمسيئهم نارًا وعقابًا، وبعث إليهم رسلاً منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم والفوز العظيم، ويعدلون بهم عن المسلك الذميم والمورد الوخيم، فكان آخرهم في الدنيا عصرًا وأولهم يوم الدين ذكرًا، وأرجحهم عند الله ميزانًا وأوضحهم حجّة وبرهانًا، وأبعدهم في الفضل غاية وأبهرهم معجزة وآية، محمَّد صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا، الذي اتّخذه الله صفيًا وحبيبًا وأرسله إلى عباده بشيرًا ونذيرًا، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان وصدوفٍ عن الرحمن، وتقطيع للأرحام وسفكٍ للدماء الحرام، واقترافٍ للجرائم واستحلالٍ للمآثم، أنوفهم في المعاصي حميّة ونفوسهم في غير ذات الله أبيّة، يدعون معه الشركاء، ويضيفون إليه الأكفاء، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا. فلم يزل صلّى الله عليه وسلّم يقذف في أسماعهم فضائل الإيمان، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لمّا كان وحيدًا، وبالعنف لمّا وجد أنصارًا وجنودًا، لا يرى للكفر أثرًا إلاّ طمسه ومحاه، ولا رسمًا إلاّ أزاله وعفّاه، ولا حجّة مموّهة إلاّ كشفها ودحضها[1]، ولا دعامةً مرفوعة إلاّ حطّها ووضعها، حتَّى ضرب الحقّ بجرانه[2]، وصدع ببيانه، وسطع بمصباحه، ونصع بأوضاحه، واستنبط الله هذه الأمّة من حضيض النار، وعلاّها إلى ذروة الصلحاء والأبرار، واتّصل حبلها بعد البتات، والتأم شملها بعد الشتات، واجتمعت بعد الفرقة، وتوادعت بعد الفتنة. وفي ذلك يقول له ربّه تباركت أسماؤه، وجلت كبرياؤه ﴿ولو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكنَّ الله ألّف بينهم أنه عزيزٌ حكيم﴾[3]، فصلّى الله عليه، وعلى آله الأخيار الطيّبين، الأبرار الطاهرين، صلاةً زاكية نامية، رائحة غادية، منجزةً عدته، رافعةً درجته، قاضيةً حقّه، مؤدّية فرضه، والحمد لله تاليةً بعد ماضية، ولاحقةً بعد سابقة، على أن أحلّ مولانا الأمير

---

(١) دحض: يكون لازمًا ومتعدّيًا.

(٢) الجِران: مقدّم عنق البعير من المذبح إلى المنحر، فإذا برك البعير ليستريح فمدّ عنقه على الأرض، قيل ألقى جرانه، ومنه مجازاً ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها وهو: حتّى ضرب الحقّ بجِرانه، أي قرّ في قراره، وقد كثر استعمال هذه الجملة بمعنى الاستقرار.

(٣) الآية: ٦٣، من سورة الأنفال.

السيِّد ركن الدولة، وسيِّدنا الملك الجليل عضد الدولة أطال الله بقاءهما، بالمحلّ الذي قصّرت عنه الهمم العالية، ووقفت دونه الأقدام الساعية، وأغضت على فضيلته العيون الرامقة، وأقرّت بمزيّته الأفواه الناطقة، وجعل أشياعهما العالين المنصورين، وأعداءهما السافلين المدحورين، فما تمتدّ عنق من لائذٍ بهما إلى شرف مرتبة يعتليها، وغارب مرقبة يمتطيها، إلاّ نال ذلك في ظلّهما، وبلغه بطولهما، وأحرزه بمتابعتهما، وحازه بطاعتهما. ولا تمتدّ أخرى من عاندٍ[1] عنهما إلى مأثرةٍ يترشّح لادّعائها، ومفخرة يتوشّح بردائها[2]، إلاّ عاد تقديره معكوسًا، وتدبيره منكوسًا، وظنّه خائبًا، وحسبانه كاذبًا. فهما أدام الله عزّهما السيِّدان اللذان من تذلّل لهما عزّ، ومَن تعزّز عليهما ذلّ، ومَن خلّ في ذمّتهما سلم ونجا، ومَن خرج عنهما هلك وهوى، موهبة من الله لهما ولنا فيهما، وهو بكرمه يربّها[3] ويحفظها، ويكلأها ويلحظها، والحمد لله تعزيزًا بثالثة تبلغ الحقّ وتفضيه[4] وتمتري[5] المزيد وتقتضيه على نعمه المطيفة بي، وعوارفه الخاصّة لي، والآنّة[6] الضافية عليَّ، وأياديه الراهنة لديَّ؛ إذ إنشائي من دوحة مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، أطال الله بقاءه النجيبة، وبراني من أعوادها الصليبة، ووقف بي على سيرها الحميدة، وسلك بي طرائقها الرشيدة، في حماية البَيضَة[7]، وحياطة الحوزة[8]، وذب العداة وقمع الطغاة، وكبح الجامح، وبعث الجانح، وتقويم الزائغ وتسديد الرائغ[9] والتأدّب بالآداب اللائقة بأولي الألباب، التي من أشهرها عن مولانا أدام الله عزّه

---

(١) عند عن الحقّ وعن الطريق: مال.

(٢) هذه سجعات انتقدها ابن الأثير في المثل السائر بأنها من باب التكرار بالمعنى الواحد والتطويل على غير طائل، وانتقد ما ورد من مثلها في أول هذا الفصل في تحميد، وهو قوله «الذي لا تدركه الأعين بألحاظها ولا تحدّه الألسن بألفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها». فقال لا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور، وبين محو الأثر وعفاء الرسم، وأخذ في مثل ذلك على الصاحب بن عباد وغيره من بلغاء الدهر، حال كون ابن الأثير رحمه الله ممّن لا ينبغي أن يخفى عليهم أنّ للإطناب مقامات في الكلام لأجل التمكين في الأذهان، وأنَّ للإشباع ضرورات في الخطاب يرمي بها إلى زيادة الوقع في نفوس السامعين، وقد اغتفروا التكرار بل استحسنوه في خطاب الجماهير، وفيما كتب برسم القراءة على العدد الكثير، ولولا هذا وأشباهه ما قيل لكلّ مقام مقال، ولولا وجوب التكرار أحيانًا، ما وجد باب التوكيد في كلامهم، ونظنّ أنّ الصابي، والصاحب [هو الصاحب بن عبّاد (٩٣٨ ـ ٩٩٥) أديب ولغوي من كبار وزراء البوّيهين، امتازت رسائله بالسجع والإبداع والإيجاز، له «كتاب الوزراء» وسواه]، وأمثالهما من أهل تلك الطبقة، لا بدّ أن يكونوا قد أحكموا هذه الأبواب كلّها.

(٣) يربّها: يُصلِحها، ورَبَّ الأمرَ: أصلَحَهُ.

(٤) أي تفضي إليه، من باب الحذف والإيصال، أو من أفضى بمعنى وسع.

(٥) تستخرج وتستدر.

(٦) الآنّة: الشاة.

(٧) البيضة: الساحة، تقول بيضة القوم: ساحتهم.

(٨) الحوزة: الناحية.

(٩) بالراء المهملة، من راغ وهو حاد أو مال سرًا.

وعنّا، وأخلقها به وبنا، على أثره ربّ[1] الأيادي إذا أوليناها، والعوارف إذا أسديناها، تصدّيًا لأن يُقرّها الله عندنا بإقرارنا إيّاها عند مَن تجري له على أيدينا، فمن ارتبطها بالشكر، واستدامها بالنشر، وصاحَبها بالمعروف والحسنى، وجاورها بالعفاف والتقوى، وطّأت له أكنافها وأدرّت عليه أخلافها، وأسكنته في ذراها، وصانته في حماها، ومن نفّرها بالإنكار والجحد، وأوحشها بالكفران والغَمْط[2]، سلبه الله جمال سربالها، وعرّاه من بُرد ظلالها، وأفضى به إلى ندم لا ينفعه منه أن يقرع سنّه ولو هَتَمها[3]، ولا يغنيه أن يعض إبهامه ولو كلمها. وبالله نستعيذ من مصارع البغي ومواقع الخزي، وإيّاه نسأل أن يتولاّنا بهدايته، ويتوخّانا بكفايته، ويوفّقنا في مجاري ألفاظنا، وهواجس أفكارنا، لكلّ ما قربنا إليه، وأحظانا لديه، وأوجب لنا عفوه، وحجب عنّا سطوه، بمنّه وقدرته وجوده ورأفته.

وقد عرف مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، أطال الله بقاءه حال اللعين سبكتكين فيما كان مولاه الأمير السعيد معزّ الدولة نَضَّر الله وجهه، أزله إليه من النعم الجسام، وأهّله له من الرتب العظام وأنه أدام الله تأييده، وسيِّدنا الملك الجليل عضد الدولة أدام الله عزّه، وأنّى بعدهما أمررنا ذلك له، وزدناه عليه، وأشركناه في دولة كان هو الراتع في إكلائها، ونحن المعنيّون بكلاءتها، وقدّمناه على نظرائه، وآثرناه على قرنائه، فأوطأنا عقبه طوائف من الرجال، وذلّلنا له آباءهم، وعطفنا عليه ازورارهم[4] والتواءهم، حتّى صار واحد هذه العساكر في اتّساع الحال وجموم[5] الأموال وعلوّ الشأن وسموّ السلطان، وأنه لم يزل رابضًا لوثبةٍ يثبها، ومرصدًا لغرةٍ يهتبلها[6]، ومتحلّيًا بموالاة وموافقة، قد لبسهما على مداجاة ومنافقة، ومتجلببًا جلباب شاكر طائع، قد أفاضه على جثمان كافر خالع، ومفسدًا لنيّات غلماننا، وساعيًا لإيحاشهم منّا، ومضريًا[7] لهم على الاشتطاط في المطالبات المجحفة، والتماس المحاولات المسرفة، وارتكاب الهفوات المنكرات، وإحداث الأحداث المحظورات، ومقرّرًا في نفوسهم أنّا لهم كارهون، وعلى الإيقاع بهم عازمون، إلى أن كمن ذلك في

---

(١) في الحديث: لك نعمة تربها أي تحفظها، وتربّيها كما يربّي الرجل ولده.

(٢) الغمط: الاحتقار والازدراء. وتأتي بمعنى الجحود.

(٣) الهتم بمعنى الكسر، مخصوص بالأسنان.

(٤) الإزورار: الميل والإلتواء وفي لغتها إزوَرَّ، إذا نظر بمؤخّر عَينه.

(٥) كثرة.

(٦) ينتهزها.

(٧) مغريًا.

ضمائرهم، وقدح في بصائرهم، ونفّرهم بعد السكون، وأخافهم بعد الركون. فصاروا علينا ألبا، ومعه حزبًا، يستخدمهم بأموالنا، ويعدّهم للعَيث في ديارنا وفِنائنا، ويراعي بهم فرصة النكاية في الدولة التي إليها ينتسب ويعتزي، والقَدْح في النعمة التي منها يرتضع ويغتذي، واستحقّ جميعهم ما كانوا يحذرون، واستوجبوا ما كانوا يستشعرون، ونحن على هذه الهَنات منه صابرون، ولِما يثيره من غيظٍ وامتعاض كاظِمون، لزومًا لمذهبنا في طاعة المحافظة، وعصيان الحفيظة [1]، إلاّ عند الضرورة الداعية، والمعذرة الواضحة، حيث يكون الحلم شبيهًا بالضيم وحريًا بالوهن. فلمّا أَزِفَ [2] شخوصنا إلى الأهواز [3] لاستدرار ما تأخّر من أموالها، واستقراء ما اختلّ من أعمالها، والنظر في أشياء من مصالحها وتوفّر عماراتها [4] أقررناه في الحضرة، ورفهناه عن ضحاء [5] السفرة، وائتمّناه على ما غبنا عنه من خدمة السرير [6]، وتدبير الأمور، ونحن لا نظنّه بلغ حيث بلغ في استيطاء المركب المردي، واستمراء المطعم الموبى، ولا تجاوز حدود الدالة المحتملة والصغائر المغتفرة، ولم ندع، أن استظهرنا بتجديد عهد بيننا وبينه أحكمناه، وعِقد وكّدناه، فما هو إلاّ أن خلا ذرعه [7] وامتدّ باعه، حتّى نزت [8] به نوازي البطنة [9] وهدرت على يده شقائق [10] الفتنة، واستنفر من الغلمان مَن كان حاضرًا معه، واستجرَّ وكاتَبَ مَن كان غائبًا عنه، واستجاش بطوائف من العوام، بسَطهم وأهرجهم [11] وأباحهم وأمرجهم. ففاظت [12] على يده وأيديهم نفوس المسلمين، وانتُهِكت محارم المستورين، وسُفِكت الدماء، وعظم البلاء، وأتتنا الأخبار بقبيح ما ارتكب، وعظيم ما احتقب، وإنّه أكبّ على نهب المنازل والمحال، وتناول الأمتعة والأموال، فاشتمل على

---

(١) الحفيظة: الغضب، على المجاز، لأنها كل ما يحرّك الغضب فهو حفيظة.

(٢) أزِفَ: اقترب ودنا.

(٣) الأهواز: سبع كُوَر بين البصرة وفارس، لكلّ واحدة منها اسم، وجمعها الأهواز، لكن ليس له مفرد من لفظه.

(٤) يكون خروج بختيار إلى الأهواز، بزعم الكاتب، بقصد إصلاح الأحوال وجباية المتأخر من الأموال.

(٥) الضحاء: ارتفاع النهار واشتداد وقع الشمس، قال الله تعالى، لا تظمأ فيها ولا تضحى أي لا يؤذيك حرّ الشمس.

(٦) السرير (ها هُنا): العَرش.

(٧) الذرْع: بسط اليد.

(٨) نزت: وثبت.

(٩) البطنة: امتلاء البطن.

(١٠) الشقشَقَة: لهاة البعير، وقيل جلدة في حلق الجمل العربي يهدر فيها، ويشبّه لسان الفصيح بشقشقة البعير، ومنه قول الإمام علي رضي الله عنه: تلك شقشقة هدرت ثمَّ قرّت.

(١١) الهرج: الاختلاط أو الفتنة في آخر الزمان أو شدّة القتل، وفي الحديث بين يدي الساعة هرْج المرَج محركة الفتنة أو الفساد وتسكن فيقال الهرْ والمرْج.

(١٢) فاظت، تقول فاظت نفسُهُ: إذا خرجت، وهي لغةٌ في فاضَت.

الخزائن، واستثار من ودائعنا كلّ كامن. وأقلقني هذا وأمضّني وأزعجني وأرمضني، وكتبت إلى الأمير السيِّد ركن الدولة، والأمير الجليل عضد الدولة، أطال الله بقاءهما الكُتب التي سبقت بالإنهاء له والاستصراخ فيه، والاستنجاد في استدراكه وتلافيه؛ إذ كان الأمر الذي ندبّره منسوبًا إليهما، وكنّا فيه تالين لهما، وكانت الفروق مرتفعة بيننا أهل البيت، في النعم إذا تمّت والملمّات إذا ألمّت.

فعوّل الأمير السيِّد ركن الدولة، أطال الله بقاءه، في دفع ما ناب وحدث، وكشف ما أظل[1]، وكرث، على الأمير الجليل عضد الدولة أبي شجاع، أطال الله بقاءه لمّا عرف الله من كرم ضرائبه ويمن نقائبه، وكمال أدواته وتمام آلاته، وسَداد آرائه ونجاح أنحائه، وأنه الطود الرفيع والكهف المنيع، والسيِّد الدافع للعظيمة والقِرم الذائد للهضيمة[2]، ومن لم تردّد له قطّ راية، ولا فاتته من مطالبه غاية، ولا قاربه مُبارٍ ولا قارنه مُجارٍ، تنزاح الظلَم بغُرّته، وتنفرج الكُرَب بنجدته، وتنصاع الحوادث عن كلّ محلّة يحلّها، وجُنبة يحميها ويكفلها، فوردت كتبه أيّده الله، بأنه مُبادر لا يتوقّف، ومُسارع لا يتبلّث، في جيوشه العميمة الموفورة، وعساكره العزيزة المنصورة، وسرتُ من الأهواز إلى واسط[3] وبثثنا كتبنا إلى أهل طاعة مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، أطال الله بقاءه، وموالاته والمتحقّقين به وبأيامه، فانثالوا مغذين[4] نحوي وتوافدوا معدين إليَّ. وعرف اللعين سبكتكين ذلك، فانحدر عن بغداد فيمن جمع من قضه وقضيضه[5]، وألف من حشده وعديده، قد استلأموا بأسلحتنا وركبوا خيلنا، وتظاهرت عليهم كسانا وآلاتنا، وخفقت على رؤوسهم بنودنا وراياتنا، وليس منه ولا منهم إلاّ مَن نملك رقّه وولاءه[6]، وكلّ مال وصل إليه وخير تظاهر عليه، وظنّ الخائن إن تمّ له شيء من مأمول أباطيله، ومرجوّ أضاليله، قبل ورود الأمير الجليل عضد الدولة، أطال الله بقاءه؛ إذ كان عالمًا ألاّ قِبَل له بلقائه، ولا تثبت قدمه بإزائه، فلمّا صار بدير العاقول عقلته فيها جرائره[7]، ونُقضت فيها مرائره[8] وقصَّر الحَين[9] من خطوه، وجثم الحتف على

(١) أظلّه: غشيه.

(٢) الهضيمة: الظلم، الغضب.

(٣) بلد متوسّط بين الكوفة والبصرة.

(٤) مسرعين.

(٥) قالوا القض الحصى، والقضيض ما دقّ منه، وهو أصل المعنى، وقولهم جاءوا بقضهم وقضيضهم أي بجمعهم.

(٦) المولى المعتق الذي يرثه سيِّده إن مات ولا وارث له.

(٧) الجرائر، مفردها جريرة: وهي الذنب والجناية، ومن معانيها «فعلت ذلك من جريرتك» أي من أجلك.

(٨) المرائر: الحبال المفتولة على أكثر من طاق.

(٩) الحَين ـ بالفتح: الهلاك، وقال الفرّاء: المحنة.

صدره، وحجزت المنيّة بينه وبين الأمنية، واعترض صادق المقدور فيه دون كاذب التقدير منه، واعتلّ أربعة أيام علّة أتت على نفسه، ووسَّدته في رمسه، وأصارته إلى سيّء أعماله، والعقوبة المُعدَّة لأمثاله. وكان ذلك من الآثار الدالّة على حسن صنيع الله، لمولانا الأمير السيِّد ركن الدولة ولنا، وقضائه بثبات دولتنا وتطاول أيامنا، وإنّه عزّ وجلّ لا ينصر عدوًّا يبغينا بالسوء ولا يمهله، ولا يسلم وليًّا يحفظنا بالغيب ولا يخذله، إتمامًا للنعم التي ألبسناها والمنح التي سوّغناها، وتنبيهًا لنا على شكرها والاستدامة لها، وتحذيرًا للناس من تطرّفها[1] والطمع فيها؛ إذ كانوا جميعًا لا يقدرون على أن يرتجعوا ما أعطى ووهب، ولا أن يقرّوا ما انتزع وسلَب. ولم نشكّك في أنَّ من بعده من تلك الطوائف، يتأمّل ويعتبر ويتّعظ ويزدجر، وأنهم يفيئون[2] إلى التفيؤ بظلّنا ويعودون إلى أماكنهم من جَملنا، فما راعنا إلاّ انتصاب الفتكين الشرابي، مولى معزّ الدولة بموضعه ومنابه في شبّ النار عنه عن وصيّة وصّاه بها، ودلاّه بالغرور فيها، ورأى الغلمان أنهم قد قدموا إلينا ذنوبًا، ربّما أخذناهم بها وجزيناهم عنها، فأحجموا عن الطاعة التي تؤمن وتُنجي، واستمرّوا على المعصية التي تُوبق وتُردي، على يقين من سوء مغبّتها، ويممت الجماعة إلينا فكانت الحرب بيننا وبينها، في ظاهر الغربي من واسط، ثمانية وأربعين يومًا، لا يمضي منها إلاّ عن نكاية تقذي[3] عيونهم، وغصّة تشجي[4] حلوقهم، وقتل ماحِقٌ لهم، ونكال نازل بهم، إلى أن تناهى فشلهم واستحكم وهلهم[5]، وأتاهم خبر مولانا الملك الجليل، عضد الدولة أدام الله عزّه، بتجاوز الأهواز مُغذًّا[6] إليهم ومُنْصَبًّا عليهم. ولمّا رأوا أنَّ منتهم[7] ضعفت عنّي، علموا أن لا قوام لهم به أيّده الله، وبي، وأيقنوا أنَّ البلاء سريع إليهم وأنَّ الدائرة تكون عليهم، فانهزموا عن واسط، ناكصين على الأقدام، راجعين إلى مدينة السلام، مقدرين للتحصّن بمشاربها وأنهارها، والاعتصام بأوباشها وأوغادها. وأقرّ الله عيني بمورد سيِّدنا الملك الجليل عضد الدولة أيّده الله، الذي حلّ منّي محلّ الغيث عند اللزبة[8] والغوث عند الكربة، فلمّا جمع الله شملنا ووصل حبلنا،

---

(١) تطَرّفه بمعنى تحيّفه، أي أخذ من أطرافه كما في الأساس.

(٢) يرجعون.

(٣) تقذي، القذى: ما يقع في العين من غبار وتبنة، ونحوها.

(٤) تشجي، من الشجا وهو ما اعترض في الحَلْق من عظم، وغيره.

(٥) ضعفهم وفزعهم.

(٦) مُغذًّا: مُسرعًا، تقول: أغذّ السير، وأغذّ في السير، أي أسرع.

(٧) قوّتهم.

(٨) الشدّة.

اتّفق رأيه ورأى المتّبع له، على أن سار أيّده الله، من واسط في الجانب الشرقي، وسرت في الغربي قاصدين بغداد على تدانٍ في المسايرة وتحاذٍ في المساوقة[1]. وأتانا عند انتهائنا إلى المدائن خبر أولئك الكافرين للنعم، المستنزلين للنقم، المارقين عن عصمة الدين، وذمّته المستخفّين بحقّه وحرمته، في بروزهم إلى النهر المعروف بـ «ديالي» وعقدهم جسورًا عليه، ما ظننتهم يَجسرون على عبورها، ولا يقدمون على تجاوزها، وإنّهم جعلوا سوادهم من ورائه وعملوا على المسير جريدة[2] للقاء سيِّدنا الملك الجليل عضد الدولة أطال الله بقاءه، نجزًا[3] للحين المكتوب عليهم، والخذلان المجلوب إليهم. فتوجّه أيّده الله نحوهم غداة يوم السبت، لأربع عشرة ليلة خَلَت من جمادى الأولى، معبّى الجيش، رابط الجأش، أصيل الرأي والحزم، ملتئم التدبير والعزم، ورتّب أخي أبا الفتح عليَّ بن محمَّد أدام الله عزّه، ومن برَسْمه من الجيش، في ميمنته التي يقارنها اليُمن والنجاح، وعبده وسيِّدي عمدة الدولة أبا اسحق بن معزّ الدولة أدام الله عزّه، وخادمه الناصح أبا طاهر أيّده الله، ومن برَسْمِهما من الرجال، في ميسرته التي يصاحبها اليُسر والفلاح. وصار هو أطال الله بقاءه، وقوّاده وخاصّته وحاشيته ورجاله، قلبًا قالبًا لما قابله، عاكسًا لما واجهه، ولقيه أعداء الله، وقد أطرحوا الوفاء وأقلّوا الحياء، واتّخذوا القِحَة شعارًا، وكاشفوا بها جهارًا، واعتمدوا معارضته، أدام الله تمكينه في فضاء من الأرض، ظنّوا أنَّ سيدركون فيه المأمول، وينالون بالجَولان في أرجائه السُّوْل[4]، ولم يعلموا أنه مع اتّساع خَرقْه وانفساح طُرقه، ضيِّق عن عساكره المنصورة، غاصٌّ بجيوشه الموفورة، فنشبت الحرب بين الميسرة وبينهم منذ الضحى إلى العصر، وأكبّوا بأجمعهم عليها وصمدوا[5] بجدّهم إليها، لأنها دلفت[6] نحوهم مفارقةً نظام مصافّها، مطيعة دواعي أحقادها، وأفضى ذلك أن أنجدها سيِّد الملك الجليل، عضد الدولة أطال الله بقاءه، بطائفةٍ من رجاله شدّت منها وزادت في استظهارها، وخيّبت طمع الطامعين فيها، ثمَّ إنّه أدام الله عزّه، جلّى الغمة، وكشف الكربة، وحقّق الحملة، ونصر الدولة، وزحف إليهم زحفًا، ملأ قلوبهم رجفًا وأحشاءهم رعبًا، فأجفلوا إجفال النعام، وأقشعوا إقشاع الغَمام،

(١) المساوقة: المتابعة.

(٢) الجريدة: الخيل.

(٣) نجز: كأنجز.

(٤) السوْل، سوْل الإنسان: أمنيته (والأصل في هذه الكلمة، الهَمْز).

(٥) قصدوا.

(٦) قربت.

فأوغل الأولياء المنصورون في طلبهم، يستلحمون ويقتلون، ويفرون ويقدّون، حتّى ألجاؤهم إلى عبور تلك الجسور، وصادفوا عليها بقيّة وافرة منهم وخلقًا كثيرًا من سفلة العوام المضافرين لهم، فقُتلوا وغُرِّقوا وملك عليهم ما وراء "ديالي"، وأحرق ونهب جميع سوادهم وسفنهم وآلاتهم، وحجز الليل عن استقصاء الطلب والاتباع لِمن هرب. فنزل سيِّدنا الملك الجليل عضد الدولة، أطال الله بقاءه، الموضع الذي كانوا نزولاً فيه، وطوى القوم بغداد طيًّا، ولم يلبثوا فيها إلاّ فواقًا[1] آخذين على سمت[2] الموصل، على اختلاف من أهوائهم، وانتكاث[3] من لوائهم، قد ادَّرعوا بالعار والشنار، واشتملوا على المذلّة والصَّغار[4]. وأنجز الله فيهم وعده، ونصر عليهم جنده، وأذاقهم وبال المغبّة فيما اجترموا، وسوء العاقبة فيما اكتسبوا، ودخل سيِّدنا الملك الجليل عضد الدولة أدام الله عزّه، بغداد وتجاوزناها، وعسكرنا من الجانبين في أعلاها، وعطفنا على سفهاء الرعيّة بأحلامنا، وعمّمناهم بعفونا، وصفحنا عن الدعار[5]، شفيع للأبرار، وإشفاق من دخول البريء مع السقيم، واختلاط البرّ بالأثيم، لأنهم لمّا وجدناهم قد خالفوا موعظة الله إذ يقول ﴿واتّقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم﴾[6]، خاصّةً لم نخالف نحن أدبه في قوله: ﴿ولا تكسب كلّ نفس إلاّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[7]. وكتبت كتابي هذا، أدام الله تأييد مولانا الأمير السيِّد، عن تمام الفتح، وكمال المنح، وسكون الدهماء، وشمول النعماء، وشِفاء الصدر، وإدراك الوِتر[8]، وأخذ الثأر المنيم[9]، والظفر بشيطان الفتنة الرجيم، وتلك عاقبة من ظلم وكفر، وطغى واستكبر، وبغى وتجبّر، والله يقول فيهم وفي أمثالهم، وضرب الله مثلاً، قرية كانت آمنةً مطمئنّة، يأتيها رزقها رغدًا من كلّ مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف، بما كانوا يصنعون. فالحمد لله العزيز القهّار المتعالي الجبّار، القاضي

---

(١) لم يلبثوا إلاّ قليلاً، أصل الفواق ما بين الحلبتين من الوقت. وفي حديث عليّ رضي الله عنه قال له الأسير يوم صفين (أنظراني فُواق ناقة)، وذلك لأنها تحلب، ثمَّ تترك قليلاً يرضعها الفصيل لتدرّ، ثمَّ تحلب ثانية.

(٢) طريق.

(٣) انتكاث: وزن نادر، من نكث، وتناكث القوم عهودهم: تناقضوها.

(٤) الصغار: الذلّ والضيم.

(٥) الدعار: الفجور.

(٦) من الآية: ٢٥، من سورة الأنفال.

(٧) من الآية: ١٦٤، من سورة الأنعام.

(٨) الوِتر ـ بالكسر: الانتقام، الثأر (تأويلاً).

(٩) قال في اللسان: وأصاب الثائر المنيم أي الثأر الذي فيه وفاء طلبته.

للحقّ بالإدالة، وللباطل بالإذالة[1]، المتكفّل بإظهار أوليائه وكَبْت أعدائه، الذي جعل مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، أطال الله بقاءه، محفوظًا، فيما حضره وغاب عنه، محوطًا فيما شهده وبعد منه، محتومًا له بنصرة الراية، وعلوّ الكلمة، وعزّ الجانب وذلّ المجانب. فهنّأه الله بهذا الصنع العظيم قدره، الجليل خطره، العامّة بركته، الشاملة عائدته، ولا أخلاه من إجراء مثله للمسلمين على يده، وأيدي أولاده أيّدهم الله ببقائه، وعبيده وأنصاره وجنوده، وضاعف له المواهب مضاعفة يوفي[2] مستقبلها على الماضي، ويقصّر سابقها عن التالي، بمَنه وطَوله، وقوّته وحَوله. ولو تعاطيت أطال الله بقاء مولانا شكر إنعام سيِّدنا الملك الجليل، عضد الدولة أدام الله علوّه، والاعتداد بمِننه، لتعاطيت معجزًا وطلبت معوزًا، لأنه ذلّل الصعب بعد إبائه، وهوّن الخطب بعد إعيائه، ونظّم الأمير بعد اختلاله، وشدّ الأَزْرَ بعد انحلاله، وبذل النفس النفيسة، التي لو أمكن عوّض من غيرها لتعذّر، فكيف منها مع شرفها، وكيف لا يفعل ذلك مَن خصّه الله بكَرَم ضرائبه[3]، ويُمْن نقائبه[4]، وسَداد آرائه، ويمن أنحائه، وانفراده عن المساجلين، وامتناعه على المطاولين، فما تحلّ قدمه في موضع، إلاّ كان على النوائب مُحرّمًا، ومن المحاذر مُحصّنًا، وللفضل الباهر معدنًا، وللخير الطاهر موطنًا. فأحسن الله جزاءه عن ملك صانه ووقاه، وحريم حاطه وحماه، وأخ لهيف أنجده، وحرّ صريح استعبده، ومدّ علينا أجمعين خصوصًا، وعلى عباده المؤمنين عمومًا، ظلّ مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، الذي لا نزال بخير ما كان رُواقه ممدودًا، وسُرادقه مضروبًا، ووهب لنا المزيد في بقائه وعلائه، وأعاذنا من سوء يُلِمّ بساحته وفِنائه، إنّه على ذلك قدير وبه جدير. وأقول في شكر أخي أبي الفتح علي ابن محمَّد، أدام الله عزّه، إنّه لو حسن أن ألغيه، وامتنع من الإفاضة فيه، مع بلائه الجميل، وفعله الجليل، واجتهاده الشديد، وتدبيره السديد، لألغيته لأنه إنّما ذَبّ عن دولةٍ هي له، وقضى في نصرتها واجبًا لمولانا الأمير السيِّد، ركن الدولة أطال الله بقاءه عليه، لكنّي لا أستجيز ترك الصدق عن تجرّده وغنائه، ونصحه ووفائه وبلوغه، أقصى مبالغ المُحامي، وانتهائه إلى أبعد غايات المرامي، وأخذه من هذا الفتح بأوفر السهم، واستحقاقه من الأحماد عليه أجزل القسم، فإن رأى مولانا الأمير

(١) الإهانة.

(٢) يزيد.

(٣) ضرائب، مفردها ضريبة: الطبع والسجيّة.

(٤) النقائب، مفردها النقيبة: العقل والرأي والمشورة، وقالوا هي النفس كذلك، رواها «الزجاج».

السيِّد، ركن الدولة أطال الله بقاءه، أن يعرف ذلك له، ويعتقده فيه، وينعم بالأمر بمكاتبتي بموقع صنع الله في النعمة، التي به بدأت وعليه سبغت، والنائبة التي عنده انحرفت وبيده انصرفت، ويعتمدني في شكر سيِّدنا الملك الجليل، عضد الدولة أدام الله تأييده، بمعونة تتمّم تقصيري عن حدّه، وتلافى وقوفي دون فرضه، فَعلَ إن شاء الله.



وكتب عن معزّ الدولة، أي الحسين أحمد بن بويه، عند ظفره بروزبهان بن ونداخر شيذ العاصي عليه بالأهواز [١]

أمّا بعد، فإنَّ أحقّ النعم بأن يُلقي ضيفها العصا، وتستقرّ به النوى، ويستوطن عاكفًا، ويطمئنّ محالفًا، نعمة قُرِنت بالشكر، وجُنِّبت الكفر، وتُلقِّيَت بالارتباط والاستدامة، وتُنُوولت بالتأنيس والاستمالة، وصادفت كفوءًا مُطيقًا لحملها، وواليًا حقيقًا بمثلها، وناهضًا مستقلاً بأعبائها، وناشرًا مثنيًا بآلائها، فثبَّتَ الله عنده أطنابها، ومكّن لديه أسبابها، وأضفى عليه ملابسها، وساق إليه نفائسها، وعقد له بها لواء الظفر أين يَممَّ [٢]، ومدّ عليه رُواق النصر حيث خَيَّم، والله سبحانه يقول ﴿ومَن يقترف حَسَنةً نَزِد له فيها حُسْنًا إنَّ الله غفور شكور﴾ [٣]. وإنَّ أخلقها بأن يأبى زَوْرها [٤] المقام، وينبو عن الدوام، وينعب غرابه بالزِّيال [٥]، وتحدّي ركائبه بالانتقال، نعمة وقعت عند مُسيء لجوارها، جاهل بمقدارها، عَيّي بحراستها، مليٍّ بإضاعتها. فاتّخذها أكبر أعوانه على كيد مُوليها، وأحصن جنته على حرب مُسديها، غافلاً عن عادة الله الجارية، بنزعها عمّن سلك مُوحش سبيله، واتّبع مُضل دليله، وتعويضه منها بشعار العار والشنار، وجلباب المذلّة والصَغار، فلا يلبث أن يصبح متردّيًا برداء بَغيه، مُقتنعًا [٦] قِناع خزيه، مأخوذًا من مأمنه وحرزه، مستنزلاً عن نخوته وعِزّه، مائلاً عرشه بعد السموّ، مخفوضًا عِماده بعد العلوّ، مهتوكًا حجابه وذراه [٧]، مستباحًا حريمه وحماه، مستمرًّا

(١) سنة خمس وأربعين وثلثمائة، خرج روزبهان بن ونداد خرشيد الديلمي على معزّ الدولة، وخرج أخوه بلكا بشيراز، وخرج أخوهما أسفار بالأهواز ولحق به روزبهان إلى هناك، ومال الديلم إليه ولقوا معزّ الدولة بما يكره واختلفوا عليه وتتابع مسيرهم إلى روزبهان. فسار معزّ الدولة لمحاربته في خامس شعبان فبلغ ذلك ناصر الدولة بن حمدان فاهتبل هذه الغرّة للاستيلاء على بغداد، وأرسل إليها ولده أبا المرجى، فأعاد معزّ الدولة الحاجب سبكتكين وغيره ممّن يوثق بهم للمحافظة على بغداد، وقصد روزبهان ببقيّة رجاله من الأتراك. وسأله رجاله من الديلم المسير، فمنعهم منه خوفًا من انحيازهم إلى عدوّه، وأرضاهم بالعطاء وعبّر معزّ الدولة في سلخ رمضان وعبى جيشه كراديس تتناوب الحملات. فاصطلت نار الحرب واستمرّ القتال إلى المساء فنفد نشاب الأتراك فاستدعى الغلمان وكانوا خلف الجيش ومعهم نشاب وحملوا حملة واحدة، وكان الغلمان مستريحين، فصادموا صفوف روزبهان وخرقوها وانتصر معزّ الدولة وانهزم رزبهان وأخذ أسيرًا وجماعة من قوّاده، وقتل جمّ وافر من رجاله وعاد به إلى بغداد وشهره وسجنه. ثمَّ بلغه أنَّ الديلم عازمون على الثورة لإخراجه فغرّقه ليلاً، وأمّا أخوه الخارج بشيراز فسار إليه ابن العميد بجيوش فقاتله وظفر به وأعاد عضد الدولة إلى ملكه. وانطوى خبر رزبهان وإخوته بعد أن استفحل أمرهم، واصطنع معزّ الدولة الأتراك بعد هذه الوقعة وأطال أيديهم على الديلم وأقطعهم الإقطاعات في واسط والبصرة.

(٢) أين يمّم: أينما توجّه.

(٣) من الآية: ٢٣، من سورة الشورى.

(٤) الزور: الزائر أو الزوّار يكون للمفرد والجمع والمذكّر والمؤنّث بلفظ واحد.

(٥) الزيال: (لغة في) الزوال.

(٦) مقتنعًا: لابسًا « القناع».

(٧) كنفه وستره.

ما كان استحلاه، مُستوبيًا ما كان استمراه، كابيًا ليديه وفَمِه، مُفضيًا إلى عواقب حسرته وندمه، عاثرًا لا يستقيل، سقيمًا لا يبل[١]، كسيرًا لا ينجَبر، مضيمًا لا ينتصر، قد حقّت عليه كلمة الله إذ يقول ﴿ذلك بما قدّمت أيديكم وإنَّ الله ليس بظلام للعبيد﴾[٢]. وإذ يقول عزّ وجلّ ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرًا وربّك لا يظلم أحدًا﴾[٣]. فالحمد لله الذي نصب لنا معالم الهداية، وجنّبنا مجاهل الغِواية، وجعلنا من العارفين بنعمه، الشاكرين لِمننه، المستحقّين لمزيده، المعضودين بتأييده، وعصمنا من مراكب أهل البغي المُزِلّة لأقدامهم، الجالبة لِحمامهم، المُذِلّة لإبائهم، الصارعة لجَنوبهم، الصائرة بهم إلى العذاب الأليم، والحال الذميم، وسكنى الجحيم، وشرب الحَميم[٤]. والحمد لله الذي أعلقنا من طاعة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، بالعُروة الوثقى والعِصمة الكبرى، والسبب المتين، والحبل الأمين والكهف المنيع، والمحلّ الرفيع، وقرن مُشايعتنا بمَشايعه، ومبايعتنا بمُبايعته، حتَّى صار وليّنا وليّه، وعدوّنا عدوّه، وحربنا حربه[٥]، وحزبنا حزبه، والقريب منّا قريبًا منه، والبعيد عنّا بعيدًا عنه. فما يلوذ بجانبنا لائذ، ولا يعوذ بعقوتنا[٦] عائذ، إلاّ كانت عليه يد من الله كانفة، واقية، وعين كالئة راعية، وكانت السلامة له مضمونة، والعاقبة عليه مأمونة، ولا ينجم بمنابذتنا ناجم، ولا يعزم على مباينتنا عازم، إلاّ قطع الله دابره، وجَبَّ غاربه[٧]، وكوّر شمسه[٨]، وأزهق نفسه، وطمس نوره وأظلم ديجوره، وكانت دعائمه مخفوضة، ومرائره[٩] منقوضة، والهلكة عليه مكتوبة، واللعنة به معصوبة، تكرمة منَّ الله بها علينا، وأحسن فيها إلينا، وحملنا أوق[١٠] شكرها، وطوّقنا طَوق فخرها، وآثرنا بفضلها، على كلّ حاسدٍ لعين وعدوّ مبين. وإنَّ الله بحكمته الباهرة وقوّته القاهرة، ومشيئته النافذة وعزيمته الماضية، خلق الخلائق من طينة واحدة ابتدعها، على صورٍ شتّى اخترعها، غير حاذ على مثال، ولا راجع إلى

---

(١) بلَّ من مرضه وابل واحد: برئ من مرضه.

(٢) الآية: ٥١، من سورة الأنفال.

(٣) من الآية: ٤٩، من سورة الكهف (وقرآنيًا): إن يشبرون إلاّ جمرًا.

(٤) الحميم، في الأصل: الماء الحارّ، والماء البارد (ضدّ).

(٥) يقال فلان حرب فلان، أي عدوّه.

(٦) ساحتنا.

(٧) جبَّ غاربه: قطع كاهله، فكأنه قال: قصم الله ظهره.

(٨) كوّرت الشمس: جمع ضوءها ولفّ كما تُلفّ العمامة التي تُكوَّر، قيل كوّرت غوّرت، وقال بعضهم اضمحلّت وذهب ضوءها.

(٩) المرائر، مفردها مريرة: العزيمة.

(١٠) الأوق: الثقل.

استدلال، ولا محتاج إلى معين، ولا معتضدٍ بقرين، ولا آخذٍ بتعريف معرف، ولا مؤتمّ بتوقيف[١] موقف، واختصّ منها الإنسان بالعقل الذي هداه بعد الضلالة، وفقّهه بعد الجهالة، وأهّله به لحمل تكاليفه، والتصرّف مع تصاريفه، والائتمار لأوامره والازدجار لزواجره، والاستحقاق لثوابه أو عقابه، ورحمته أو عذابه، وهو مطّلع من كلّ نفس ذرَأَها ونسمة برأَها[٢]، على طاعة مطيعها، وإضاعة مضيعها، ونسك ناسكها، وفتك فاتكها، غير ممتنع مع علمه بخوائن العيون[٣]، وخفايا الصدور، من أسداء النعمة إلى الشاكر والكافر، وإقرارها عند البرِّ والفاجر، ابتداءً بالمنّة، وإتمامًا للموهبة، وإيجابًا للحجّة، وتأكيدًا للتوثقة. وليَجزى كلاًّ منهم عن بيّنة بما كسب، وبصيرة بما احتقب. وإذا فعل ذلك علام الغيوب ومسيطر القلوب، الذي لا تحتجب عليه الضمائر، ولا تنطوي دونه السرائر، فلا تثريب[٤] علينا في إيداع الحسنة عند مَن نظنّ به شكرها، ونقدر فيه حفظها، وليس لنا ما لله من علم البواطن الدفينة، والدخائل الكمينة، التي لم يوازه في إدراكها مُوازٍ، ولم يساوه في الإحاطة بها مُساو، فإن أصبنا بالصنيعة طريق المصنع، وأودعناها عند خير مستودَع، فقد أصمى سهمنا[٥]، وأنجح سعينا، وصدقت مخيّلتنا، وسلمت ذخيرتنا، وإن خاب حَدْسنُا وكذَبَنا حسُّنا، وأخطأت فِراستنا وضلّت دلالتنا، فالله يظفرنا بمن شذّ عنّا وبغى، ويمكّننا من ناصية مَن اعتدى وطغى، ويجعل كلمتنا عليه العليا، ويَدنا فوقه الطُولى، ويعوّضنا من تقديرنا فيه المعكوس، وتأميلنا المنكوس، أن يحلّ به نقمة من نقمه، وقارعة من قوارعه، يضحى بها عِبرة لنظرائه وعظة لقرنائه، فيصلحهم الله لنا بفساده، ويجمعهم بشتاته وانفراده، ويبصّرهم بعماه، وينجيهم بردَاه ﴿إنَّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون﴾، وكان الغامط لأنعامنا، الجاحد لإحساننا، المتردّي[٦] من ذروة طاعتنا، الهاوي في هوّة معصيتنا، الخالع ربقة ذمّتنا، النازع جنّة مشايعتنا، روزبهان بن ونداخر شيذ، تصنع عندنا في قديم أمره بالولاية، وتَنفَّق[٧]

(١) التوقيف: التعليم والنصّ.

(٢) ذرأ وبرأ واحد: خَلَق.

(٣) خائنة الأعين: ما تسارق من النظر إلى ما لا يحلّ، ومنه قولى تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وفي الحديث: ما كان لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين، أي أن يُضمر غير ما يُظهر. وجعل بعضهم خائنة الأعين بمعنى خيانة الأعين إخراجًا للمصدر على فاعلة كالعاقبة ونحوها.

(٤) التثريب: اللوم.

(٥) أصمى السهم: أصاب ونفذ، وأنت تراه.

(٦) تردّى: تهوّر، ومنه قوله تعالى والمتردية والنطيحة [النطيحة في قوله تعالى، تعني ما تناطح فمات، وأُدخلت الهاء فيها لأنها جُعلت اسمًا لا نعتًا] وهي التي تقع من جبل أو تطيح في بئر أو تسقط من شاهق فتموت.

(٧) تنفّق: ها هنا بمعنى النفاق، (علم الاشتقاق اللغوي واللفظي من نفق ونافقاء).

بالكفاية، وأظهر لنا غرورًا من سعيه في الخدمة وكدحه، وسرابًا لامعًا من وفائه ونصحه، وهو يدبّ الضراء[١]، ويسرّ حسوًا في ارتغاء[٢]، ويوكي[٣] على الغشّ عيابه، ويحنو على النكث ضلوعه وحجابه[٤]، ولا يبدي لنا بادية وفاق، إلاّ عن خافية نِفاق، ولا يُطلع طالعة وداد، إلاّ عن خبيئة عناد، ولا يبرز في شيمة من شيم التقرّب منّا والتوصّل إلى قلوبنا، إلاّ كانت غطاء على حيلة يعملها، أو غيلة يرصد لها، وغشاء على فرصة ينتهزها وغُرة يهتبلها[٥].
ونحن نحمل أمره على ظاهره، ونظنّ غائبه مثل حاضره، وباطنه مثل عالنه[٦]، بل كلّما زدناه إحسانًا وامتنانًا، زدنا إليه سكونًا وركونًا، وكلّما ارتقينا به إلى منزلة ورتبة، ارتقينا فيه إلى مثلها من أنسة وثقة، حتّى استبطنّاه[٧] من الحضيض الأوهد إلى السناء الأمجد، وجذبنا بضبعه[٨] من المسقط المنحطّ، إلى المرفع المُشْتَطّ[٩]، وانتهينا في الإناقة بقدره، والإشادة بذكره، والتفخيم لأمره، والتقديم لقدمه، إلى الغاية التي لا تسمح بها نفس باذل، ولا تسمو إليها همّة آمل. فلمّا عزّ بعد الذلّة، وكثر بعد القلّة، وبعد صيته بعد الخمول، وطلع سعده بعد الأفول، وجمّت عنده الأموال، ووطئت عقبه الرجال، وتضرّمت بحسده جوانح الأكفاء، وتقطّعت بمنافسته أنفاس النظراء، نزت به بطِنته، وأدركته شقوته، ونزغ له شيطانه، وامتدّت في الغِي أشطانه[١٠]، فنصب أشراكه وحبائله، وأعمل مكايده ومخاتله[١١]، وجعل المدخل إلى إربه والمسلك إلى غرضه، أن تصدّى لمقارعة عمران[١٢]، وضمن ذلك أوكد ضمان، وزعم أنه لمجاورته إيّاه في أعماله ومقاربته له في أوطانه، قد اطّلع على ما لم يطّلع عليه غيره من

---

(١) الضرّاء: الشجر الملتفّ من الوادي، يقال مشى الضرّاء إذا مشي مستخفيًا في ما يوارى من الشجر، ويقال مجازاً يدبّ له الضراء إذا كان يحتلّه.

(٢) مثل يضرب لمن يظهر أمرًا وهو يريد غيره.

(٣) يشد.

(٤) الحجاب (هنا): لحمة رقيقة كأنها جلدة قد اعترضت مستبطنة بين الجنين، تحول بين السحر والقصب.

(٥) اهتبل الغُرّة: انتهز الفرصة.

(٦) علن الأمر: شاع وظهر.

(٧) جعلناه من بطانتنا.

(٨) الضبْع ـ بسكون الوسط: العضد.

(٩) المُشتطّ، الشطّة: بُعْد المسافة، وهو المُراد.

(١٠) حباله.

(١١) المخاتلة: الخداع.

(١٢) هو عمران بن شاهين صاحب البطيحة، كان قد خرج على معزّ الدولة وهزم عساكره مرارًا وأنفذ لمحاربته روزبهان فقهره ثمّ الوزير المهلبي، فالتجأ عمران إلى مضايق البطيحة وأوغل المهلبي وراءه، فأخرج عمران عساكره الكمناء في تلك المضايق ففتكت بأصحاب معزّ الدولة، وفرّ المهلبي وألقى بنفسه في الماء فنجا سباحة وأسر القوّاد فاضطرّ المعزّ إلى مصالحته وأطلق إخوته فأطلق هذا قوّاده.

عوراته، واهتدى إلى ما لم يهتدِ إليه سواه من غرّاته، وموّه بأباطيله، وتمادى في أضاليله، وقرب في مواعيده وزخرف من أقاويله، فأجبناه إلى ما طلب، وآثرناه بما خطب، ونطنا به الأمر الذي شرع فيه، ورغب إلينا في تولّيه، وضممنا إليه العدد الوافر من قوّادنا، والجمّ الغفير من أوليائنا، وأطلقنا يده في إنفاق أموالنا، وتناول ذخائرنا، قبولاً لِما أظهر من الحرص، وتأميلاً لاستئصال ذلك اللصّ[1]، ونحن لا نعلم أنَّ الطالب شرّ من المطلوب، والقاصد أضرّ من المقصود، وأنهما في سوء النيّة سيّان، وفي خبث الطوية أخوان. فما زال ينازله منازلة المطاول، ويزاوله مزاولة المماطل، لتتراخى به الأيام، ويتّسق له النظام، ويصل من مراده إلى الإتمام والإبرام، وهو يختدع[2] من قَبِلَهُ من الرجال، ويعدهم بكلّ باطل ومحال، ويحملهم من طاعته والعصيان لنا، ومما يلته والازورار عنّا، على كلّ خطّة شنعاء، وداهية دهياء، إلى أن استمال سفهاءهم اغترارًا واجترارًا[3]، واستولى بهم على مَن سواهم اقتسارًا واضطرارًا. وكان أبو محمَّد الحسن بن فنّاخسرو، ممّن حصل تحت أمره، واعتقلته أشراك مكره، وكتب إلى أخيه أسفار بن وندخر شيذ، المقيم كان[4] في أعمال ضمانه بالأهواز بإخراج كوركير، والفتح اللشكريّ من القلعة، بجند يسابور التي كانا معتقلَين فيها، وهما ممّن كان الشيطان استقلّ حزمه، واستزلّ قدمه، وعرّض دمه، وأطال ندمه، فعصينا فيهما بواعث الانتقام والسطو، وأطعنا عواطف الاغتفار والعفو، ونفسنا[5] بهما عن إفاظة النفوس، واقتصرنا في عقوبتهما على إطالة الحبوس، وأقررناهما من هذه القلعة بحيث أمنّا وسكنّا واطمأننا ووثقنا، ففعل أسفار ما أمره به، وامتثل ما رسمه له، ثمَّ انكفأ روزبهان عن البطائح بالعساكر، ناكصًا عن محاصرة ذلك الفاجر، وقدّم إلينا كتبًا ينقض بعضها بعضًا، ويخالف آخر منها أولاً، بناها على ذمّ فعل أخيه، والبراءة منه فيه، وتصرّف تصرّف المذكِّر لنا بحرمانه، المستحفظ لموالاته، وادّعى مَن تنكّرنا له وتغيّرنا عن العناية به،

---

(١) كان عمران في ابتداء أمره صيّادًا من أهل الجامدة، يصطاد الأسماك وطيور الماء، ثمَّ صار يقطع طريق البطيحة وانضمّ إليه جماعة من اللصوص والصيّادين وصاروا يعيثون، فأرسل معزّ الدولة لمحاربته وزيره أبا جعفر الصيمري فقهره واستأسر عياله، ولكنّه ما لبث أن دعاه معزّ الدولة إلى المسير إلى فارس بعد وفاة عماد الدولة أخيه لضبط أمورها. فخرج عمران من مخباه وضمّ إليه من تفرّق من أصحابه واستفحل أمره، وله شأن عظيم في تاريخ بني بويه.

(٢) اختدعه كخدعه.

(٣) اجترار: (افتعال) من جرَّ.

(٤) تجئ كان زائدة وروى الكسائي عن العرب، نزل فلان على كان ختنه، أي نزل على ختنه وانشدّ الفراء «جادت بكفي كان من أرمى البشر» أي مَن هو من أرمى البشر، وفي كلام الصابي كثير من هذا الاستعمال.

(٥) ضننا.

وإصغائنا إلى إفساد المفسدين عليه وإيحاش الموحشين منه، دعاوى اتّخذها سُلَّمًا إلى المركب الصعب الذي ارتكبه، وعذرًا في المنهج الوعر الذي انتهجه. فأجبناه جوابًا أتبعناه بأمثال له، لم نأل في جميعها جهدًا شديدًا ولفظًا سديدًا، في تسكين نفرته والإهابة به[١] إلى مصلحته، والتوثقة له بكلّ ما أخذ الله على أنبيائه الصدِّيقين، وملائكته المقرّبين، من عهد مُحصد[٢] وعقد مُحصَّن، ويمين غموس[٣]، لا مخلص للمخلّ بها ولا فسحة للمتأوّل فيها، ألاّ نؤاخذه بجريرة، ولا نعاقبه على كبيرة اقترفها ولا صغيرة، ولا ننقصه من رتبةٍ بلغها ولا نبعده عن قربة وصل إليها، ولا نُلحق به ضيمًا، ولا نُطلق عليه هضمًا، ولا ننصر ضدًّا له، ولا نمكّن خصمًا منه، ولا نفسد العارفة[٤] عنده، التي أنفقنا في أسدائها الأموال، وخالفنا في إتمامها العذال، ولا نشمّت به أعداء طالما أشاروا فعصوا، وتنصّحوا فأُقصوا، وإنّنا نُغضي له عن كلّ مال أنفقه واستهلكه، وذخرٍ أجحف به وانتهكه، ونستأنف به المزيد في الإحسانْ والصنيعة والمنزلة الرفيعة، ثمَّ تكون حاله في نفوسنا إذا حضرنا بعد النبوة، ووطئ بساطنا بعد الهفوة، حال مَن لا يعترضنا أبدًا فيه عارض الشكّ، ولا نصغي إلى طعن طاعن عليه بصدق ولا إفك[٥]، وحذّرناه عواقب الكفر النازعة للنعم، وخوّفناه مصارع البغي الجالبة للنقم، وتلونا عليه آيات القرآن المبصرة، وضربناه بقوارعه[٦] المنذرة، ودعوناه إلى التنزّه عن ميسم[٧] العاصين وشعار المخالفين وسوء قالة[٨] القائلين وأحاديث المتحدّثين، فأبى له ضعف العقل والنحيزة[٩] ولؤم الطبع والغريزة، إلاّ إصرارًا على طيشه وسفهه، واستمرارًا في طيخه[١٠] وعمهه، حتَّى كأنَّ الوعظ أغراه والإرشاد أغواه، فلمّا حصل «بواسط» هتك حجاب نفاقه، وأظهر مَكنون شِقاقه، وجاهر بالخلاف، وظاهر وكاشف بالانحراف، ورحل إلى سوق الأهواز عاملاً على الاستيلاء عليها، ودفع أبي محمَّد الحسن بن محمَّد المُهَلَّبي أدام الله عزّه

---

(١) أهاب به: دعاه، أصله في الإبل والغنم واستُعمل في الناس، ومنه في حديث الدعاء، وقوّيتني على ما أهبت بي إليه من طاعتك.

(٢) متين، محكم.

(٣) التي تغمس صاحبها بالإثم ثمَّ في النار، وقيل التي لا استثناء فيها.

(٤) العارفة والمعروف واحد.

(٥) الإفك: الكَذِب.

(٦) قوارع القرآن، منه الآيات التي تُقرأ عند الفزع مثل آية الكرسي وغيرها، كأنها تقرع الشيطان، أي تصرفه. قال في الأساس وفي الحديث شيّبتني قوارع القرآن.

(٧) بمعنى علامة.

(٨) القالة والقال والقيل واحد.

(٩) الطبيعة.

(١٠) الطَّيْخ: الجهل أو القبيح.

عنها، وتوافى إليها معه أسفار أخوه ومَن معه، فكتبنا إلى أبي محمَّد الحسن ابن محمَّد، بمقارعته إن استصوبها، ووثق ممّن معه بالاستقلال بها، والانحياز إلى البصرة إن خاف منها نكولاً عن اللقاء أو عدولاً عن الوفاء، فأخذ في الحزم في تقديم ما كان قبله من الأموال والأنفال[١]، والمير والأزواد، ووجوه أهل البلاد، إلى البصرة، ونصّب أبا العبّاس ليلى ابن موسى، زعيمًا لِمن كان بالأهواز من الشحنة[٢]، والرجال، ووقف معه وقوف الأبلاء والأعذار، فلمّا أحسّا منهم بالإسفاف إلى الدنيئة، والإيضاع في الفتنة[٣]، وكانوا كالغنم السارحة التي لا راعي لها، والإبل السائمة التي لا سائق معها، انجذبا إلى البصرة، ومَن تابعهما من أهل البصيرة والنصرة، وأفرجا له عن الأهواز، بعد أن كان أبو محمَّد أصفرها من كلّ خير[٤]، وأقفرها من كلّ مير[٥]، ودخلها الخائن دخول الكافر الغادر، وتنابحت إليه كلاب الغارة الشعواء، وتعادت إليه ذئاب الصيلم[٦] الصمّاء، طمعًا منهم في الوصول إلى ما عنده، وإقامة سوق يستنفدون بها حاصله ووجده[٧]، وهو يزداد تماديًا في غيه، وتناهيًا في بغيه، وقبولاً من شيطانه المارد، وعصيانًا لنصيحة الراشد. وانحاز إليه بالأهواز محمَّد بن أحمد الخوميني، عامِلُنا كان عليها، بعد مكاتبة منه لهذا الخائن خان معه فيها، وعن مواطأة بينهما تنجز العقوبة بها، فقبله وأقبل عليه واستوزره وفوّض إليه، وكأنَّ الله قد قضى عليهما بهذا الاجتماع في المعصية، أن يجتمعا في انصرام المدّة، وعسكر ومَن معه بظاهر سوق الأهواز، على سمت الطريق[٨] التي عليها نسير إليه، وتجاه الجهة التي منها نَرِدُ عليه، فلمّا تحقّقت عندنا هذه الأخبار وأسفرت أوضح الأسفار، حاكمنا هذا اللعين، إلى الله العادل حكمه، السابق في الأشياء علمه، العارف بإحساننا إليه وأفضالنا عليه، ورَفْعنا خسيسته، وتَشْريفنا دنيئته. وإنّه قابلنا مقابلة العبيد الأُبّاق[٩]، وجازانا مجازاة الفجار الفسّاق، حين

---

(١) الأنفال، مفردها نافلة: العطيّة.

(٢) يقال بالبلد شِحنة من الخيل، أي رابطة.

(٣) لمّا خرج روزبهان بواسط، سار إلى الأهواز أولاً فقصد الوزير أبو محمَّد المهلبي محاربته فانحاز من معه من الرجال إلى روزبهان وعظم جيشه. وقوله الإسفاف من أَسَفَّ إلى الدنايا أي دنا منها، وأمّا الإيضاع فهو السرعة، أو السير بين القوم، والإيضاع في الفتنة من قوله تعالى: ﴿ولأوضَعوا خِلالكُم يَبْغونكم الفِتنة﴾ [جزء من الآية ٤٧ من سورة المائدة].

(٤) أصفرها من كلّ خير: أخلاها من كلّ خير، ولم يُبقِ من ذلك شيئًا.

(٥) يقال ما عنده خَير ولا مَير ومَاره، أتى له بطعام.

(٦) الداهية.

(٧) الوُجد ـ بالضمّ ويكسر ويفتح: اليسار والسعة.

(٨) سَمْت الطريق: قصده.

(٩) العبيد الأُبّاق: العبيد الهاربون من سيِّدهم.

ضفت عليه ملابسنا، وكرّمته مجالسنا، وكملت لديه فواضلنا، وتظاهرت عليه نوافلنا، وقوّت يده أيادينا، وتحاشدت إليه موالينا، وتوجّهنا نحوه فيمن كان بحضرتنا من العساكر، وأصناف الغلمان الأكابر والأصاغر، مستنصرين عليه بكفاية الله التي هي أعزّ نصير، ومستظهرين عليه بمعونته التي هي أنجد ظهير. ووردنا أوائل أعمال الأهواز، فوجدنا خواص كلّ كورة من كورها وعراقها[1]، ووجوه كلّ ناحية من نواحيها ورعاياها، على ما ينبغي أن يكونوا عليه من الشغف بموردنا، والتجرّد في نصرتنا، والدعاء لنا، والمباينة لعدوّنا. فلمّا أيقن بإقبالنا إليه وأوجس[2] من إطلالنا عليه، صار إلى عسكر مكرّم معرِّجًا عن المواجهة، مُعرّدًا[3] عن المناجزة، مُظهرًا لأصحابه أنَّ طريقنا كان عليها، وأنه سابقنا إليها، وأتممنا إلى سوق الأهواز، ووضعنا العطاء في الأولياء، فتشوّف إلينا مَن كان استغرّه منهم بأخذه[4]، وتلهّف مَن كان استجرّه بخدعه، وخفّت ذات يده في الإطلاق، وانقطعت عن عسكره مادّة الإنفاق. وعلم أنَّ الأمر له مُرهق[5]، والبلاء به مُحدِق، فثنى إلينا عنقًا قد أعنقت[6] إليها الحُتوف، وأبرقت نحوها السيوف، وقد كان أبو محمَّد الحسن بن محمَّد، وأبو العبَّاس ليلى ابن موسى، عادا إلى الأهواز، ممتثِلَين بالتعجّل إلينا واللحاق بنا أمرًا صدر إليهما منّا، ووكيدًا ورد عليهما من كتبنا. وبثثنا رسلنا إلى أوليائنا الحاصلين مع هذا الخائن، الذين كلّ منهم أحد الرجلين، إمّا مُسِفّ إلى تناول حطامه، عازم على خذلانه وإسلامه، أو مغلوب على رأيه، مُحام عن حَوبائه[7]، طالب لنفسه فرصة الانسلال وخِلسة الانتقال، فاستجابوا إلى الواجب، وأذعنوا بالحقّ اللاّزب، وأقاموا ضروبًا من العذر عندنا، ولاذوا بالعفو والغفران منّا. واستأمن إلينا أبو محمَّد الحسن بن فَنَّاخسرو مستقيلاً من عثرته، مستصفحًا عن جريرته[8]، فتلقّيناه بالإحسان، وغمرناه بالامتنان، وثلم الله به جانب العدوّ، وأيقن بحلول المكروه والسوء. وأفضى الرأي، أنْ رددنا أبا محمَّد الحسن ابن محمَّد، إلى الباسيان لنبعده عن مباشرة الحرب ونصونه عن مشاهدة الطعن والضرب، بعد أن أتت

---

(١) العِراق: شاطئ النهر أو البحر ومنه سُمِّيَ العِراق.

(٢) وقع في قلبه الخوف.

(٣) عرّد الرجل عن قِرنه: أحجم ونكل.

(٤) جمع أُخذة ـ بالضمّ: رقية، وهي تأخذ العين ونحوها، كالسحر وأخذه رقاه.

(٥) حامل له على ما لا يطيق.

(٦) أسرعت.

(٧) الحَوباء: النفس.

(٨) الجريرة: الذنب والجناية.

المفاوضة بيننا وبينه على ما استدعيناه من أجله، وأن عدلنا إلى قنطرة أربق، حتَّى ملكنا وعسكرنا من ورائها، جلوسًا بالمراصد له، وضربًا بالإسداد عليه، وأخذًا بمُخَنَّقه، وتضييقًا لطُرقه، وكَرَّ هو إلى سوق الأهواز راجعًا، وأقبل منها إلينا مسارعًا، دالفًا[1] دلوف الجاهل بربّه، الذاهل عن رشده، المركوس[2] في غيّه، المسوق إلى حتفه، قد أعجبته نفس محبطة العمل، وغرّته أمنية خائبة الأمل، أوردته قُحَّة[3] الأديم، ورقّه الدين موارد هلكة لا صدر عنها، واقتحمت به قحم خطّة لا انفراج لها. والله في ذلك كلّه ناصرنا وخاذله، ومظفّرنا وقاتله، ومعلينا ومسقطه، ومديلنا ومورّطه؛ إذ كان سبحانه العالِم بأنَّ الجنود المطيفة به جنودنا، والبنود الخافقة على رأسه بنودنا، وأنَّ لنا الثوب الذي سحبه، والطرف الذي ركبه، والدرع[4] التي ادَّرعها والأمّة التي استلأمها[5]، والعضب الذي انتضاه، والسهم الذي أمضاه، وعبرنا القنطرة إليه في خواص غلماننا الأتراك، ونخَب من الديلم والجيل الفتّاك، وذوى صدور منه، ومن أصحابنا الخونة حامية، وقلوب عليهم مُلتظية، وأيد في جهادهم متّفقة، وأقدام إلى لقائهم مُستبقة، فلم تزل الخيل تطرقهم، والكرّ يرهقهم، والجراح تثُخنهم، والقتل يَمحقهم، والحرب تُذيقهم حَرَّ حديدها، وجِلاد صناديدها[6]، وترميهم بكُماتها[7] وأبطالها، وتعركهم عرك الرحى بثفالها[8]، سحابة يوم الاثنين انسلاخ شهر رمضان الذي ختم الله به شهر الصيام، وعظم بركته على الإسلام، فلمّا ترآى[9] الناس هلال شوّال، وكادت تغشاهم غواشي الظلام، أنزل الله نصره على أوليائه، وشفع لهم وعده بوفائه، فانهزم الخائن هزيمة قوَّض الله بها عُروشه، وفَضّ جيوشه، وضلّل وساوسه، وأبطل هواجسه، واستلحمت رجاله السيوف، وحرقتهم نار الحُتوف، واقتسمتهم المكاره شَعاعًا،

---

(١) دَلَف: الأصل فيها مشى مشية المُقيَّد.

(٢) الرَّكس: قلب الشيء على رأسه، أورد أوله على آخره، يقال ركَسَه وأركسه وفي التنزيل العزيز أركسهم بما كسبوا.

(٣) قُحَّة: جافية.

(٤) الدرع: جميع السلاح.

(٥) استلأم الرجل: لبس ما عنده من عدّة ورمح وبيضة ومِغْفَر وسيف ونَبل.

(٦) صناديد، مفردها صنديد: السيِّد الشجاع.

(٧) الكُماة، مفردها كَمِيّ: الشجاع.

(٨) الثفال: جلد يُبسط تحت رحى اليد ليقي الطين من التراب ومنه قول زهير [هو زهير بن أبي سلمى، (نحو ٥٣٠ ـ ٦٢٧) شاعر جاهلي من أصحاب المعلّقات] يصف الحرب.

فتَعرُكُكُم عرك الرَّحى بثِفالِها ... وتَلقحْ كِشافًا ثمَّ تُنتَجْ فتفطمِ

(٩) في الحديث: أنَّ أبا البَخْتَري قال تراءَينا الهلال بذات عرق.

أيدي سبا، بين قتيل مرمل[1] وأسير مكبّل، وهارب مفلول ومستأمن ذليل. وكان كوركير والفتح اللشكري، ممّن جرى عليهم حكم الأمان، واعتلق حبل الذمام، فدخلا في الجملة دخول التائب المُنيب، والراشد المصيب، وتَغمَّدنا سالف وطارف جرائرهما، وصفَحْنا عن قديم وحديث جرائمهما، وأنزلناهما منازل نظرائهما الشامل لهم فضلنا، الممتدّ عليهم ظلّنا، واتَّبع سرعان خيلنا، عدوَّ الله الهارب منّا، فلحقوه وأدركوه، وأحاطوا به وملكوه، وبدر إليه من الغلمان، مَن ضربه ضربات أثّرت فيه آثارًا لم تُجحف[2]، وبلغت منه مبالغ لم توغل، وتباكوا[3] عليه تباكّ المتنافسين في الأثر، المتشاحّين[4] على الظفر، إلى أن أكبّ عليه أبو الفوارس شيرزيل بن كندراسن، فاستخلصه واستحياه، واستنقذه واستبقاه، وأتانا به أسيرًا عقيرًا[5]، خاضعًا ضارعًا بغير عهد يحجز عنه، ولا عقد يمنع منه، ولا أمان يعلق بحجّته، ولا ضمان يطالب بوثيقته، ووُجد أحمد بن محمَّد الخوميني صريعًا مجندلاً، طريحًا معفرًا، قد أثخنته ضربة في رأسه لم يلبث بعدها إلاّ قليلاً، حتَّى قضى نحبه، ولقي بأَسْوَد صحيفته ربّه، وأجلى هذا الفتح العظيم خطره، الجسيم قدره، عن سكون الدهماء، وشمول النعماء، وعزّ الأولياء، وكَبْت الأعداء، وشفاء الصدر، وإدراك الوتر، وأخذ الثأر المنيم[6]، والظفر بشيطان الفتنة الرجيم، وتلك عاقبة من ظلم وكفر، وخان وغدر، وبغى واستكبر، وعتا وتجبّر، والله تعالى يقول فيه وفي أمثاله ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغَدًا من كلّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[7]. فالحمد لله ربّ العالمين، الذي لا يضيع أجر المحسنين، ولا يُصلح عمل المفسدين، ولا يَهدي كيد الخائنين، ذي الحجج البوالغ، والنعم السوابغ، والنقم الدوامغ، جبّار الأرض والسموات، وعالم الجليات، والخفيات، الذي لا ينجو منه الهارب، ولا يُعجزه الطالب، ولا يُضيمه ضائم، ولا يروم مغالبته رائم، وإيّاه نسأل، أن يصلّي على محمَّد عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلّم، صلاة زاكية نامية، دائمة راتبة، منجزة عدّته، رافعة درجته، قاضية حقّه، مؤدّية فرضه، وأن يديم لمولانا أمير المؤمنين أحسن ما خوّله وأولاده، ومنحه

(١) يقال رمل فلان بالدم وضمخ بالدم وضرج به، كلّه واحد.

(٢) أجحف: أنقص، والمعنى هنا، آثار بيّنة غير ناقصة ولا خفيّة.

(٣) كلّ شيء تراكب فقد تباكّ، وتباكَّ القوم تزاحموا، وفي الحديث فتباكَّ الناس عليه، أي ازدحموا.

(٤) المتشاحّين: المتشاحّون على الظفر: المبادرون إليه، حذر فَوْته.

(٥) العقير: الجريح.

(٦) المنيم: (مجازًا) الثأر الذي لم يُطلب ولو يؤخَذ بعد.

(٧) الآية: ١١٢، من سورة النحل.

وأعطاه من نصرة رايته، وإعلاء كلمته، وإظهار من ظاهَرَه، وتأييد من ضافَرَه، وأن يجعلنا ممّن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتُلِيَ صَبَر، وإذا زيد لم يغمط[1]، وإذا نقص لم يقنط، وألاّ يخلينا من الكفاية، وجميل الولاية، فيما غاب وحضر، واستسرّ وجهر، وبطن وعلن، واحتجز وبرز، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه، والمرجو له، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) غمط الفضل والزيادة: جحدها.

وكتب عن المطيع لله رحمه الله، إلى ركن الدولة أبي علي، بخبر أسر الدمستق سنة اثنتين وستّين وثلثمائة[1]

أمّا بعد، فالحمد لله ذي المنّة والطول، والقدرة والحَول، والغلبة والصول، المنفرد بكبريائه، المنعم على أوليائه، المنتقم من أعدائه، رافع الحقّ ومعلّيه، وقامع البطل ومرديه، ومُعزّ الدين ومُديله[2]، ومذلّ الكفر ومذيله، المنزل رحمته على مَن جاهد في طاعته، المُحِلّ سطوته بمن جاهر بمعصيّته، المتكفّل بتأييد حزبه حتَّى يظفر، وخذلان حربه حتَّى يدحر، الذي لا يفوته الهارب، ولا ينجو منه الموارب، ولا يعييه المُعضل، ولا يعجزه المشكل، ولا تبهظه الأشغال، ولا تؤوده الأثقال، الواحد الذي لا شريك له، الفرد الذي لا قرين معه، الغنيّ المفتقَر إليه، القويّ المعتمَد عليه، بالغ أمره بلا مؤازر، وممضي حكمه بلا مظاهر ﴿ذلكم الله ربّكم فادعوه مخلصين له الدين﴾. والحمد لله الذي اختار لنا الإسلام دينًا وآثره، وأظهره على الدين كلّه ونصره، وشرعه شرعًا لا يُنسخ، وعقده عقدًا لا يُفسخ، وجعله حقًّا لا يُدحض، وأمرَّه إمرارًا لا يُنقض، وقضى له بعزّ المرافقين وذلّ المنافقين، وظهور المعاضدين وثبور المعاندين، واصطفى محمَّدًا صلّى الله عليه وسلّم من أكرم المناسب، واجتباه من أشرف المحاتد[3] والمناصب، واستخلصه من أسرة هاشم، وفضّله على جميع بني آدم، وأيّده بالملائكة المقرّبين، وبعثه رسولاً إلى العالمين. فأدّى أمانة ربّه مخلصًا، وصدع برسالته مبلغًا ملخّصًا، واستنقذ هذه الأمّة من الغواية، وعرّفها طرق الهداية، وسلك بها سواء المِحجَّة،

---

(١) سنة إحدى وستّين وثلثمائة، أغار الروم على الرها ونواحيها وأثخنوا في ديار الجزيرة وما زالوا حتّى بلغوا نصيبَين، ولم يقف في وجههم أحد، حتّى أنَّ ابن حمدان صاحب الموصل كفّهم عن نفسه بالمال، فنفر أهالي تلك البلاد إلى بغداد واستنفروا المسلمين. فثار معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة الطائع وهم يجلبون ويصخبون، وكان بختيار بن معزّ الدولة يتصيّد في نواحي الكوفة، فخرج إليه وجوه أهل بغداد منكرين عليه انهماكه بالصيد وإهماله ثغور الإسلام وقتال مثل عمران بن شاهين وترك الجهاد في الروم، فأجابهم إلى ذلك وكتب إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتهيّؤ والاستعداد وأن يستنفر العامّة، فنفروا واجتمع منهم خلق لا يحصى. وكتب إلى أبي تغلب بن حمدان ينبئه بعزمه على الغزو ويأمره بإعداد الميرة، فأجابه مستبشرًا، ولكنَّ اجتماع العامّة للجهاد أظهر بينهم من أصناف الفرق كالبنوية والفتيان، مع وجود الخلاف بين أهل السنّة والشيعة ما حرّك الفتنة في مدينة السلام، فنهبت الأموال وقتل الرجال وأحرقت المحال، ومنها الكرخ مركز الشيعة ومحطّ التجارة. ثمَّ إنَّ بختيار أرسل إلى الخليفة يطلب مالاً للغزو فأجابه أنَّ صرف الأموال على من تجبي إليه وحفظ البلاد على من هي بيده وأنا ليس لي إلاّ الخطبة. فتردّدت الرسائل بينهما حتّى بلغت إلى التهديد، فبذل الخليفة أربعمائة ألف درهم لأجل الجهاد التزم لأجلها أن يبيع من ثيابه وأنقاض داره، فلمّا دفعها إلى بختيار صرف أكثرها في شهواته ولم يزحف إلى لقاء العدو. فلمّا رأى الروم ما رأوا من قعود المسلمين عن القتال عاودوا الكرّة، وطمع الدمستق في أخذ آمد فزحف إليها وفيها هزارمرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان، فكتب إلى أبي تغلب يستصرخه فسيّر إليه أخاه هبة الله ابن ناصر الدولة، واجتمعا على قتل الدمستق فلقياه سَلْخ رمضان [آخره] وكان في كثرة، إلاّ أنهما لقياه في مضيق تعجز الخيل أن تجول فيه فنصرهما الله عليه، وانهزم الروم وأخذ الدمستق أسيرًا وبقي في الأسر إلى أن مات في السنة التالية.

(٢) مُديل، الإدالة من الدَّولة والدُّولة (لغتان)، ومُديل الدين: ناصره والغالب به.

(٣) المحاتِد، مفردها مَحْتِد، والمحتِد: الأصل، تقول « فلان كريم المحتِد».

ودعاها إلى الحقّ بأوضح حجّة، وعدل بها عن عبادة الأوثان إلى طاعة الرحمن، وعن دين الشيطان إلى أرشد الأديان، فأصبح الناس على التعاطف والائتلاف عاكفين، وعن التهارج[١] والاختلاف عازفين[٢] إخوانًا في ذات الله متوازرين، وأقرانًا في السعي لرضاه متضافرين، يرمون أعداءهم عن يدٍ وساعد، ويرصدون لها أرصاد رجل واحد، نعمة من الله أسبغها عليهم، وموهبة أزلها إليهم، إذ يقول جلّ جلاله وعظمت كبرياؤه: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبهم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شَفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[٣]. والحمد لله الذي برأ أمير المؤمنين من شجر النبوّة الطيب، وذرأه من عنصرها الخالص المهذّب، وحباه بفضيلة الإمامة، وردّاه رداء الكرامة، وبوّأه منازل أسلافه الطيّبين، وحاز لهم مواريثهم أجمعين، وأهّله لعظيم ما استرعاه، وأعانه على الاستقلال بما استكفاه، وافترض طاعته على عباده وخلقه، وأنهضه فيهم بتأدية واجبه وحقّه، واختصّه بأمدٍ في الخلافة أطاله، ومدى فات به نظراءه وأشكاله، وحبّب إليه جواد العدل المنجّية، وجنّبه عوادل الجور المردية، فالدهماء[٤] بسياسته ساكنة، والرعيّة برعايته آمنة، والفتوح في أيامه متّصلة متقاطرة، والغنائم على المسلمين ببركته دارّة[٥] متواترة. وقد كنفه الله منذ منحه فضيلة هذه الآلاء[٦]، وحمله أوق[٧] هذه الأعباء منك، كلأك[٨] الله ومن ذويك وولدك وولد أخيك بركن[٩] لدولته لا يتزعزع ولا يتضعضع، وعضدٍ[١٠] لا يفتّ فيه، ولا تواطأ نواحيه، وعز[١١] لا يضام ولا يرام، ومؤيّد[١٢] لا يعجز ولا ينكل، وعمدة[١٣] لا يضعف ولا يفشل. فرايات أمير المؤمنين أين توجّهتم بها منصورة، وجيوشه أنّى صرفتموها ظافرة موفورة،

---

(١) التهارج: الفتنة والاختلاط.

(٢) منصرفين.

(٣) من الآية: ١٠٣، من سورة آل عمران.

(٤) جماعة الناس.

(٥) دارّه، من درّ، درّت فهي دارّة، والدرّ، أصلاً للبن يدرّه الضرع، ثمّ هو (مجازًا) دَفْق الخير.

(٦) الآلاء: النعم.

(٧) الأوق: المشقّة (عمومًا).

(٨) كلأ: حَفِظَ وحرس.

(٩) أي ركن الدولة بن بويه.

(١٠) أي عضد الدولة بن ركن الدولة.

(١١) أي عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة.

(١٢) أي مؤيّد الدولة أخو عضد الدولة.

(١٣) أي عمدة الدولة أبو اسحق أخو بختيار.

وعوائد الله عليه بكم وعلى أيديكم جارية، وفوائده إليه ببركتكم ويُمنكم متوافية، وأنت حفظ الله النعمة فيك، سِنخ[1] تلك الأُرومة[2] وعظيمها، وعميد تلك الجرثومة[3] وزعيمها، قد أنبت خطيّها[4] وشيجك، وقوّم أغصانها تخريجك، وتشعّبت شعبها من أصولك، احتذت فروعها على تمثيلك، وناب عزّ الدولة أبو منصور، مولى أمير المؤمنين، أمتع الله به عنك[5] حرس الله فيك النعمة، وعن شيخه معزّ الدولة أبي الحسين، تولاّه الله بأوسع الرحمة، أتمّ نيابة وأوقاها، وخدم أمير المؤمنين في مَهمِّه أوفى خدمة وأشفاها، لا يذخره نصحًا ولا يألوه جهدًا[6]، في ضبط الثغور وسدّها، ورمّ الأمور وشدّها، وترتيب الأحراس بمراكزها، وتسريب البعوث في مقاصدها، ومجاهدة الكفّار ومقارعتها، ومناضلة الأعداء ومدافعتها، وإصلاح البلاد وعمارتها، ورعاية الرعيّة وسياستها، يسافر رأيه وهو دانٍ لم يبرح، ويسير تدبيره وهو ثاوٍ لم ينزح[7]، يتناول المعالي بثاقب حَزْمه، ويفترع الهضاب ببعيد همّه، ويصيب الأغراض بصائب سهمه، ويطبّق المفاصل بصواب عزمه، والله يمتع أمير المؤمنين بك وبه، ويدافع له عنك وعنه، فقد أرقدتما طرفه بيقظكما، وأرغدتما عيشه بحفظكما، ووصلتما أيام دعته بدأبكما، وأطلتما زمان راحته بنصبكما[8]، ولا يُخليه فيكما وفي أهليكما من نعمة يُعدّها الأولى من نعمه عليه، ومنحة يعتدها العظمى من منحه لديه، بلطفه وعطفه وجوده ومجده.

وقد عرفت أحسن الله الولاية فيك، ما كان من عظيم الروم، لمّا تطاول «بواسط» مقام عزّ الدولة أبي منصور، مولى أمير المؤمنين، رعاه الله وثقته ببعد المسافة، على أبي تغلب فضل الله بن ناصر الدولة، عامل أمير المؤمنين، في الاستصراخ والاستنجاد، وطول الشقّة في الاستنصار والاستمداد، وانتهازه هذه الفرصة، واهتباله هذه الغُرة، ومسيره في العدد الجمّ من الكفّار، وتناهيه في الاحتشاد والاستكثار، وتوغّله في دار الإسلام إلى «نصيبين»، وإيقاعه

(١) أصل.

(٢) الأُرومة: الأصل والحسب.

(٣) الجرثومة: الأصل الأساس.

(٤) الخطّ سيف البحرين وعُمان، وقيل: مرفأ للسفن بالبحرين يؤتى إليه بالرماح من الهند، والنسبة إليه خَطّي وخِطّي على القياس وعلى غير القياس.

(٥) متعلّق بقوله: ناب.

(٦) لا يألو جهدًا: لا يقصّر ولا يُبطئ عنه.

(٧) هذا من المواضع التي أخذ فيها ابن الأثير على الصابي تكراره لغير فائدة جديدة.

(٨) النصب: التعب الشديد.

ونكايته بمن بها من المسلمين والمعاهدين[1]. ووردت في أثر ذلك، كتب أبي تغلب إلى أمير المؤمنين، وإلى عزّ الدولة مولاه حفظه الله وتولاّه، بشكوى ما نزل به وحلّ بساحته، والتماس مدد يزيد في عدّته ومنّته، فأهمّ أمير المؤمنين ما ورد منه طويلاً، وأقلقه شديدًا، وبعثه على استقدام عزّ الدولة كَلأه الله، والجيوش التي برسمه نصره الله، فثنى عِنانه إليها مسرعًا مبادرًا، ولبّى دعوته مجيبًا مثابرًا، وعاد إلى مكانه من الخدمة، ومقرّه من الحضرة، وامتثل أمر أمير المؤمنين في إنجاد أبي تغلب، بجمع كثيف من الرجال الذين يصلحون للقاء الروم، وبالأبطال المختارة من طوائف الأعراب والأكراد، فتوافت هذه الجموع إليه وتكاثرت لديه، واتّفق والمجرّدون من الحضرة، على استنفاد الوسع والنصرة، وتوكّلوا جميعًا على ربّ العالمين واستنجدوا بشعار أمير المؤمنين، وأثروا في الطغاة الكفرة والبغاة الفجرة، أثرًا بعد أثر، وظفروا بهم ظفرًا بعد ظفر، إلى أن ختم الله بورود الكتب، مقتصًّا فيها حال غزاة بعض أصحابنا بنواحي «موش»[2] و«طرون» وأنهم وردوا منها بلادًا قد اغترّ أهلها بوعورة مسالكها، وخشونة مناهجها، وظنّوا أنَّ الأمد في بلوغها بعيد والوصول إليها شاقّ شديد، فأدال الله منهم، وجعل الدائرة عليهم، فملكوا قسرًا وقهرًا، وبولغ فيهم قتلاً وأسرًا، وامتلأت أيدي المسلمين من السبي والرجال، والدواب والبغال، والأموال والأثقال، والغنائم والأنفال، وانصرفوا غانمين سالمين، والحمد لله حمد الشاكرين. وإنَّ عسكرًا لأعداء الله، خرج مع عدّة من عظمائهم المعروفين بالزراورة إلى حصن للمسلمين بـ «بدليس»[3] و«سميرام» قد كان شُحن بمن يحميه، ورتّب فيه من الرجال مَن يكفيه، فلمّا نازلوه واستحكم طمعهم فيما حاولوه، نهد[4] لهم جميع أولئك الرجال، واستعانوا بالله ذي الجلال، فرزقهم النصر عليهم، وقتلوا عددًا يفوت الإحصاء منهم، ولله الطول ومنه العون. وتواترت بعد ذلك على أبي تغلب والمنفذين إليه، أخبار عسكر ببطن «هنزيط»[5] ونواحيه، ومعبر الفرات وما يليه، وذكر كثرة عدده وعِدده، وعظم حشده ومدده، فأنفذ أخاه هبة الله بن ناصر الدولة، في معظم الرجال الذي أمدّه بهم عزّ الدولة رعاه الله؛ إذ كانوا أقوى تلك الطوائف المجتمعة لديه، وأولاها بعائدة النصر والظفر عليه، وفيمن انضوى إليهم من قبائل

(١) أهل الذمّة.

(٢) مركز لواء في هذه الأيام.

(٣) مركز ولاية.

(٤) نهض.

(٥) هذا المكان ورد في شعر المتنبّي عند قوله:

عَصَفْنَ بهم يوم اللُّقان وسُقْنَهم ... بهِنزيط حتّى ابيضَّ بالسَّبي آمد

الأعراب وصناديدها، وفُتّاك الأكراد وصعاليكها، وساروا بصدور منشرحة، وآمال منفسحة، ووردوا ظاهر «آمد» يوم الثلثاء لثلاث ليالٍ بقين من شهر رمضان، سنة اثنتين وستّين وثلثمائة، فعرفوا صحّة خبر الدمستق لعنه الله، وحصوله على أفواه الدروب في خمسين ألف رجل، منهم عشرون ألفًا من المُدجَّجة وذوي المراتب المقدّمة، وتلوّم[1] أصحابنا بها يريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرّة تقدّم بهم الآجال ومرّة تُحجم بهم الأوجال[2]، ثمَّ تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان[3] في يوم الجمعة الذي ختم الله به شهر الصيام، وحتم فيه بالظهور للإسلام، فثبت الطغاة اغترارًا بوفور عددهم، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالمخنّق، وصدقوهم القتال في المعترك الضيّق. فلمّا استعرت الملحمة، وعلت الغَمْغَمة[4]، ودارت رحى الحرب، واستحرّ الطعن[5] والضرب، واشتجرت[6] سُمْر الرماح، وتصافحت بيض الصفاح[7]، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفّار بالويل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدين في الهزيمة، واعتدّوا الحشاشات[8] لو سلمت لهم، من أعظم الغنيمة، واستلحمتهم السيوف، واحتكمت[9] فيهم الحُتوف، وأخذ المسلمون منهم الثأر، وعجّل الله بأرواحهم إلى النار، وأُسر، بعد قتل ألوف منهم في المعركة، الدمستق رئيس عساكرهم وقائدها، ومدبّر حروبهم ومرتّبها، وما أخذ المسلمون قبله دمستقًا، وذلك من غرائب النعم التي بانت وتوالت في أيام أمير المؤمنين طلقًا ونسقًا، وحصل معه المعروف بأبن البلنطس وهو طريده[10] في الرئاسة، ورسيله في السياسة، وجماعة من البطارقة والزراورة والأراخنة والطراخنة[11]، قد أذلّهم الله بوثاق الأسر، وأذاقهم وبال الكفر، وأفاء على أوليائه الصالحين من الخيل والسواد والأسلحة والأسلاب، ما ازدادت به قوّتهم، واشتدّت معه شوكتهم. وانبسط أهل الثغور في جميع

---

(١) تأخّر.

(٢) الأوجال، مفردها وَجَل: خوف.

(٣) البطان: الحزام الذي يُجعل تحت بطن البعير، يقال التقت حلقتا البطان للأمر إذا اشتد.

(٤) الغَمغمة: أصوات الأبطال عند القتال.

(٥) استحرّ الطعن كناية عن اشتداده، أخذوا له اشتقاقًا من (حَرّ) على غير القياس.

(٦) اشتجرت: اشتبكت اشتباك الشجر لكثرتها وتلاحمها.

(٧) بيض الصفاح كناية عن السيوف.

(٨) الحُشاشة: بقيّة الروح.

(٩) يقال حكمه في الأمر فاحتكم، جاز فيه حكمه، جاء فيه المُطاوع على غير القياس إذا القياس تحكّم.

(١٠) ثانيه.

(١١) البطارقة والزراورة والأراخنة والطراخنة: نسبة إلى بَطرق، وعرب الزرور، وطرخان (التركي) والأراخنة (لفظ معرّب) معناه: القادة.

غلاّتهم مستبشرين، وانتشروا في مسالكهم ومعايشهم آمنين مطمئنّين، ونفذ كتاب أمير المؤمنين إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة، وكتاب عزّ الدولة أبي منصور تولاّه الله إليه وإلى مَن كان أنجده بهم، بالإحماد على ما عملوه سالفًا، والإرشاد إلى ما يعملونه آنفًا، وأن يتناهوا في التوثّق من عدوّ الله الدمستق، ومن قرينه ابن البلنطس، والوجوه المأخوذين معهما، المأسورين بأسرهما، وإنفاذ رؤوس مَن قُتل مِن الأكابر، دون مَن يفوت الإحصاء من الأصاغر، ففعلوا ذلك، وورد مدينة السلام من هذه الرؤوس العدد الكثير الذي امتلأت به العيون قرّة، والصدور شفاءً. فالحمد لله الذي أنجز وعده، وأعزّ جنده، وجعل رايات أمير المؤمنين منصورة، وعداته مقهورة، وهو المسؤول إتمام ما أسدى من عارفة ومنّة، وإسباغ ما أولى من موهبة ونعمة. أَعلمك أمير المؤمنين ذلك لتأخذ، حفظك الله، بحظّك الوافر منه، وتضرب بسهمك الفائز فيه؛ إذ كان نتيجة تدبير عزّ الدولة، أمتع الله ببقائه الذي فضله منسوب إليك، وجمال أثره عائد عليك، ولتتقدّم بإشاعته وإذاعته والتحدّث به، وإفاضته والكتاب، بشرحه إلى الأعمال التي تليك، والأطراف المتّصلة بنواحيك، فيشترك الخاص والعام في الجَذل به، ويستوي القاصي والداني في الابتهاج له إن شاء الله.



وكتب في هذا المعنى عن عزّ الدولة أبي منصور ابن معزّ الدولة، إلى ركن الدولة أبي علي

كتابي أطال الله بقاء مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، ومولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام علاءه، على أفضل ما أولاه الله من نفاذ الأمر وعلوّه، وعزّ السلطان وسموّه، ونصر الأولياء وظهورهم، ونكال الأعداء وثبورهم، وأنا متعلّق بالعُروة الوُثقى من طاعته، متمسّك بالعصمة الكبرى من مشايعته، مكنوف[1] بظليل ظلّه، وجميل رأيه، محفوف بغامر طَوله، وجزيل حبائه[2].

والحمد لله حمدًا يقضي الحقّ ويؤدّيه، ويستديم الصنع ويمتريه، وقد عوّد الله مولانا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، وكبت أعداءه، في سائر أغراضه ومراميه، وأنحائه ومغازيه، إحراز الغاية من مراده، وتطبيق المفصل من اعتماده، وتذليل صعاب الخطوب إذا عَرَت[3] وأعضلت[4]، وتنوير دياجيها إذا اعتكرت وأشكلت، وردّ صدور الطغاة المدلّين بالنجدة والبأس، وعكس رؤوس البغاة المتمادين في الإباء والشماس[5]، حتّى يستبيح نفوسهم وذراريهم، ويقوض عروشهم ومبانيهم، ويتملّك معاقلهم وديارهم، ويفتتح معاصمهم وأعصارهم[6]، وذلك بظلّ الله الممدود عليه، وإحسانه المتّصل إليه، ونعمه المطيفة به، ومنحه المسبَّبة له، وبما عرفه جلّ وعزّ، من طائر مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة الأيمن السنيح[7]، وسعيه الأرشد الربيح، وطالعه السعيد الحميد، وتدبيره المنتظم السديد، واجتهادي في الخدمة التي أنا فيها سالك سننه وسبيله، وقافٍ أثره ودليله، وبانٍ على أصوله وعقوده، وحاذٍ على أمثلته وحدوده. والله يهنّي كلاً من أمير المؤمنين، وسيِّدنا الأمير ركن الدولة، جليل ما منح وأولى، ويبارك له في جزيل ما وهب وأعطى، ويصل أيام بقائهما، ويديم مدّة علائهما، ولا

---

(١) مكنوف: محاط.

(٢) الحباء: العطيّة (يجوز في الحاء الضمّ والكسر).

(٣) عرت (من عرى)، عراه الخطب: غشيه وأصابه ونزل به.

(٤) أعضل الأمر: اشتدّ وضاق.

(٥) المعادة والمعاندة، قال:

قَوم إذا شومسوا لَجّ الشّماس بهم ... ذات العَناد، وإن ياسرتهم يَسِروا

(٦) عَصَر بالشيء واعتصر به كاعتصم، والعَصَر محركة، الملجأ والمستخفى، وقد قيل في قوله تعالى فيه يغاث الناس وفيه يعصرون أنه من هذا، بمعنى أنهم ينجون من البلاء.

(٧) السنيح والسانح: ما أتاك عن يمينك من ظبي وطائر، والبارح، ما أتاك عن شمالك. والعرب تتيمّن تتشاءم بالسانح والبارح؛ فأهل نجد يتيمّنون بالسانح وأهل الحجاز يتيمّنون بالبارح، والظاهر أنَّ الصابيء متابع لأهل نجد الذين يقول شاعرهم ذو الرمة [لقب غيلان بن عُقبة، المتوفّي نحو (٧٣٥م) شاعر أموي عاصر جرير والفرزدق].

خليليّ لا لاقَيتما ما حَيِيتما ... مِنَ الطير إلاّ السانحات وأسعدا

يعدمهما درور أخلاف[1] العوائد عليهما، وتتابع مواد الفو ائد إليهما، ولا يخليني فيما أنوب عن مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة فيه، وأحمله من صنائعه وأياديه، من توفيق يقرب منه، ومعونة تحظى عنده، ونهوض بفريضة شكره، واستقلال بتأدية حقّه، بمشيئته وإذنه وقدرته ومنّه، وقد عرف مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، أطال الله بقاءه، الحال التي كانت في انتهاز عظيم الروم الفرصة، أيام مقامي "بواسط" وبُعدي عن الحضرة، واهتباله، من أبي تغلب فضل الله بن ناصر الدولة، الغرة مع طول الشقة بيننا إذا استدعى النصرة، وإطلاله عليه بالجموع الزائدة العدد، الوافرة المدد، التي حفّزه[2] أمرها عن انتظار الأنجاد، ولم يكن له قبل بها مع التوحّد والانفراد، وإنَّ ذلك اللعين دوّخ ما في يده من أعمالنا مُتولّجًا، وأمعن فيها متوغّلاً متلجلجًا[3]، حتّى انتهى إلى "نصيبين"، ونكأ فيمن بها من المسلمين والمعاهدين، وانصرف وهو للعَود إليها معتقد، وبالكرّة عليها متوعّد. ولمّا وردت كتب أبي تغلب، أيّده الله، بشكوى هذه الحال إلى مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وأعزّ نصره، وإلى التماس النجدة منه، أدام الله سلطانه، ومنّي، أمرني أعلى الله أمره، بتقديم الأكفاء وتعجيل الأمناء، فبادرت فيمن برسمي من جيوشه الموفورة وعساكره المنصورة، وأجبت أبا تغلب عن الاستصراخ[4]، بما يشدّ منه ويشجّعه، وأعلمته أنَّ الإصراخ يتلوه ويتبعه، ثمَّ أنهضتُ إليه من أصناف الرجال المختارين والأبطال المنتخبين، مَن يصلح لمقارعة الطاغية، ويُغني في لقاء تلك الفئة الباغية، وأضفت إليهم من فتاك الأعراب وفرسانهم، وصعاليك[5] الأكراد وشجعانهم، مَن قويت بهم منّته وتضاعفت معهم عدّته. فاستأنف حينئذٍ أمره استئناف المفرخ[6] روعه، المنشرح صدره، القوي قلبه، الثائب[7] لبّه[8]، وسار إلى ديار بكر، فيمن برسمه من بني أبيه، وطوائف أولياء أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، التي تليه، ومَن أنفذته من المدد الذي توافى إليه وتكاثف لديه، وسهّل الله للجماعة من نجاح المطالب، وبلوغ المآرب، والاعتلاء والظهور، وشفاء النفوس والصدور، ما تتابعت به الأنباء، وعظمت معه النعماء، وأرانا الله

(١) درور الأخلاف (لغة): ما تدرّه ضروع الناقة من اللبن (الحليب) والمعنى المقصود: لا أعدمهما الله الخير.

(٢) ساقه.

(٣) تلجلج بالشيء: بادر، وإن كانت مُلجلجًا فهي من لجلجه عن الشيء: أداره ليأخذ منه.

(٤) الاستصراخ: الاستغاثة والإصراخ: النجدة.

(٥) صعاليك: لصوص.

(٦) أفرخ الروع وفرّخ: ذهب الفزع، يقال أفرخ روعك بمعنى سكن جأشك.

(٧) الثائب (مِن ثاب): عاد.

(٨) اللبّ: العقل.

فيه حُسن العواقب والتوفيق، والرأي الزنيق[1]، والتدبير المنتظم، والترتيب الملتئم. ولم يزل ذلك يستمرّ بهم إلى أن كانت الوقعة العظمى، بينهم وبين دمستق[2] الروم المشتمل على أمورهم، والقائد لجيوشهم، والنائب عن عظيمهم في مهمّاته، والقائم مقامه في ملمّاته، وأجلت بعد تنازل الأبطال وتعارك الرجال، واضطرام الحرب، واشتجار الطعن والضرب، عن ظفر الأولياء البررة وهزيمة الأعداء الفجرة، وعلوّ راية المسلمين، وتنكّس راية الكافرين، وحصول هذا الدمستق، وطريد له في الرتبة يعرف بابن البلنطس، وجماعة من متقدّميهم وكبرائهم، وأماثلهم وعظمائهم، قد اشتمل عليهم الأسر، وأحاطت بهم رِبقة[3] القَسر، وأمكن الله أصحابنا من نواحيهم، وأنالهم أقصى الأماني فيهم، واستمرارهم بعد ذلك فيما أحلّوه بالباقين، من قتل عظيم ذريع، وعذاب أليم وجيع، وفيما حازوه من السبي والكراع[4]، والأمتعة والأسلاب. وأسرعت إلينا كتب أبي تغلب أيّده الله، مبشّرًا بهذا الفتح العظيم قدره، الجليل خطره، ومثنيًا على أصحابنا أحسن الثناء، وواصفًا ما كان لهم من مواقف الغناء، وواعدًا بإنفاذ ألف راس من رؤوس الأكابر، دون من يفوت الإحصاء من رؤوس الأصاغر، فلمذهبي، أيّد الله مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، في ترك العجلة إلى مكاتبته بما يجري هذا المجرى، إلاّ إذا وردت به كتب أصحابنا، ووفدت فيه رسل ثقاتنا، توقّفت انتظاراً، وتأنّيت استظهارًا، إلى أن كتبوا بمثل الحكاية التي تقدّم ذكرها، وأنفذ أبو تغلب أيّده الله، الرؤس التي سبق وعده بها، فشُهرت بمدينة السلام، وأعز الله بذلك الإسلام، وكثر الدعاء لمولانا أمير المؤمنين، ولسيِّدنا الأمير ركن الدولة، بأن يثيبهما الله أجزل ثوابه، ويجازيهما أفضل جزائه، ويتوخّاهما بالصون، ويمدّهما بالعون، ويتولاّهما في عزائهما بالصلاح، وفي مساعيهما بالنجاح، وفي أوليائهما بالعزّ والنصر، وفي أعدائهما بالذلّ والقهر، والله يسمع دعاءهم، ويجيب نداءهم، ويهنئ مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، هذه البشرى، والنعمة الكبرى، ويوفقه للشكر عليهما، الداعي إلى اتّصال أمثالهما، ويجعله في حِرْزه الحريز[5]، ويمدّه بنصره العزيز، ويؤيّده في الأمور أجمل التأييد، ويمكن له فيها أتمّ التمكين، بجوده ومجده وحَوله وطَوله.

(١) المحكم الرصين.

(٢) الدمستق: مَن ينوب عن إمبراطور الروم في قيادة جيوشه، من هنا قوله: النائب عن عظيمهم.

(٣) الربقة: عُروة الحبل، يُكنّى بها عن الكربة والقيد والضيق.

(٤) الكراع: الماشية (في مطلق اللفظ).

(٥) الحِرز الحَريز: حِصن حَصين.

وقد أمر مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، بمكاتبة سيِّدنا الأمير، ركن الدولة أدام الله نعماءه، باقتصاص لهذا الفتح طويل، وشرح له وتفصيل. فكتب عنه أيّده الله بما كتابي هذا ينفذ بنفوذه، ويصل بإذن الله بوصوله، فإن رأى مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة، أطال الله بقاءه، أن يأمر، لا زال أمره عاليًا وسلطانه ساميًا، بتعريفي وصول ما صدر من ذلك إلى حضرته، وما يبلغه في إبهاجه ومسرّته فعل إن شاء الله.



وكتب عن عزّ الدولة، إلى الملك عضد الدولة جوابًا عن كتابه بفتح جبال القُفْص والبلَوص[1]

كتبت، أطال الله بقاء سيِّدي الأمير عضد الدولة، لليلة بقيت من شهر رمضان، أعاد الله إليه أمثاله، وتقبّل فيه أعماله، وأصلح في الدنيا والآخرة أحواله، وبلّغه منهما آماله، والأمور جارية على ما يُؤْثره، أيّده الله في السداد والانتظام والاستقامة والالتئام، والحمد لله حمدًا لا تنقضي غايته ومداه، حتَّى يقضي حقّه ويبلغ رضاه. ووصل كتاب سيِّدي الأمير عضد الدولة أدام الله عزّه، بما سهّله الله وعلى يده، ويسّره بيمنه وبركته، من فتح جبال القُفْص والبلوص، وما بلغوا أدام الله علوّه من أهلها المعادين، كانوا، للملّة العادلين عن سبيل الله، حتَّى استنزلهم عن معقل بعد معقل، واستباحهم في موبل بعد موبل، وقتل حُماتهم، وأفنى كُماتهم، وأباد خضراءهم وغبراءهم، وعفى معالمهم وآثارهم، وألجأهم إلى الإذعان وطلب الأمان، وتسليم الرهائن، والإفراج عن الذخائر، والاستقامة على سواء الدين، والدخول في عصمة المسلمين، وفهمته، وحمدت الله على ما منح الأمير عضد الدولة، حمد المتحقّق بما أفاء[2] الله عليه، المغتبط بما أزله إليه، المشارك له فيما يخصّه، المساهم له فيما يمسّه، ووجدت الأثر فيه كبيرًا بمؤثِّرِه، والتدبير جليلاً كمدبّره، وتلك عادة الأمير أيّده

(١) سنة سبع وخمسين وثلثمائة، استولى عضد الدولة على كرمان وكان فيها اليسع من آل الياس أصحابها، والسبب أنَّ الياس هذا، سولت له نفسه مغالبة عضد الدولة على حدود ملكه، وكان بعض أصحابه قد فارقوه والتجأوا إلى عضد الدولة. فسار إليه فحمل أمواله وانهزم إلى بُخارى، ووضع عضد الدولة يده على كرمان وأقطعها ولده أبا الفوارس، واستعمل عليها كوركير بن جستان، وما تمّ له الاستيلاء عليها، حتّى اجتمع القُفْص والبَلُوص [القُفْص أو القُفْس والبَلُوص: جبل بكَرِمان، في حيالها كالأكراد، تسمّوا بأسم جبل القفص وجبل البلوص وهي من جبال كَرِمان وهو إقليم يقع بين خُراسان وبلاد فارس] وفيهم أبو سعيد البلوصي، وأولاده على كلمة واحدة في الخروج، فضمّ عضد الدولة إلى كوركير عابدًا بن علي، فسار إليهم بجيش والتقى الفريقان في عاشر صَفر فاقتتلوا واشتدّ القتال وأسفر عن هزيمة القفص، فقتل منهم خمسة آلاف من فتيانهم وفرسانهم، وقتل اثنان من ولد أبي سعيد. ثمَّ تعقّبهم عابد يُثخن فيهم أينما لقيهم، إلى أن انتهى إلى هرموز فملكها، وافتتح بلاد التيز ومكران وأسر ألفَي أسير، والتمس الباقون الأمان على أن يسلّموا حصونهم وينزعوا شعار الحرّية ويقيموا حدود الله. ثمَّ سار عابد إلى قبائل أُخر يُعرفون بالحرومية والحاسكية، كانوا عصاة يقطعون السوابل، فأوقع بهم وأثخن ومهّد بلادهم لعضد الدولة، وما لبث البلوص أن عادوا إلى ما كانوا عليه من التمرّد والاعتداء وسفك الدماء، فسار حينئذٍ عضد الدولة إلى كرمان ورماهم بعابد بن علي مرّة ثانية، فنهد إلى قتالهم بجيش كثيف. فلمّا أحسّوا به أوغلوا في الهرب وسكنوا إلى مضايق، ظنّوا أن لا قبل للجيوش فيها، فما شعروا إلاّ وقد أطلّ عابد عليهم في تاسع عشر ربيع الأول من سنة إحدى وستّين وثلثمائة، فصبروا سحابة يومهم، لكنّهم انهزموا آخر النهار، وقُتل أكثر رجالهم وسبي النساء وبقي القليل، فطلبوا الأمان فأجيبوا إليه، ونقلوا عن تلك الجبال، وأسكن عضد الدولة مكانهم الأكرة والزراعين، فطبقوا تلك الأرض بالعمل.

(٢) الفيء، الغنيمة والخراج، وأفاء الله على المسلمين مال المشركين، أعطاهم إيّاه بدون حرب ولا جلاد، وأصل الفيء، الرجوع كأنه كان في الأصل لهم فرجع إليهم، وقيل الفيء ما ردّ الله تعالى على أهل دينه من أموال مَن خَلَف دينه بلا قتال، إمّا بأن يجلوا عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين، أو يصالحوا على جِزية يؤدّونها عن رؤوسهم، أو مال غير الجِزية يفتدون به من سفك دمائهم.

الله، في الصمد للفاسد حتَّى يصلح، وللمعتاص[1] حتَّى يسمح، وعادة الله عنده في المعونة الضامنة للنجاح، الكافلة بالفلاح. فما ترد عليَّ من جهته بشرى، إلاّ كنت متوقّعًا لتالية لها أخرى، ولا استقلّ منها بشكر ماضٍ سالف، إلاّ ارتهنني بترقّب حادث مستأنف، والله اسأل، أن يهنئه نعمته، ويملأه موهبته، ويبلغه في الدين والدنيا آماله، ويجمّل فيهما أحواله، ويجعل رايته منصورة على أعدائه، صغروا أم كبروا، وكلمته العليا عليهم، قلّوا أم كثروا، ويمكّنه من نواصيهم سالموا أم حاربوا، ويقودهم إلى التسليم له، رضوا أم كرهوا، ولا أعدمه فيما اختصّه به من حَباء وكرامة، وظاهرة عنده من إعلاء وإنافة، مزيدًا تتّصل مادّته إليه وتحلّ عائدته عليه، بحَوله وطَوله. والأمير عضد الدولة أطال الله بقاءه، وليّ مواصلتي بما يُبهجني من أخباره، ويُغبطني من آثاره، ويسرّني من عافيته، ويؤنسني من سلامته، وامتثله من أمره ونهيه، وأقف عنده من حدّه ورسمه، إن شاء الله.

(١) المتشدّد.

وإليه في هذا المعنى عن الوزير ابن بَقِيَّة

وصل كتاب مولانا الأمير عضد الدولة أطال الله بقاءه، مبشّرًا بما وليه الله به، من الفتح العظيم، والمنح الجسيم، في الإيقاع بطوائف القُفْص والبَلوص، ومقتصًّا حالهم، كانت في المقام على المعهود من كفرهم وضلالهم، وعيشهم وفسادهم، واستحلالهم ما حرّم الله من أموال أهل الملّة والذمّة ودمائهم، وما كان بلغه أيّده الله، في إطفاء نائرتهم، وإخماد جمرتهم، واستنزالهم عن معاقلهم، والإيغال في طلبهم، والنكاية فيهم، والإثخان لهم، حتَّى كفّوا ونزعوا واتّعظوا واتّزعوا[1]. وافتتح أيّده الله من بلادهم "متوجان"، وألجأ مَن أمهلته المنيّة منهم إلى الأمان، فوجدوه عنده مبذولاً لمن اعتصم به، ممهّدًا لمن جنح إليه، وإنّهم تمسّكوا بذمامه تمسّكًا لم يزالوا فيه آمنين، ولِعُقباه حامدين، إلى أن نزت بهم البطنة[2]، وأدركتهم الشقوة، واشتاقوا إلى العادة السيّئة والطعمة الخبيثة، فعادوا إلى العَيث في البلاد، والسعي في الفساد، ونقضوا ما كانوا أمروه لأنفسهم، ونكثوا، فعاد النكث عليهم، وعوّلوا على التعلّق بما كان باقيًا في أيديهم من جبالهم المنيعة، ومعاصمهم الحصينة. وإنّه أيّده الله قرّر رأيه على التوقّل[3] فيها، وأمضى عزمه في التوغّل إليها، فجرّد أدام الله عزّه إليهم من قوّاده المنصورين وأوليائه الميامين، مَن حلّ منهم بالعقوة، ثمَّ ناهضهم إلى الذروة، حتَّى افتتحت تلك القلاع، وافتُرِعت[4] أيّ افتراع، واقتسمت أهلها بادرة سطو طوّحت بجانبهم، وعائدة عفو أبقت على مستأمنهم، وأفضوا إلى أن أعطوا بأيديهم، وسلّموا رهائنهم، واستأنفوا السبل الرصينة، وسلكوا مسالك الرعيّة، واستقاموا، ووطّأ الله تلك البلاد بعد استصعابها وإبائها، وأرشد تلك الأمّة بعد كفرها وضلالها. وفهمته[5] ووجدت هذا الفتح، أيّد الله مولانا الأمير عضد الدولة، أعظم الفتوح موقعًا، وأجلّها في الإسلام أثرًا، لِما فيه من صلاح الجمهور، وشفاء الصدور، وحقن الدماء، وسكون الدهماء، وعزّ السلطان وأهل ولايته، وذلّ الأعداء النادّين[6] عن طاعته، فما أبلغ من الوصف لفضله، والذكر لنفعه، والإشادة[7] له، والشكر

---

(١) اتّزعوا: كفّوا وامتنعوا.

(٢) نزت بهم البطنة: يقال لمن لا يحتمل النعمة ويبطر.

(٣) التوقّل: الأصل فيها الصعود في الجبل. وهي لا تعني التوغّل والتنقّل، لخاصّيتها في الاستعمال.

(٤) افترعت، تقول: تفرّع الشيء: علاه، والافتراع كذلك.

(٥) معطوف على وصل كتاب مولانا، إلخ.

(٦) النادّين: الخارجين، والأصل فيها: ندّ البعير، إذا نفر وذهب شاردًا.

(٧) المعروف أشاده وأشاد به، لا أشادَ له.

للنعمة فيه مبلغًا، إلاّ رأيته عن الاستحقاق مقصّرًا، وللزيادة في الإطناب مقتضيًا؛ إذ كنت أعرف من الأمر مثل ما يعرفه أهل حضرة مولانا، أطال الله بقاءه، في البلوى، كانت بهؤلاء القوم وما هم معروفون به من الشدّة والقوّة، والغلظة والقسوة، والاستحلال لِما حرّمه الله وحظّره، والارتكاب لِما نهى عنه وأكبره، فلم تكن صعبتهم لتذلّ، وصعدتهم لتعتدل، إلاّ على يده ويمن دولته وبركة أيامه وسعادة جدّه؛ إذ كان الله عزّ وجلّ قد عوّده في جميع مراميه ومراماته، وسائر أغراضه ومعتمداته، تيسير المُتعذِّر، وتسهيل المُتوعّر، وفتح الفتوح المُستَغلقة، وكشف الغمم المُستَبهمة، بما يتكامل له أيّده الله وفيه من الحظّ المسبّبة أسبابه، والجدّ المُمِرَّة مرائره[1]، والبأس الذي لا يقام له، والحزم الذي لا يُبلغ مداه، والرأي الثاقب الذي لا تخفى مكائده وتظهر عوائده، والتدبير النافذ الذي تُنجح مباديه، وتُبهج تواليه. ومن وهب الله ما وهب لمولانا الأمير عضد الدولة من شرف الأعراق، وكرم الأخلاق، وعلوّ الهمّة، وجميل السيرة، وأدوات الخير، وآلات الفضل، كان تعالى ذكره، حقيقًا بأن يُعليه ويُظهره، ويبلغه كلّ أمل وأمنية، وينيله كلّ إيثار ومشيئة، ويوطئه رقاب أعدائه، ويتولاّه بالإعزاز في نفسه وأوليائه، ويمهّد له في الأرض بحسب استحقاقه، وينتهي به في سعة إقطار ملكه، وامتداد مدّته وسلطانه، إلى أقصى غايات استحبابه. ولولا أنَّ فتوحه الجليلة قد تواترت، وآثاره الجميلة قد تناصرت، حتَّى صارت كالأمر المعروف، والشيء المألوف، وكان أدام الله عزّه بسامي قدره، وعالي خطره، يجلّ عنها وإن جلّت، ويوفي عليها وإن أوفت، ويستحقّ من الثناء الطيّب والنثا[2] الحسن، ما يقصّر عنه كلّ بليغ وإن احتفل، وينقطع دونه كلّ خطيب وإن احتفز[3]، لتوسّعت في القول ولم أقتصر، وتصرّفت في الوصف ولم أقتصد، لكنّي أعلم من نفسي أني أقف من تقريظه عند أدنى الواجب، مع الإسهاب والبلاغ، وأقع فيه موقع المفرّط مع الاستفادة والاستفراغ[4]، وأعدل عن هذا المركب الذي لا أستطيعه إلى الدعاء الذي أثق بأنَّ الله مُجيبه وسَميعه، وأنا أسأل الله، أن يعرّف مولانا الأمير عضد الدولة بركة ما أفاءه عليه، ويهنّئه النعمة فيه، ويُيسِّر له الفتوح شرقًا وغربًا، ويمكّنه من نواصي أعدائه[5] سلمًا وحربًا، ويجعله في أحواله كلّها سعيدًا محظوظًا، وبعين عنايته

---

(١) المُمِرّة مرائره: الشديدة عزائمه.

(٢) النثا: يطلق على القبيح والحسن، يقال ما أقبح نثاه وما أحسن نثاه.

(٣) نهض واستعدّ.

(٤) الاستفراغ، تقول: استفرغ مجهوده، إذا لم يُبقِ من جهده وطاقته شيئًا.

(٥) وقد استجاب الله دعوة الوزير في نفسه؛ إذ غضب عليه عضد الدولة فيما بعد، فتمكّن من ناصِيته وقتله وصلبه كما سيأتي.

ملحوظًا محفوظًا، ولا يُخليه من مزيد تتوافى مادّته إليه، وإحسان لله يتكامل ويتظاهر لديه، ويصل ما منحه بنظائر تتلوه وتتبعه، وأمثال تقفوه وتشفعه، بمنّه وقدرته.

وقد شكرت تشريف مولانا أطال الله بقاءه إيّاي، فيما أهّلني له من المطالعة بما تجدّد، والبشرى بما تمهّد، وأضفت ذلك إلى سوالف من أنعامه، وسوابق من إكرامه، وقد بهظتني بتضاعُفها، وبهرتني بترادفها، لكن شكري أيّد الله مولانا، إنّما هو بحسب القدرة، وحيث تبلغ الطاقة، وهو جهد أمثالي وغاية أشكالي، من عبيده الذي عمّهم بطَوله، وغمرهم بفضله، ولي في كتبه أدام الله عزّه، المتضمّنة أمره ونهيه، أعلاهما الله، جمالٌ وفخر [1]، وصِيت وذكر [2]، ومولانا أطال الله بقاءه، ولي ما يراه في الأمور باعتمادي بها، وإمدادي بمادّة الخدمة فيها، إن شاء الله.

---

(١) (٢) جمال وفخر، وصيت وذكر، عائدة إلى «لي في كُتبه» مرفوعة على الابتداء المؤخَّر.

وكتب إليه عن نفسه، يهنئه بهذا الفتح، وبمولود رُزِقَه

وقفت على ما وردت به الكتب المبشّرة، والأنباء المبهجة، من توافي نعم الله عند مولانا الأمير الجليل، عضد الدولة، أطال الله بقاءه فيما فتحه من جبال القُفْص والبَلوص، حائزًا لها، ومشتملاً عليها، ومبيحًا حماها، وفارعًا ذراها، وبالغًا من عُتاة قطانها وطغاة سكّانها، ما أعيى القرون الخالية خطبه، وأعجز القُروم الأبيَّة صعبه، وفيما وهب الله من الأمير القادم والسعد الطالع، الذي زاده الله في عدد موالينا الأمراء السادة، وأجراهم على أحسن ما أسلف من سُنَّة وعادة، فنزلت لديَّ الفائدتان، أفضل منازلهما عند مثلي من العبيد، الذين يعرف الله منهم صادق الولاء، ويشهد لهم بخالص الصفاء والوفاء. وكنت فيهما إذا عدّ المتحقّقون بهما، أولاً في السرور والابتهاج، وسابقًا في الجذل والاغتباط، وبادرت إلى ما التزمه نذرًا، وافترضه حقًّا، من الصدقة الداعية إلى المزيد والدوام، الجالبة للكمال والتمام؛ فأمّا الفتح المسبّبة أسبابه، الميمون طائره، فمعلوم أنَّ الله ذخره، وحفظه عليه، وأملى[1] لأعداء الله إملاءً قدَّر به أن يكون هو، أيّده الله، آخذًا الثار منهم ومُحِلّ النكال بهم، لمضيّ الخلف بعد السلف، والآخر بعد الأول، على احتمال لنكاياتهم، وكظم لجناياتهم، واصطلاح على الصبر لهم، واتّفاق على الإغضاء عنهم، هذا وهم لا يؤتون من ضعف مِنّة، ولا نقصان قُدرة، ولا قصر مدّة، ولا انحطاط رتبة. وأمّا أمر المولود العالي جدّه، السامي محلّه، فالتاج بَهيّ بجبينه، والركاب تزهى بقَدَمه، والأمر والنهي يُرشِّحانه، والحلّ والعقد يرجبانه[2]، والخاصّة والعامّة تعتدّه، سماء جود يحيون بحياها، ويأوون إلى ذراها، وقد جعله الله عدّة الآباء من خدم هذه الدولة لأطفالهم، وذخيرة الأسلاف من أوليائها لأعقابهم، بالشمائل الناطقة بفضله وطَوله، والمخايل المؤذِنة[3] برفده ونَيله. فالحمد لله الذي تابع لمولانا المنايح طلقًا، وواصلها له نسقًا، وإيّاه نسأل أن يمتّعه بفذّها وتوأمها، ويتوخّاه باطِّرادها والتئامها، ويوفّر حظّه من الخيرات كلّها، ويُجزل قسمه من البركات بأجمعها، ويمدّ على ساحته ظلّ عزّه الذي لا يُضام، ويرعى جنباتها بعين حفظه التي لا تنام، ويُنيله من فوائد الدنيا، وعوائد الدار الأخرى ما ألتمسه له داعيًا مُبتهلاً، وأطلبه مُشتطًا مقترحًا، فإنَّ غايتي في ذلك لا تُجارى، ونهايتي لا تُدانى، بمنّه وطَوله، وجوده ومجده، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) أملى له: طوّل له وأمهله.

(٢) يعظمانه.

(٣) المُؤْذِنة، المُؤْذِن بالأمر: الذي يُعلِم به؛ والمؤذنة هنا، كأن تقول: المبشِّرة.

وكتب عن نفسه أيضًا إلى الملك عضد الدولة، يهنّئه بفتح جبال القُفْص والبَلوص، ويشكره على مالٍ أنفذه إليه من فارس، وصِلَةٍ، في سنة ستّين وثلثمائة

كتابي، أطال الله بقاءه مولانا الأمير الجليل عضد الدولة من «واسط»، يوم الاثنين لليلَتين بقيتا من شهر ربيع الآخر، والأمور التي يراعيها مستقيمة منتظمة، والنعمة في ذلك تامّة عامّة، وأنا لابس من جميل رأيه، وشريف اصطناعه، شعارًا ضامنًا للصيانة، كافيًا بالوقاية، حائلاً بين النوائب وبيني، دافعًا لأحداثها عنّي، آسيًا[1] لِما سلف من كُلومها[2]، جابرًا لِما سبق من ثُلومها[3]، واعدًا بأخلاف[4] ما أخذَت وأضعاف ما سلَبت. والحمد لله كما هو أهله، وشخصتُ إلى هذا الموضع[5]، أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل عضد الدولة، متوجّهًا إلى أعمال الأهواز، للخدمة فيما رُسم لي والتسكّع[6] في بقيّة بقيت من مغارم محنتي، ولله في أثناء ذلك، مواهب متظاهرة منشورة، وآلاء محمودة مشكورة، أفخمها شأنًا وأرفعها مكانًا، قرب الشقّة بيني وبين حضرته الجليلة، التي هي مقرّ عِزّي ومُراد[7] أملي، وأن أخطو إليها بقدمي، وإن لم أستطع الإتمام بمَقدمي، وتلك سعادة أغتنمها من الأيام، وأسرقها من الزمان، وقد استنجحت بما تلقّاني من الخبر السارّ المبهج، والنبأ المؤنس المغبط، فيما ولّى الله مولانا الأمير الجليل عضد الدولة به، من الظفر بطوائف القُفْص والبَلوص، والاستباحة لهم، والإتيان عليهم، والإدالة من مضارِّهم، والاقتصاص من سالف معارِّهم، والاشتمال عليهم بالبأس الشديد، والنصر العزيز، والقتل الذريع، والأسر العنيف، بعد تقديم الأعذار[8] والإنذار، واستعمال الإبقاء والإنظار، آخذًا منه أدام الله عزّه عليهم بالحجّة، وخروجًا فيما أحلّه به من الشبهة، ووقعت منّي هذه النعمة أجلّ موقعها، من الخدم المخلصين والعبيد المتخصّصين، لِما فيها من تمكين الدولة وتأييدها، وتثبيتها وتوطيدها،

---

(١) آسيًا، من أسا الجُرح (أسْوًا): داواه؛ وآسيًا: مداويًا.

(٢) كُلوم: جروح.

(٣) الثلوم، مفردها ثلم، وثَلَمَ: شقّ.

(٤) أخلاف، مفردها خلف، وأخلف الله عليه: عوّض.

(٥) شخص إلى الموضع: ذهب إليه.

(٦) يقال ما أدري أين تسكّع أي ذهب وأخذ، وتسكّع في أمره لم يهتدِ لوجهته.

(٧) بفتح الميم، مِن رادَ، التمس النجعة.

(٨) في الحديث الشريف «لقد أعذر الله إلى من بلغ من العمر ستّين سنة»، أي لم يبقَ فيه موضعًا للاعتذار، حيث أمهله طول هذه المدّة ولم يعتذر، وفي المثل أُعذر من أنذر.

والدلالة على أنَّ إقبالها يزيد جدّة وعنفوانًا على الأيام المهرِمة، وغَضارة[1] وريعانًا على العصور المخلِقة[2]، وأنَّ الله قد حتم لها بخذلان من عاداها وحاربها، وتجبين من ناوأها وناصبها، وجعل ذلك شرعًا لا ينسخه[3]، وعقدًا لا يفسخه، وعهدًا لا ينقضه، وذِمامًا لا يخفره. فما ينجم[4] لها ناجم يريدها، ولا يرصد لها مرصد يكيدها، إلاّ جزاه الله جزاءه، وردّاه رداءه، وقدّر له من مهابط إفكه مصرعًا، وخطّ له من مساقط هلكه مضجعًا، ووصل وَباله[5] في الدار الأولى، بنكاله في الدار الأخرى، عامًّا بذلك لِمن جلّ منهم ودقّ، وشاملاً لِمن قرب منهم وشطّ، حتّى استووا في الإدبار[6] وإن اختلفوا في الأوطار، واجتمعوا في البَوار وإن افترقوا في الأطوار. فالحمد لله على وافر أنعامه، وغامر أقسامه، وسَنيّ عطائه، وهَنيّ حبائه، حمدًا يكون لمواهبه قضاءً وجزاءً، ولمنايحه[7] كفاءً وأداء، وإيّاه أسأل أن يجعل مولانا الأمير عضد الدولة، منصور الحزب والغاية، ميمون الرأي والعزيمة، معقودًا له لواء العزّ والقهر، مضروبًا عليه رواق الظفر والنصر، وأن لا يخليه من ثغر يسدّه، وملك يربه، وأثر جميل يؤثره، وفتح مبين يفتحه، لتكون حضرته بعين الله الراعي لها ملحوظة، وأطرفها وأكنافها بالأولياء والصنائع محفوظة، مستوفيًا شرائط اليمن في ملكه، والتحيّز في قدره، والانفراد في نبله، والاشتطاط في محلّه، بجوده ومجده، ووالله أيّد الله مولانا الأمير ما تقدّمني أحد في السرور بما يؤتيه الله إيّاه من نعمةٍ زائدة، ومملكةٍ مستأنفة، وإنّي لأفخر بآثاره النبيهة، ومواقفه الحميدة، فخر الناهض المبلى مع حاضريها، والرائح الغادي مع خدمه فيها اعتلاقًا بحبله، واختصاصًا بجانبه، واعتزاءً إلى كنفه، وانقطاعًا إلى فنائه، بلغني الله الأماني فيه، وله والآمال منه وبه.

ووصل كتاب مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أطال الله بقاءه جوابًا وفهمته، وما اقترن به ثوابًا وقبضته، ووقع منّي موقع الماء من ذي الغلّة، والشفاء من أخي العلّة، وأعظمت قدر ما اختصّني به أيّده الله من عنايته، وأبانه من رعايته، وجعلت ذلك جنّة بيني وبين

---

(١) الغضارة: السعة والخصب.

(٢) المخلقة: البالية.

(٣) ينسخه: يُبطله ويُزيله.

(٤) ينجم: يطلع ويظهر.

(٥) الوَبال: الشدّة.

(٦) الإدبار: الموت.

(٧) قيل الأصل في المَنيحة أن يجعل الرجل لبن شَاته أو ناقته لآخر سنة، ثمَّ جُعلت كلّ عطية مَنِيحة.

الزمان، وأثرةً لي على الإضراب والإقران، وشكرت أنعامه مجتهدًا محتفلاً، وادرّعته مفتخرًا متجمّلاً، وتضاعف اغتباطي بقوّة الحرمة به، ووثاقة العصمة لديه، وجرى ذلك عندي مجرى الغرس الذي استقرّ أصله، واستطال فرعه، وثبت عرقه، وقويت شعبه، وأراني نفسي بصورة من استحكم في الجملة نسبه، وصار إليها منتسبه، وحصل فيها رهنه، وتوفّر منها حظّه، وأمضاني أن انبسط مكاتبًا مواصلاً، وقضى لي أن أبسط مأمورًا متهيّئًا، وإلى الله رغبتي في إطالة بقاء مولانا عمادًا لملكه، وجمالاً لدهره، وملاذًا لوليّه، ونكالاً لعدوّه، وألاّ يزيل عنّي ظلّه، ولا يسلبني طَوله، ولا يفجعني بالموهوب من رأيه، الذي هو عوض من كلّ مسلوب، وذريعتي إلى كلّ مطلوب، بقدرته، ومولانا الأمير الجليل عضد الدولة، أطال الله بقاءه، وليّ ما يراه ويأمر به، لا زال صائب الرأي، نافذ الأمر، من تشريفي بالمكاتبة، وتصريفي في عوارض الخدمة إن شاء الله.



وكتب عن نفسه، إلى الملك عضد الدولة وتاج المِلّة جوابًا عن كتابه بقتل بختيار بن معزّ الدولة، وانهزام أبي تغلب بن حمدان، والظفر بجماعة من القوّاد بالجانب الغربي بقصر الجص، المحاذي «لسرّ من رأى» وذلك في سنة سبع وستّين وثلثمائة(١)

(١) سنة ستّ وستّين وثلثمائة، سار عضد الدولة قاصدًا العراق لمحاربة ابن عمّه بختيار، لما كان يبلغه عنه وعن وزيره ابن بقية من شتمه القبيح، والتمالؤ مع أصحاب الأطراف، كحسنويه الكردي، وفخر الدولة بن ركن الدولة، وأبي تغلب بن حمدان، وعمران بن شاهين على عداوته، فضلاً عمّا كان يحبّب إليه العراق من حسن موقعه وعظم مملكته. فانحدر بختيار إلى واسط للقاء عضد الدولة، وكان حسنويه وأبو تغلب قد وعداه بالنجدة فلم يفيا بوعدهما، فسار بختيار إلى الأهواز والتقاه عضد الدولة إلى هناك، فاقتتلا، فمال بعض جند بختيار إلى عضد الدولة فانهزم بختيار، وأخذ ماله ومال ابن بقية، وفرّ شريدًا إلى واسط، فآواه ابن شاهين صاحب البطيحة وأهداه مالاً وسلاحًا، وعجب الناس من تصديق قول ابن شاهين عن بختيار، أنه سيدخل منزلي مستجيرًا، وأقام بختيار بواسط، وأحضر ما كان له من الأموال في بغداد وفرّقها في أصحابه، وقبض على وزيره ابن بقية لأنه جنى الأموال لنفسه، واستبدّ بالأمر دونه، وقصد باعتقاله التزلّف إلى ابن عمّه لأنه كان يفسد الأحوال بينهما، وتردّدت رسل الصلح. وفي غضون ذلك، حضر عند بختيار عبد الرازق وبدر ابنا حسنويه بألف فارس، فعدل عن الصلح وقفل إلى بغداد، وسار إلى عضد الدولة إلى البصرة وأصلح بين ربيعة ومضر، وكانوا في الحروب من مائة وعشرين سنة، وكان هوى مضر مع عضد الدولة. وفي السنة التالية أعاد عضد الدولة الكرّة على العراق، وأرسل بختيار يدعوه إلى طاعته وأن يسير عن بغداد إلى أيّ جهة أراد، وضمن له المساعدة بما يحتاج إليه من مال وسلاح، فأحسَّ بختيار بالعجز عن مقاومته، وخرج عن مدينة السلام راضيًا بما أنفذه إليه عضد الدولة من الأموال والخلع، وكان قد طلب منه وزيره ابن بقية، فقلع عينيه وأنفذه إليه، فدخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها، وأمر بأبن بقية فألقي تحت أرجل الفيَلة فقتلته، وصلب على رأس الجسر في شوال، فرثاه أبو الحسن الأنباري [هو أبو الحسن محمَّد بن عمران يعقوب الأنباري، المتوفي (سنة ٨٥٢م)] بقصيدته المشهورة، وهي:

علوٌّ في الحيـاة وفي الممات	لحقٌّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأنَّ الناس حولك حين قاموا	وفـودُ نَداك أيـام الصـلاتِ
كـأنـك قـائـم فـيـهـم خـطيـبًا	وكـلّـهـم قـيـام للـصـلاةِ
مددت يديك نحوهمُ احتفاءً	كمـدّهـمـا إليـهـم بـالهبـاتِ
ولمّا ضاق بطن الأرض عن أن	يضمّ عـلاك من بعد المماتِ
أصاروا الجوّ قبرك واستعاضوا	عن الأكفان ثوب السافياتِ*
لعظمك في النفوس بقيت ترعى	بحـفـاظ وحـراس ثـقـاتِ
وتشـعـل عنـدك النيـران ليلاً	كـذلك كـنـتَ أيـام الحيـاةِ
ركبـت مطية مـن قبـل زيـد	علاهـا في السنيـن المـاضيـاتِ
وتـلك فـضيلة فـيـهـا تـأس	تبـاعـد عـنـك تعيير العـداةِ
ولم أرَ قبل جذعك قطّ جذعًا	تمكّن من عناق المكرمـاتِ
أسأتَ إلى النوائب فاستثارت	فأنـت قتيـل ثـأر الـنـائبـاتِ
وكنت تجير من صرف الليالي	فـعـاد مطـالبًا لـك بـالـتراثِ
وصيَّـر دهـرك الإحسـان فيـه	إلينـا مـن عـظيـم السيّئـاتِ
وكنـت لمعشـر سـعـدًا فلمّا	مضيت تفرّقوا بالمحسنـاتِ
غليـلٌ بـاطـنٌ لك في فـؤادي	يخفّف بالدمـوع الجـاريـاتِ
ولـو أنـي قـدرت عـلى قـيـام	بحقّك والفروض الواجباتِ
ملأت الأرض من نظم القوافي	ونُحتُ بهـا خلاف النائحـاتِ
ولكنّـي أصبّـر عـنـك نفسـي	مخـافـة أن أُعدَّ مـن الجُنـاةِ
ومـالك تُربـة فأقـول تُسقـى	لأنك نُصب هطـل الهـاطلاتِ
عليك تحيّة الرحمن تَتـرى	برَحـمـات غَـوادٍ رائـحـاتِ=

* السافيات: الريح المحمّلة بالتراب، وسفت الريح التراب: ذَرَته أو حَمَلته.

كتابي أطال الله بقاء مولانا الملك السيِّد الأجل المنصور وليّ النعم عضد الدولة وتاج الملّة والأمور التي يراعيها، جارية أفضل مجاريها بظلّه الممدود عليها، ونظره الشامل لها، وعدله المحيط بها، وسياسة الأستاذ، أدام الله عزّه، التي حذا فيها مثاله، وتقيل[1] خلاله، والخاصّة والعامّة من عبيد مولانا، أطال الله بقاءه، ساكنون في حماه، مطمئنّون في ذراه، قارّون بفنائه، راتعون في كلائه، داعون إلى الله بما هو سبحانه يسمع مرفوعه، ويجيب مسموعه. والحمد لله حمدًا عائدًا بمغابط الأولياء ومغايظ الأعداء والمزيد في مترادف العطاء ومضاعف الحباء، ووصل كتاب مولانا الملك السيِّد وليّ النعم عضد الدولة وتاج الملّة، أدام

=ولم يزل ابن بقية مصلوبًا إلى أن توفّي عضد الدولة فأنزل عن جذعه ودفن، وفي ذلك يقول صاحب المرثية المذكورة:

لم يُلحقوا بك عارًا إذ صُلبت بلى	باءوا بإثمك ثمَّ استرجعوا ندما
وأيقنوا أنهم في فعلهم غلطوا	وأنهم نَصبوا من سُؤْود علما
فاسترجعوك وواروا منك طَود عُلا	بدفنه دفنوا الأفضال والكرما
لئن بُليت فلن يبلى نداك ولا	تُنسى وكم هالك يُنسى إذا قَدُما
تقاسم الناس حُسن الذكر فيك كما	ما زال مالك بين الناس مقتسَما

قال ابن عساكر في تاريخ دمشق، لمّا صنع أبو الحسن المرثية التائية، كتبها ورماها بشوارع بغداد، فتداولتها الأدباء إلى أن وصل الخبر إلى عضد الدولة، فلمّا أنشدت بين يديه تمنّى أن يكون هو المصلوب دونه. فقال عليّ بهذا الرجل، فطلب سنة كاملة، واتّصل الخبر بالصاحب بن عباد وهو بالريّ، فكتب له الأمان، فلمّا سمع أبو الحسن بن الأنباري بذكر الأمان قصد حضرته، فقال له، أنت القائل هذه الأبيات، قال نعم، قال انشدنيها من فيك، فلمّا أنشد:

ولم أرَ قبل جذعك قطّ جذعًا	تمكن من عناق المكرمات

قام إليه الصاحب وعانقه وقبل فاه وأنفذه إلى عضد الدولة، فلمّا مثل بين يديه، قال له ما الذي حملك على رثاء عدوّي، فقال حقوق سلفت وأيادٍ له بين فجأش الحزن في قلبي فرثيته، فقال هل يحضرك شيء في الشموع والشموع تزهر بين يديه، فأنشأ يقول:

كأنَّ الشموع وقد أزهرت	من النار في كلّ راسٍ سنانا
أصابع أعدائك الخائفين	تضرّع تطلب منك الأمانا

فلمّا سمعها خلع عليه وأعطاه فرسًا وبُردة. انتهى. قيل وكان عضد الدولة موغر الصدر على الوزير محمَّد بن بقيه لما كان يبلغه عنه في أيام وزارته من أمور تسوءه، منها أنه كان يسمّيه أبا بكر العذري تشبيهًا له برجل أشقر أزرق يسمّى أبا بكر كان يبيع العذرة برسم البساتين، وكان عضد الدولة بهذه الحلية، وكان الوزير يفعل ذلك تقربًا إلى قلب مخدومه عزّ الدولة بختيار للعداوة التي بينه وبين ابن عمّه عضد الدولة. رجع إلى تتمّة الكلام على الحرب التي أدّت إلى قتل بختيار، وهي أنه لمّا خرج بختيار من بغداد سار أوّلاً قاصدًا الشام، ومعه حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان، فلمّا صارا بعكبرة حسن له حمدان قصد الموصل لكثرة أموالها، فسار نحو الموصل، وكان عضد الدولة حلّفه أن لا يقصد ولاية أبي تغلب بن حمدان، لما كان بينهما من المحالفة، فنكث واتّجه وجهتها، فلمّا حصل في تكريت أتتهُ رسل أبي تغلب بالقبض على أخيه حمدان وأنه إن فعل حضر إليه أبو تغلب وأنجده على عضد الدولة، فقبض على حمدان وسلّمه إلى نوّاب أبي تغلب فاعتقله في قلعته، ونهض من مكانه لنجدة بختيار فالتقيا في الحديثة وقصدا العراق، وكان أبو تغلب في عشرين ألفًا، فصمد عضد الدولة إليهما، فالتقى الجمعان بقصر الجص بنواحي تكريت ثامن عشر شوّال فهزمهما ووقع بختيار أسيرًا وأحضر عند عضد الدولة فلم يأذن بدخوله وأمر بقتله وقتل من أصحابه خلق كثير، وفي تاريخ ابن خلكان أنه قُتل في المصاف وكان عمره ستًا وثلاثين سنة، وحُمل رأسه في طست ووُضع بين يدي عضد الدّولة، فلمّا رآه وضع منديله على عينيه وبكى، قال وكان عزّ الدولة ملكًا سريًّا عظيم القوى، يمسك الثور العظيم بقرنيه فيصرعه، وكان متوسّعًا في الإخراجات والكلف، والقيام بالوظائف، حكى بشر الشمعي ببغداد قال سُئلنا عند دخول عضد الدولة بغداد عن وظيفة الشمع الموقَد بين يدي عزّ الدولة فقلنا كانت وظيفة وزيره أبي الطاهر محمَّد بن بقيّة ألف منّ في كلّ شهر فلم يعاودوا النقصي استكثارًا لذلك. وكانت مدّة ملك عزّ الدولة بختيار إحدى عشرة سنة وشهورًا.

(١) تقيَّل فلان أباه وتقيَّضه نزع إليه في الشبه.

الله علوّ أمره وعزّ نصره، في معسكره بظاهر الموصل، مبشّرًا بالفتح الذي أملأت له آفاق السماء نورًا وأرجاء الأرض سرورًا، فتلقّيته ساعيًا على قدمي وقبّلته بكلتا يدي، وسجدت شكرًا لله على مستودعه، ولمولانا كبت الله أعداءه، على تأهيلي للمطالعة به، وتصرّفت في تأمّل معناه الجَزْل ومنطقه الفصل تصرّف المعجب به لا المتعجّب منه. وأقول في ذلك ما قاله أرسطوطاليس للإسكندر في مفتتح بعض رسائله إليه، أمّا التعجّب من مناقبك فقد أسقطه تواترها، فصارت كالشيء المألوف قد أنس به لا كالغريب يتعجّب منه. فأمّا ما شرحه مولانا الملك السيِّد، أدام الله علاءه وتمّم نعمائه من تقسيم أعدائه، بين قتيل صار إلى النار، وهزيم تقنّع بالعار، فأيديهم أوكت، وأفواههم نفخت[1]، ولولا الشقاء المكتوب عليهم، والخزي المعصوب بهم، لاتّعظوا بغير مَن مضى قبلهم، وسلّموا الأمر لمستحقّه دونهم، وعرفوا حقّ المعرفة أنفسهم، ووقفوا بها عند حدّهم وقدرهم، فقد قيل إنّه لا ضيعة لمن عرف قدره، وكذلك لا نجاة لِمن عدا طوره، ولكن الحين يصمّ ويعمي، ويوبق ويردي.

وقد عظّم الله شأن مولانا، أطال الله بقاءه، عن أن يفخر له بالظهور على مَن ينحطّ خطره عن خطره، وينقص وزنه عن وزنه، وإنّما المفخر بالتفضيل الذي لم يدع له في الأرض نظيرًا يدانيه، ولا قرينًا يناديه، حتّى صارت فتوحه لا تعاب، إلاّ بانتزاعها ممّن ليس بضريب ولا قريب. وإذا هنئ الإنسان بالوصول إلى ما لم يكن له، فمولانا الملك السيِّد، أطال الله بقاءه، يهنأ باستدراك ما هو له؛ إذ قد ملّكه الله أقطار بلاده ونواصي عباده، فكلّ حاصل من ذلك له، فمستقرّ عند مستحقّه، وكلّ شاذّ عنه، فغلول[2] في يد منطرقه، بارك الله له فيما أعطى وأجزل، وسوّغه ما منح وخوّل. وأمّا ما أرتاه وأمضاه مولانا أطال الله بقاءه، وتمّم علاءه، من إتمام المسير إلى تلك الديار للزيادة في الاستظهار، فقد كان أغناه عن كلّ شيء يأثره، البيت الذي هو أحقّ به ممّن قيل فيه:

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهابة ما لا تصنع البهمُ

وأرى أنَّ ذلك سعادة سيقت إليها بأن حلّتها قَدمه، وهطلت فيها دِيَمه، وغسلت أدرانها[3] طهارته، وأماطت دناستها نزاهته، وبقيّة بقيت من منحَسَة بلادنا هذه، شغلته أن يطول بها

(١) من المثل: يداك أوكتاها وفُوكَ نفخ لها: لمن جنى على نفسه.

(٢) الغلول: هو السرقة من الغنيمة أو الخيانة في المغنم، جاءت من الغلّ لأنَّ الأيدي فيها مغلولة أي ممنوعة، مجعول فيها الغلّ وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه.

(٣) الأدران: الأوساخ.

لبثه وأن يدوم فيها مَكثه، والله يحرسه دانيًا مقتربًا ونازحًا مغتربًا وحالاً قاطنًا ومرتحلاً ظاعنًا[1]، ويسهّل له الأوبة إلى مركز عزّه، ومقرّ ملكه، الذي ينبغي أن يكون مقامه فيه، وانبثاث شعاعه إلى الأطراف منه بقدرته، وأمَّا خضوع الخاضع له، ونزوعه عن الأمر الذي أورده، وما يصدره ويبذله، في افتداء حشاشة النفس، وثميلة[2] الحال، فبالتذلّل لمولانا يعزّ العزيز، وبالتعزُّز عليه يذلّ الذليل، وإن صحت منه البصيرة، وخلصت السريرة، فستكسوه المراجعة شعارًا من الطاعة، تتلافاه من السقطة، وتنقذه من الورطة، ومولانا الملك السيِّد، أدام الله دولته، وبسط قدرته، أعلم بالمخايل، وأهدى إلى الدخائل، وليس بمدلول على قبول الإنابة من النادم المقرّ، ولا على إبائها من المداهن المصرّ، وله أيّده الله عادة جارية بالعفو عن الهفوة الأولى، التي لم تسبقها قرينة، ولا تقدّمتها نظيرة، فإن عفا فعلى سنّته الماضية، وبعد قدرته القاهرة، وبالرأي الموضوع موضعه، والاختيار الذي لا اضطهاد معه، وإن سطا فبالله ما تحلّ سطوته إلاّ بمن لا مطمع في انتياشه، ولا سبيل إلى انتعاشه، ولن يعدمه الله صواب العزم وصريمة[3] الحزم، أي المذهّبين ذهب، وأي الغرضين طلب، وقد شرّف مولانا الملك السيِّد الأجلّ المنصور عضد الدولة وتاج الملّة، أطال الله بقاءه، خادمه بالمكاتبة، تشريفًا باقيًا على الأحقاب، ساريًا في الأعقاب، مشاركًا لِما أسدي إليه من الأيادي الجمّة، والعوارف الفخمة، التي جميعها نُصب ناظره وشغل خاطره. فما من لفظة ولا لحظة كرّمه، أدام الله عزّه بها، ورآه أهلاً لها، في قديم من العهد، ولا حديث، إلاّ وهي في سويداء قلبه مسطورة، وبلسان شكره منشورة. فإن رأى مولانا الملك السيِّد الأجلّ المنصور، وليّ النعم عضد الدولة، وتاج الملّة، أطال الله بقاءه، أن يميّز عقد هذه المفاخر والمآثر، ساقيًا مغارسها بسَجْله، راعيًا لها بعينه، ويحفظها على خادمه المغتذي بثمرتها، المرتوي من دُرّتها، حفظًا يحصّلها في ضمانه، ويحصّنها في ذمامه، ويأمر بتضمين ما أكاتب به من ابتداء وجواب، طرفًا من الاستخدام، لائقًا بما غمرني من الإنعام، في صغيرٍ يوازي قدره، أو كبيرٍ يجذب إليه بضبعي[4]، فعل إن شاء الله.

(١) الظاعن (من ظَعَن): إذا سار ورحل.

(٢) بقية.

(٣) الصريمة والعزيمة واحد.

(٤) تقول أخذ بضبعي أي أخذ بيدي، والضَّبْع: وسط عضد اليد (حتَّى الإبط)، وقيل بل العضد كلّه.

كتب عن نفسه في هذا المعنى، إلى الأمير عضد الدولة وتاج الملّة، في شوّال سنة سبع وستّين وثلثمائة

كتابي أطال الله بقاء مولانا الملك السيِّد الأجل المنصور، وليّ النعم، عضد الدولة، وتاج الملّة، وأدام عزّه ونصرته، وتأييده وبسطته، وعلوّه ورفعته، وتمكينه وقدرته، عن نفسٍ قد سكن الله جأشها، وآنس استيحاشها، ونقعها من غلّتها، وشفاها من علّتها، بالفتح العظيم خطره، الجليل قدره، الشاملة فائدته، العامّة عائدته، فالله على ذلك شكرٌ يوازي نعمته، ويجازي منحته، ويمتري زيادته، ويستدرّ مادّته، وهنّأ الله مولانا الملك السيِّد ما وهب الله له ولخدمه من الظفر بالنواصي الطاغية الباغية العادية طورها، العادلة عن رشدها، المركوسة في غوايتها، المنكوسة في ضلاتها، فلقد جذَّ الله منها على يده أصول الفساد المنبقة[1] وغوَّر عيونه المنبعة، وحسم الأدواء بكيّه وإنضاجه، وأدمل الجروح بطبّه وعلاجه، وأصبحت الدنيا متحلّية منه بأفضل حليتها، ومتجلّية له في أفخر حللها، وضاربةً من آثاره وأفعاله بمعلّى قداحها، ومفضية من تدبيره وسياسته إلى نهاية صلاحها، فلا أعدمه الله السعي الرشيد، والمقام الحميد، والطائر السنيح، والمتجر الربيح، ولا أخلاه من عزّ الراية، وإدراك الغاية، وإعلاء الوليّ، وإذلال العدوّ، بفضله وطوله، وقوّته وحوله، وكان المعهود أطال الله بقاء مولانا ممّن مكّن الله له في الأرض أن يكون هو الجاهد في مطالبه، الكادح في مآربه، حتَّى ينال الجميع أو البعض، ويصل إلى الغاية أو الطرف، وقد جعل الله مولانا الملك السيِّد بحيث تطلبه الفتوح، وتتأتّى له الحظوظ غير جاهدٍ فيها، ولا ساعٍ لها، ولقد كان أعداؤه هؤلاء الأشقياء في فسحة من أمرهم، ونجوةٍ من النكال النازل بهم، فمن هارب قد نفس من خناقه، وأومن من لحاقه، وأبقي عليه، وأحسن إليه، ومن وادعٍ قد حيط ودعي، وصين وحمي وصار من جميل الرأي فيه، وصالح الاعتقاد له، في الجانب الأعزّ، والحصن الأحرز، فلم يرضَ الله فيهم ما رضيناه، ولم يمضَ لهم ما أردناه للسابق من جرائمهم، والسالف من جرائرهم، والمستسر لنا في قضائه جلّ وعزّ، من تخويلنا نعمهم وأموالهم، وتمليكن ديارهم وأعصارهم[2]، فكانوا الفاتحين دوننا أبوابها، والمسبّبين لها أسبابها، بالفائل من رأيهم[3]

---

(١) المنبقة: المصطفّة المستوية، يقال نخلٌ منبق.

(٢) جمع عُصْر بمعنى ملجأ.

(٣) الفائل من الرأي: المخطئ الضعيف، ويقال رجل فائل الرأي وفَاله وفيْله أي ضعيفه.

والخائب من تأميلهم، وعبد مولانا الملك السيِّد الأجل المنصور عضد الدولة وتاج الملّة أطال الله بقاءه يقول مرتجلاً ومذكّرًا:

قل للهُمام المستطيل	بقدره السامي الجليلِ
يذكر أبياتي التي	أنشدته قبل الرحيلِ
فقد ضمنت له الذي	قد نال من راع كفيلِ
لولا اتّقاء البغي قد	بشرته برَدى القتيلِ
وكذاك يمضي من نجا	من سيفه عمّا قليلِ
ما زال ذلك بيّنًا	للعين متّضح الدليلِ
فالحمد لله الذي	نقع الصدور من الغليلِ[1]

والحمد لله حمدًا باديًا عائدًا ناميًا زائدًا، يتضاعف على الأوقات، ويترادف على الساعات، حتّى يبلغ ما يرضيه ويؤدّي إليه الحقّ فيه، ولا قطع الله عن مولانا عادة المزيد إذا ظنّ أن قد انتهى، والإيفاء إذا خيّل أن قد استوفى، وجعل خير هذه الدار الفانية أقلّ ما يحبّوه به وينفله إيّاه، وخير تلك الباقية أفضل ما يعدّه له ويرقيه إليه، آمين ربّ العالمين.

وأنا، أطال الله بقاء مولانا الملك السيِّد وليّ النعم، عضد الدولة وتاج الملّة، ملازم للخدمة في الدار المعمورة، ومواظب على مجلس الأستاذ أدام الله عزّه، تصرّفًا من الأمر العالي على ما سبق، وانتظارًا منه لِما يرد. ومن الله أستمدّ التوفيق، لما زادني عند مولانا حظوة وزلفى، وكسبني[2] لديه أثرة وقربى، وهو حسبي ونعم الوكيل.

(١) نقع الغليل كناية عن إرواء العطش.

(٢) يقال كسبت الرجل خيرًا أي أكسبته إيّاه.

وكتب عن بعض الرؤساء إلى الملك عضد الدولة، وتاج الملّة، يهنّئه بفتح ميافارقين، في جمادى الأولى سنة ثمانٍ وستّين وثلاثمائة[1]

كتابي أطال الله بقاء مولانا الملك السيِّد الأجل المنصور، وليّ النعم، عضد الدولة وتاج الملّة، والأمور التي يراعيها مستمرّة، على أفضل ما أولى من سدادها والتئامها، وأحسن ما عَوّد من اطرادها وانتظامها، بظلّه المانع الممتدّ عليها، وتدبيره الصائب المجلّل لها، ونيابة الأستاذ أدام الله عزّه ونصحه واجتهاده، وكدحه وتأنّيه، لكلّ ما أقام من الدولة عمودًا، ورفع لها منارًا، وردّ إليها رشيدًا، ونفى عنها غاويًا، بذلك غرامه ولهجه، وإليه مسلكه ومنهجه، لا يجد راحة إلاّ في التعب به، ولا يحسّ خفضًا إلاّ في النصب له. والخدم على اختلاف منازلهم وترتيب طبقاتهم، ذاهبون في الاستقامة على أثره، ومتخلّقون في التهذيب بخلقه، إمّا تقرّبًا ورغبة، وإمّا هَيبة ورهبة. والحمد لله ربّ العالمين، حمدًا يقضي لمولانا الملك شاهنشاه[2]، السيِّد الأجل، وليّ النعم، أطال الله بقاءه، شمول هذه النعم، في كلّ أصل وفرع، وتابع ومتبوع، ودانٍ وقاص. وكان جواب مولانا أطال الله بقاءه، وصل إليَّ مستودِعًا من أنعامه ما شرّفني وعظّمني، وشرح صدري وأنهض منّتي، فلبست من جماله لباسًا جديدًا، وارتديت من عزّه رداءً قشيبًا، وشفع وصوله، وورود الكتب المبهجة، المشتملة على البشرى المنتظرة بفتح "ميافارقين" وظفر الأولياء بها منصورين، بعد إعطاء المتحصّنين كانوا فيها، يد

---

(١) لمّا انهزم أبو تغلب بن حمدان وقتل بختيار، سار عضد الدولة إلى الموصل فملكها، وبثّ السرايا [السرايا، مفردها سريّة، وهي قطعة من الجيش، سُمّيت بذلك لأنها تسري خِفية] في طلب أبي تغلب، فأرسل هذا يعرض عليه أن يضمن منه البلاد، فلم يجبه عضد الدولة، وكان مع أبي تغلب المرزبان بن بختيار وأبو اسحق وأبو طاهر، ابنا معزّ الدولة، ووالدتهما وهي أم بختيار، وخدمهم. فسار إلى نصيبين، فسيّر إليه عضد الدولة سرية استعمل عليها أبا الوفاء طاهر ابن محمَّد، فسار أبو تغلب إلى ميافارقين، فطارده أبو الوفاء، فسار نحو بدليس ثمَّ عاد إلى ديار الجزيرة، واستصحب أمواله وتفقّد قلاعه، فسار إليه عضد الدولة بنفسه فلم يظفر، وتعسّف [تعسّف إلى المكان، قصده بلا هِداية، وأراد: ذهب إليه عن غير طريقه المعروف] أبو تغلب إلى بدليس فتبعه طغان صاحب عضد الدولة، ففرّ إلى الروم فأدركه عسكر عضد الدولة فهزمهم. ثمَّ عاد إلى بلاد الإسلام، وأقام بآمد إلى أن فتحت ميافارقين، وذلك أنَّ أبا الوفاء حاصرها ثلاثة أشهر، فامتنعت عليه لحصانتها، وكان واليها هزامرد فمات، فكتب إلى أبي تغلب بخبر وفاته، فأمر أن يقام مقامه غلام من الحمدانية اسمه مؤنس، فأخذ أبو الوفاء يراسل أعيان البلدة في التسليم، واستمال إليه منهم أحمد بن عبيد الله، وأرسل إلى مؤنس يطلب منه المفاتيح فأرسلها إليه، وطلب منه الأمان على يد أحمد بن عبد الله فأمنه، واستولى على ميافارقين. وكان أثناء حصاره إيّاه قد افتتح جميع الحصون التي تجاورها، فلمّا سمع أبو تغلب بذلك بمكانه من آمد، سار إلى الرحبة، وأمر بعض أهله وأصحابه بالاستئمان إلى أبي الوفاء ففعلوا، ثمَّ سار أبو الوفاء إلى آمد فحصرها، فلم يلبث أهلها أن اقتفوا أثر أهل ميافارقين فسلّموها بالأمان. وتمهّدت لأبي الوفاء جميع ديار بكر، وعاد إلى الموصل، وأرسل أبو تغلب رسولاً إلى عضد الدولة يستعطفه ويلتمس الصفح عنه، فأحسن عضد الدولة الجواب، وبذل له إقطاعًا يرضيه على أن يطأ بساطه، فلم يجبه أبو تغلب وتحوّل إلى الشام، إلى العزيز صاحب مصر.

(٢) كان هذا من جملة أسماء عضد الدولة، وعلى ذلك قول المتنبّي:

أبا شجاعٍ بفارسٍ عَضُدَ الدولةِ ... فَنَّاخُسْرُوًا شَهَنْشَاهـا

أسـاميًا لـم تَـزِده معرفـةً ... وإنّـمـا لـذّةً ذكـرنـاهـا

طاعة لم يكن لهم عنها معدل، ولا على غيرها مُعوّل، واستيلاء يده الطولى وكلمته العليا على تلك الطوائف، التي دعتها ذنوبها إلى الاعتصام، وردّها قهره إيّاها إلى الاستسلام. فنزلت على حكمه طائعة بظاهر انقيادها، صاغرة بباطن اعتياصها، صائرة إلى أمره ونهيه، حاصلة تحت نقده وتمييزه، مستوفية ما قسمه لها قوله الفصل، وقضاؤه العدل، من إحسان إلى البرّ التقيّ، وتنكيل بالفاجر الغوي، وصفح عن الفرقة الوسطى بين الفرقتين، التي لم تعظم جرائرها أن تغفو، ولا جلت هفواتها أن تتغمّد[1]. فتلقّيتُ هذه الموهبة بما تلقّيت به ما أمامها، وما أتلقّى به ما وراءها، من شكر الله الحافظ لها، الموجب لثباتها، المستزيد من أمثالها، المستمدّ لأشكالها، وأخلصتُ كما يخلص العبد الضارب بمعلى قَدَحه، الفائز بوافر قسطه في الدعاء له، أن يزيد الله كعبه علوًّا، وسلطانه سموًّا، وبقاءه طولاً، وعزّه شمولاً، وأن يجعل عادته، جلّ اسمه، الجميلة قاطنة عنده، راهنة، وظاهرة لديه باطنة، في إرغام كلّ أنف احتمى دونه، وإقذاء كلّ طرف صدف عنه، من آب متقاعس، ذاهب بنفسه متشاوس، فلا يجد منهم واحد معقلاً مانعًا إلاّ حماه، ولا شملاً جامعًا إلاّ ذراه[2]، ولا معالجًا على طمأنينة إلاّ في كنافته، ولا ارتباعًا[3] على سكون إلاّ بموادعته، والله سامع ذلك وفاعله بمنّه وقدرته. ولو جاز أدام الله تأييد مولانا، أن تتقدّم التهنئة قبل وقتها، وأن يسبق بها حلول موجبها، لبادرت بها عن هذا الفتح منذ علق تدبيره، ولقدّمتها سلفًا عن أمثال لا بدّ أن تتلوه، ثقة بأنّ الله زائد له في عطائه، ومعلٍّ له على أعدائه، ومفوّض إليه بغنيمة الأرض، ذات الطول والعرض، التي ما حازها ولا يحوزها أعمّ منه إنصافًا وعدلاً، ولا أغمر إحسانًا وفضلاً، ولا أسلم نيّة وطوية، ولا أسْوَس لخاصّة ورعية، لكنّني انتظرت بذلك حضور أوانه، واستأنيت به إلى إبّانه، وسيحقّق الله بلطفه وطَوله من المستأنف، ما يشفع بعض منه بعضًا، ويتبع آخر أولاً. وكتابي هذا أطال الله بقاء مولانا، كتاب عبد لا يسرّه ما سرّه، ويظهره ما أظهره، ويقرّ بعينه ما يقرّ بعيون خواص صنائعه، وحمال عوارفه، من متجدّد النصر العزيز، ونازل الفتح القريب، ومتسبّب الأمل البعيد، ومتيسّر الأمد الطويل، فإن رأى مولانا الملك السيِّد وليّ النعم عضد الدولة، وتاج الملّة أطال الله بقاءه، أن يأمر لا زال أمره نافذًا، بُعدًا وقُربًا، ومنبسطًا شرقًا وغربًا، بتقليدي شرفًا بالجواب عنه ثانيًا، بعد الشرف بجواب ما تقدّمه ماضيًا، فعل إن شاء الله.

---

(١) تتغمّد، من غَمَدَ الشيء: سَتَرَه.

(٢) الذرى (بالفتح): كلّ ما استترت به، يقال أنا في ذَرى فلان أي في كَنَفه وسِتره.

(٣) الارتباع: الإقامة بمكان أيام الربيع.

نسخة كتاب، إلى المطيع لله، عن عزّ الدولة أبي منصور عند دخوله الموصل، وانهزام أبي تغلب بن حمدان عنها[1]

لعبد الله الفضل، الإمام المطيع لله أمير المؤمنين، من عبده وصنيعته[2]، عزّ الدولة بن معزّ الدولة، مولى أمير المؤمنين، سلام على أمير المؤمنين ورحمة لله. فإنّي أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلاّ هو، وأسأله أن يصلّي على محمَّد عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلّم. أمّا بعد، أطال الله بقاء مولانا أمير المؤمنين وأدام له العزّ والتأييد، والتوفيق والتسديد، والعلوّ والقدرة، والظهور والنصرة، فالحمد لله العليّ العظيم، الأزليّ القديم، المتفرّد بالكبرياء والملكوت، المتوحّد بالعظمة والجَبَروت، الذي لا تحدّه الصفات، ولا تَحُوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيّره مرور زمان، ولا تمثّله العيون بنواظرها، ولا تتخيّله القلوب بخواطرها، فاطر السموات وما تُظِلّ، وخالق الأرض وما تُقِلّ، الذي دلّ بلطف صنعته على جليل حكمته، وبيّن بجليّ برهانه عن خفيّ وجدانه، واستغنى بالقدرة عن الأعوان، واستعلى بالعزّة عن الأقران، البعيد عن كلّ معادل ومضارع، الممتنع على كلّ مطاول ومقارع، الدائم الذي لا يزول ولا يحول، العادل الذي لا يظلم ولا يجور، الكريم الذي لا يَضِن ولا يبخل، الحليم الذي لا يعجل ولا يجهل: ذلّكم الله ربّكم فادعوه مخلصين له الدين، مُنزِل الرحمة على كلّ وليّ توكّل عليه، وفوّض إليه، وأتمر لأوامره، وازدجر بزواجره، ومُحِلّ النقمة بكلّ عدوّ صدّ عن سبيله وسَننه، وصدف عن فرائضه

(١) كان حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان وأخوه ابرهيم، قد استنجدا بعزّ الدولة بختيار على أخيهما أبي تغلب، لحيف وقع منه عليهما، وبذل له حمدان مالاً، ووعده بأن يضمن منه البلاد التي يأخذها من أخيه، ويحمل إليه الأموال ويقيم له الخطبة، فوعدهما بختيار بالمسير، واستشار وزيره ابن بقية فمكّنه في الرأي، لحقد كان في قلبه على أبي تغلب بسبب كتاب كتبه إليه فقصّر فيه في خطابه. فنهض عزّ الدولة إلى الموصل في تاسع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وستّين وثلثمائة، ونزل بالدير الأعلى، فأخلى أبو تغلب البلد من الميرة ورحل عنها يطلب بغداد، فأعاد بختيار وزيره ابن بقية والحاجب سبكتكين إلى بغداد، فأمّا الوزير فدخل المدينة، وأمّا الحاجب فأقام بحربي. وكان أبو تغلب قد قارب بغداد، فثار العيّارون وأهل الشرّ بالجانب الغربي، وانتشب القتال بين السنّية والشيعية، وحمل أهل سوق الطعام من السنّية امرأة على جمل وسمّوها عائشة، وسمّى بعضهم نفسه طلحة، وبعضهم الزبير، وقاتلوا الفرقة الأخرى، وكثر العَيث، إلى أن أخذ بعض رؤوس الشرّ وقتلوا، فسكنت الحال بعض السكون. وأمّا أبو تغلب فعاد عن بغداد ونزل بالقرب من سبكتكين، وأخذا يتراسلان في الصلح، ووافاهما ابن بقية واتّفقوا على أنَّ أبا تغلب يضمن البلاد من بختيار ويؤدّي له قيمة ما أنفقه في هذه الغَزاة، ويعيد إلى أخيه حمدان مقاطعته، إلاّ ماردين، وكتبوا بذلك إلى بختيار فرضي به، ورجع أبو تغلب إلى الموصل فنزل بالحصباء تحت الموصل، وراسل بختيار بالصلح على أن يلقّبه سلطانيًّا ويزوّجه ابنته، فأجابه إلى ما طلب وسار عن الموصل. وبينما هو في طريق بغداد، بلغه أنَّ أبا تغلب قتل قومًا من أصحابه كانوا قد استأمنوا إليه، فرجع للأخذ بثأرهم ومعه وزيره ابن بقية والحاجب سبكتكين، ونزلوا بالدير الأعلى، وهرب ابن حمدان إلى تلّ يعفر، وأرسل يعتذر عن قتل الجماعة ويتعهّد بالأمانة. وبعد مراسلات أرسل عزّ الدولة الشريف أبا أحمد الموسوي، والقاضي أبا بكر محمَّد بن عبد الرحمن، فخلفا أبا تغلب وعادت المياه إلى مجاريها، وانحدر عزّ الدولة عن الموصل سابع عشر رجب، ودخلها ابن حمدان، وعند وصول ابن بويه إلى دار السلام، جهّز إليه ابنته التي بقيت زوجته إلى أن قُتل.

(٢) يقال فلان صنيعة فلان وصنيع فلان، إذا اصطنعه وأدّبه وخرّجه وهذّبه.

وسُننه، وحادّه في مكسب يده، ومَسعاة قدمه، وخائنة عينه، وخافية صدره، وهو راتع[1] رتعة النعم السائمة، في أكلاء النَّعَم[2] السابغة، جاهل جهلها بشكر آلائها، ذاهل ذهولها عن طرق استبقائها. فلا يلبث أن ينزع سرابيلها صاغرًا، ويتعرّى منها حاسرًا، ويجعل الله كيده في تضليل، ويورده شرّ المورد الوبيل (إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدي كيد الخائنين).

والحمد لله، الذي اصطفى للنبوّة أحقّ عباده بحمل أعبائها وارتداء ردائها، محمَّدًا صلّى الله عليه وسلّم، وعظم خطره[3]، وكرم، فصدع بالرسالة، وبالغ في الدلالة، ودعا إلى الهداية، وتجلّى من الغواية، ونقل الناس عن طاعة الشيطان الرجيم، إلى طاعة الرحمن الرحيم، وأعلقهم بحبائل خالقهم ورازقهم، وعصمة مُحييهم ومُميتهم، بعد انتحال الأكاذيب والأباطيل، واستشعار المحالات[4] والأضاليل، والتهوّر في الاعتقادات الذائدة عن النعيم، السائقة إلى العذاب الأليم. فصلّى الله عليه من ناطق بالحقّ، منقذٍ للخلق، وناصح للربّ، ومؤدٍّ للفرض، صلاة زاكية نامية، رائحة غادية، تزيد على اختلاف الليل والنهار، وتعاقب الأعوام والأدوار. والحمد لله الذي انتخب أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، من ذلك السنخ[5] الشريف، والعنصر المنيف، والعِترة الثابت أصلها، الممتدّ ظلّها، الطيّب جَناها، الممنوع حِماها، وحاز له مواريث آبائه الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين، واختصّه من بينهم بتطاول أمد الخلافة واستحصاف[6] حَبلها في يده، ووفّقه لإصابة الغرض من كلّ مرمى يرميه، ومقصد ينتحيه، وهو جلّ ثناؤه، الحقيق بإتمام ذلك عليه، والزيادة فيه لديه، وأحمده سبحانه حمدًا أبتديه ثمَّ أعيده وأكرّره وأستزيده، على أن أهّل ركن الدولة أبا علي، وعضد الدولة أبا شجاع مولى أمير المؤمنين، وأهّلني للأثرة عنده أيّده الله، التي بَذَذْنا[7] بها الأكفاء، وفتنا فيها القُرَناء، وتقطّعت دونها أنفاس المنافسين، وتضرّمت عليها أحشاء الحاسدين، وأن أولاني في كلّ مغزى، في خدمة أمير المؤمنين أغزوه، ومنحى أنحوه، وثأي أرأبه[8]، وشعث

---

(١) راتع؛ في المكان: مقيم فيه.

(٢) النعم: الإبل، ويمكن إطلاقها على البقر والغنم، فتكون الأنعام (المواشي أو الماشية) وقد سُمّيت بذلك لما فيها من الخير والنعمة.

(٣) الخطر (ها هنا): الشرف والارتفاع.

(٤) المحالات، مفردها المحل: الكَيْد والخديعة والمكر.

(٥) السنخ: الأصل من كلّ شيء.

(٦) استحصاف، من حصافة، تقول حصف حصافة: كان جيّد الرأي، مُحكم العقل.

(٧) بذّ فلان فلانًا: غلبه أو فاقه في حسن أو عمل.

(٨) رأب الثأي: أصلح الفتق.

ألمّه[1]، وعدوّ أرغمه، وزائغ[2] أقوّمه، أفضل ما أولاه عباده، السليمة غيوبهم، النقيّة جيوبهم، المأمونة ضمائرهم، المشحوذة بصائرهم، من تمكين يدٍ، وتثبيت قدم، ونُصرة راية، وإعلاء كلمة، وتقريب بُغية، وإنالة أمنية. وكذلك يكون مَن إلى ولاء أمير المؤمنين اعتزاؤه، وبشعاره اعتزازه، وعن زناده قَدَحه[3]، وفي طاعته كَدْحه، والله وليٌّ بإدامة ما خَوَّلَنيه[4] من هذه المنقبة، وسَوَّغَنيه[5] من هذه الموهبة، وأن يتوجّه أمير المؤمنين في جميع خدمه، الذابِّين عن حَوزته، المهيبين إلى دعوته، بيُمْن الطائر[6]، وسعادة الطالع، ونجاح المطلب، وإدراك الأَرَب[7]، وفي أعدائه الغامطين لنعمته[8]، الناقضين مواثيق بيعته، بإضراع الخدّ[9]، وإتعاس الجدّ وإخفاق الأمل، وإحباط العمل، بقدرته. ولم يزل مولانا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، ينكر قديمًا من فضل الله بن ناصر الدولة أحوالاً حقيقًا مثلها بالإنكار، مستحقًّا مَن ارتكبها الإعراض، وأنا أذهب في حفظ غيبه، وإجمال محضره، وتَمَحُّل حُجَجِه وتلفيقها، وتأليف معاذيره وتنميقها، مذهبي الذي أعمّ به كلّ من جرى مجراه من ناشئ في دولته، ومُغتذٍ بنعمته، ومُنتسب إلى ولايته، ومُشتهر بصنيعته، وأقدّر أن استصلحه لأمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، وأصلحه لنفسه بالتوقيف على مسالك الرشاد ومناهج السداد، وهو يريَني أن قد قبل وارْعَوَى[10]، وأبصر واهتدى، حتّى رغبت إلى أمير المؤمنين، أدام الله عزّه، فيما شفعني متفضّلاً فيه من تقليده أعمال أبيه، والقناعة منه في الضمان بميسور بذله، وإشارة به على مَن هو فوقه من كبراء إخوته وأهله. فلمّا بلغ هذه الحال ألطّ[11] بالمال، وخاس بالعهد، وطرق لفسخ العقد، وأجرى إلى أمور كرهتها، ونفذ الصبر منّي عليها، وخفت أن أستمر على الإغضاء عنها، والمسامحة فيها، فيطلع الله منّي على إضاعة الاحتياط في أمر قلّدني أمير

(١) لمّ الشعث، تقول: «لمّ الله شعثهم» أي جمع أمرهم.

(٢) الزائغ: المائل، وجاء في التنزيل «ربّنا لا تُزِغ قلوبنا» أي لا تُمِلْنا عن الهدى.

(٣) قدح الزناد: أثار ناره.

(٤) خوّلنيه: خوّلني إيّاه.

(٥) سوّغنيه: سوّغني إيّاه.

(٦) بيُمن الطائر، اليُمن: البَركة، وهي خلاف الشؤم، والطائر اليمون، هو الذي يمرّ عن يمينك وكانت العرب تتفاءل به.

(٧) الأرب: الغاية، الحاجة.

(٨) غمط النعمة: لم يشكرها فكأنه أنكرها وجحدها.

(٩) إضراع الخدّ: التذلّل. وفي حديث «أضرع الله خدودكم» أي أذلّها.

(١٠) ارعوى: كفّ عن الأمور، والارعواء: الندم على الشيء والترك له.

(١١) منعه.

المؤمنين، أطال الله بقاءه زمامه، وضَمنني دَرْكه[1]، وإرخاء لبب[2] رجل فيّل[3] في الاعتماد عليه رأيي وعوّل في أخذه بما يلزمه على نظري واستيفائي. فتناولته بأطراف العذل ملوّحًا، ثمَّ بإثباجه[4] مُفصِحًا مُصرِّحًا، ورسمت لعبد أمير المؤمنين الناصح، أبي طاهر، أن يجدّ به وبوسطائه وسفرائه في حال، ويدخل عليه من طريق المشورة والرفق في أخرى، وينتقل معه بين الخشونة التي يقفو فيها أثري، واللين الذي لا يجوز أن يحسّه منّي، تقديرًا لانثنائه وزوال التوائه. ففعل ذلك على رسمه في التأنّي لكلّ فاسد، حتَّى يصلح، ولكلّ آب حتَّى يسمح، ولم يدع التناهي في وعظه، والتمادي في نصحه، وتعريفه سوء عاقبة اللجاج، ومغبّة الإحراج، وهو يزيد طمعًا في الأموال وشرّها، وعمى في الرأي وعمَها، إلى أن كاد أمرنا معه يخرج عن حدّ الانتظار، إلى حدّ الرضى بالإصرار. فاستأنفت ادِّراع الحزم وامتطاء العزم، ونهضت إلى أعمال «الموصل»، وعندي، أنه يُغنيني عن الإتمام، ويتلقّاني بالأعتاب[5]، وينقاد إلى المراد، ويتجنّب طرق العناد، فحين عرف خبر مسيري، وجدّي فيه وتشميري[6]، برز بروز المخالف المكاشف، وتجرَّد تجرُّد المُواقع المُواقف، وهو مع ذلك إذا ازددت منه تقرّبًا ازداد منّي رعبًا، وإذا دلفت إليه ذراعًا نكص عنّي باعًا. وتوافت إلى حضرتي وجوه القبائل من «عقيل» و«شيبان» وغيرهما، في الجمع الكثيف من صعاليكهما[7]، والعدد الكثير من صناديدهما، داخلين في الطاعة، متصرّفين في عوارض الخدمة، فلمّا شارفت «الحديثة» انتقضت عزائم صبره، وتقوّضت دعائم أمره، وبطلت أمانيه ووساوسه، واضمحلّت خواطره وهواجسه، واضطرب عليه من ثقاته وغلمانه، مَن كان بهم يعتضد وعليهم يعتمد، وبدأوا بخذلانه والأخذ لنفوسهم، ومفارقته والطلب بحظوظهم. وحصل بحضرتي منهم

---

(١) الدرْك: التبِعة.

(٢) اللبب: ما يشدّ على صدر الناقة أو الدابة، ومنه إرخاء اللبب، مجازًا، في إطلاق اليد، ويقال فلان في لبب رخيّ كما يقال في بال رخيّ.

(٣) جعله فائلاً أي مخطئًا.

(٤) ثبج كلّ شيء، معظمه ووسطه وأعلاه، والجمع أثباج.

(٥) الأعتاب والعتبى، هو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب، يقال أعتبني فلان أي ترك ما كنت أجد عليه من أجله، ورجع إلى ما أرضاني عنه بعد إسخاطه إيّاي عليه، وفي المثل مسيء من أعتب، فأنت تنظر ما زاد في المعنى بزيادة حرف واحد، وهذا من مزايا اللسان العربي.

(٦) التشمير: السرعة.

(٧) الصعلوك: الفقير الذي لا مال له، والتصعلك الدخول في هذه الحالة، قال حاتم الطائي [شاعر جاهلي من أجواد العرب، توفّي أواخر القرن السادس (م)]:

غنينا زمانًا بالتصعلك* والغنى ... فكلاًّ سقاناه بكاسيهما الدهرُ

فما زادنا بغيًا على ذي قَرابةٍ ... غِنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ

وصعاليك العرب ذؤبانها ولصوصها، وكان عُروة ابن الورد يقال له عروة الصعاليك، لأنه كان يجمعهم ويقسم بينهم ما يغنمه.

* التصعلك: الافتقار، والتصعلك: الفقر.

إلى هذه الغاية زهاء خمس مئة رجل، ذوي خيل مختارة وأسلحة شاكّية[١]، فصادفوا عندي ما أملوا من فائض الإحسان، وغامر الامتنان، وذكروا عمّن وراءهم من نظرائهم، التنزّي[٢] إلى الانجذاب والحرص على الاستئمان، وأنهم يَردون ولا يتأخّرون، ويبادرون ولا يتلوّمون. ولمّا رأى ذلك، لم يملك نفسه أن مضى هاربًا على طريق «سنجار»، منكشفًا عن هذه الديار، قانعًا من تلك الآمال الخائبة والظنون الكاذبة، بسلامة حُشاشة هي رهينة غيّها[٣] وصريعة بَغيها، وكان انهزامه بعد أن فعل فعل السخيف وكادنا الكيد الضعيف، بأن غرّق سفن الموصل وعروبها[٤]، وأحرق جسرها واستذمّ[٥] إلى أهلها، وتزوّد منهم اللعن المُطيف به أين يَمَّم، الكائن معه حيث خَيَّم، ودخلتُها يومي هذا، أيّد الله أمير المؤمنين، دخول الغانم الظافر، المستعلي الظاهر، فسكنت نفوس سكّانها، وشرحت صدور قطانها، وأعلمتهم ما أمرني به أمير المؤمنين، أدام الله عزّه، وأعلى أمره، من تأنيس وحشتهم، ونظم إلفتهم، وضمّ نشرهم، ولمّ شعثهم، وإجمال السيرة فيهم، في ضروب معاملاتهم وعَلقهم[٦]، وصنوف متصرّفاتهم ومعايشهم، فكثر منهم الثناء والدعاء، والله سامع ما رفعوا، ومجيب ما سألوا.

وأَجْلَت حال هذا الجاهل، أيّد الله أمير المؤمنين، عن أقبح هزيمة، وأذلّ هضيمة[٧]، وأسوأ رأي، وأنكر اختيار، لأنه لم يلقني لقاء الباخع[٨] بالطاعة، المعتذر من سالف التفريط والإضاعة، ولا لقاء المصدّق لدعواه في الاستقلال بالمقارعة، المحقّق لزعمه في الثبات للمدافعة، ولا كان في هذين الأمرين بالبرّ التقيّ، ولا الفاجر القويّ، بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره، وفضيحة جُبنه وخَوَره، متنكّبًا[٩] للصلاح، عادلاً عن الصواب، قد ذهب عنه الرشاد، وضُربت بينه وبينه الأسداد، وأنزله الله منزلة مثله ممّن أساء حفظ الوديعة، وجوار الصنيعة، واستوجب نزعهما منه وتحويلهما عنه. وتأمّلت، أيد الله مولانا أمير المؤمنين، أمره بالتجريب وتصفّحته على التقليب، فإذا هو الرجل الذي أطاع أبوه فيه هوى

---

(١) شاكّية، تقول شكّ في السلاح: كان لابسًا سلاحًا تامًّا، وغارقًا فيه، فهو شاكّ السلاح.

(٢) النزوع.

(٣) الغيّ: الضلال.

(٤) نوع من السفن الرواكد كان في دجلة.

(٥) فعل ما يذمّونه عليه.

(٦) العَلق: كلّ ما تعلّق به الإنسان.

(٧) الهضيمة: الظلم، وقيل: الغضب.

(٨) الباخع: المُقرّ بالشيء والخاضع له.

(٩) تنكّبه مثل تنكّب عليه أي اتّكأ عليه.

أمّه، وعصى دواعي رأيه وحزمه، وقدمه من ولده على مَن هو آنس رشدًا وأكبر سنًّا، وأثبت جأشًا وأجرى جِنانًا[١]، وأشجع قلبًا وأوسع صدرًا، وأجدر بمخايل النجابة وشمائل اللبابة. فلمّا اجتمعت له أسباب القدرة والثروة وأمكنته مناهز الغرة والفرصة، وثب عليه وثبة السرحان في ثلة[٢] الضان، وجزاه جزاء أُم عامر[٣] لمجيرها؛ إذ فرته بأنيابها وأظافيرها، واجتمع وأخوه من الأم المرتضع معه لبان الإثم المكنّى «أبا البركات»، على أن نشزا عنه، وعقّاه وقبضا عليه، وأوثقاه وأقراه من قلعتهما، بحيث يُقَرّ العتاة وتعاقب الجُناة[٤]، ثمَّ أتبعا ذلك باستحلال دمه، وإفاضة مُهْجته[٥]، غير راعيين فيه حقّ الأبوّة، ولا حانيين عليه حنوّ النبوّة، ولا متذمّمين من الإقدام على مثله، ممّن تقدّمت عند سلطانه قدمه، وتوكّدت أواصره وعصَمه، ولا راحمين له من ضعف شيخوخته ووهل[٦] كبرته، ولا مصغيين إلى وصيّة الله إيّاهما به، التي نصّها في مُحْكَم كتابه، وكرّرها في آيه وبيّناته؛ إذ يقول: ﴿اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾. وإذ يقول: ﴿وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانًا إمّا يبلُغنَّ عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تَنهرهما وقُل لهما قولاً كريمًا واخفِض لهما جَناح الذلّ من الرحمة وقُلّ ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرًا﴾[٧]. فبأيّ وجه يلقى الله قاتل والد حدب[٨] قد أُمِر ألاّ ينهره، وبأيّ لسان ينطق يوم يُسأل عمّا استجازه فيه وفعله، تالله لو أنَّ بمكانه عدوًّا لهما قد قارضهما الذحول[٩]، وقارعهما عن النفوس، لَقَبح بهما أن يلؤما ذلك اللؤم عند الظفر به، وأن يركبا تلك الخطّة الشنعاء في الأخذ بناصيته[١٠]، ولم يرضَ

---

(١) الجنان (بالكسر): العقل.

(٢) جماعة الغَنَم.

(٣) أم عامر: الضبع، قيل حماها رجل من الصيادين، وأطعمها وعطف عليها، فافترسته.

(٤) سنة ستّ وخمسين وثلاث مئة، قبض أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان على أبيه وحبسه في قلعة، وذلك لأنه كان قد بلغ من الكبر عتيًا وساءت أخلاقه وضيّق على أولاده، وخالفهم في أهوائهم، فضجروا منه. وكان من جملة ما خالفهم فيه، أنه عند وفاة معزّ الدولة وولاية ابنه بختيار، عزموا على قصد العراق فمنعهم قائلاً لهم، إنَّ معزّ الدولة قد خلف لولده من المال ما يتمكّن معه من الظهور، فاصبروا حتّى يتفرّق ماله، فوثب عليه أبو تغلب ووضعه في محبس فغضب لذلك بعض إخوانه ووقع الخلاف بينهما وانتشر أمرهم. وكان ناصر الدولة يستنصر ابنه حمدان على أبي تغلب وأبي بركات، فنقلاه إلى قلعة كواشي، وتوفّي في الاعتقال، في ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، وبقي أولاده بعده في الحروب طول أيامهم، وأبو تغلب هذا ليس بأكبرهم ولا بأشجعهم ولكنّه هو وأبو البركات وأختهما جميلة من أم هي فاطمة بنت أحمد الكردية، وكانت مالكة أمر ناصر الدولة، وإلى ذلك أشار في الكتاب بقوله (الذي أطاع فيه أبوه هوى أمّه).

(٥) المُهجة: الروح.

(٦) الوَهل: الضعف.

(٧) الآية: ٢٣ و٢٤، من سورة الإسراء.

(٨) حَدَب فلان على فلان وتحدّب عليه: حنا وعطف، ومنه: ولد حدب.

(٩) جمع ذَحْل وهو الثار.

(١٠) أخذ بناصيته: تقال في حال أذلّ أحدهم أحدًا، والناصية في اللغة مُقدَّم الرأس أو مُقدَّم شعر الرأس.

فضل الله بما أتاه حتَّى استوفى حدود قطع الرحِم، بأن يتبع أكابر إخوته السالكين خلاف سبيله، المتبرّئين إلى الله من عظيم ما اكتسب، ووخيم ما احتقب، لمّا غضبوا لأبيهم، وامتعضوا من المستَحِلّ فيه وفيهم، فقبض على محمَّد بن ناصر الدولة حيلة وغيلة، وغدرًا ومكيدة، ونابذ حمدان بن ناصر الدولة منابذة خار[1] الله له فيها، بأن أصاره من فناء أمير المؤمنين، أيّده الله، إلى الجانب العزيز، والحِرز الحَريز، وأن أجرى الله عزّ وجلّ على يده الحرب الواقعة بينه وبين المعروف بكنيته أبي البركات، التي لقاه الله فيها نحسه، وأتلف نفسه، وصرعه بعقوقه وبَغيه وقنّعه بعاره وخزيه، وهو مع ذلك لا يتّعظ، ولا يتّزع، ولا يُقلع، ولا يزدجر إصرارًا على الجرائر، التي الله عنها حسيبه وبها طليبه، والدنيا والآخرة مرصدتان له بالجزاء المحقوق عليه، والعقاب المسوق إليه. وأعظم من هذا، أيّد الله أمير المؤمنين، خطبًا، وأوعر مسلكًا ولحبًا[2]، أنَّ من شرائط العهد الذي كان قد عهد إليه، والعقد الذي عقد له، والضمان المخفّف مبلغه عنه، المأخوذة عفوه[3] منه، أن يتناهى في ضبط الثغور، وجهاد الروم، وحفظ الأطراف، ورمّ الأكناف، فما وفى بشيء من ذلك، بل عدل عنه إلى الاستئثار بالأموال واقتطاعها، وإحرازها في مكامنها وقلاعها، والضنّ بها دون الإخراج في وجوهها، والوضع لها في حقوقها، وأن تراخى في أمر عظيم الروم مهملاً، واطّرح الفكر فيه مغفلاً، حتَّى هجم في الديار، وأثر الآثار، ونكى القلوب، وأبكى العيون، وصدع الأكباد، وأحرّ الصدور، فما كان عنده فيه ما يكون عند المسلم، القارئ لكتاب الله إذ يقول: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومَن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[4]. بل صدف عن ذكر الله لاهيًا، وعدل عن كتابه ساهيًا، واستفسخه ذلك البيع والعقد، وتنجزه الوعيد والوعد، ولاطف طاغية الروم، وهاداه وماره[5]، وأعطاه وصانعه بمال المسلمين، الذي إن سلم دينه، وصحّ يقينه أن ينفقه في مرابطيهم، ويذبّ به عن حريمهم، لا أن يعكسه عن جهته ويلفته عن وجهته بالنفل إلى عدوّهم، وإدخال الوهن بذلك عليهم، وقاد إليه من الخيل العِتاق ما هو عون للكفّار على

(١) يقال، خار الله لك أي آتاك الخير.

(٢) اللحب كاللاحِب: الطريق الواضح.

(٣) فضلته.

(٤) الآية: ١١١، من سورة التوبة.

(٥) قدّم له الميرة.

الإيمان، ونجدة للطاغية على السلطان. وكان فيما أتحفه به الخمر التي حظّر الله عليه أن يشربها ويسقيها، وتعبده[1] بأن يجتنبها ويجتويها[2]، وصلبان ذهب صاغها له، وتقرّب بها إليه تقرّبًا، قد باعده الله فيه عن الإصابة والأصالة، وأدناه من الجهالة والضلالة، حتّى كأنه عامل من عمّاله وبطريق من بطارقته، فأمّا فشله عن مكافحته، ولهجه بملاطفته، فَضِدّ الذي أمره الله به في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أنّ الله مع المتّقين﴾[3]. وأمّا ما نقل من الخيل من ديار المسلمين إلى ديار أعدائهم فنقيض قوله عزّ وجلّ: ﴿وأَعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم﴾[4]. وأمّا إهداؤه الخمر والصلبان، فخلاف عليه تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿إنّما الخمر والمَيْسِر والأنصاب والأزلام رِجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تُفلحون﴾[5]، كلّ ذلك عنادًا لربّ العالمين، وطمسًا لأعلام الدين، وضنًا بما يحامي عليه من ذلك الحطام، المجموع من الحرام، المثمر من الآثام. وقد فعل الآن بي وبالعساكر التي معي، ومَن يضمّ من أولياء أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، الذين هم إخوته وصحبه إن كان مؤمنًا، وأنصاره وحزبه إن كان موقِنًا، من توعير المسالك، وتغريق العَروب[6]، وتضييق الأقوات، واستهلاك الأزواد، ليوصل إلينا الضر ويلحق بنا الجهد، فعلَ العدوّ المبيّن، المخالف في الدين. فهل يجتمع في أحد من المساوي، أيّد الله أمير المؤمنين، ما اجتمع في هذا النادّ العاند، والشاذّ الشارد، وهل يُطمع من مِثله في حقّ يقضيه، أو فرض يؤدّيه، أو عهد يرعاه، أو ذمام يحفظه، وهو لله عاص، وللإمامة مخالف، ولوالده قاتل، ولرحمه قاطع، كلاّ والله، بل هو الحقيق بأن تُثنى إليه الأعنة، وتُشرع نحوه الأسِنّة، وتُنصب له الأرصاد، وتُشحذ له السيوف الحِداد، ليقطع الله بها دابره، ويجبّ غاربه، ويصرعه مصرع الأثيم المليم[7]، المستحقّ للعذاب الأليم، ويفيء إلى الحقّ أفاءه[8]، الداخل فيه بعد خروجه، العائد إليه بعد

---

(١) تعبّد لله الرجل بالطاعة استعبده.

(٢) يكرهها.

(٣) الآية: ١٢٣، من سورة التوبة.

(٤) جزء من الآية: ٦٠، من سورة الأنفال.

(٥) جزء من الآية: ٩٠، من سورة المائدة.

(٦) العَروب: النساء (مطلقًا). وهي كذلك من جُموع العُرْب والعَرَب.

(٧) المليم: الملوم، من لامه: عذله وكدّره بالكلام لإتيانه ما ليس ملائمًا أو جائزًا.

(٨) فاء: رجع، وعليه قوله تعالى في المؤْلِين من نسائهم [يحلفون على ترك مواقعة زوجاتهم] (فإن فاءوا فإنّ الله غفور رحيم) [جزء من الآية ٢٢٦، من سورة البقرة].

وأفاء مثل فاء، قال كثير عَزة.

فأقلع من عشرٍ وأصبح مُزنه | أفـاء وآفـاقُ السمـاءِ حـواسِرُ

مُروقه، التائب المنيب، النازع المستقيل، فيكون حكمه شبيهًا بحكم الراجع عن الردّة، المحمول على ظاهر الشريعة، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

فالحمد لله الذي هدانا لمراشدنا، ووقف بنا على السبل المنجية لنا، والمقاصد المفضية إلى رضاه، البعيدة عن سطاه، والحمد لله الذي أعزّ أمير المؤمنين بالنصر، وأعطاه لواء القهر، وجعل أولياءه العالين الظاهرين، وأعداءه السافلين الهابطين، وهنّأه الله هذا الفتح، ولا أخلاه من أشكال له تقفوه وتتبعه، وأمثال تتلوه وتشفعه، واصلاً فيها إلى ما وصل فيه إليه من حيازته، مهنّئًا لم يسفك فيه دم، ولم ينتهك محرّم ولم ينل جهد، ولم يمسس نَصَب. أنهيت إلى أمير المؤمنيين أطال الله بقاءه ذلك، ليضيف صنع الله فيه، إلى السالف من عوارفه عنده وأياديه، وليجدّد من شكره جلّ وعلا، ما يكون داعيًا إلى الإدامة والمزيد، مفضيًا للعون والتأييد، إن شاء الله. وكُتب يوم الجمعة لتسع ليال خَلَون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستّين وثلثمائة.



وكتب عن الوزير أبي الفضل العبّاس بن الحسين الشيرازي[1]، إلى الأمير عضد الدولة أبي شجاع

كتابي أطال الله بقاء مولانا الأمير عضد الدولة، والأمور التي أخدمه فيها جارية على السداد، مستمرّة على الإطراد، والنِّعم في كلّ ذلك خليقة بالتمام، مؤذنة بالدوام، والحمد لله حقّ حمده، وهو المسؤول، أطال الله بقاء موالينا الأمراء بحراسة ما خوّلهم من العزّ والعلاء، وألاّ يخليهم من علوّ الشان وسموّ السلطان، وظهور الوليّ، وتبورُ[2] العدوّ. ووصل كتاب مولانا الأمير، أطال الله بقاءه، الصادر عن معسكره المنصور بدارزين[3]، بتاريخ يوم كذا لعشر ليال بَقِين من ذي الحجة، مخبرًا بشمول السلامة، مبشّرًا بعموم الاستقامة، موجبًا شكر ما منح الله من فضله وأعطى، مقتضيًا نشر ما أسبغ من طَوله وأضفى، مشروحًا فيه الحال فيما كان يجري من الخلاف بين مولانا الأمير السيِّد، ركن الدولة، وبين وُلاة خُراسان[4]، في جهاده إيّاهم، في حياطة الدين وحماية حريم المسلمين، والدعاء إلى رضى ربّ العالمين، وطاعة مولانا أمير المؤمنين، وتذمّمه مع ذلك من دماء كانت باتّصال الحروب تُسفَك، وحرمات باستمرار الوقائع تُنتهك، وثغور تُهمل بعد أن كانت ملحوظة، وحقوق تُضاع بعد أن كانت محفوظة، وأنه لمّا جدّدت العزيمة على قصد جُرجان[5]، ومنازعة ظهير الدولة منصور بن وشمكير، مولى أمير المؤمنين، بوسيلة موالينا الأمراء، أدام الله تمكينهم منها، ومنازعته ومجاذبته فيها، نهض مولانا الأمير الجليل عضد الدولة إلى كَرمان[6]، على الاتّفاق كان بين مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة وبينه في التوجّه إلى حدود خراسان. فحين عرف القوم الجدّ في ردّهم، والتجريد في صدّهم، وأنه لا مطمع لهم في جنبة إلى طاعة أمير المؤمنين انتسابها، وبذمام ساداتنا الأمراء اعتصامها، اتّعظوا واتّزعوا وعرجوا ورجعوا سالكين، أقصد مسالكهم منتهجين، أرشد مناهجهم معتمدين، أعود الأمور على المسلمين

(١) بعد وفاة أبي محمَّد المهلبي وزير معزّ الدولة بن بويه، نظر في الأمور أبو الفضل العبّاس بن الحسين الشيرازي، وأبو الفرج محمَّد بن العبّاس بن فسانجس، من غير تسمية لأحدهما بوزارة، ثمَّ توفّي معزّ الدولة فاستوزر ولده عزّ الدولة بختيار، أبا الفضل العبّاس بن الحسين. وفي أيام وزارته ثارت فِتن عظيمة في بغداد، وتعصّب فيها الوزير المذكور على الشيعة، ممّا أدّى إلى العداوة بينه وبين النقيب أبي أحمد الموسوي، وأخيرًا عزله بختيار شرّ عزلة ومات محبوسًا وقيل مسمومًا، ولم يذكر له ابن الأثير [هو عزّ الدين علي (١١٦٠م ـ ١٢٣٤م)، مؤرّخ كبير، له "الكامل" في التاريخ] في تاريخه أثرًا يحمد.

(٢) تبوّر (نفسه) رثاها، والوزن هنا للمبالغة، من بَوار: أي هلاك.

(٣) دارزين، أو دار رزين: من نواحي كرمان.

(٤) خُراسان: بلاد واسعة تصل نواحي أراضيها إلى حدود الهند، وهي معروفة.

(٥) جُرجان: مدينة مشهورة بين طبرستان وخُراسان.

(٦) كرمان: بلاد واسعة تحاذي بلاد فارس.

عمومًا، وعليهم خصوصًا، باجتماع الشمل، واتّصال الحبل، وأمن السرب، وعذوبة الشرب، وسكون الدهماء، وشمول النعماء. فخطبوا الصلح والوصلة، وجنحوا إلى طلب السلم والإلفة، وإنَّ مولانا الأمير عضد الدولة آثر الأحسن، واختار الأجمل، فأجاب إلى المرغوب فيه إليه، وتوسّط ما بين مولانا الأمير السيِّد ركن الدولة وبين تلك الجنبة فيه، وتكفّل بتقريره وتمهيده، وتحقّق بتوطيده وتشييده، وأخرج أبا الحسن عابد بن علي إلى خراسان حتّى أحكم ذلك وأبرمه وأمضاه وتمّمه، بمجمع من الشيوخ والصلحاء، ومشهد من القضاة والفقهاء، وإنَّ صاحب خراسان عاد على يد مولانا الأمير عضد الدولة إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين ومشايعته، والإمساك بعلائق ولايته وعصمته، وصار وليًّا بعد العداوة، ومخالطًا بعد الانفراد، وفهمتُه وتأمّلتُ أيد مولانا في ذلك من ضروب النعم المتشعّبة، وصنوف المنح المتفرّعة، العائدة على الملك بالجمال، وعلى الرعيّة بصلاح الحال، الداعية إلى الائتلاف والاتّفاق، المزيلة للخلاف والشقاق، فوجدت النفع بها عظيمًا، والحظّ فيها جسيمًا، وحمدته الله حقّ حمده عليها، وشكرته على أن أجراها على يد أَولى الناس بها وأحقّهم بالمكارم أجمعها، وأن قرّب الله ما كان بعيدًا مُعضلاً، ويسّر ببركته ما كان ممتنِعًا مشكلاً، فأصلح ذات البين بعد فسادها، وأخمد الفتن بعد تلهّبها واتّقادها، ووافق بين نيّات القلوب، وطابق بين نخائل الصدور[1]، وتحنّث الضلوع[2]، بنُجْح سعيه على التآلف، وانضمّت الجوانح بميمون رأيه على التعاطف، وحصل له في ذلك من جزيل الأجر، وجميل الذكر، وجليل الفخر، وأريج النشر، ما لا تزال الرواة تدرسه، والتواريخ تحرسه، والقرون تتوارثه، والأزمان تتداوله، والخاصّة تتحلّى بفضله، والعامّة تأوي إلى ظلّه. فالحمد لله كثيرًا والشكر دائمًا على هذه الآلاء المتواترة، والعطايا المتناصرة، والمفاخر السامية والمآثر العالية، وإيّاه نسأل، أن يعرف مولانا الأمير الجليل عضد الدولة، الخيرة فيما ارتآه وأمضاه، والبركة في أُولاه وأخراه، وأن يهنّئه نعمه عنده، ويظاهر مواهبه، ويسهّل عليه أسباب الصلاح، ويفتح أمامه أبواب النجاح، ويعكس إلى طاعته الرقاب الأبيّة، ويذلّل لموافقته النفوس النابية، ولا يعدمه وموالينا الأمراء أجمعين، المنزلة التي يرى معها ملوك الأرض قاطبة التعلّق بحبلهم أمنًا، والإمساك بذمامهم حصنًا، والانتماء إلى مخالطتهم عزًّا، والاعتزاء إلى مواصلتهم حرزًا، إنّه عزّ وجلّ على ذلك قدير، وبإجابة هذا الدعاء جدير.

---

(١) نخائل الصدور: نيّاتها الخالصة.

(٢) تحنّث: أَنِفَ الإثم، وتعبّد. تحنُّث الضلوع: (كناية)، انطوائها على الصلاح.

وقد اجتهدتُ، أيّد الله مولانا، بالقيام في حقّ هذه النعمة الذي يُلزمني، وتأدية فرضها الذي يجب عليَّ، من الإشادة بها والإبانة والإشاعة والإذاعة، حتَّى اشتهرت في أعماله التي أنا فيها، واستوى خاصّها وعامّها في الوقوف عليها، وانشرحت صدور الأولياء معها، وكبت الله الأعداء بها، واعتَدَدْتُ بالنعمة في المطالعة بها والمكاتبة فيها، وأضفتها إلى ما سبق من أخواتها وأمثالها، وسلف من أترابها وأشكالها. فإن رأى مولانا الأمير الجليل عضد الدولة، أن يأمر بإجرائي على أكرم عاداته فيها، واعتمادي لعوارض أمره ونهيه بها، فإنَّ وفور حظّي من الإخلاص يقضي لي وفور الحظّ من الاستخلاص، فَعلَ إن شاء الله.



فصل في العهود والتقليدات

نسخة عهد إلى أبي الحسن علي بن ركن الدولة الملقّب فخر الدولة(١)، عن الطائع لله أمير المؤمنين(٢)

هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم، الإمام الطائع لله أمير المؤمنين، إلى فخر الدولة أبي الحسن، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين، حين عرف غناءه وبلاءه، واستصحّ

(١) هو أخو عضد الدولة جعله والده على همذان وبلاد الجبل مع الطاعة لأخيه، فانضمّ إلى بختيار بن معزّ الدولة، فلمّا ظفر عضد الدولة ببختيار، كتب إلى فخر الدولة يوبّخه، فأغلظ له الجواب ونسي عهد أبيه وقوّة أخيه، فسار عضد الدولة إلى مملكته، فاستولى عليها وجعلها في حكم أخيهما، مؤيّد الدولة، والتجأ فخر الدولة إلى قابوس بن وشمكير صاحب جرجان.

(٢) الخليفة الطائع لله عبد الكريم المكنّى بأبي الفضل، خلف والده المطيع لله المستقيل وذلك في ١٣ ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ، قال في فوات الوفيّات، عبد الكريم بن الفضل بن جعفر بن أحمد بن أمير المؤمنين، الطائع لله بن المطيع، ابن المقتدر بن المعتضد، تولّى الخلافة في ذي القعدة سنة ثلاث وستّين وثلثمائة، وقبضوا عليه في شعبان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة. وكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وستّة أيام، قال عليّ بن شادان رأيته رجلاً مربوعًا كبير الأنف أبيض أشقر، قال في الفَوات وكان الطائع شديد الحيل، في خُلقه حدّة، وقد ذهب الأمر من يده في زمن بهاء الدولة بن عضد الدولة، وسملوا عينيه، ولمّا جلس القادر في الخلافة أسكنه معه في زاوية من قصره رقّة له، وكان يحسن إليه ويتحمّل غلظة كلامه، ويقضي معظم ما يستقضيه من حوائجه. وكلّفه يومًا حاجة لم يقدر عليها، واعتذر إليه بأنّ الديلم غالبون على الأمر، فلمّا توسّط النهار وقدم الطعام أتوه بعدس مطبوخ فلمسه وقال ما هذا، قالوا عدسية، قال أَمِن هذا أكل أمير المؤمنين، قالوا نعم، قال إذا كان هذا أكله وجاهه، ما رأيناه أول النهار، فقد كان الأولى به أن يقعد في البطيحة ولا يتكلّف مشقّة الخلافة، فضحك القادر وقال، منعناه من راحة البصر فلا نمنعه من راحة اللسان. وكان الطائع قد استعرض جارية فأعجبته فأمر بشرائها، فنظرت إليه ورأت عظم أنفه فقالت، ما يُقدم على أن يباع عندكم إلاّ من يوطّن نفسه على المرابطة في سبيل الله، فضحك الطائع وقال اشتروها فإن لم يكن عندها أدب الملوك فعندها نوادر الظرفاء، وتوفّي رحمه الله ليلة الفطر سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، وصلّى عليه القادر وكبّر خمسًا، وحُمل إلى الرصافة، وشيّعه الأكابر، ورثاه الشريف الرضي [(٩٧٠ ـ ١٠١٦) من كبار الشعراء، أشهر شعره «الحجازيات»، جمع «نهج البلاغة». وُلد ومات في بغداد] بقصيدة مطلعها:

أيُّ طَودٍ دُكَّ من أيّ جبالِ ... لقحت(١) أرضٌ به بعد حيالِ
ما رأى حَيّ نزارٍ قبلها ... جبلاً سار على أيدي الرجالِ
عجبًا أصبحت للضيم وما ... نشر الطعن أنابيب العوالي
فإذا رامي المقاديرُ رمى ... فَدُروع المرء أعوان النصالِ

وهي طويلة، ووجد له مرثية أخرى قيل إنّها في الطائع، وقد كان بينهما من المخالطة والمودّة، ما تدلّ عليه هذه القصيدة وإنّما أخفى ترجمتها خشية الرقيب، وهي:

أترى السحاب إذا سرت عشراوه ... يمرى على قبر ببابلَ(٢) ماوهُ
يا حاديه قفا ببزْلٍ(٣) مطيّه ... فإلى ثَرى ذا القبر كان حداوهُ
يسقي هوىً للقلب فيه ومعهدًا ... رَقّت منابته ورقّ هَواوهُ=

(١) لَقَحَت، يُقال لقحت الناقة: قبلت اللقاح.

(٢) بابل: إشارة إلى قبر (الطائع) في مدينة بابل.

(٣) البزل، مفردها البازل: وهي الإبل التي دخلت في السنة التاسعة.

دينه ويقينه، ورعى قديمه وحديثه، واستنجب عوده ونِجاره[1]، وأثنى عزّ الدولة أبو منصور، بن معزّ الدولة أبي الحسين، مولى أمير المؤمنين أيّده الله عليه، وأشار في الصنيعة إليه، وأعلم أمير المؤمنين اقتداءه به في كلّ مذهب ذهب فيه من الخدمة، وغرض رمى إليه من النصيحة، دخولاً في زمرة الأولياء المنصورة، وخروجًا عن جملة الأعداء المدحورة، وتصرّفًا على

= ومنها:

أوعى الدعاء فلم يُجبه قطيعة ... أم ضلّ عنه من البعاد دعاؤهُ

هيهات أصبح سمعه وعَيانه ... في التُرب قد حجبتهما أقذاؤهُ

يُمسي ولين مهاده حَصباؤه ... فيه ومونس ليله ظلماؤهُ

مُغْفٍ وليس للذّة إغفاؤه ... مُغْضٍ وليس لفكرةٍ إغضاؤهُ

وجه كلمح البرق غاض وميضه[1] ... قلب كصدر العَضْب[2] فُلّ مضاؤهُ

حكَم البِلى فيه فلو يَقلي به ... أعداءه لرثى له أعداؤهُ

إنّ الذي كان النعيم ظلالـه ... أمسى يُطنّب بالعَراء[3] خِباؤهُ

قد خفّ عن ذاك الرُواق حضوره ... أبدًا وعن ذاك الحِمى ضَوضاؤه[4]

ورماحه سُفراؤه وسيوفه ... خُفراؤه وجياده نُدماؤه

وختامها:

فاذهب فلا بقي الزمان وقد هوى ... بك صَرْفه[5] وقضى عليك قضاؤه

(١) غاض وميضه: ذهب لمعانه.

(٢) العَضْب: السيف.

(٣) العراء: المكان المتّسع الذي لا سِتر فيه.

(٤) الضوضاء: أصوات الناس في الحرب.

(٥) صَرْف الزمان: نوائبه وحدثانه.

وورد في خلاصة الذهب المسبوك المختصر من سير الملوك، أنّ مولد الطائع كان في سنة سبع عشرة وثلثمائة، وأمّه أمّ ولد اسمها عتب، أدركت خلافته، وكان عمره لمّا تولّى الخلافة ثمانيًا وأربعين سنة، ولم يلِ الخلافة قبله أسنّ منه، وبويع في ثالث عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستّين وثلثمائة. وكان مربوعًا، أشقر، حسن الوجه، نَقش خاتمه الطائع لله. وكان شديد القوّة، موصوفًا بالكرم، قال: وفوّض الطائع أمور المملكة إلى عضد الدولة، وجلس له في صحن دار السلام، وأخذ مونس الفضل حاجب الطائع، بعضد عضد الدولة حتّى قبّل الأرض مرارًا، إلى أن انتهى إليه فقبّل يديه وقدمه وأمره بالجلوس، فامتنع فأقسم عليه فجلس على ركبتيه وفوّض الأمور إليه، فقال عضد الدولة أسأل أن يسمع الناس ذلك، فقال الطائع ليحضر ابن موسى يعني أبا أحمد الموسوي، والزينبي يعني أبا تمام، وابن معروف يعني القاضي، والمظهر يعني وزير عضد الدولة، وعبد العزيز كاتبه، فأحضروا وسمعوا لفظ الطائع بتولية عضد الدولة. فلمّا خرج أنفذ إلى الطائع هديّة على خمسمائة حمال من جملتها خمسون ألف دينار في عشرة أكياس ديباج أسود، وألف ألف درهم في مائتي كيس، وخمسمائة ثوب أنواعًا، وثلاثون صينيّة مذهّبات فيها العنبر والمسك والكافور والعود الهندي والندّ، إلى غير ذلك. قال: وكان الطائع صاحب تنعّم جمع بين بنت عضد الدولة وبنت عزّ الدولة بختيار، ثمّ قال في سبب تنحّيه عن الخلافة ما ملخّصه، أنّ أبا الحسن بن العلم كان من خواص بهاء الدولة بن عضد الدولة، فزيّن لمولاه القبض على الطائع لكثرة ما عنده من الأموال والجواهر، فقبض عليه يوم السبت تاسع عشر شوال سنة ٣٨١، ويوم الأحد تنحّى عن الخلافة وأشهد على نفسه بذلك الأشراف والقضاة، وأنفذ الكتاب إلى القادر بالله بمكانه من البطيحة عند شهاب الدولة علي بن ناصر أميرها، حيث كان هرب إلى هناك خوفًا من الطائع، فأخبر بخبر الخلافة وإفضائها إليه، فحضر وتولّى الأمر، ومكث الطائع بعد ذلك مشمولاً من القادر بالله بالإحسان، في دار الخلافة إلى أن توفّي ليلة عيد الفطر سنة ٣٩٣ عن ستّ وسبعين سنة. ولم يذكر في هذا التاريخ كونهم سَمَلوا عينيه عند نزوله عن الأمر.

(١) استنجب عُوده ونِجاره: طلب نجابته، والنجابة: الفضل، و(عُود) الرجل كناية عن معدنه وأصله، والنجار: الأصل والحسب. فكأنه اختار كرم الناس ونخبتهم.

موجبات البَيعة التي هي لعزّ الدولة أبي منصور أيّده الله مَنوطة، وعلى سائر مَن يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطة. فقلّده الصلاة، وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخَراج والأعشار والضياع والجِهْبذة[1] والصدقات والجوالي[2]، وسائر وجوه الجبايات، والعرض والعطاء، والنفقة في الأولياء، والمظالم وأسواق الرقيق، والعيار في دار الضرب والطرز[3]، والحسبة بكُوْر همذان واستراباذ والدينور وقرماسين والإيعارين وأعمال أذربيجان والسحانين وموقان، واثقًا منه باستبقاء النعمة واستدامتها، والاستدامة بالشكر منها، والتجنّب لغمطها وجُحودها، والتنكّب[4] لإيحاشها[5] وتنفيرها، والتعمّد لِما مكّن الحُظوة[6] والزلفى[7]، وحرس عليه الأَثَرة والقربى، بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح، والولاء الصريح، والغيب الأمين، والصدر السليم، والمقاطعة لكلّ مَن قطع العصمة وفارق الجملة، والمواصلة لكلّ مَن حمى البيضة، وأخلص النيّة، والكون تحت ظلّ أمير المؤمنين وذمّته ومع عزّ الدولة أبي منصور، أيّده الله، وفي حوزته، والله يعرف أمير المؤمنين حسن العقبى فيما أبرم ونقض، وسداد الرأي فيما رفع وخفض، ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامة، ومحجوبة عن موارد الندامة، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة، والجنّة الحصينة، والطود الأرفع، والمعاذ الأمنع، والجانب الأعزّ، والملجأ الأحرز، وأن يستشعرها سرًّا وجهرًا، ويستعملها قولاً وفعلاً، ويتّخذها رداءً دافعًا لنوائب القدر، وكهفًا حاميًا من حوادث الغِيَر، فإنّها أوجب الوسائل، وأقرب الذرائع، وأعودها على العبد بمصالحه، وأدعاها إلى سبل مناجحه، وأولاها بالاستمرار على هدايته والنجاة من غوايته، والسلامة في دنياه[8] وآخرته، حين تروع رائعاتها، وتخيف مخيفاتها، وأن يتأدّب بأدب الله في التواضع والإخبات[9]، والسكينة والوقار،

(١) الجهبذة: هي من المكيال أصباره، تقول: صبّر المكيال أي ملأه حتّى رأسه.

(٢) جمع جالية وهي جزية أهل الذمّة، وأصلها أنَّ الإمام عمر رضي الله عنه، أجلى أهل الذمّة عن جزيرة العرب فسمّوا جالية، ثمَّ لزمهم هذا الاسم أين حلّوا وأطلق على الجزية المأخوذة منهم، والجالة مثل الجالية.

(٣) الطرز: النسيج.

(٤) التنكُّب: التجنُّب.

(٥) الإيحاش، من أوحش المكان إيحاشًا: ذهب الناس عنه.

(٦) الحُظوة: المكانة والمنزلة عند الناس.

(٧) الزلفى: القربة والدرجة.

(٨) وفي رواية ابن الأثير، صاحب المثل السائر، والسلامة في دنياه حين توبق موبقاتها وتردي مردياتها، وفي آخرته حين تروع رائعاتها وتخيف مخيفاتها.

(٩) الإخبات: التخشّع لله.

وصدق اللهجة إذا نطق، وغضّ الطرف إذا رمق، وكظم الغيظ إذا أُحفظ[1]، وكفّ اللسان إذا أُغضب، وكفّ اليد عن المآثم، وصون النفس عن المحارم، وأن يذكر الموت الذي هو نازل به، والموقف الذي هو صائر إليه، ويعلم أنه مسؤول عمّا كسب واكتسب، ومجزي عمّا تزمّل واحتقب[2]، ويتزوّد من هذا الممرّ لذلك المقرّ[3]، ويستكثر من أفعال الخير لتنفعه، ومساعي الرشد لتنقذه، ويأتمر بالصالحات قبل أن يأمر بها، ويزدجر عن السيآت قبل أن يَزْجُر عنها، ويبتدئ بإصلاح نفسه، ثمَّ في إصلاح رعيّته، فلا يبعثهم على ما يأتي ضدّه، ولا ينهاهم عمّا يقترف مثله، ويجعل دينه رقيبًا عليه في خلواته، ومروّته مانعة له من هفواته. فإنَّ أحقَّ مَن قَمَع سلطان الشهوة، وأولى مَن أضرع خدّ[4] الحَمية، مَن ملك أزمَّة الأمور، واقتدر على سياسة الجمهور، وكان مطاعًا فيما يرى، متّبعًا فيما يشاء، يلي على الناس ولا يلون عليه، ويقتصّ منهم ولا يقتصّون منه. فإذا اطّلع الله منه على نقاء جَيبه، وطهارة ذيله، وصحّة سريرته[5] واستقامة سيرته، أعانه على حفظ ما استحفظه، وأنهضه بثقل ما حمله، وجعل له مخلصًا من الشبهة ومخرجًا من الحيرة، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ومَن يتّق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[6]. وقال:﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تُقاته ولا تموتُن إلاّ وأنتم مسلمون﴾[7]. وقال: ﴿اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[8]. إلى آي كثيرة حضنا بها على أكرم الخلق وأسلم الطرق، فالسعيد من نصبها إزاء ناظره، والشقي من نبذها وراء ظهره، وأشقى منه من بعث عليها وهو صادف[9] عنها، وأهاب إليها وهو بعيد منها، وله ولأمثاله يقول الله سبحانه: ﴿أَتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أَفلا تعقلون﴾[10]. وأمره أن يتّخذ كتاب الله إمامًا متّبعًا، وطريقًا مهيعًا[11] ويكثر من تلاوته إذا خلا بذكره، ويملأ بتأمّله أرجاء صدره، فيذهب معه فيما أباح وحظر، ويقتدي به

---

(١) أُحفظ الرجل: أُغضب، والحفيظة: الغضب.

(٢) تزمَّل واحتقب: حمل وادّخر (من عَمَل).

(٣) الممرّ والمقرّ: من قولهم الدنيا دار ممرّ، أي الحياة، إلى دار المقرّ: أي الموت.

(٤) وفي رواية المثل السائر من ضرع لغذاء الحمية.

(٥) نقاء الجيب، وطهارة الذَّيل وصحّة السريرة: مكارم الأخلاق.

(٦) الآية: ٣، من سورة الطلاق.

(٧) من الآية: ١٣٢، من سورة البقرة.

(٨) من الآية: ١١٩، من سورة التوبة.

(٩) صدف عن الأمر: أعرض عنه، والصادِف: المُعرِض.

(١٠) من الآية: ٤٤، من سورة البقرة.

(١١) وفي المثل السائر طريقًا متوقّعًا، وهناك اختلافات كثيرة بين النُّسَخ، نذكر ما يهمّ منها.

إذا نهى وأمر، ويستبين ببيانه إذا استغلقت دونه المُعضلات، ويستضيء بمصابيحه إذا غمّ عليه في المشكلات. فإنّه في عُروة الإسلام الوُثقى، وحجّته الوسطى، ودليله المقنع، وبرهانه الأسطع، والكاشف لظلم الخطوب، والشافي من مرض القلوب، والهادي لمن ضلّ، والتلافي لمن ذلّ. فمن لهج به فاز وسلم، ومن لهى عنه حار وندم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنّه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[1]. وأمره بأن يحافظ على الصلوات، ويدخل فيها في حقائق الأوقات، قائمًا على حدودها، متّبعًا لرسومها، جامعًا فيها بين نيّته ولفظه، متوقّيًا لمطامح سهوه ولحظّه، منقطعًا إليها عن كلّ قاطع لها، مشغولاً بها عن كلّ شاغل عنها، متثبّتًا في ركوعها وسجودها، مستوفيًا عدد مفروضها ومسنونها، موفرًا عليها ذهنه، صارفًا إليها همّه، عالمًا بأنه واقف بين يدي خالقه ورازقه ومحييه ومميته ومثيبه ومعاقبه، ومن لا يستسرّ دونه خائنة عينه، وخافية صدره، ووساوس نفسه، وهواجس فكره. فإذا قضاها على هذه السبيل[2] أتبعها بدعاء يرتفع بارتفاعها، ويستمع باستماعها، لا يتعدّى فيه مسائل الأبرار، ورغبات الأخيار من استصفاح واستغفار، واستقالة واسترحام، واستدعاء لمصالح الدين والدنيا، وعوائد الآخرة والأُولى، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتاً﴾[3]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وأقم الصلاة إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[4]. وأمره بالسعي في أيام الجمعة إلى المساجد الجامعة، وفي الأعياد إلى المصلّيات الضاحية، بعد التقدّم في فَرشها وكسوتها وجمع القوّام والمؤذّنين والمكبّرين فيها، واستسعاء الناس إليها، وحضّهم عليها، آخذين الأهبة، متنظفين في البزّة، مؤدّين لفرائض الطهارة، بالغين في ذلك أقصى الاستطاعة، معتقدين خيفة الله وخشيته، مدرّعين تقواه ومراقبته، مكثرين من دعائه وسؤاله، مصلّين على رسوله محمَّد صلّى الله عليه وآله، بقلوب علىٰ اليقين موقوفة، وهمم إلى الدين مصروفة، وألسن بالتسبيح والتقديس فصيحة، وآمال بالمغفرة والرحمة فسيحة. فإنَّ هذه المصلّيات والمجتمعات بيوت الله التي فضّلها، ومناسكه التي شرفها، وفيها يُتلى القرآن، ومنها ترتفع الأعمال، وبها يلوذ اللائذون، ويعوذ العائذون، ويتعبّد المتعبّدون، ويتهجّد المتهجّدون[5]. وحقيق على

---

(١) من الآية: ٤٢، من سورة فُصِّلت.

(٢) وفي رواية المثل السائر زيادة هذه الجملة:
"منذ تكبيرة الإحرام إلى خاتمة التسليم".

(٣) الآية: ١٠٣، من سورة النساء.

(٤) الآية: ٣٥، من سورة العنكبوت.

(٥) التهجّد: صلاة الليل.

المسلمين أجمعين، من والٍ ومولى عليه أن يصونوها ويعمروها ويواصلوها ولا يهجروها، وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين، ثمَّ لنفسه على الرسم الجاري فيها، قال الله في هذه الصلاة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذَروا البيع﴾[1]. وقال في عمارة المساجد: ﴿إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾[2]. وأمره بأن يراعي أحوال من يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه، ويطلق لهم الأرزاق في أوقات الوجوب والاستحقاق، وأن يحسن في معاملتهم ويجمل في استخدامهم، ويتصرّف في سياستهم بين رفق من غير ضعف، وخشونة من غير عنف، مثيبًا لمحسنهم ما زاد في الإبانة في حسن الأثر، وسلم معها من دواعي الأشر[3]، ومتغمّدًا لمسيئهم، ما كان التغمّد له نافعًا وفيه ناجعًا، فإن تكرّرت زلاّته، وتتابعت عثراته، تناوله من عقوبته بما يكون له مصلحًا ولغيره واعظًا، وأن يخصّ أكابرهم وأماثلهم، وأهل الرأي والخطر منهم، بالمشاورة في الملمّ، والاطّلاع على بعض المهمّ، مستخلصًا نخائل صدورهم بالبسط والإدناء، مستشحذًا أبصار قلوبهم[4] بالإكرام والاحتفاء. فإنَّ في مشاورة هذه الطبقة استدلالاً على مواقع الصواب، وتحرّزًا من غلط الاستبداد، وأخذًا بمجامع الحزامة، وأمنًا من مفارقة الاستقامة. وقد حضّ الله على الشورى في قوله لرسوله عليه السلام: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنَّ الله يحبّ المتوكّلين﴾[5]. وأمره بأن يضمّ ما يتّصل بنواحيه من ثغور المسلمين، ورباطات المرابطين، ويقسم لها قسمًا وافرًا من عنايته، ويصرف إليها طرفًا بل شطرًا من رعايته، ويختار لها أهل الجلَد والشدّة وذوي البأس والنجدة، ممّن عجمَته[6] الخطوب وعركَته الحروب، واكتسب دربة بخدع المتناوبين، وتجربة لمكايد المقارعين، وأن يستظهر بتكثيف عددهم، وانتخاب خيلهم، واستجادة أسلحتهم، غير مُجمر[7] بعثًا إذا بعثه، ولا مستكرهه إذا وجهّه، بل مناوب بين رجاله مناوبة تريحهم ولا تمدّهم، وترفهّهم ولا تَؤودهم، فإنَّ في ذلك من فائدة الإجمام، والعدل في الاستخدام، وتنافس رجال النوب فيما

(١) الآية: ٩، من سورة الجُمعة.

(٢) الآية: ١٨، من سورة التوبة.

(٣) البطر.

(٤) مُستشحذًا أبصار قلوبهم كناية عن أنه استمال قلوبهم إليه بالإكرام لهم والاحتفاء بهم.

(٥) من الآية: ١٥٩، من سورة آل عمران.

(٦) عجمته: اختبرته وجرّبته.

(٧) مُجمر، جَمَر القوم: إذا جمعهم.

عاد عليهم بعزّ الظفر والنصر، وبعد الصيت والذكر، وإحراز النفع والضرّ والأجر، ما يحقّ على الولاة أن يكونوا به عالمين، وللناس عليه حاملين، وأن يكرّر على أسماعهم ويثبت في قلوبهم مواعيد الله لمن صابر ورابط وسمح بالنفس وجاهد من حيث لا يقدمون على تورّط غرّة، ولا يحجمون عن انتهاز فرصة، ولا ينكصون عن يوم معركة، ولا يُقَلّون بأيديهم إلى تهلكة، فقد أخذ الله ذلك على خلقه، والمرامين عن دينه، وأن يزيح العلّة فيما يحتاج إليه، من راتب نفقة هذه الثغور وحادثها، وبناء حصونها ومعاقلها، واستطراق طرقها ومسالكها، وإفاضة الأقوات والعلوفة للمتردّدين بها والمحامين لها، وأن يبذل أمانه لمن طلبه، ويعرضه على من لم يطلبه، ويفي بالعهد إذا عاهد، وبالعقد إذا عاقد، غير خافر ذمّة، ولا جارح أمانة، فقد أمر الله بالوفاء فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[1]. ونهى عن النكث فقال: ﴿ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه﴾[2]. وأمره بعرض مَن في حُبوس عمله، على جرائرهم، وإنعام النظر في جناياتهم وجرائمهم، فمن كان إقراره واجبًا أقرّه، ومن كان إطلاقه سائغًا أطلقه، وأن ينظر في الشرطة والأحداث، نظر عدل وإنصاف، ويختار لها من الولاة من يخاف الله ويتّقيه ويراقبه، ولا يحابي ولا يراقب فيه، ويتقدّم إليهم بقمع الجهال، وردع الضلال، وتتبّع الأشرار، وطلب الدعار، مستدلّين على أماكنهم، متوغّلين إلى مكامنهم، متولّجين عليهم في مَظانّهم، متوثّقين ممّن يجدونه منهم، منفذين أحكام الله فيهم، بحسب الذي يبين من أمرهم، ويصحّ من فعلهم، في كبيرة إن ارتكبوها، وعظيمة إن احتقبوها، ومُهجة إن أفاظوها واستهلكوها. فمن استحقّ حدًّا من حدود الله المعلومة، أقاموه عليه غير مخفّفين منه، وأحلّوه به غير مقصّرين عنه، بعد أن لا يكون عليهم من الذي يأتون حجّة، ولا يعترضهم في وجوبه شُبهة. فإنَّ المستحبّ[3] في الحدود أن تقام بالبيّنات، وتُدرأ بالشبهات، وأولى ما توخّاه رعاة الرعايا فيها، ألاّ يُقدموا عليها مع نقصان اليقين، ولا يتوقّفوا عنها مع قيام الدليل، ومن وجب عليه القتل، احتاط عليه بما يحتاط على مثله من الحبس الحصين، والتوثّق الشديد، وكتب إلى أمير المؤمنين بخبره وشرح جنايته وثبوتها بإقرار يكون منه أو شهادة تثبت عليه، وانتظر من جوابه ما يكون عمله بحسبه، فإنَّ أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم لمسلم ولا مُعاهد، إلاّ ما أحاط به علمًا وأيقنه فهمًا، وكان ما

---

(١) من الآية: ١، من سورة المائدة.

(٢) من الآية: ١٠، من سورة الفتح.

(٣) وفي رواية ابن الأثير، فإنَّ «الواجب» بدل «المستحبّ».

يمضيه فيه عن بصيرة لا يخالجها شكّ، وثقة لا يشوبها ريب، ومَن ألمّ بصغيرة من الصغائر، ويسيرة من الجرائر من حيث لا يُعرف له مثلها، ولم يتقدّم منه أختها، وعَظه وزَجره، ونهاه وحذّره، واستتابه وأقاله، ما لم يكن عليه في ذلك خصم يطالب بقصاص منه، وجزاء له، فإن عاود، عاود تناوله من التقويم والتهذيب والتعزيز والتأديب، بما يرى أن قد كفى فيما اجترم، ووفى بما قدّم، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾(1). وأمره بأن يعطّل ما في أعماله من الحانات والمواخير، ويطهّرها من القبائح والمناكير، ويمنع من تجمّع أهل الخسارة فيها، وتأليف شملهم بها، فإنّه شمل يصلحه التشتيت، وجمع يحفظه التفريق. وما زالت هذه المواطن الذميمة والمطارح الدنيئة داعية لمن يأوي إليها، ويعكف عليها، إلى ترك الصلاة وإهمال المفترَضات، وركوب المنكرات، واقتراف المحظورات، وهي بيوت الشيطان التي عمارتها لله معصية، وفي إخرابها للخير مَجلبة، والله يقول لنا معشر المؤمنين: ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(2). ويقول لغيرنا من المذمومين: ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ(3) أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا﴾(4). وأمره بأن يولي الحماية في هذه الأعمال أهل الكفاية والغناء من الرجال، وأن يضمّ إليهم كلّ ما خفّ ركابه وأسرع عند التصريح جوابه، مرتّبًا لهم في المسالح(5)، وسادًّا بهم ثغر المسالك، وأن يوصيهم بالتيقّظ والتحفّظ، ويزيح عللهم في علوفة خيلهم، والمقدر من أزوادهم وميرهم، حتّى لا تثقل لهم على البلاد وطأة، ولا يدعوهم إلى تَحيّفهم وثلمهم(6) حاجة، وأن يحوطوا السابلة بادية وعائدة، ويبذرقوا(7) القوافل صادرة وواردة، ويحرسوا الطريق ليلاً ونهارًا، ويتقصّوها غدوًّا ورواحًا، وينصبوا لأهل العَيث(8) الأرصاد، ويتمكّنوا لهم في كلّ واد، ويتفرّقوا عليهم حيث يكون التفرّق مضيّقًا لفضائهم، ومؤدّيًا إلى انفضاضهم، ويجتمعوا حيث يكون

(1) من الآية: ٢٢٩، من سورة البقرة.

(2) من الآية: ١١٠، من سورة آل عمران.

(3) بسكون اللام، وقيل إنَّ استعماله ساكن الوسط في الشرّ، ومتحرّكه في الخير.

(4) من الآية: ٥٩، من سورة مريم.

(5) جمع مسلحة وهي كالثغر، والمرقب يكون فيه أرصاد، يرقبون العدوّ لئلاّ يطرقهم على غفلة، ومن كلام سيّدنا عليّ رضي الله عنه، لأهل الكوفة «هذا أخو غامد، قد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسّان بن حسّان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها».

(6) تحيّفهم وثلمهم: إنقاصهم شيئًا من حاجاتهم.

(7) البذرقة، فارسية مُعرَّبة معناها الخَفارة، يقال بعث السلطان بذرقة مع القافلة، ومنه قول المتنبّي حينما عرض عليه إرسال خفارة معه خوفًا من قوم ضَبة الأسدي فأبى «أبذرقٌ ومعي سيفي» فلمّا لقيهم قاتل حتّى قُتل.

(8) أهل العَيث: أهل الفساد، عمومًا.

الاجتماع مُطفيًا لجمرتهم[1]، وصادعًا لِمَرْوتهم[2]، وألاّ يخلوا هذه السبل من حماة لها، وسيَّارة فيها، يتردّدون في جوادّها، ويتعسّفون في عوادلها[3]، حتَّى تكون الدماء محقونة، والأموال مضمونة، والفتن محسومة، والغارات مأمونة. ومن حصل في أيديهم من لصّ خاتل، وصعلوك خارب، ومخيف لسبيل، ومنتهك لحريم، امتثل فيه أمر أمير المؤمنين الموافق لقول الله عزّ وجلّ: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقطع أيديهم وأرجُلهم من خلاف أو يُنفَوا من الأرض ذلك لهم خِزيّ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[4]. وأمره بوضع الرصد على مَن يجتاز في عمله من أُبّاق المسلمين[5]، والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم، والبحث عن الأماكن التي فارقوها، والطرق التي استطرقوها، ومواليهم الذين أبقوا[6] منهم، ونشزوا عليهم، وأن يردوهم عليهم قهرًا، ويعيدوهم إليهم صُغْرًا[7]، وأن ينشدوا الضالّة ما أمكن أن تنشد، ويحفظوها على ربّها ما جاز أن تُحفظ، ويتجنّبوا الامتطاء لظهور ما يُمتطى منها، ويُقتعد، والانتفاع بأوبار ما يُجزّ ويُحتلب، وأن يُعَرّفوا اللقطة ويتبعوا أثرها، ويشيعوا خبرها، فإذا حضر صاحبها، وعلم أنه مستوجبها، سلّمت إليها ولم يعترض فيها عليه، والله تعالى يقول: ﴿إنَّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾[8] ورسوله صلّى الله عليه وسلّم يقول: ضالة المؤمن حرق النار[9]. وأمره أن يوصي عمّاله، ويستوصي بالشدّ على أيدي الحكّام، وتنفيذ ما صدر عنهم من الأحكام، وأن يحضروا مجالسهم حضور الموقّرين لها، الذابّين عنها، المقيمين لرسوم الهيبة وحدود الطاعة فيها. ومن خرج عن ذلك من ذي عقل ضعيف وحلم سخيف، نالوه ممّا يردعه، وأحلوا به ما يَزَعه، ومتى تقاعس متقاعس عن حضور مع خصم يستدعيه، وأمر يوجّه الحاكم إليه فيه، أو التوى مُلتوٍ بحقّ يحصل عليه، ودين يستقرّ في ذمّته،

(١) مُطفيًا لجمرتهم: مفرّقًا لجمعهم، مبدّدًا لقوّتهم.

(٢) المروَة: حجر أبيض، وقيل التي تقدح منها النار، ومروة المسعى التي تُذكَر مع الصفا*، هي أحد رأسيه اللذين ينتهي السعي إليهما.

* السعي بين الصّفا والمروة: من مناسك الحجّ.

(٣) من عدل عن كذا مال.

(٤) الآية: ٣٣، من سورة المائدة.

(٥) وفي رواية ابن الأثير أباق العبيد.

(٦) وفي تلك الرواية أنفوا منهم.

(٧) الصُّغْر بالضمّ فسكون الصَّغار.

(٨) من الآية: ٥٨، من سورة النساء.

(٩) قاله النبيّ (ﷺ) لمن سأله عن ضوال الإبل فنهاه عن أخذها، وحذّره النار إن تعرّض لها.

قادوه إلى ذلك بأزمّة الصغّار، وخزائم[1] الاضطرار، وأن يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم، ويُثبتوا الأيدي في الأملاك والفروج، وينتزعوها بقضاياهم، فإنّهم أمناء الله في فصل ما يفصلون وبتّ ما يبتّون، وعن كتابه وسُنّة رسوله، صلّى الله، عليه يوردون ويصدرون، وقد قال الله تعالى: ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إنَّ الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[2]، وأن يتوخّوا بمثل هذه المعاونة، عُمال الخَراج في استيفاء حقوق ما استُعملوا عليه، واستنطاف[3] بقاياهم فيه، ورياضة[4] من نسوا طاعته من معامليهم، وإحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم. فمن أوامر الله لعباده التي يحقّ عليهم أن يتّخذوها آدابًا، ويجعلوها إلى رضاه سببًا، قوله عزّ وجلّ: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتّقوا الله إنَّ الله شديد العقاب﴾[5]. وأمره بأن يجلس للرعيّة جلوسًا عامًّا، وينظر في مطالبها نظرًا تامًّا، ويساوي في الحقّ بين خاصّها وعامّها، ويوازي في المجالس بين عزيزها وذليلها، وينصف المظلوم من ظالمه، والمغصوب من غاصبه، بعد الفحص والتأمّل والبحث والتبيّن، حتّى لا يحكم إلاّ بعدل، ولا ينطق إلاّ بفصل، ولا يثبت يدًا إلاّ فيما وجب تثبيتها فيه، ولا يقبضها إلاّ عمّا وجب قبضها عنه، وأن يسهّل الإذن لجماعتهم، ويرفع الحجاب بينه وبينهم، ويولّيهم من حضانة الكنَف ولين المنعطف، والاشتمال والرعاية والصون والعناية، ما تتعادل فيه أقسامهم وتتوازن منه أقساطهم، ولا يصل المكين[6] منهم إلى استضامة من تأخّر عنه، ولا ذو السلطان إلى هضيمة من حلّ دونه، وأن يدعوهم إلى أحسن العادات والخلائق، ويحضّهم على أجمل المذاهب والطرائق، ويحمل عنهم كَلّه[7]، ويمدّ عليهم ظلّه، ولا يسومهم خُسْفًا[8]، ولا يُلحق بهم حَيفًا[9]، ولا يكلّفهم شَططًا[10]، ولا

---

(١) جمع خِزامة، وأصل الخِزامة حلقة من شَعر، تُجعل في وَتَرة أنف البعير يُشدّ بها الزمام.

(٢) الآية: ٢٦، من سورة (ص).

(٣) استنطاف (ها هنا) بمعنى استنزاف.

(٤) الرياضة: التمرين والتعوّد على الشيء؛ فلا يُنسى.

(٥) الآية: ٢، من سورة المائدة.

(٦) وفي رواية الركين.

(٧) بمعنى ثقله.

(٨) يسومهم خُسفًا أي يُهينهم، ويكلّفهم المشقّة، وهي من الخُسْف: أي الإذلال.

(٩) الحَيْف: الظلم.

(١٠) وشطّ فلان شططًا: تباعد عن الحقّ.

يُجشِّمهم مُضلعًا[١]، ولا يثلم لهم معيشة، ولا يداخلهم في حِرفة[٢]، ولا يأخذ بريئًا منهم بسقيم، ولا حاضرًا بغائب. فإنَّ الله نهى أن تَزِر وازِرةٌ وِزْرَ أخرى[٣]، وجعل كلّ نفس رهينة بكسبها، بريئة من مكاسب غيرها، ويرفع عن هذه الرعيّة ما عساه أن يكن سُنَّ عليها من سنّة ظالمة، وسُلك بها من مِحجة جائرة، ويستقري آثار الولاة قبله عليها فيما أزوه[٤] من خير أو شرّ إليها، فيقرّ من ذلك ما طاب وحسن ويزيل ما قبح وخبث، فإنَّ من غرس الخير بمعسول ثمرته، ومن زرع الشرّ يُصلى[٥] بمرور ريعه، والله تعالى يقول: ﴿والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكدًا كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون﴾[٦]. وأمره بأن يصون مال الخراج وأثمان الغلاّت، ووجوه الجبايات مُوفَرًا، ويزيد ذلك مُثمرًا بما يستعمله من الإنصاف لأهلها؛ فإنّه مال الله الذي به قوّة عباده وحماية بلاده، وبدور حلَبه[٧] واتّصال مدده، يحاط الحريم ويُدفع العظيم، ويُحمى الذمار ويُذاد الأشرار، وأن يجعل افتتاحه إيّاه بحسب إدراك أصنافه وعند حضور مواقيته وأحيانه، غير مُستسلف شيئًا قبلها ولا مؤخّر عنها، وأن يخصّ أهل الطاعة والسلامة بالترفيه لهم، وأهل الاستصعاب والامتناع بالتشدّد عليهم، لئلاّ يقع إرهاق لِمُذْعن أو إهمال لطامع، وعلى المتولّى لذلك أن يضع كلاً من الأمرين موضعه، ويوقعه موقعه، متجنّبًا إحلال الغلَظة فيمن لا يستحقّها، وإعطاء الفسحة من ليس أهلها، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿وأنَّ ليس للإنسان إلاّ ما سعى وأنَّ سعيه سوف يُرى ثمَّ يجزاه الجزاء الأوفى﴾[٨]. وأمره بأن يتخيّر عُمّاله على الخراج والأعشار والضياع والجهبذة والصدقات والجوالي، من أهل الظلف[٩] والنزاهة والضبط والشهامة، وأن يستظهر مع ذلك عليهم بتوصية يوعيها أسماعهم، وعهود يقلّدها أعناقهم، بأن لا يضعوا حقًّا ولا يأكلوا سُحتًا[١٠] ولا يستعملوا ظلمًا ولا يفارقوا غشمًا، وأن

---

(١) جشّمهم مُضلعًا: أثقل أضلاعهم بحمل لا يستطيعون النهوض به.

(٢) داخلهم في حرفة: خالطهم ليستشفّ حرفتهم.

(٣) لا تَزِر وازرة وزْر أخرى أي لا تحمّل نفس آثمة وزر نفس أخرى، والمعنى لا يؤخذ أحد بذنب غيره، والآثام الأوزار.

(٤) أزى أزيًا وأزوًا: اقترب ودنا، وأزوه اقتربوا إليها به، من خير أو شرّ.

(٥) يقال صلى بالأمر: قاسى حرّه وشدّة تعبه.

(٦) الآية: ٥٨، من سورة الأعراف.

(٧) بُدور حَلَبه كناية التعجيل بخيره.

(٨) الآيات: ٣٩، ٤٠، ٤١، من سورة النجم.

(٩) الظلِف: النزيه، المترفّع عن الدنايا.

(١٠) قال الله تعالى أكّالون للسحت، والسحت هو كلّ حرام قبيح الذكر، أو ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار كثمن الكلب والخنزير والخمر، وأسحتَ الرجل وقع في السحت.

يقيموا العمارات ويحتاطوا على الغلاّت، ويتحرّزوا من اتواء[1] حقّ لازم أو تعطيل رسم عادل، مؤدّين في جميع ذلك الأمانة، متجنّبين للخيانة، وأن يأخذوا جهابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه، واستجادة نقده على عياره، واستعمال الصحّة في قبض ما يقبضون وإطلاق ما يطلقون، وأن يوعزوا إلى سُعاة الصدقات بأخذ الفرائض، من سائمة[2] مواشي المسلمين دون عاملتها، وكذلك الواجب فيها، وألاّ يجمعوا فيها متفرّقًا ولا يفرّقوا مجتمعًا، ولا يدخلوا فيها خارجًا عنها، ولا يضيفوا إليها ما ليس منها، من فحل إبل، وأكولة راعٍ، وعقيلة مال، وإذا اجتبوها على حقّها، واستوفوها على رسمها، أخرجوها من سبلها وقسّموها على أهلها الذين ذكرهم الله في كتابه، إلاّ المؤلفة قلوبهم[3] الذين سقط سهمهم، فإنَّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾[4]. وإلى جُباة جماجم[5] أهل الذمّة، بأن يأخذوا منهم الجزية في المحرّم من كلّ سنة بحسب منازلهم في الأحوال وذات أيديهم في الأعمال، وعلى الطبقات المطيقة فيها والحدود المحدودة المعهودة لها، ولا يأخذوها من النساء، ولا ممّن يبلغ الحلم[6] من الرجال، ولا من ذي سن عالية، ولا ذي عاهة بادية، ولا فقير معدم، ولا مترهّب متبتّل[7]، وأن يراعي جماعة هؤلاء العمّال مراعاة يسرها ويظهرها، ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها، لئلاّ يزولوا عن الحقّ الواجب ويعدلوا عن السنن اللاّحب[8]، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولاً﴾[9]. وأمره أن يندب لعرض الرجال وإعطائهم، وحفظ جراياتهم وأوقات

---

(١) إهلاك.

(٢) السائمة: الماشية، والإبل الراعية.

(٣) المؤلفة قلوبهم قوم من سادات العرب أمر الله نبيّه (ﷺ) في أول الإسلام بتألّفهم أي بمقاربتهم، وإعطائهم ليرغّبوا من وراءهم في الإسلام، فلا تحملهم الحمية مع ضعف نيّاتهم، أن يكونوا ألبًا مع الكفّار على المسلمين. وقد نفلهم النبيّ (ﷺ) يوم حنين بمائتين من الإبل، تألّفًا لهم، منهم الأقرع بن حابس التميمي، والعبّاس بن مرادس السلمي، وعينية بن حصن الفزاري، وأبو سفيان بن حرب، قال بعض أهل العلم، إنَّ النبي (ﷺ) تألّف في وقت بعض سادة الكفّار، فلمّا دخل الناس في دين الله أفواجًا وظهر أهل دين الله على جميع أهل الملل، أغنى الله تعالى وله الحمد، عن أن يتألّف كافر اليوم بمال يعطى، لظهور أهل دينه على جميع الكفّار، لذلك سقط سهمهم كما في نصّ هذا العهد عن الخليفة.

(٤) الآية: ٦٠، من سورة التوبة.

(٥) جماجم، تقول جُمام المكيال أي ملؤه، وجُمجمه كذلك.

(٦) بلغ الحُلم: أدرك وأصبح راشدًا.

(٧) متبتّل: منقطع للعبادة.

(٨) اللاحب: الواضح.

(٩) الآية: ٣٤، من سورة الإسراء.

أطعامهم، من يعرفه بالثقة في متصرّفه، والأمانة فيمن يجري على يده، والبعد من الإسفاف إلى الدنيّة، والاتّباع للديانة، وأن يبعثه على ضبط حلى الرجال، وشيات الخيل [1]، وتجديد العرض بعد الاستحقاق، وإيقاع الاحتياط في الإنفاق، فمن صحّ عرضهم ولم يبقَ في نفسه شكّ منهم، أطلق أموالهم موفورة، وجعلها في أيديهم غير مثلومة، وأن يردّ على بيت المال أرزاق من سقط بالوفاة والإخلال، ناسبًا ذلك إلى جهته ومُوردًا له على حقيقته، وأن يطالب الرجال بإحضار الخيل المختارة، واللأمات [2]، والشكك المستعملة على ما توجبه مبالغ أرزاقهم، وبحسب منازلهم ومراتبهم، فإن أخّر أحد شيئًا من ذلك، قاصّه [3] به من رزقه وأغرمه مثل قيمته، فإنَّ المقصّر فيه خائن لأمير المؤمنين، ومخالف لربّ العالمين، إذ يقول عزّ وجلّ: ﴿وأَعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رِباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾ [4].

وأمره بأن يعتمد في أسواق الرقيق، ودُور الضرب والطرز والحسبة، من يجتمع فيه آلات هذه الولايات من ثقة ودراية، وعلم ورواية، وتجربة وحنكة، وحَصافة ومُسكة [5]، فإنّها أحوال تضارع الحكم وتناسبه وتدانيه وتقاربه، وأن يتقدّم إلى ولاة أسواق الرقيق، بالتحفّظ فيمن يطلقون بيعه ويمضون أمره، والتحرّز من وقوع تجوُّز فيه وإهمال له؛ إذ كان ذلك عائدًا بتحصين الفُروج وتطهير الأنساب، وأن يبعدوا عنه أهل الريبة، ويقرّوا أهل العفّة، ولا يمضوا بيعًا على شُبهة ولا عقدًا على تهمة، وإلى والي العيار، بتخليص عين الدرهم والدينار، ليكونا مضروبين على البراءة من الغشّ، والتهذّب من اللبس، وبحسب الإمام المقرّر بمدينة السلام، وبحراسة السكك [6] أن تتداولها الأيدي المدغلة [7] وتتناقلها الجهات الظنينة، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهبًا وفضّة، وإجراء ذلك على الرسم والسنّة، وإلى ولاة الأطراف بأن يُجروا الاستعمال في جميع المناسج، على أتمّ النيّقة [8]، وأسلم الطريقة، وأحكم الصنعة، وأثبت الصحّة، وأن يثبتوا اسم أمير المؤمنين على طرز الكسا والفروش والأعلام والبنود، وإلى ولاة الحسبة بتصفّح أحوال العوام في حرفهم

---

(١) شيات الخيل: التي تقصر حوافر أرجلها عن حوافر يديها.

(٢) الدروع، وفي الرواية الثانية بدل هذه الجملة والآلات المستكملة.

(٣) قاصّه: قاصصه وعاقبه.

(٤) من الآية: ٦٠، من سورة الأنفال.

(٥) المسكة: الرأي والعقل.

(٦) السكك: الدراهم المعدنية، النقود المسكوكة (المضروبة).

(٧) من الدغل وهو الفساد.

(٨) النيقة: (مصدر غير قياسي) هي تمام الجودة والاتقان (في النسيج وسواه)، مشتقّ من (ناقة) وهي معروفة.

ومتاجرهم ومجتمع أسواقهم ومعاملاتهم، وأن يعيّروا موازينهم والمكاييل، ويقرّروها على التعديل والتكميل، ومَن اطّلعوا منه على حيلة أو تلبيس[1] أو بخس فيما يوفيه، أو استفضال فيما يستوفيه، نالوه بغليظ العقوبة وعظيمها، وخصّوه بوجيعها وأليمها، واقفين به في ذلك عند الحدّ الذي يرونه لذنبه مجازيًا، وفي تأديبه كافيًا، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ويل للمطفّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾[2]. هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجّته عليك، قد وقفَك به على سواء السبيل، وأرشدك منه إلى أوضح الدليل، وأوسعك تعليمًا وتحكيمًا، وأقنعك تعريفًا وتفهيمًا، ولم يألُك جهدًا فيما عصمك وعصم على يدك، ولم يذخرك ممكنًا فيما أصلحك وأصلح بك، ولا ترك لك عذرًا في غلط تغلطه، ولا طريقًا إلى متورَّط تتورّطه، بالغًا بك في الأوامر والزواجر إلى حيث يلزم الأئمّة أن يندبوا الناس إليه، ويحثّوهم عليه، مقيمًا لك على منجيات المسالك، صادفًا بك عن مرديات المهالك، مريدًا فيك ما يشملك في دينك وفي دنياك، ويعود بالحظّ عليك في آخرتك وفي أولاك، فإن اعتدلتَ وعدلت، فقد فزت وغنمت، وإن تجانفت[3] واعوججت، فقد خسرت وندمت، والأَوْلى بك عند أمير المؤمنين مع مغرسك الزاكي، ومنبتك النامي، وعودك الأنجب، وعنصرك الأطيب، أن تكون لظنّه بك محقّقًا، وبمخيّلته فيك مصدقًا، وأن تستزيد بالأثر الجميل قربى من ربّ العالمين، وثوابًا يوم الدين، وزُلفى عند أمير المؤمنين، وثناء حسنًا عند المسلمين. فخذ ما نبذ إليك أمير المؤمنين من معاذيره، وامسك بيدك على ما أعطى من مواثيقه، واجعل عهده هذا مثالاً تحتذيه وإمامًا تقتفيه، واستعن بالله يُعِنْك، واستَهْدِهِ يَهْدِك، واخلص النيّة في طاعته، يُخلص لك الحظّ في معونته. ومهما أشكل عليك من خطب، وأعضل بك من صعب، أو بهرك من باهر، أو بهظك من باهظ، فاكتب إلى أمير المؤمنين به مُنهيًا، وكن إلى ما يَرد من جوابه متطلّعًا إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ستّ وستّين وثلثمائة.

---

(١) غيلة أو تدليس.

(٢) الآيتان: ١ و ٢، من سورة المطَفِّفين.

(٣) تجانفت، تقول تجانف فلان للإثم: مال إليه، والجَنَف: الجَوْر، والميل عن العدل والحقّ.

ونسخة عهد إلى قاضي القضاة أبي الحسين محمَّد، بن قاضي القضاة أبي محمَّد عبيد الله بن أحمد بن معروف

هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم، الإمام الطائع لله، أمير المؤمنين، إلى محمَّد بن قاضي القضاة عبيد الله بن أحمد بن معروف، حين عرفت الفضيلة فيه، وتقيّل [1] مذاهب أبيه، ونشأ من حضنه في المنشأ الأمين، وتبوّأ من سببه ونسبه المتبوَّأ المصون، ووجده أمير المؤمنين مستحقًّا لأن يوسم بالصنيعة والمنزلة الرفيعة، على الحداثة من سنّه والغضاضة من عوده، ساميًا به في ذلك إلى مراتب أعيان الرجال، التي لا تُدرَك إلاّ مع الكمال والاكتهال، لما آنس من رشده ونجابته، واستوضح من عقله ولبابته، واسترجح من وقاره وحلمه، واستغزر من درايته وعلمه، وللذي عليه شيخه قاضي القضاة، عبيد الله بن أحمد، من حَصافة الدين، وخلوص اليقين، والتقدّم على المتحلّين بحليته، والمنتحلين لصناعته، والاستبداد عليهم بالعلم الجمّ، والمعنى الفخم، والافتنان في المساعي الصالحة، التي يسود أحدهم بأحدها، ويستحقّ التجاوز لهم مَن استوعبها بأسرها، وبالثقة والأمانة والعفّة والنزاهة، التي صار بها عَلَمًا فردًا وواحدًا فذًّا، حتّى تكلّفها مِن أجله مَن ليست في طبعه ولا سَنخه [2]. فهو المحمود بأفعاله التي اختصّ بها، وبأفعال غيره ممّن حداه فيها، وبما نفق من بضائع الخير بعد كسادها، وللسابقة التي له في خدمة أمير المؤمنين ثانيًا، فإنّها سابقة شائع خبرها، جميل أثرها، قويّة دواعيها، ممكنة أواخيها [3]، وللمكانة التي خُصّ بها من أمير المؤمنين، ومن عزّ الدولة أبي منصور مولى أمير المؤمنين أيّده الله، ومن نصير الدولة الناصح أبي طاهر، رعاه الله، ومن عظماء أهل حوزتهم وأفاريق [4] عوامهم ورعيّتهم، فلمّا صدق محمَّد فراسة أمير المؤمنين ومخايله، واحتذى سجايا أبيه وشمائله، وحصل من الحرمات المتأثّلة والموات المتّصلة، أحرز من الأثرة على قرب المدى، ما لا يحرزه غيره على بعد المرمى، واستغنى أمير المؤمنين عن طول التجربة والاختبار، وتكرّر الامتحان والاعتبار، الحكم [5] بين أهل سرّ من رأى وتكريت والطبرهان والسن والبوازيج ودقوق وخاينجار والترنحين وترحسابور والراذانين ومسكن وقطربل ونهربوق والدبين وجميع الأعمال المضافة إلى ذلك، المنسوبة إليه، وشرّفه

---

(١) تقيّل فلان أباه: نزع إليه في الشبه.

(٢) أصله.

(٣) الأخيّة، وقد تُمدّ، عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشدّ إليه الدابة، وقيل حبل يُدفن في الأرض ويبرز طرفه فيشدّ به، وقيل العروة مثنية في الأرض تشدّ بها الدابة، وأشباه ذلك، والأخيّة أيضًا الحرمة والذمّة.

(٤) جمع أفراق، وأفراق جمع فرقة.

(٥) مفعول به من عهد، في قوله في صدر الكتاب هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم إلخ.

بالخِلَع والحملان، وضروب الإنعام والإحسان. وكان فيما أعطاه من هذا الصيت والمجد، ونحله إيّاه من المفخر العد[1]، مبتغيًا ما كسبه الله من الرضى والزلفى، والسلامة الفاتحة والعقبى، وراعيًا لِما يوجبه لقاضي القضاة عبيد الله بن أحمد، من الحقوق التي أخفى منها أكثر ممّا أبدى، وأمسك عن أضعاف ما أحصى، وذاهبًا على آثار الأئمّة المهديين والولاة المجتهدين، في إقرار ودائعهم عند المرشّحين لحفظها المضطّلعين، بحملها من أولاد أوليائهم وذرّية نصائحهم؛ إذ كان لا بدّ للأسلاف أن تمضى وللأخلاف أن تنمى، كالشجر الذي يُغرس لَدنًا فيصير عظيمًا، والنبات الذي ينجم رطبًا فيصير هشيمًا[2]. فالمصيب من تخيّر الغرس من حيث استنجب الشجر، واستحلى الثمر، وتعمّد بالعرف، مَن طاب منه الخير وحَسُن منه الأثر، وأمير المؤمنين يسأل الله تسديدًا يحمده عائدته، ويدرّ عليه مادّته، ويتولاّه في العزائم التي يعزمها، والأمور التي يبرمها، والعقود التي يعقدها، والأغراض التي يعتمدها، وما توفيق أمير المؤمنين إلاّ بالله، عليه يتوكّل وإليه يُنيب.

أمره باعتقاد التقوى فإنّها شعار أهل الهدى، وأن يراقب الله مراقبة المتحرّز من وعيده، المتنجّز لمواعيده، ويطهّر قلبه من موبقات الوساوس، ويهذّبه من مرديات الهواجس، ويأخذ نفسه بما أخذ أهل الدين، ويكلّفها كلف الأبرار المؤمنين، ويمنعها من أباطيل الهوى وأضاليل المنى، فإنّها أمّارة بالسوء، صَبّة إلى الغيّ[3]، صادّة عن الخير، صادفة عن الرشد، لا ترجع عن مضارها إلاّ بالشكائم، ولا تنقاد إلى منافعها إلاّ بالخزائم[4]، فمن كَبَحها وثناها نجّاها، ومن أطلقها وأهجرها أرداها، وأَولى مَن جعل تقوى الله دأبه ودَيْدنه[5]، والخيفة منه منهاجه وسننه، من ارتدى رداء الحكّام، وأمر ونهى في الأحكام، وتصدّى لكفّ المظالم، وإيجاب الحدود ودرئها، وتحليل الفُروج وحَظرها، وأخذ الحقوق وإعطائها، وتنفيذ القضايا وإمضائها؛ إذ ليس له أن يأمر ولا يأتمر، ويزجر ولا يزدجر، ويأتي مثل ما يُنهى عنه، ويَنهي

---

(١) قيل أصل العدّ بالكسر للماء، فيقال ماء عِدّ أي دائم له مادّة لا تنقطع كماء العين، أو قديم لا ينتزع، أو ماء غزير، ويقولون حسب عِدّ أي قديم، ومنه قول الحُطيئة:

أتت آل شمّاس بن لأيٍ وإنّما ... أتتهم بها الأحلام والحسب العِدُّ

(٢) هو النبت اليابس المكسّر والشجرة البالية، ومنه قوله تعالى: «فأصبح هشيمًا»، وهو أيضًا ما يبس من الورق وتكسّر، ومنه قوله عزّ وجلّ: «فكانوا كهشيم المحتظَر»، أي الذي يجمعه صاحب الحظيرة.

(٣) صبّة إلى الغيّ: تائقة إلى الضلال.

(٤) الشكائم جمع شَكيمة، وهي من اللجام، الحديدة المعترِضة في فم الفرس، والخزائم جمع خِزامة وهي حلقة من شعر تُجعل في وترة أنف البعير أو أحد جانبيه، وفي حديث أبي الدرداء، اقرأ عليهم السلام ومرهم أن يعطوا القرآن بخزائمهم، يريد بذلك الانقياد إلى حكم القرآن، والباء زائدة أو هي من قبيل قولهم، أعطى بيده إذا انقاد ووكّل أمره إلى مَن أطاعه.

(٥) الديْدَن، لفظ (فارسي) دخيل، يعني العادة؛ ودَيْدَنه: التفاؤل والتمنّي أي عادته.

عمّا يأتي مثله، بل هو محقوق بأن يصلح ما بين جنبيه قبل أن يصلح من رُدّ أمره إليه، وأن يهذّب من نيّته ما يحاول أن يهذّب من رعيّته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تُقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون. واتّقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين﴾[1].

وأمره بالإكثار من تلاوة القرآن، الواضح سبيله، الراشد دليله، الذي من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا، ومن أعرض عنها زلّ وغوى، وأن يتّخذه إمامًا يُهتدى بآياته ويُقتدى ببيّناته، ومثالاً يحذو عليه، ويردّ الأصول والفروع إليه. فقد جعله حجّته الثابتة الواجبة، ومحجته المستتبّة اللاّحبة، ونوره الغالب الساطع، وبرهانه الباهر الناصع، وإذا ورد عليه معضل، أو غمّ عليه مشكل، اعتصم به عائذًا، وعطف عليه لائذًا. فبه يُكشف الخطب ويُذلّل الصعب، ويُنال الإرب ويدرك المطلب، وهو أحد الثقلين[2]، اللذين خلفهما رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فينا، ونصّبه علمًا بعده لنا، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنّا أنزلنا عليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما﴾[3]. وقال: ﴿وإنّه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[4].

وأمره بالمحافظة على الصلوات وإقامتها في حقائق الأوقات، وأن يدخل فيها أوقات حلولها بإخلاص من قلبه، وحضور من لبّه، وجمع بين لفظه ونيّته ومطابقة بين قوله وعمله، مرتلاً للقراءة فيها، مفصحًا بالإبانة لها، مثبّتًا في ركوعها وسجودها، مستوفيًا لشروطها وحدودها، متجنّبًا لجرائر الخطأ والسهو، وعوارض الخَطَل واللّغو، فإنّه واقف بين يدي جبار السموات والأرض، ومالك البسط والقبض، والمطلع على خائنة كلّ عين وخافية كلّ صدر، الذي لا تحتجب دونه طَويّة ولا يستعجم عليه خبية، ولا يضيع أجر محسن ولا يصلح عمل مفسد، وهو القائل جلّ وعزّ: ﴿وأقم الصلاة إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا﴾[5].

وأمره بالجلوس للخصوم، وفتح بابه لهم على العموم، وأن يوازي بين الفريقين إذا تقدّما إليه، ويحاذي بينهما في الجلوس بين يديه، ويقسّم لهما أقسامًا متماثلة وأقساطًا

---

(١) الآية: ١٠٢، من سورة آل عمران، ومن الآية ٢٤، من سورة البقرة.

(٢) روي عن النبيّ(ﷺ) أنه قال في آخر عمره، إنّي تارك فيكم الثقلَيْن كتاب الله وعِترتي، قالوا وسمّاهما ثقلَين إعظامًا لقدرهما، لأنّ العرب تقول لكلّ شيء نفيس مصون ثقل، وأصله في بيض النعام المصون، ويقال للسيِّد العزيز ثقل من هذا أيضًا.

(٣) الآية: ١٠٥، من سورة النساء.

(٤) الآية: ٤٢، من سورة فصّلت.

(٥) من الآية: ١٠٣، من سورة النساء.

متعادلة، من كلمه فإنّه مقام توازن الأقدام، وتكافؤ الخواص والعوام، ولا يقبل على ذي هيئة لهيئته، ولا يعرض عن دميم لدمامته، ولا يزيد شريفًا على مشروف، ولا قويًّا على ضعيف، ولا قريبًا على أجنبي ولا مِليًّا على ذِمّي[١]، ما جمعهما التخاصم وضمّهما التحاكم. ومن أحسّ منه بنقصان بيان أو عجز عن برهان، أو قصور من علم أو تأخّر في فهم، صبر عليه حتّى يستنبط ما عنده، ويستشفّ ضميره، وينقع بالإقناع غلّته، ويزيح بالإيضاح علّته. ومن أحسّ منه بلسان وعبارة، وفضل من بلاغة، أعمل فيما يسمعه منه فكره، وأحضره ذهنه، وقابله بسدّ خلة خصمه. والإبانة لكلّ منهما عن صاحبه، ثمَّ سلّط على أقوالهما ودعاويهما تأمّله، وأوقع على بيّناتهما وحججهما تدبُّره، وأنفذ حينئذٍ الحكومة إنفاذًا يعلمان به أنَّ الحقّ مُستقرّ مَقرّه، وأنَّ الحكم موضوع موضعه، فلا يبقى للمحكوم له استزادة، ولا للمحكوم عليه استرابة[٢]، وأن يأخذ نفسه مع ذلك بأطهر الخلائق وأحمدها، وأهذب السجايا وأرشدها، وأن يقصد[٣] في مشيته، ويغض من صوته، ويحذف الفضول من لفظه ولحظه، ويخفّف من حركاته ولفتاته، ويتوقّر من سائر جنباته وجهاته، ويتجنّب الخرق والحدة، ويتوقّى الفظاظة والشدّة، ويُليّن كنفه من غير مهانة، ويربّ هيبته[٤] من غير غلَظة، ويتوخّى في ذلك وقوفًا بين غايتَيه وتوسّطًا بين طرفَيه. فإنّه يخاطب أخلاطًا من الناس مختلفين وضروبًا غير متّفقين، ولا يخلو فيهم من الجاهل الأهوج، والمظلوم المحرَج، والشيخ الهمّ[٥]، والناشي الغرّ، والمرأة الركيكة، والرجل الضعيف النحيزة[٦]. وواجب عليه أن يغمرهم بعقله، ويشملهم بعدله، ويقيمهم على الاستقامة بسياسته، ويعطف عليهم بحلمه ورئاسته، وأن يجلس، وقد نال من المطعم والمشرب طرفًا يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية، وأن يعرّض نفسه على أسباب الحاجة كلّها، وعوارض البشريّة بأسرها، لئلاّ يلمّ به من ذلك ملمّ أو يطيف به طائف، فيحيلانه عن جلده، ويحولان بينه وبين سدده[٧]، وليكن همّه إلى ما قال ويقال له مصروفًا، وخاطره على ما يَرِد عليه موقوفًا. قال الله عزّ وجلّ: ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم

---

(١) الملّي والذميّ: الملّي (ها هنا) المسلم، وكان داخل في الإسلام. والذميّ الذي أُعطي الذمّة أي (العهد والأمان) على ماله وعِرضه ودمه فأعطى الجزية (وهو من غير المسلمين).

(٢) الاسترابة: الشكّ.

(٣) يستقيم.

(٤) ربَّ الهيبة: أصلحها وساد بها.

(٥) الكبير البالي.

(٦) الطبيعة والنحيتة.

(٧) السدد مقصور من السداد.

بين الناس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إنَّ الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[1].

وأمره إذا ثبت عنده حقّ من الحقوق لأحد من الخصوم أن يكتب له، متى اَلتمس ذلك، إلى صاحب المعونة[2] في عمله بأن يمكّنه منه، ويحسم المعارضات فيه عنه، ويقبض كلّ يد تمتدّ إلى منازعته، أو تتعدّى إلى مجاذبته. فقد ندب الله الناس إلى معاونة المحقّ على المبطل، والمظلوم على الظالم؛ إذ يقول: ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[3].

وأمره بأن يستصحب كاتبًا دَرِبًا بالمحاضر والسجلاّت، ماهرًا في القضايا والحكومات، عالمًا بالشروط والحدود، عارفًا بما يجوز وما لا يجوز، غير مقصّر عن القضاة المستورين، والشهود المقبولين، في طهارة ذيله ونقاء جَيبه، وتصوّنه عن خبث المأكل والمطعم، ومُقارفة الريب والتهم؛ فإنَّ الكاتب زِمام الحاكم الذي إليه مرجعه، وعليه معوّله، وبه يحترس من دواهي الحيل وكوامِنِ الغِيل، وحاجبًا[4] سديدًا رشيدًا أديبًا لبيبًا، لا يُسفّ إلى دنيئة، ولا يلمّ بمنكرة، ولا يقبل رشوة، ولا يلتمس جعلاً، ولا يحجب عنه أحدًا يحاول لقاءه في وقته، والوصول إليه في حينه، وخلفاء يردّ إليهم ما بعد من العمل عن مقره، وأعجزه أن يتولّى النظر فيه بنفسه، ينتخبهم من الأفاضل ويتخيّرهم من الأماثل، ويعهد إليهم في كلّ ما عهد فيه وإليه ويأخذهم بمثل ما أخذ به، ويجعل لكلّ من هذه الطوائف رزقًا يكفّه ويكفيه، وقوتًا يحجزه ويغنيه. فليس تلزمهم الحجّة إلا بعد إعطائهم الحاجة، ولا يؤخذ عليهم بالوثيقة إلاّ مع إزاحة العلّة، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وأنَّ ليس للإنسان إلاّ ما سعى وأنَّ سعيه سوف يُرى ثمَّ يجزاه الجزاء الأوفى﴾[5].

وأمره بإقرار الشهود الموسومين بالعدالة، على تعديلهم وحملهم على ظاهر السلامة، وإمضاء القضايا بأقوالهم وشعار الاستقامة، وأن يصمد مع هذه الحال للبحث عن أديانهم، والفحص عن أماناتهم، والإصغاء إلى الحديث عنهم، من ثناء يتكرّر أو قدح يتردّد، فإذا تمّ

---

(١) الآية: ٢٦، من سورة (ص).

(٢) كأنه بمثابة مأمور الإجراء اليوم.

(٣) من الآية: ٢، من سورة المائدة.

(٤) معطوف على، كاتبًا دَرِبًا.

(٥) انظر صفحة ٩٤.

عنده أحد الأمرين، رَكَن إلى المزكَّى الأمين، ونبا عن المتّهم الظنين[1]، فإنّه إذا فعل ذلك، اغتبط أهل الأمانات بأماناتهم، ونزع أهل الخيانة عن خياناتهم، وتقرّبوا إليه بما ينفق في سُوقه، ويستحقّ به التوجّه عنده، واستمرّ شهوده وأمناؤه، وأتباعه وخلفاؤه، على المنهج الأوضح والمسلك الأنجح، وتحصّنت الأموال والحقوق، وصِينت الحُرمات والفُروج. ومتى وقف لأحد منهم على هفوة لا تُغفر، وعثرة لا تُقال، أسقطه من عددهم، وأخرجه من جملتهم، واعتاض منهم من يرتضي دينه وأمانته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين﴾[2]. وقال في الشهادة: ﴿واشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله﴾[3].

وأمره بالضبط لِما يجري في عمله، من الوقوف الثابتة في ديوان حكمه، والتعويل فيها على الأمناء الثقات، والحُصَناء الكُفاة، المعروفين بالظلف[4]، المنزّهين عن النطف[5] والجشع، والتقدّم إليهم في حفظ أصولها، وتوفير فروعها، وتثمير اغتلالها وارتفاعها، وصرفها إلى مستحقّيها وأهلها، وفي وجوهها وسبلها، ومطالبتهم بحساب ما يجري على أيديهم، والاستقراء لآثارهم فيه وأفعالهم، وأن يحمد منهم من كفى وكَفّ، ويذمّ من أضاع وأسفّ، ويُنزل كلاًّ منهم منزلته التي استحقّها بعمله، واستوجبها بأثره، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إنّ الله نعما يعظكم به إنّ الله كان سميعًا بصيرًا﴾[6]. وأمرَه بالاحتياط على أموال الأيتام، وإسنادها إلى أعفّ وأوثق القوام، والتقدّم إلى كلّ طائفة منهم، أن يجريهم مجرى ولده، ويقيمهم مقام سلالته، في الشفقة عليهم، والإصلاح لشؤونهم، والإشراف على دينهم، وتلقينهم ما لا يسع المسلم جهله من الفرائض المفترضة، والسنن المؤكّدة، ويخرجهم في أبواب معايشهم وأسباب مصالحهم، والإنفاق عليهم من عرض أموالهم بالمعروف، الذي لا شطط فيه ولا تبذير، ولا تضييق ولا تقتير، فإذا بلغوا مبالغ كمالهم، وأُونِس منهم الرشد في متصرّفاتهم، أطلق لهم أموالهم، وأشهد بذلك عليهم، فقد جعله الله بما يتقلّده من الحكم، خلفًا من الآباء لذوي

---

(١) الظنين: المتّهم، المُعادى لسوء ظنّه وسوء الظنّ به.

(٢) الآية: ٥٨، من سورة الأنفال.

(٣) من الآية: ٢، من سورة الطلاق.

(٤) المعروفين بردع النفس عن الأهواء.

(٥) العيب والريب.

(٦) الآية: ٥٨، من سورة النساء.

اليتم، وصار بهذه الولاية عليهم مسؤولاً عنهم، مجزيًا عمّا سار به فيهم، وواصله من خير أو شرّ إليهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرّية ضِعافًا خافوا عليهم فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديدًا. إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنّما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصْلَون سعيرًا﴾[١].

وأمره بحفظ ما في ديوانه من الوثائق والسجلاّت، والحجج والبيّنات، والوصايا والإقرارات، فإنّها ودائع الرعيّة عنده، وواجب أن يحرسها جهده، وأن يَكِلَها[٢] إلى الخُزّان المأمونين والحفظة المستيقظين، ويوعز إليهم، بألاّ يُخرجوا شيئًا منها عن موضعه، ولا يضيفوا إليها ما لم يكن بعلمه، وأن يتّخذ لها بيتًا يحصرها به، ويجعله بحيث يأمن عليه، ليرجع متى احتاج إلى الرجوع إليه، فقد قرّظ[٣] الله عزّ وجلّ الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

وأمره إن ورد عليه أمر يُعييه فصله، ويُشتَبه عليه وجه الحكم فيه، أن يردّه إلى كتاب الله، ويطلب منه سبيل المخلص منه، فإن وجده، وإلاّ ففي سُنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإن أدركه، وإلاّ استفتى فيه من يليه من ذوي الفِقه والفهم، وأهل الدراية والعلم. فما زالت الأئمّة والحكّام من السلف الصالح، وطُرّاق السنن الواضح، يستفتي واحد منهم واحدًا، ويسترشد بعض بعضًا، لزومًا للاجتهاد، وطلبًا للصواب، وتحرّزًا من الغلط، وتوقّيًا من العثار، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول﴾[٤].

وأمره أن لا ينقض حكمًا حكم به من كان قبله ولا يفسخه، وأن يعمل عليه ولا يعدل عنه، ما كان داخلاً في إجماع المسلمين وسائغًا في أوضاع الدين، فإن خرج عن الإجماع أوضح الحلّ فيه لمن بحضرته من الفقهاء والعلماء، حتّى يصيروا مثله في إنكاره ويُجمعوا معه على إيجاب ردّه، ثمَّ ينقضه حينئذٍ نقضًا يشيع ويذيع، ويعود معه الأمر إلى واجبه، ويستقرّ معه الحقّ في نصابه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[٥].

---

(١) الآيتان: ٨ و٩، من سورة النساء.

(٢) يكِلَها: يوكلها.

(٣) قرّظ: مدح بالحقّ ﴿إنَّ الله لا يرضى ولا يمدح﴾.

(٤) من الآية: ٥٩، من سورة النساء.

(٥) من الآية: ٤٧: من سورة المائدة.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجّته عليك، قد شرح به صدرك، وأوضح سبلك، وأقام أعلام الهداية لك، ولم يألُكَ تبصيرًا وتذكيرًا، ولم يذّخِرْك تعريفًا وتوقيفًا، ولم يجعلك في شيء من أمرك على شُبهة تعترضك، ولا حيرة تعتاقك[1]، والله شاهد له بخروجه من الحقّ فيما وصى وعهد، وعليك بقبولك ما قبلت ممّا ولّى وقلّد، فإن عدلت واعتدلت كان ذلك خليقًا بك، فقد فاز وفزت معه، وإن تخلّفت وزللت، وذلك بعيد منك، فقد ربح وخسرت دونه. فلتكن التقوى زادك، والاحتراس شعارك، واستعن بالله يُعِنك، واستَهْدِه يُهدِك، واعتضد به يَعضدْك، واستمدِد من توفيقه يَمددك إن شاء الله. وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر، يوم كذا من رجب سنة ستّ وستّين وثلاث مئة.

(١) تعيقك.

نسخة عهد عن المطيع لله، إلى أبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة، أبي محمَّد الحسن بن عبد الله بن حمدان[1]

هذا ما عهد عبد الله الفضل، الإمام المطيع لله، أمير المؤمنين، إلى الغضنفر بن ناصر الدولة أبي محمَّد، حين تمكّنت حرماته وتظاهرت مواته، واستحكمت أواصره واشتهرت مآثره، وتأكّدت حقوق أشياخه في طاعة الخلفاء الراشدين الماضين، صلوات الله عليهم أجمعين. ونشأ في دولة أمير المؤمنين، على الخِلال المحمودة في الدنيا والدين، وأنهى ركن الدولة أبو علي، وعزّ الدولة أبو منصور، بن معزّ الدولة أبي الحسين، موليًا أمير المؤمنين، أحسن الله بهما الأمتاع وتولّى عنهما الدفاع، صورته في الغناء والاضطلاع، والنهوض بحقّ الاصطناع، والاستقلال بمضلع الأثقال، والاستحقاق بسني الأعمال، وإشارة بالتفويض إليه، وحضًّا على الاعتماد عليه. فوافق رأيهما الذي ثقفه الإخلاص، وكشَفه النصح اختياره، وطابقت مشورتهما إيثاره، ورأى العمل عليهما من عزم الأمور، والأخذ بهما من حزم التدبير، لما اجتمع فيهما من أسباب الصلاح واقترن بهما من لوائح النجاح. فاستخار الله معتصمًا بتأييده، لاجئًا إلى إرشاده وتسديده، وقلّده الصلاة وأعمال الحرب، والمعاون والأحداث، والخراج والأعشار، والضياع والجهبذة، والصدقات وسائر وجوه الجبايات، والعرض والعطاء والنفقة في الأولياء، والمظالم وأسواق الرقيق، والعيار في دُور الضرب والطرز والحِسبة بالموصل وقردبى ويزدبى وبهدوا والرحبة وديار ربيعة وديار مضر وديار بكر والثغور الجزرية والشاميّة وجند قنسرين والعواصم، رعاية لمترادف حرماته وأواخيه،

---

(١) أبو تغلب فضل الله الغضنفر عدّة الدولة، بن أبي محمَّد الحسن، الملقّب ناصر الدولة، بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان، بن حمدون بن الحرث بن لقمان، بن راشد بن المثنى بن رافع، بن الحرث بن غطيف بن محربة، بن حارثة بن مالك بن عبيد، ابن عدي بن أسامة بن مالك بن بكر، بن جيب بن عمرو بن غنم بن تغلب التغلبي، كان ملكًا في الموصل وأعمالها بعد أن قُبض على أبيه حسبما تقدّم الخبر، وقد جرت له مع عزّ الدولة بختيار وقائع سبق ذكرها، ثمَّ مع ابن عمّه عضد الدولة، بعد قتل بختيار قضايا يطول شرحها، وحاصلها أنَّ عضد الدولة قصده بالموصل فانهزم من أمامه ولحق بالشام وعليها قسام العيار، فلم يمكنه النزول بها، وأقام بظاهر البلد، وكتب إلى العزيز صاحب مصر يلتمس منه توليته دمشق، فجاوبه العزيز بأنه يريد أن يحضر إلى مصر ليسيّر معه الجيوش، فامتنع أبو تغلب ورحل إلى بحيرة طبريّة، فمرّ به قائد من قبل العزيز اسمه الفضل ووعده عن العزيز بما أحبّ، فسأله الذهاب معه إلى دمشق، فمنعه خوفًا من الفتنة بين أصحابه وأصحاب قسام. وكان بالرملة دغفل بن مفرج بن الجراح الطائي، قد استبدّ بأمور تلك الناحية، وسار إلى أحياء عقيل المقيمة بالشام ليخرجها من هناك، فانضمّت عقيل إلى أبي تغلب واستنجدته على دغفل، فرحل أبو تغلب إلى جوار عقيل، فخشي دغفل والفضل قائد جيوش العزيز أن يكون مقصده الاستيلاء على تلك الأعمال، فجمعا عساكرهما وقصداه، فتصافّ الفريقان للقتال، ولمّا رأت عقيل كثرة الجموع انهزمت. وبقي ابن حمدان بنحو سبعمائة رجل من غلمانه وغلمان أبيه، فانهزم وأُخذ أسيرًا فقتله دغفل، وسارت أخته جميلة وزوجته بنت سيف الدولة إلى سعد الدولة بن سيف الدولة في حلب، فأقامت هذه عند أخيها، وسارت جميلة إلى الموصل، فأرسلها نائب عضد الدولة إلى بغداد، حيث اعتقلت في دار عضد الدولة، وكان قتل أبي تغلب فضل الله سنة تسع وستّين وثلثمائة.

وتصديقًا لقول ركن الدولة أبي علي وعزّها، أبي منصور تولاّهما الله فيه[١] وثقة منه بارتباط النعمة واستبقائها بحسن الخدمة، وإظهار الأثر الجميل في الكفاية، واستدعاء المزيد من الصنيعة، وارتقاء الرتب الرفيعة، بما يكون من قيامه بحقّ ما أسلفه، ونهوضه بثقل ما كلّفه، والله يعرّف أمير المؤمنين في ذلك الخير والخيرة[٢]، ويقضي له في جميع أموره التوفيق والعصمة، ويعينه على ما ينويه من حسن السيرة، وإفاضة المعدلة، واختيار الولاة والصلحاء، والكُفاة والنصحاء، وحسْب أمير المؤمنين، الله، ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله وخيفته مُسرًّا ومُعلنًا، وخشيته ومراقبته مُظهرًا ومُبطنًا، فإنّها شعار الأبرار والأتقياء، وسيماء الأخيار والأزكياء، والمنبّهات عند هواجس الهوى، والمرشدات إلى سبل الهدى، والمنقذات من موبقات الردى، والعصمة من فتنة النعم، والأمان من سطوة النقم، وأن يكون أمينًا لله على نفسه، يخاف مقامه إذا غابت عنه أعين الناظرين، ويراقبه فيما يستترّ عن العالمين، ولا يطيع هواه في غواية ولا ينقاد له في ضلالة، قال الله جلّ اسمه: ﴿وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإنَّ الجنّة هي المأوى﴾[٣]. وأن يتواضع لله عند سخطه، ولا يبطش ببطشة الجبّارين، ويغضب له عند رضاه، ويدرأ حدوده عن المجرمين[٤]، وأن يحضر ذهنه ذكر الموت المكتوب على العباد، واستواء البشر يوم المعاد، ويأخذ نفسه بصدق اللسان وغضّ الطرف، وكفّ اليد وعفّة الجوارح، فإنّه إذا صلحت خلائقه صلح بها، وإذا استقامت طرائقه استقام عليها؛ إذ لسان القول وجميل الفعل، أزجر من حُسن الوعظ، وأن يعطي النصف من نفسه[٥] ويبذل أسوية لمن دونه، ويتلقّى الحقّ بالاستكانة له، ويواجهه بالانقياد إليه، ويضع الأبهة والنخوة، ويسقط الحمية والسطوة، ويحلم لدى سورة الغضب، ولا يكظم على حرّة الغيظ، ولا يحمل حقدًا، ولا يُضمر خبًا[٦]، ولا يُسر ضغينة، ولا ينطوي على سخيمة[٧]، وأن يصير سلطانه سلطان رأفة، وقدرته قدرة معدلة، فيحسن إلى المحسنين، ويتجاوز عن المسيئين، ويعنف بالظالمين، ويلطف بالمظلومين، ويسوِّي بين أهل

---

(١) متعلّق بقول السابقة في الجملة.

(٢) الخيرة، تقول هو أخْيَر الناس، (أفعل تفضيل مخفّف)، ومؤنّثه: خَيره أي الأكثر خيرًا.

(٣) الآيتان: ٤٠ و ٤١، من سورة النازعات.

(٤) عند اعتراض الشبه.

(٥) يعطى من الحقّ كالذي يستحقّ.

(٦) الخُبّ: الخبث.

(٧) السخيمة: الحقد.

عمله في قوله واهتمامه ونظره، حتَّى يكون من دنا منه مثل من نأى عنه، ومن أدلى بسبب إليه مثل الرجل من عرض[1] من يلي عليه، ويجعل أقواهم عنده الضعيف، حتَّى يأخذ الحقّ له، وأضعفهم القوي حتَّى يأخذ الحقّ منه، ويعتقد أنه مسؤول محاسَب ومستودع مطالَب، فيقدم لذلك أُهبته، ويعدّ له عدّته، قال الله تعالى: ﴿إنَّ الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[2].

وأمره بأن يأتم في أمره بالقرآن ويستضيء بما فيه من التبيان، وألاّ يُورد[3] ولا يصدر[4] إلاّ به، ولا ينقض ولا يبرم إلاّ عنه، فإنّه الطريق المَهْيَع[5]، والحكم المقنع، والحجّة الواضحة، والمحجة اللائحة، والبرهان الباهر، والدليل الظاهر، والمسلك الجَدَد[6]، والسبيل الوسط، والبشير بالثواب، والنذير بالعقاب، والزعيم بالنجاة، والأمان من الهلَكة، والكاشف للشبه، والمنوّر للظلم، والهادي للحقّ، والناطق بالصدق، وبه يعلم الجاهل، ويعلم العالم، وينتبه الساهي، ويتذكّر اللاهي، ويتّعظ المسرف، ويزدجر الظالم، ويتوب المخطي، ويُقلع المُصرّ. وأولى الناس باتّباع أوامره، والارتداع بزواجره وطاعته فيما ساء وسرّ، وتحكيمه فيما نفع وضرّ، ومن نفذ أمره وجاز حكمه فأعطى الحقوق ومنعها، وأراق الدماء وحقنها وأباح الفُروج وحظّرها، وأقام الحدود ودرأها، وكان رأيه غير معارض وقوله غير مناقض، وفعل ما أحبّ غير ممنوع، وأتى ما شاء غير مدفوع، فإنَّ ذلك إن أهمل تأمله زلّ، وإن ترك الأخذ به ضلّ، وإذا جعله نصب عينه وأقامه تلقاء وجهه، حمله على نهج السداد وأقامه على سبيل الرشاد، فإنّه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وأمره بأن يراعي الصلوات، ويدخل فيها بالإخبات[7]، ويحافظ على مواقيتها، ويقيمها على حدودها، ولا يفكّر إذا حضر حينها في غيرها، ولا يعلق همّه إذا ابتدأها بسواها، ولا تقطعه القواطع عنها، ولا تعترضه العوائق دونها، يُفرغ لها قلبه، ويُشغل بها لُبّه، ويصرف إليها خاطره، ويقصر عليها هاجسه، ويؤدّي السجود والركوع، ويدَّرع الاستكانة

---

(١) من عامة من يلي عليهم.

(٢) من الآية: ٢٦، من سورة (ص).

(٣) وَرَدَ: الأصل فيها ورَدَ الماء، وهي خلاف (صدر) فورد الماء طلبه.

(٤) صدر عنه: رجع.

(٥) المَهْيَع: الطريق الواسع البيِّن.

(٦) المسلك الجدد، الأصل في الجدد: الطريق الغليظة المستوية، "ومن سلك الجدد أمِنَ العثار" فهو هنا طريق الإجماع.

(٧) الخشوع وأصله الدخول في الخَبْث وهو ما اطمأن من الأرض.

والخضوع، ويناجي ربّه ضارعًا، ويسأله العفو خاشعًا، ويقوم له طويلاً، ويرتّل القرآن ترتيلاً. فإنَّ الصلاة حظّ آخرة المؤمن من أولاه، وعدّة مقرّه من دنياه، ومتى أضاعها وأهملها وقصّر فيها وأغفلها، قطع الله عصمته وحرمه حرمته وأوجب له أليم العذاب وحتم عليه شديد العقاب، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا﴾.

وأمره أن يوصي عمّاله، ويستوصي بحضور المساجد الجامعة، والمصلّيات الضاحية، في الأوقات التي يجب فيها السعي إلى ذكر الله، بصدور لعبادته منشرحة، وآمال في رحمته منفسحة، وقلوب لوعده راجية، وأنفس لوعيده خاشية، وهمم على أمره موفورة، ونيّات على طاعته مقصورة، وأن يجعلوا بروزهم إليها في أحسن هيئة، وأكمل عدّة، وأظهر دعة وأوقر سكينة، فإنّها بيوت الله التي شرفها، ولا أحد أولى بحُسن السيرة فيها، والاحتذاء لرسومها، ممّن جُعل قيِّمًا على استيفاء شروطها، آخذًا للناس بأداء حقوقها، وأن يقيم الدعوة لأمير المؤمنين على سائر المنابر في أعماله، حسب ما جرت العادة، قال الله جلّ من قائل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾[1].

وأمره أن يعرف لركن الدولة، أبي علي، وعزّ الدولة أبي منصور، موليَيّ أمير المؤمنين، تولاّهما الله حقّ منزلتهما من أمير المؤمنين، وغنائهما عن كافّة[2] المسلمين، وأن يكسو ذكرهما في مجالس الحشد والحفلة، ومواطن الأنس والبذلة[3]، شعارًا من الإكبار والإعظام، والإجلال والإكرام، يبيّنان به عن كافّة الأولياء، ويكون مضاهيًا لمكانهما من الاجتباء[4]، حسبما يخاطبان به بحضرة أمير المؤمنين وأطراف بلاده، ويذكران به في الكتب عنه وإليه، وأن يرفع من جهتهما أخبار أعماله وينهي[5]، على أيديهما ما يجب إنهاؤه من أحواله، ويمتثل ما يخرجانه من أمر أمير المؤمنين ونَهْيه، ويقف عند ما يعلمانه من أمر أمير المؤمنين وعَزْمه. وإنّهما الوليّان الصالحان، والظهيران الناصحان، وممّن لا يستظهر أمير المؤمنين عليه

---

(١) من الآية: ٩، من سورة الجُمعة.

(٢) بإضافة الكافّة إلى المسلمين، وهو ممّا لم يرد في كلام العرب قديمًا والمحقّقون، على أنَّ كافّة وقاطبة وطُرًّا من الأسماء اللازمة للنصب على الحالية استعمالاً، فلا تجوز إضافتها، وعلى ذلك خطأ الحريري في دُرّة الغواص [هو «دُرّة الغوّاص في أوهام الخَواص» للقاسم بن علي المعروف بالحريري (١٠٥٤م ـ ١١٢٢م) والحريري، من أصحاب «المقامات»، جرى فيها على نسق بديع الزمان الهمذاني] استعمالها بالإضافة، إلاّ أنهم تعقّبوه وأجازوا هذه العبارة توسّعًا، واستشهدوا على ورودها بكتاب من الإمام عمر، ووجدوها في كلام الزمخشري، واستعملها ابن خلدون وغيره من مشاهير البلغاء، ومن العجب أنَّ الحريري مع تخطئته هذا الاستعمال يقول في مقاماته «قاطبة الكتاب».

(٣) يقال خرج في مباذله وفي ثياب بذلته.

(٤) الاجتباء: الاختيار.

(٥) من هنا يُفهم أنَّ استعمال «الإنهاء» في دواوين الحكومة قديم العهد.

فيما يرفعه إليه وينهيه، ولا يطلق لأوليائه التوقّف عمّا يسنده عنه ويحكيه، قال الله جلّ وعزّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[1]. وأمره أن يحسن السيرة فيمن قبله من أولياء أمير المؤمنين ومواليه، وجنده وشاكريّته[2]، وأن يدرّ عليهم أرزاقهم ويزيح عللهم في أموالهم، ويستديم طاعتهم ونصيحتهم، ويمتري[3] إخلاصهم وموالاتهم، ويُثيب مُحسنهم على الإحسان، ويتغمّد مُسيئهم بالغفران، ويشاور منهم ذوي السنّ والحنكة، وأهل العلم والتجربة، فإنَّ الشورى لقاح المعرفة، والاستبداد داعي الهُجنة[4]، ويقدّم من قدّمته الكفاية دون العناية، ويؤخّر من أخّره الإنصاف دون الانحراف. فإنّه إذا أطاع الهوى في إدناء مَن يُدنى، وإقصاء مَن يُقصى، جرح البصائر، وقدح في الضمائر، وعادى من يعدّ للعدوّ، واستفسد من يدّخر للاصطلاح، وإذا جعل زيادة من زاد ونقْص مَن نقَص، عن نظر في قدر الاستحقاق، تقرّب إليه أهل العلم لغنائهم، ولم يلمه أهل العجز على إقصائهم، قال الله عزّ وجل: ﴿وإنَّ ليس للإنسان إلاّ ما سعى وإنَّ سعيه سوف يرى ثمَّ يجزاه الجزاء الأوفى﴾. وأمره بأن يوكّل بالثغور مراعاته، ويصرف إليها عنايته، وينوطها من أنجاد الولاة، وبسلاء الكفاة، بمن يضطلع في تدبير الحروب، ويعرف وجوه الاحتراس، ويهتدي لنصب المكائد، ويتحرّز من اتّجاه الحيل، وأن يطرقها بنفسه ويشرف عليها بنظره، ويشحنها بالخيل والرجل، ويستظهر لها بالآلة والسلاح، وأن يجعل مرابطة الرجال بها نَوْبًا[5]، ولا يجمر فيها بعثًا[6]، فإنَّ ذلك سُنّة الأئمّة المُرتضاة، وعادتهم المتّبعة المُحتذاة، وأن يوصي ولاته بالتثبّت والتقيّظ، والتحرّم والتحفّظ، والحذر من ركوب غرة وإبداء عورة، ولا يمنحوا عدوّهم ظهرًا، ولا يُولوه دَبرًا[7]، ولا يخيموا[8] عن مُناجِز، ولا يصدّوا عن مُبارِز، ويبذلوا النفوس مع الحيطة، ويسمحوا بالموت في غير إضاعة، ولا يرغبوا في الحياة الفانية، فيهِنوا ولا يصدفوا

---

(١) الآية: ١١٩، من سورة التوبة.

(٢) صنف من أصناف الجند كانوا في بغداد.

(٣) مرى الشيء وامتراه: استخرجه، والريح تمري السحاب وتمتريه تستخرجه وتستدره.

(٤) الهُجنة: القُبح وكلّ ما يُعيبه الإنسان.

(٥) النوب، تقول ناب عنه في الأمر أي قام مقامه.

(٦) جمر الأمير الجند: أبقاهم في ثغر العدوّ، ولم يقفلهم وتجمير الجيوش حبسها في الثغور، وقد نهى عن ذلك، وفي حديث عمر رضي الله عنه، لا تجمروا الجيش فتفتنوهم.

(٧) الدبر: خَلْف الشيء.

(٨) من خام عن اللقاء جبن ونكص أو هي ولا يحتموا من احتمى.

عن الدار الباقية فيجنبوا[1]. فمن شرى نفسه فقد تاجر الله التجارة التي لا تخسر، ومن باع دنياه فقد ضمن الوفاء الذي لا يغدر، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. وقال: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتُلون، ويقتَلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[2]. وأن يزيح العلّة في جميع ما يحتاج إليه لنفقات هذه الثغور، راتبها وحادثها، وقليلها وكثيرها، وبناء حصونها ومناظرها، وابتياع كراعها وأسلحتها، وإصلاح طرقها ومسالكها، وإقامة أنزالها[3] وعلوفاتها، وأرزاق رجالها وولاتها، واتّخاذ عددها وآلاتها، حتَّى يستقيم أمرها وينتظم، ويتمّ ضبطها ويلتئم، من غير اعتلال في ذلك ولا مدافعة ولا احتجاز عنه ولا مراوغة، حسب ما شرطه عزّ الدولة أبو منصور، مولى أمير المؤمنين، رعاه الله عليه، وضمنه أمير المؤمنين عنه، فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[4]. وأمره أن يعطي الأمان لمن عاذ به[5] ويبذل السلم لمن اتّقى بصفحته، وأن يعتقد الوفاء فيما يشرط والقيام بما يعقد والصدق فيما يُجيز، والإنجاز لِما يَعِد، ولا يحفز ذمّته، ولا ينقض عهده ولا يكذب قوله، ولا يُحرج أمانته، وأن يقوم بما يعقده الرجل من عرض[6] المسلمين، فإنَّ ذمّته ذمّة على مَن سواهم، وفي حسن الوفاء تسكين النافر، وإيناس الشارد، وتأليف الأعداء، وجمع الأهواء، واستعطاف القلوب، وتودُّد إلى النفوس، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله﴾[7].

وأمره بأن يوكل بالطرقات من الخيل والرجال من يتقصّاها ليلاً ونهارًا، ويستقريها سهلاً وجبلاً، ويسير في برّها وبحرها، ويتردّد بين جوادها وعوادلها[8]، ويقلّد عليها أهل النجدة والبسالة، وذوي الشدّة والجزالة، ويوعز إلى من يوليه بأن يتتبّعوا مظان أهل الريب فيشرّدوهم عنها، ومكامن أهل العيث فيبعدونهم منها، وأن يقبضوا على من يجدونه من

(١) أي لا يتحوّلوا عن الدار الباقية فتصاب جنوبهم.

(٢) الآية: ١١١، من سورة التوبة.

(٣) جمع نزْل ونزُل وهو ما يُهيّأ للنزيل.

(٤) من الآية: ١، من سورة المائدة.

(٥) عاذ به: لجأ إليه واعتصم به.

(٦) عرض القوم وسطهم وعامّتهم.

(٧) من الآية: ٦١، من سورة الأنفال.

(٨) الجواد والعوادل من الطرق: الممهّد منها والمائل.

ذوي التهم ومن تتعلّق بهم الظنن، ويستقصي أحوالهم بحثًا، ويستبطنها علمًا. فمن صحّ عليه ما نسب إليه أمضى فيه حكم الله العدل، وأجرى عليه قضاءه الفصل، ومن كان بريئًا ممّا ظنّ به، فما على المحسنين من سبيل، وأن يسيروا مع السابلة ويصحبوا من يسلك الطرق من المارّة، ويحموا النفوس والأموال، ويحوطوا الذراري والتجارات، ويقفوا على من تخلّف، ويسيروا بمسير من ضعف، حتّى لا يلحق أحدًا من السالكين عيب، ولا يغُوله دون مقصده غول، ولا يلزموا أحدًا من المجتازين مؤنة، ولا يحملوه ثقلاً ولا كلفة لتؤمّن السبل وتحمي المسالك وتدرّ للرعيّة المتاجر وتستقيم لها أسباب المعايش، وتكون الطرق مضبوطة والآمال محوّطة. والله خير حافظٍ وهو أرحم الراحمين. وأمره بأن يرتّب في مسالح[1] عمله أهل الجلد والشهامة والحزم والصرامة، ومن يتنزّه عن دنيء المكاسب، ويعف عن لئيم المطاعم والمطالب، فإنّهم يخلون بأبن السبيل والشاذّ الفريد، ومن لا يعصمه منهم إلاّ تورّعهم، ولا يحميه من مَعرّتهم إلاّ كفّهم، ومتى كانوا أهل إسفاف وجشع ودناءة وطبع[2]، لم يؤمن تحكّمهم في مال الرجل الغريب والفذّ الوحيد، ومن لا ناصر له من الغرباء، ومن يطمع في مثله من الضعفاء، وأن يجري على كلّ من يرتبّه في هذه المسالح ما يكفّه ويكفيه، ويلزمه الحجّة عند تعدّيه، ويعرضهم عند الاستحقاقات، ويطالبهم بلزوم مراكزهم على الأوقات. فإن وجد بعد ذلك منهم من أخلّ بمكانه من غير عذر، أو مدّ يده إلى شيء من أموال المجتازين بغير حقّ، أمضى عليه من الحكم ما يوجبه جرمه، فإنّ عقاب المسيء واجب، استصلاحًا وردعًا لسواه عن مثل خطيئته، والله يقول: ﴿من يعمل سوءًا يُجزَ به﴾.

وأمره بأن يولي الأحداث أهل العقل والدعة، والضبط والعفّة، وأن يوعز إليهم بترك المحاباة والمراقبة، والإعراض عن المسئلة والشفاعة، والتشدّد على أهل الريب، حتّى لا يظهر منهم منكر، ولا يوقف لهم على فاحشة، وأن يبطل الحانات والمواخير، ويحظّر أبدًا الملاهي والخمور، ويمنع من سائر المناكير، ويوزّع عنها بالحدود والتعزير[3]، لئلاّ تباح المحرّمات وتُضاع الصلوات، وتقترف السيآت، وترتكب المحظورات، قال الله جلّ ثناؤه وتقدّس ذكره: ﴿فخَلَفَ من بعدهم خَلَفٌ أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غَيًّا﴾[4]. وقال

---

(١) جمع مسلحة، وهي القوم الذين يحفظون الثغور من العدوّ أو كالثغر والمرقب.

(٢) الطبع: محركة الدنس والعيب والإسفاف الدنو في الأصل، يقال أسفّ الطائر والسحاب وغيرهما أي دنا من الأرض، قال:

دانٍ مُسِفٌّ فُوَيق الأرض هَيدبهُ ... يكاد يدفعه من قام بالرَّاحِ

وقد استعمل في الدناءة والسؤال عن مداق الأمور.

(٣) التعزير، من عزر فلانًا: ضربه أشدّ الضرب، بعد استنفاد اللوم.

(٤) الآية: ٥٩، من سورة مريم.

عزّ وجلّ: ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[1]. وذمّ قومًا فقال: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل﴾[2].

وأمره أن يعرض من تحويه المحابس من المتّهمين والجناة، ويستظهر بنظره على من يستنبيه من الولاة، فمن استوجب حدًّا أقامه عليه، ومن اعترضت أمره شبهة درأ الحدّ عنه، ومن استحقّ تعزيرًا اجتهد في قدر ما يستصلحه به، ومن كان الحظّ في حبسه كفاه الحبس شرّ نفسه، ومن كان بريء الساحة خلى سبيله، ولم يطلق يدًا بظلم عليه، وأن يتعرّف أحوال من يضمّه الحبس. فمن كان من أهل المسكنة، أزاح علّته من قوّته وكسوته بالمعروف، وإلاّ يجاوز في ذلك كلّه الحقّ ولا يتعدّى الرسم، فإنَّ الله هو أرحم الراحمين، وأعرف بمصالح العالمين، بيَّن في بعض الجرائم حدود الأحكام، ووكّل بعضها إلى اجتهاد الحكّام، وعلى الوالي أن يتتبّع فيها ما أمر الله، غير مطيع هواه في لين ولا خشونة، ولا متصرّف مع شهوته في رفق ولا غلظة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾. وأمره بالاحتياط على من يجد في نواحيه من العبيد الأبّاق[3]، والأرقّاء الهُرّاب ويعرف أوطانهم التي فارقوها، ويردّهم إلى مُلاّكهم الذين أبقوا[4] عليهم، والاحتفاظ بالضوال وإنشادها، وأن يمنع من امتطاء ظهورها، وأكل لحومها، وحلب ألبانها، واجتزاز أوبارها، واستباحة محارمها، وتناول منافعها، وأن تكون على أصحابها مقصورة، وعمّن سواهم محظورة، وأن يعرف اللقطات، ويستأني بها حضور أربابها، فيسلمها إلى من يستحقّها بأوصافها. فقد قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: ضالة المؤمن حرق النار. وقال الله جلّ وعلا: ﴿إنَّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. إنَّ الله نعما يعظكم به إنَّ الله كان سميعًا بصيرًا﴾. وأمره أن يوعز إلى أصحاب المعاون في إقامة الأحكام، وأن يحضر مجالسهم العامّة، ويطيعوهم الطاعة التامّة، ويُشخصوا إليهم[5]، مَن امتنع مِن المحاكمة لديهم، ويحبسوا ويطلقوا بأقوالهم، ويثبّتوا الأيدي في الأملاك وينتزعوها بأحكامهم، وأن يوفوهم حقّ الإجلال والإكرام، وواجب التوقير والإعظام، ولا يعصوا لهم أمرًا ولا يُخلفوا لهم حكمًا، وأن يقوّوا أيدي عمّال الخراج، في استيفاء مال الفيء[6] ويبذلوا لهم

(١) من الآية: ١١٠، من سورة آل عمران.

(٢) من الآية: ٧٩، من سورة المائدة. ومن الآية: ٤، من سورة الأحزاب.

(٣) أَبِقَ العبد: هرب من سيِّده.

(٤) الإباق: هرب العبيد وذهابهم من غير خوف ولا كدّ عمل، ومن أَبِقَ من هؤلاء فالحكم فيه أن يُردّ، فإن كان من خوف أو كدّ عمل لم يُردّ.

(٥) شَخَص إلى مكان: ذهب إليه.

(٦) الفيء: الغنيمة أو الخَراج.

مطالبة من تقاعس عن الأداء، وأخلّ بشرائط الوفاء، ويقبلوا منهم الحوالات بأموالهم وأموال رجالهم، على الجهات التي يكونون على الاستيفاء منها أقدر، ولا يحتجّوا في شيء من ذلك باستصعاب، ولا يمتنعوا منه لبعد مرام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتّقوا الله إنَّ الله شديد العقاب﴾. وأمره بأن يعدل في الرعيّة ويحملها على حكم السويّة، ولا يجعل في الحقّ مزية بين مسلم ومعاهد، وقوي وضعيف، ودنيء وشريف، وخاص وعام، وقريب وبعيد، وعدوّ وصديق، ولا يفضّل بين ذي آصرة[1] وعصمه، ولا يميل مع ذمام وحرمه، وأن يفتح لهم بابه، ويرفع عنهم حجابه، ويمكّنهم من الوصول إليه، وعرض مظالمهم عليه، ويبسط لهم وجهه، ويلين لهم كنفه ويبذل بِشْره، ويخفض جناحه، وأن يتفقّد الكبير والصغير من أمورهم، ويتكلّف الدقيق والجليل من مصالحهم، ويكفّهم عن التظالم، ويقبضهم عن التغالب، ويعزّ ذليلهم بالحقّ، ويذلّ عزيزهم للحكم، ويرفع من أماثلهم[2] وحلمائهم[3]، ويأخذ على أيدي جهّالهم وسفهائهم، ويحملهم على أحسن الخلائق، ويقيمهم على أقصد الطرائق. قال الله تقدّست أسماؤه: ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله﴾. وأمره أن يرفع عن الرعيّة ما شرعه أشرار العمّال، من سنن الظلم وسِيَر الغشم، وأحدثوه من الرسوم الباطلة وطرقوه من المعاملات الجائرة، ولا يستعمل عليهم عاملاً إلاّ بأجرة، ولا يدخل لهم رَبعًا إلاّ بإذن، ولا يُسخّر حَمولة، ولا يحمي مرعى، ولا يعترض حلبًا، ولا يبيح سوامًا، ولا يكلّفهم علوفة، ولا يُلزمهم مغرمًا ولا مِيرة، ولا يطالبهم بضريبة ولا مكْس[4]، ولا يجبيهم عند ماصر[5] ولا رصد، ولا يقتطعهم عن معيشة ولا حرفة، ولا يشغلهم عن تجارة ولا مهنة، ولا يأخذ حاضرًا بغائب ولا بريئًا بمتّهم، ولا يطالب صحيحًا بسقيم، ولا يكلّفه أجرة أخ ولا حميم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وابراهيم الذي وفّى ألاّ تَزِر وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾. وأمره أن يختار للخَراج والأعشار والضياع والجِهْبذة

---

(١) ذو آصرة: ذو قرابة.

(٢) الأماثل: الأخيار.

(٣) الحُلماء، مفردها حليم: وهو ذو الأناة والصفح. والحِلم: ضدّ الطيش.

(٤) المكس والمكوس: نوع من الضرائب.

(٥) الماصِر: حبل كانوا يلقونه في دجلة والفرات يمنع السفن من السير، حتّى يؤدّي صاحبها ما عليه من حقّ السلطان، وقوله يجبيهم أي يجبي منهم، ومنه قول النابغة الجعدي [توفّي نحو سنة ٦٧٠م، شاعر مخضرم، كان سيِّد قومه، أدرك النبي (ﷺ) فوَفد عليه وأسلم على يديه]:

دنانير نجبيها العباد وغَلّةً ... على الأزْدِ من جاه امرئ قد تمهّلا

والصدقات والجوالي، ذوي الغناء والكفاية، وأهل النصيحة والأمانة، ومن يوثق بدينه ويُسْكَن إلى أمانته، ومن كشفت المحنة أخباره، وأبدت التجربة أسراره، حتَّى يأمن الإقدام منهم على غرّة، والتعرّض لندامة وهُجنة، وأن يوعز إلى عمّال الخراج والأعشار بالتلطّف في الجباية، واستدرار الأموال بالرفق والمُياسرة، وأن يتجنّبوا الشدّة التي تخرج من العنف، واللين الذي يؤول إلى الضعف، ويتبعوا في سيرتهم مع الرعيّة سبيلاً وسطًا بين الإحراج والإمراج[1]، وحالاً أممًا[2] فوق التقصير ودون الإفراط، فبذلك يستغزر الفيء ويعمّ الصلاح. وإلى والي الضياع بإقامة العمارات والاحتياط على الغلاّت، واحتراس من إتواء[3] حقّ أو تعدّيه إلى حيف، وأن يتحرّوا النقد فيما يأخذون ويعطون على غاية الصحّة ويؤدّي فيها حقّ الأمانة، وإلى سعاة الصدقات، بأن يأخذوا الفرائض من مواشي المسلمين السائمة دون العامّة، على ما أوجبه الله فيها واتّباع سننها، وترك تعدّيها، وألاّ يجمعوا متفرّقًا، ولا يفرّقوا مجتمعًا، ولا يأخذوا ما حظر أخذه من أكولة الراعي وفحل الإبل، وما جرى مجراهما من عقائل الأموال وحرائر السوام، حتَّى إذا اجتمعت من حلها، فرّقها في سبلها، وصرفها إلى من ذكره الله في كتابه الأسهم المؤلفة قلوبهم، الذي زال حكمه، وإلى عمّال الجوالى بأن يستخرجوا في المحرّم، من كلّ جول من رجال أهل الذمّة البالغين الواجدين[4]، جزية رؤوسهم على حسب احتمال أحوالهم في وُجدهم وإعدامهم[5]، وألاّ يأخذوا شيئًا من النساء ولا من الأطفال، ولا من ذوي العاهات، ولا من الشيخ الفاني، ولا من الفقير المعدم، وأن يراعيهم حتَّى يمتثلوا ويمنعهم أن يغيروا أو يبدّلوا. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. وأمره بأن يختار للعرض والعطاء والنفقة والأولياء، ومن يثق باضطلاعه، ويسكن إلى استقلاله، ويرسم له الاحتياط في أسماء الرجال، وحلاهم وشيات خيلهم، وأن يعرضهم بعد الاستحقاق، وعند وجوب الإطلاق، على الأسماء والحلى الثابتة عن الدواوين، وما تتضمّنه الجرائد لكلّ حين، فإذا صحّ عرضهم ولم تبقَ شُبهة فيه وأُمنت غيبة بعضهم عنه، أنفق فيهم أمواله على منازلهم ورتبهم، وما توجبه الدعوة من تقديمهم وتأخيرهم، وأن يوفر أرزاق الساقطين والمخلّين، ويطالب الرجال بإحضار الخيل الجياد،

(١) مَن أمرج دابته: أطلقها ترعى كيف شاءت.

(٢) الأمم بين القريب والبعيد.

(٣) إماتة.

(٤) الواجد: الذي يجد ما يقضي به دينه.

(٥) وُجدهم وإعدامهم: غناهم وفقرهم.

والشكك التامّة، على ما توجبه أرزاقهم، وتقتضيه أُعطياتهم، وإن أخّر أحدهم شيئًا يجب إحضاره، ألزمه القصاص والغُرم على ما جرت به العادة والرسم. فإنَّ في تمام لإماتهم وانتظام آلاتهم، قوّة لهم وعزًّا ووهنًا لعدوّهم وذلاًّ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾. وأمره بأن ينوط المظالم وأسواق الرقيق والعيار، في دُور الضرب والطرز والحسبة، بمن يجمع إلى ديانته فقهًا ومع روعه فهمًا، فإنهنّ أمور كالحكم ولا يضطّلع بها إلاّ أهل العلم، وأن يوعز إلى ولاة المظالم، بأن يبرزوا للمتخاصمين، ويمثلوا للمتنازعين، وينظروا فيما يُختلف فيه من الحقوق، على سبيل البحث والكشف، وطريق التعرّف والفحص، فإن ظهر الحقّ اتّبعوه، وإن أشكل من هذه الجهة، ردّوا الخصوم إلى القضاة ليفصلوا المنازعات على صريح الحكم، وإلى أسواق الرقيق بالتحفّظ فيما يباع فيها، لئلاّ يكون منهم من يلحق أمره شُبهة، أو يتعلّق به تهمة؛ إذ كان ذلك أمرًا يعود فساده في الفُروج مع الأموال، ويسري ضرره إلى الأنساب مع الأملاك، وإلى ولاة العيار بتصفية عين الدرهم والدينار من كلّ خبث، وتخليصهما من كلّ غشّ ودنس، وضربهما على الإمام الذي يُضرب عليه العين والورق[1] بمدينة السلام، ومنع التجّار الذين يوردون الذهب والفضّة إلى دُور الضرب، من تجاوز ذلك وتعدّيه، وعقوبة من خالف بما يوجبه جرمه ويقتضيه، وإيقاع اسم أمير المؤمنين على ما يُضرب من الصنفين حسبما جرت به العادة، وما يشاكل الرسم والحكاية، وإلى ولاة الطرز بأن يشرفوا على الصنّاع فيما يتّخذونه من المناسج، حتّى يجوّدوه، وأخذهم بإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يُصنع من الأعلام والبنود، ويُنسج من الكسى والفروش، وإلى ولاة الحسبة بمراعاة أمور العوام في المتاجر والصناعات، ومنعهم من الغشّ والتدليس في سائر المعاملات، وامتحان المكاييل والأوزان، وحياطتها من التطفيف والنقصان، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وتوقيفه وتهذيبه وتثقيفه وتأديبه، وتبصيره وتنبيهه وتذكيره، قد هداك به إلى الرشد، وأقامك على القصد، وأوسعك من مواد الحكمة، وأهاب بك إلى دواعي الرحمة، وبلغ العذر فيما أوجب الله على الأئمّة الهادين، والخلفاء الراشدين، مع الحضّ على الاستعداد، وأخذ الأهبة ليوم الحساب والمعاد، والتحذير من الاغترار

(١) الدراهم المضروبة.

وسقطاته، والنسيان وفرطاته، والسهو وعثراته، واللهو وغفلاته، والدعاء إلى سبل الله وطرقه، والمُراماة عن أمر الله وحقّه، والمراعاة لشروط الدين وحدوده، والمحافظة على مواثيقه وعهوده، والترغيب في الثواب العظيم وجنّات النعيم، والتخفيف من العقاب الأليم ونيران الجحيم. وبه يتمّ الله عليك نعمته، ويقيض لك عصمته، ويمدّك بتوفيقه، ويعينك على حقوقه، فتأمّله تأمّل المعتبر، وتدّبره تدبّر المستبصر، ووكلّ به ذهنك، واصرف نحوه فهمك، وأصِخْ إلى ما أمر به أمير المؤمنين، إصاخة الساعي لحظّه، واصغ إلى ما أمره ورسمه، إصغاء المنتفع بوعظه. واعلم أنَّ أمير المؤمنين قد ملّكك عنان دينك، وأعلقك زمام آخرتك، ووقفك بين سعة العذر وضيق الملامة، وخيّرك فسحة النجاة وضَنك الهلَكة، فظنّه بك ما كان أحمى للحَوزة، وأذبّ عن البيضة، وأنظم للإلفة، وأجمع للكلمة، وأسكن للدهماء، وآمن للرعيّة، وأعدل في القضيّة، وأظهر للمعروف، وأقمع للمنكر، وأولى بحفظ الوديعة، وأدعى إلى ربّ الصنيعة، وأكثر التعهّد لعهده والتفهّم لأمره ونهيه، وأجعل وصيّته حجّة لك ودلالته شاهدة بطاعتك، وطالعه بما أشكل، واستدلله على ما استبهم، واعتضد يُعِنك برأيه الأصيل المكنوف، والصنع الجميل المعروف. وليكن التجاؤك إلى الله أولاً، وثقتك به باطنًا وظاهرًا، وعملك له سرًّا وجهرًا، واملك فيه بدءًا وعَودًا، فإنَّ الله لا يُسلّم مستجيرًا، ولا يخذل مستنصرًا، ولا يُضيع أجر عامل، ولا يخيب رجاء آمل، وأمير المؤمنين يسأل الله أن يُحسن عونك، ويسدّد رأيك، ويتولّى توفيقك، ويعزّ نصرك، ويصلح بك وعلى يدك، ويعرّفه وكافّة المسلمين يُمن استكفائك، بمنّه وطَوله وقدرته وحَوله. وكتب يوم الاثنين لعشر ليالٍ بقين من ذي القعدة ستّ وستّين وثلاث مئة.



نسخة عهد

إلى القاضي أبي بكر محمَّد بن عبد الرحمن، المعروف بأبن قريعة، عن المطيع لله، لمّا قلّده القضاء بجند نيسابور[(١)]

هذا ما عهد عبد الله الفضل، الإمام المطيع لله، أمير المؤمنين، إلى محمَّد بن عبد الرحمن، حين عرف علمه وديانته، وعلم نزاهته وصيانته، وامتحنه على الأيام، واختبره في ولائه الأحكام، فوجده في كلّ عمل وكّل إليه، ومهمّ اعتمد فيه عليه، نافذ البصيرة، مستمرّ المريرة[(٢)]، ناهضًا بالمعضل، كاشفًا للمشكل، سالكًا طرق الأبرار، منتهجًا سبل الأخيار، قيمًا بحقّ الله وأمره، مقدّمًا طاعته في قوله وفعله، مترفّعًا عمّا يشين ويعيب، متورّعًا عمّا يتّهم ويُريب، لم يُعرف له زلّة، ولم تُذّم له خلة، ولم يفارق حميد السجية، ولم يحد عن المواهب الرضيّة. فاعتده أمير المؤمنين في ثقات رجاله، وكفاة عمّاله، فقلّده الحكم في جند نيسابور، مضافًا إلى ما يتقلّده من باقي كُوَر الأهواز، متيقّنًا لسداده وكفايته، واثقًا بغنائه ومناصحته، متحرّيًا الصواب في إرشاده، باذلاً في الإصلاح غاية اجتهاده. والله يحسن لأمير المؤمنين الاختيار، ويمدّه بالتوفيق في مجاري الأقدار، ويجلي بآرائه عن الصلاح، ويُفضي بإنحائه إلى النجاح، وما توفيق أمير المؤمنين إلاّ بالله، عليه يتوكّل وإليه ينيب.

أمره بتقوى الله مظهرًا ومبطنًا، وخيفته مسرًّا ومعلنًا، فإنّها الحصن الحصين، والملجأ الأمين، والعصمة من نزغات الشيطان المردية، ودواعي الأهواء المغوية، وأفضل العتاد في الأُولى، وخير الزاد في الأخرى، من تمسّك بعلائقهما وتشبّث بوثائقهما، أقامتاه على سبيل الهدى، ويممتا به المحجة الوسطى، وسلكتا به طريق النجاة، واستنقذتاه في الحياة والوفاة. قال الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾. وقال: ﴿اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾. وأمره بأن يواظب على تلاوة القرآن متفهّمًا آياته،

(١) القاضي ابن قريعة البغدادي، كان قاضي السندية وغيرها من أعمال مدينة السلام، وكان مختصًّا بحضرة الوزير أبي محمَّد الملهبي، منقطعًا إليه، وهو على ما ذكر ابن خلّكان إحدى عجائب الدنيا في سرعة البديهة وحُسن الجواب، عن جميع ما يسئل عنه، وله مسائل وأجوبة مدوّنة في كتاب مشهور بأيدي الناس، ذكر له ابن خلّكان بعض الأجوبة على أسئلة هزلية كانوا يضعونها له، خِسّتها تمنع من ذكرها. توفّي القاضي المذكور لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وستّين وثلثمائة.

(٢) المريرة: الحبل القوي أو المفتول على أكثر من طاق، ويستعمل بمعنى القوّة والعزيمة، واستمرار المريرة استحكامها، وفي حديث ابن الزبير ثمَّ استمرّت مريرتي، وفي حديث معاوية، ثمَّ سحلت مريرته، أي جعل حبله المبرم سحيلاً أي واهنًا.

ومتعلّمًا بيّناته، متدبّرًا حججه الباهرة، متأمّلاً أدلّته القاهرة، متّبعًا أوامره الرشيدة، معتصمًا بمواعظه السديدة، آخذًا بعزائمه[1] المبرمة، عاملاً على فرائضه المحكَمة، فإنّه عمود الحقّ، ومنهاج الصدق، وبشير الثواب، ونذير العقاب، والكاشف لِما استبهم، والمنوّر لِما أظلم، والإمام المنجّي من الضلال، والخصم الغالب عند الجدال: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾.

وأمره بدراسة سنن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، منتهجًا ما أثاب بهم إليه، منتهيًا إلى حكمه ووصاياه، مقتديًا بخلائقه وسجاياه، فإنّه عليه السلام الذي يدعو إلى الهدى، ولا ينطق عن الهوى، فمن ائتمّ بأوامره غنم، ومن ارتدع عن مزاجره سلِم، وقد قرن الله طاعته بطاعته، وجعل العمل بقوله كالعمل بكتابه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا عنه واتّقوا الله إنَّ الله شديد العقاب﴾[2]. وأمره بمجالسة أهل الدين والعلم، ومدارسة أهل الفقه ومشاورتهم فيما يقرّره ويمضيه، والأخذ بآرائهم فيما ينيره[3] ويسديه، فإنَّ الشورى لقاح العقول، والمباحثة رائد الصواب، واستظهار المرء على رأيه من عزم الأمور، واستنارته بعقل أخيه من حزم التدبير. وقد أمر الله بالاستشارة أكمل الخلق لبابة وأولى البشر بالإصابة، فقال لرسوله الكريم في كتابه الحكيم: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنَّ الله يحبّ المتوكّلين﴾[4]. وأمره بفتح الباب ورفع الحجاب، وبالبروز للخصوم وإيصالهم إليه على العموم، وأن يناظر بين المتحاكمين بالسويّة، ويعدل فيهم عند القضيّة، ويعطيهم من نفسه أقساطًا متكافئة، وينزلهم من مجالسه منازل متساوية، ولا يفضّل خصمًا على صاحبه في لحظٍ ولا لفظٍ، ولا يقوّيه عليه بقول ولا فعل؛ إذ كان الله جلّ اسمه، قد جعل هذا الحكم سنن الحقّ وميزان القسط، وسبيل العدل في القبض والبسط، فسوّى فيه بين الدنيء والشريف، وأخذ به من القويّ للضعيف، ولم يجعل فيه مزية لغنيّ على فقير، ولا لكبير على صغير، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا﴾[5]. وأمره إذا ترافع إليه متحاكمان، وتنازع لديه متنازعان، أن يطلب الحكم في نصّ الكتاب، فإن عدمه هناك، التمسه من سنّة الرسول

(١) عزائمه: فرائضه التي أوجبها الله، ومنه أنَّ الله يحبّ أن تُؤتى رخصه، كما يحبّ أن تُؤتى عزائمه.

(٢) من الآية: ٧، من سورة الحَشر.

(٣) أنار الثوب: جعل له علمًا، ويقال لِلُحمة الثوب نير.

(٤) من الآية: ١٥٩، من سورة آل عمران.

(٥) الآية: ١٠٥، من سورة النساء.

عليه السلام، وإن فقده من السنّة القويمة والآثار الصحيحة السليمة، ابتغاه في إجماع المسلمين، فإن لم يجد فيه إجماعًا، اجتهد رأيه وحكم في الحادثة، أشبه الأحكام بالأصول عنده، بعد أن يبلغ غاية الوسع في التحرّي ويستنفد الطاقة في النظر والتقصّي. فإنّه من أخذ بالكتاب اهتدى، ومن اتّبع السنّة نجا، ومن تمسّك بالإجماع سلِم، ومن اجتهد رأيه أعذر. والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل. وأمره بالتثبّت بالحدود والاستظهار عليها بالشهود، وأن يحترس من عجل يرهق[1] الحكم عن الموقع الصحيح، أو ريث[2] يُرجؤه عن الوضوح، حتّى يقف عند الاشتباه، ويمضي لدى الاتجاه، ويقوم بالبيّنات، ويدرأ بالشبهات، ولا تستخفّه عجلة إلى بريء، ولا تأخذه رأفة بمسيء، فإنّ الله جلّ اسمه سمّى هذا الضرب من الأحكام حدودًا، تضييقًا فيه وإكبارًا لتعدّيه، وجعله من معالم الحكم[3]، ونسب من تجاوزه إلى الظلم، فقال: ﴿ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾. وأمره بأن يتصفّح أحوال من يشهد عنده فيقبل منهم من ظهرت منه العدالة، وعُرفت منه الأصالة، وكان ورعًا في دينه، حصيفًا في عقله، ظاهر التيقّظ والحذر، بعيدًا من السهو والزلل، طيّبًا بين الناس ذكره، مشهورًا فيهم ستره، منسوبًا إلى العفّة والظلف[4] معروفًا بالنزاهة والأَنَف[5]، سليمًا من شائن الطمع، بريئًا من الحرص والجشع. فإنّ هذه الطبقة هي حجّة الحاكم فيما يحكم، وطريقه إلى ما ينقض ويبرم، فمتى أعذر في ارتيادهم كان معذورًا في الحكم بشهاداتهم وإن اختلقوا، ومتى عذّر[6] في انتقادهم كان ملومًا في سماع أقاويلهم وإن صدقوا؛ لأنّ على الحاكم أن يعتام[7] أهل الثقة والأمانة، والعفّة والصيانة، حدسًا على باطنهم من ظاهرهم، ومخلّة[8] لخافيهم من باديهم، والله وحده يبلو السرائر ويعلم الضمائر، وقد قال جلّ اسمه: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط﴾. وقال: ﴿سنكتب شهادتهم ويسئلون﴾[9].

وأمره أن يحتاط على أموال الأيتام بالأمناء، ويَكِلَها إلى الحفظة الأعفّاء، ويرعيهم عينًا بصيرة، ويكلأهم بهمّة يقظى، حتّى يسيروا في هذه الأموال سيرة تثمرها وتنميها، ويدبّروها

---

(١) الرهَق: العجلة.

(٢) الإبطاء.

(٣) موضع الحكم ومعلم كلّ شيء: مَظِنّته.

(٤) ظلف نفسه عن الشيء: منعها من أن تأتيه.

(٥) الأنف والأنفة، واحد.

(٦) أعذر: بلغ أقصى الغاية من العذر، وعذّر قصر، ولم يثبت له عذر.

(٧) يختار.

(٨) مخلة: مُبيِّنة (مجازًا)، كأنك نفذت وتخلّلت خافيه فعرفتَ ما فيه.

(٩) من الآية: ٨، من سورة المائدة.

تدبيرًا يحرسها، ويزيد فيها، من غير أن يركبوا بها خطرًا، ولا يجروا عليها غررًا، وأن ينفقوا عليهم منها بالمعروف، ويسلكوا فيها سبل القصد، حتَّى إذا بلغ أربابها الحلم، وأنس منهم الرشد، سلّم الأموال إليهم، وأشهد بقبضها عليهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدّلوا الخبيث بالطيّب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنّه كان حُوبًا[١] كبيرًا﴾[٢].

وأمره بأن يولى الوقوف التي تنظر فيها الحكّام، أمناء يحسنون تدبيرها، ويضبطون القيام على مصالحها، ويكونون مأمونين على أصولها وفروعها، حافظين لحدودها وحقوقها، يجنون ارتفاعها من حله، ويصرفونه في سبله، وأن يوعَز إليهم باتّباع ما شرَطه واقفوها في إجارتها ومزارعتها، واحتذاء ما رسموه في استغلالها وعماراتها، ولا يخليهم في ذلك من اقتفاء الأثر والإشراف والنظر، فيقرّ من ارتضى مذاهبه، ويستبدل من ذمّ أمانته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ولا تجادل الذين يختانون أنفسهم إنَّ الله لا يحبّ من كان خوّانًا أثيمًا﴾[٣].

وأمره بأن يستخلف على عمله إذا شاء، مَن أحبّ استخلافه من أهل الفهم والمعرفة، وذوي الدين والدعة، الفقهاء في الحلال والحرام، العلماء بمُشكِل الأحكام، المشهورين بالغناء والكفاية، الجامعين للرواية والدراية، الذين لا يألو فيهم اختيارًا وارتيادًا، ولا يدّخِر في انتخابهم وَسعًا ولا اجتهادًا، وأن يوصي إليهم إذا ولاّهم خلافته بمثل وصايا أمير المؤمنين له، فقد قال الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

وأمره بأن يختار كاتبًا عالمًا بالمحاضر والسجلاّت، ومضطلعًا بعلم الدعاوى والبيّنات، قيّمًا على حفظ الشروط، عارفًا بكتب العقود، وحاجبًا يُنهى إليه ما دون بابه، ويصدّق عمّن أمَّه من الخصوم، فلا يَتوى[٤] حقّ بإرجائه إيّاه، ولا ييأس خصم باحتجابه عنه، وأن يجعلهما جميعًا ممّن لا يلحقه استرابة[٥]، ولا ينسب إليه معابه، ولا تناله ظنّه، ولا تتعلّق به تُهمه، فإنَّ حاجِبه وجهه، وكاتِبه لسانه، وهما من أقرب الظهراء، وأدنى النصحاء، وأولى الأصحاب، بأن ينفع رشاده، ولا يضرّ فساده، قال الله تعالى: ﴿وتعانوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتّقوا الله إنَّ الله شديد العقاب﴾.

---

(١) الحَوْب: الإثم أو الذنب أو الظلم.

(٢) الآية: ٢، من سورة النساء.

(٣) الآية: ١٠٧، من سورة النساء.

(٤) يتوى: يضيع.

(٥) الاسترابة، من ريب وهو الشكّ.

وأمره بأن يتسلّم ما يحويه ديوان الحكم من الوثائق والسجلاّت، والمحاضر والوكالات، وجميع الحجج التي تجري في دواوين الحكّام، وتخلد فيها على مرور الأيام، على ثبت لذلك جامع، وبمحضر ممّن تضمّنه البلد من الأماثل، وأن يوكل بها من الخُزّان مَن يرتضيه ويتوسّم الخير فيه، ويوصيه بالاحتياط عليها واستعمال الحزم فيها، ويكون من وراء تتبّعه وامتحانه، وتفقّده وارتقابه، فإن وقف منه على خيانة أو إخفار ذمّة، صدفه[1] ظاهرًا، واستبدل به مجاهرًا، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وأمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنَّ الله لا يحبّ الخائنين﴾[2].

وأمره أن يمضي الأحكام التي سبقه بها الحكّام، ولا يردّ قضيّة قاض تقدّمه، إلاّ أن تكون خارجة من الإجماع غير مرجوع فيها إلى أثر من الخلاف، فإنَّ حكومات قُضاة المسلمين جميعًا جائزة ما احتملت التأويل، وتعلّقت بأحد الأقاويل، وينقض ما خرج عن أقوال المختلفين من أئمّة الفقهاء المتّبعين، وقد قال الله عز وجلّ: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[3].

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، والاحتياط لك وعليك، وهاديك إلى طريق الرشاد، وحاديك[4] في سبيل السداد، ومقيمك على المحجة الواضحة، وزعيمك بالحجّة اللائحة، قد أعذر فيه أمير المؤمنين وأنذر، وبصّر به وحذر، ولم يألك فيه وعظًا، ولم يدَّخِرْك معه حظًّا. فكن عند ظنّ أمير المؤمنين بك، وأوفِ على تقديره فيك، فإنّه اختارك عن علم وبصيرة، وقدّمك عن فكر ورويّة، فاجعل وصيّته إمامك، وقدّم هدايتك أمامكِ، واتّبع أمره في تدبيرك، وانْحُ قوله في أمورك، وطالعه بما يشكل عليك مطالعة المستعلم، وانْهِه إنهاء المستقيم، ليصدر إليك من رأيه ما تحتذيه، ويردّ عليك من عزمه ما تقتفيه، إن شاء الله، وكُتب يوم الخميس، للنصف من ذي الحجة، سنة ستّ وخمسين وثلثمائة.

---

(١) صدفه: صرفه وأبعده.

(٢) الآية: ٥٨، من سورة الأنفال؛ وقوله: على سواء أي على استواء في العلم بنبذه.

(٣) الآية: ٤٤، من سورة المائدة.

(٤) حاديك، من حدا: ساق.

وكتب بتقليد أبي أحمد الحسين، بن موسى نقابة الطالبيين، عن المُطيع لله[1]

أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين لِما يعرفه من تيقّظك وحزمك وتحفّظك، وما مهّده معزّ الدولة أبو الحسين، أحسن الله حياطته عنده، من الاستقلال والغناء والاضطلاع والوفاء، يرى أن ينوط بك من سَنيّ الأعمال ما يستمتع فيه بكفايتك، ويستمرّ معه المخيّلة في دينك وأمانتك، ويفرع[2] بك من أعلى المراتب ما يضاهي رأيه في أمثالك، من أعيان دولته، وذوي التحقيق بدعوته، والاعتصام بحبله، جريًا من أمير المؤمنين على شاكلته في الارتياد لمواقع معروفه، وتخيّر من يؤهّله لتكريمه وتشريفه، حتَّى يلبس أنعامه من يستحقّ أن يكون التفضّل عليك، ويحمد مِنّته من يبيّن أثر التوفيق في الإحسان إليه، والله يتولّى لأمير المؤمنين الاختيار، ويمدّه بالصنع في مجاري الأقدار، وما توفيقه إلاّ بالله عليه يتوكّل وإليه ينيب.

وإنَّ أمير المؤمنين بنافذ عزيمته، وثاقب بصيرته، لا يهمل من الإصلاح صغيرًا ولا كبيرًا، ولا يضيع من الحزم قليلاً ولا كثيرًا، حتَّى يُنزل كلّ امرئ منزلته ويرتّبه رتبته، ولا يجاوز موضعه، ولا يفاوت موقعه، ومن أجلّ الأحوال عند أمير المؤمنين وأولاها بالاهتمام والتقديم، حال اختصّت أهل بيته بجلالها، وجمعت لهم إلى كرم الأحساب والأعراق، شرف الآداب والأخلاق، أحسن الله عون أمير المؤمنين على ما ينويه، ووفّقه فيما يُريه، وخار له فيما يدبرّه ويمضيه وينيره ويُسديه، خَيرة تجمع له الحظّ في العاجلة والآجلة، والنفع في الدنيا والآخرة. ولذلك ما رأى أمير المؤمنين أن يقلّدك النقابة على الطالبيين أجمعين من كان منهم بمدينة السلام، وفي غيرها من النواحي والأمصار، على رسم محمَّد بن الحسن العلوي، في تولّيها، ومن كان قبله ناظرًا فيها، ثقة بأنك تقع من النهوض بالأعباء، بحيث تحقّق ظنّ أمير المؤمنين فيك، وتُظهر من الكفاية والغناء، ما يكون لمزيدك من النعمة مقتضيًا، ولمضاعفة الإحسان إليك مُمتريًا، فتولَّ ما ولاّك أمير المؤمنين، مقدّمًا خِيفة الله ومراقبته، مستشعرًا تقواه وطاعته، وسلّط أمره على رأيك وهواك، واجعل دينه إمامك ومنحاك، واحسن الرعاية لمن استرعَيته، والقيام بما استكفيته. واعلم أنَّ أمير المؤمنين قد فضّلك على أهل بيتك طُرًّا، ورفعك فوقهم جمعًا، فجعلك واحدهم بعد أن كنت واحدًا منهم، واختصّك دونهم بعد مساواتك لهم، فسِر في تطبيقهم سيرته، واسلك في ترتيبهم طريقته،

---

(١) قال ابن الأثير، صاحب التاريخ، في حوادث سنة أربع وخمسين وثلمثائة «وفيها رابع جمادى الآخرة، تقلّد الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى والد الرضي والمرتضى، نقابة العلويين وإمارة الحاج وكتب له منشور من ديوان الخليفة».

(٢) يعلو.

حتَّى إذا عُمّمتهم بالكرامة التي توجبها أنسابهم وتقتضيها قرباهم، خصّصت أكابرهم بزيادة الإجلال والتوقير، وإذا شملتهم بالصيانة التي يؤثرها أمير المؤمنين، وتوجبها شرائط الدين، ميّزت أصاغرهم بفضل الحنوّ والعطف. وكن لأفعالك على الفريقين ممتحنًا، وفي أعمالهم متفرّسًا، فمن وجدته متوخّيًا من جميل الخلائق ومستقيم الطرائق، مذهبًا للشرف موافقًا، وبسجايا السلف لائقًا، فزده إحسانًا تكافيه به عن مَرْضيّ إيثاره[1]، وتدعو غيره إلى مشاركته في حميد اختياره، ومن ركب قبيحًا يعود على ديانته بجرح، وعلى أمانته بقدح، ما يستوجب حدًّا معلومًا ويستحقّ جزاءً محتومًا، فلا تعجل عليه بالعتاب، واستأنِ معاودته للصواب، ونبّهه بالذكرى النافعة للمؤمنين، واعطفه بالحسنى الناجعة في الصالحين، فإن رجع وتاب وأقلع وأناب، فأعِنه على الأوبة واقبل منه التوبة، وبوّئه منزل مثله، ممّن جهل ثمَّ علم، وأذنب ثمَّ ندم، وكن له كونك لصالحي أهله، وأجْرِه مجرى خيار قومه، ومن ضرب عن الادّكار[2] صفحًا، وطوى دون الإنذار كَشْحًا[3]، ولم يغن فيه التوقيف دون التثقيف، ولا التعليم دون التقويم، فحكِّم كتاب الله، جلّ اسمه، عليه، وأطع سُنّة نبيّه عليه السلام فيه، وقابله عن إساءته، مقابلة من لا يصرفه عن الحقّ الواجب، بقيًا ولا بقيّة، فإنَّ أمير المؤمنين وإن أوسع كافّة أهله عطفًا، ولم يألُ بهم رفقًا ولطفًا، لا يصل منهم من أوجب الدين قطيعته، ولا يرعى حقّ رحم لم يكن في ذات الله قربته. وليكن لك عليهم عيون من خيارهم، ينهون إليك ما انطوى عنك من أخبارهم، وأوصهم بحسن التأمّل لآثار الجماعة، وكفّهم عمّا تنكّر بالهيبة والطاعة، فإن انثنوا وارتدعوا، وانتهوا واتّزعوا، وإلاّ احتذيت ما مثّله أمير المؤمنين من جميع الفرق، ولم تتجاوز ما فصّله من غلظة وشفق، واجعل في خطابك إيّاهم ومحاورتك لهم، شعارًا من الإكرام، يبيّنون به عن جمهور العوام، ولا تقابل أحدًا منهم بسبب، ولا تَغضُض منه في ذكر أمّ ولا أب، فإنَّ أمير المؤمنين يصون سلفهم لأنه سلفه، ويحمي نسبهم لأنه نسبه، وقد نزّه الله أسرته عن هُجنة العيب، وباعد خاصّته عن مفارقة الريب. وإنّما جعلك أمير المؤمنين أمينه فيهم، وعينه عليهم، لما ضنّ بهم عن الزلل، وصانهم عن الغَيّ والخطل. ولتكن عنايتك إلى حماية المناسِب مصروفة وعلى حراستها موقوفة، فإنّها قربى النبوّة، ولُحمة الخلافة، والسبب المتّصل يوم تنقطع الأسباب. واثبت

---

(١) آثره إيثارًا: اختاره وفضّله.

(٢) الادكار والادّكار: التذكير؛ وجب التشديد لأنَّ الأصل فيها الاذدكار.

(٣) طوى كشحًا عنه: أعرض عنه وقاطعه.

الجماعة ممّن بحضرتك بأعيانهم وأسمائهم، واعزُهم[1] إلى أجدادهم وآبائهم، وليعمل بمثل ذلك أصحابك في الأطراف، وخلفاؤك في البلاد، حتَّى تأمن غلطًا منك تشكّ به في سليم، ولبسًا تركن به إلى سقيم. ثمَّ إن وجدت ممّن قد ادّعى نسبًا لا يثبت بالشهادة، ولا يعرف معرفة تزيل عنه التهمة، فقابله بغليظ العقوبة ليرتدع غيره من مثل دعواه، وأشهره شهرة يومن معها اشتباه كذبه ثانية، واحتط في أمر المناكح حتَّى لا تتّصل أيم[2] عن الجماعة إلى دنيء، ولا تقع إلاّ لكفوء وفيّ، فإن تظّلم إليك بعض رعيّة أمير المؤمنين، وشكا أحدًا من الطالبيين، فخذه بمساواة خصمه، وامنعه من الاستطالة عليه وهضمه، واعمل في أمرهما، بما كان من يتولّى هذه النقابة يعمله قبلك، سالكًا سبيلهم، غير متجاوز رسمهم، ليقع القضاء بينهم موقعه، ويصل ذو الحقّ إلى حقّه. وإذا أعلمك بعض حكّام المسلمين، توجّه حقّ من أحد تتولّى النقابة عليه، فانتزع ذلك الحقّ لصاحبه، وأوصله وافيًا إليه، وليكن من تختاره من خلفائك في البلاد ممّن تثق منه بجميل المذهب والسداد، وأوصهم واستَوص بما أمرك أمير المؤمنين، فإنّه منهج الرشاد، والسبيل المأمولة لتلافي الفساد، وإذا أُرْتج[3] دونك باب تعذّر انفتاحه، والتبس عليك أمر بَعُدَ إصلاحه، فأنْه إلى أمير المؤمنين ما أشكل، واستعنه على ما أعضل، يَدلك على الطريقة المثلى، ويقفك[4] عند المحجة الوسطى. واستَهدِ الله أولاً وآخرًا يَهدك، واستكْفِه باطنًا وظاهرًا يَكْفِك، واستمددِ منه العون يمددك، واشكر نعمه يَزِدك، إن شاء الله. وكُتب يوم الأربعاء لأربع ليال خَلَون من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

---

(١) عزا عَزوًا إلى فلان: نسبه إليه.

(٢) الأيِّم من النساء: التي لا زوج لها بِكرًا كانت أو ثَيِّبًا.

(٣) أُرتج: أُقفل (على المجهول) وأُغلق.

(٤) وقف وأوقف، سواء.

وكتب بتقليد الحجّ، عن المطيع لله، رحمه الله

أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين برعايته الحرمات، ومحافظته على الموات[1]، وإيجابه حقّ من تأكّدت له العصمة، وارتُضيت منه الخدمة، وعُرفت في الطاعة آثاره، وتُليت في الموالاة أخباره، يعتقد ربّ صنيعته عندك، ومضاعفة نعمته لديك، والإنافة[2] بك، على أعلى رتب ذوي الأسباب الواشِجة[3]، والأنساب الشابكة، ولا سيّما قد جمعت إلى القربى، اضطلاعًا بالأعباء، وإلى الموالاة قيامًا بحقّ الاستخدام والاستكفاء. فلن يعدم أمير المؤمنين فيما يَكِله إليك ويعتمد فيه عليك، رعاية الحقّ، وصلة الرحم، وصواب التدبير، وصلاح المهمّ، والله يحسن لأمير المؤمنين الاختيار، ويمدّه بالتوفيق في مجاري الأقدار. ولما قلّدك أمير المؤمنين النقابة على الطالبيين، فبان له فيها محمود سيرتك، وظهر من أفعالك ما يدلّ على سلامة سريرتك[4]، رأى أمير المؤمنين أنَّ من حقّ العادة التي عوّده الله فيها الصلاح، وأجرى له فيها طائر النجاح، أن يزيدك فضلاً وإحسانًا، ولا يألوك[5] إنعامًا وامتنانًا، ويستأنف بك من إعلاء الدرجة ورفع المرتبة، ما يحمده رأيك به في الخدمة والاجتهاد، ويستمرّ معك على طريقك في الاستقامة والسداد، فأنهى معزّ الدولة أبو الحسين، أحسن الله حياطته، أمر رفاق الحَجيج[6] الشاخصة من العراقَين، وإيثار تقليد تسييرها إلى الحرمَين، والاعتماد عليك في حمايتها، وتولّيك الحرب والأحداث فيها. فوافق رأي معزّ الدولة أبي الحسين، تولّى الله كفايته الصواب، ووقع عند أمير المؤمنين موقع القبول والإيجاب، فاستخار الله وأمضاه استخارة لاجئ إليه، ومعوّل في سِرّه وجهره عليه، وقلّدك أمر رفاق الحجيج الشاخصة من مدينة السلام والبصرة والكوفة، واثقًا منك بما ترجع إليه من صحّة الدين، وثابت اليقين، وحسن الاستقلال، واستخفاف الأثقال. فتولَّ ما ولاّك أمير المؤمنين بصدر منشرح، وأمل فيه منفسح، وهمّة ماضية، وقم فيه قيام مِثلك، وتجرّد له تجرّد من حلّ الغناء بمحلّك، وحط الحاجّ حياطة تامّة، وذُذ عنهم ذيادة عامّة، ورفههم في المسير رفاهية معتدلة، وارمِ عنهم جميعًا مراماة متّصلة، وسوِّ في ذلك بين قويهم وضعيفهم، وشريفهم ومشروفهم؛ فإنّهم لله

(١) بتشديد التاء: الوسائل، من متّ إليه بحرمة أو قرابة يقال بينهما رَحِم ماتّة.

(٢) الإنافة: الإشراف والارتفاع، من (ناف): ارتفع وطال وأشرف.

(٣) الواشجة: القرابة المتّصلة.

(٤) السريرة: النيّة. وما يُسّره الإنسان من أمره.

(٥) يألو: يقصِّر ويبطئ.

(٦) الحجيج، مفردها (حاجّ) وحجّ (لغة): قصد، و(تنزيلاً) قام بالفريضة وزار البيت.

متاجرون، وفي طلب ثوابه مسافرون، وإلى بيته الحرام سائرون، ولقبر نبيّه عليه السلام زائرون، يتجشّمون الشقة[1]، ويكابدون شدّة المشقّة، ابتغاء للثواب والحظوة في المآب، فمعاونتهم واجبة، ومعاضدتهم مفترضة، لازمة، حتَّى تشملهم السلامة في الأجسام والأحوال، والأمنة[2] في الحلّ والترحال، بادِين وراجعين، ومقيمين ومنصرفين، بعد أن يقضوا تفثهم[3]، ويوفوا نذورهم، ويؤدّوا مناسكهم، ورضى الله مولاهم، ومالكهم وأمنعهم، مع ذلك من الازدحام، ورتّب قوافلهم على النظام، وأوردهم المناهل، واحظر عليهم فيها التجاذب، واصدر بهم بعد الاكتفاء، وعند تكافيهم قاطبة في الارتواء، وسيّر في أوائل القوافل من يصدّ عن التسرّع، وفي حواشيها من يحجز عن مفارقة المنهج. وليكن مسيرك على الساقة[4] لئلاّ ينقطع منقطع عن الجماعة، واكتب إلى أمير المؤمنين، من كلّ منزل تنزله، بما يهيّئه الله بك ويسهّله، من استتباب ما كلّفك إيّاه، واطراده على ما يؤْثِره ويهواه، ليعرف حقيقة اجتهادك، ويكون من وراء زيادتك وإمدادك، إن شاء الله.

(١) الشقة: المسافة التي يشقّها السائر والمسافر.

(٢) الأمنة: الأمن.

(٣) التفَث: ما يفعله المحرّم إذا حلّ من نحو قصّ الأظفار ونتف الشعر ونحر البدن، وفي التزيّل العزيز ﴿ثمَّ ليقضوا تَفَثَهم وليوفوا نذورهم﴾ [جزء من الآية ٢٩ من سورة الحجّ].

(٤) الساقة: مؤخَّرة الموكب، وهي نقيض المقدّمة.

وعُرضت عليه كتب كُتبت عن المتّقي لله[1] عند إفضاء الخلافة إليه، قليلة المعنى، كثيرة الحَشو واللغو، وسُئل أن يكتب في مثل ذلك، فكتب في الوقت، على شبيه الارتجال

أمّا بعد، فإنّ الله جعل لكلّ أجل كتابًا، ولكلّ مدّة انقضاء، ومن كلّ هالك خلفًا وعن فائت عوضًا، وسوّى بين البريّة في ورود حوض المنية، وحملهم فيها على عدل الحكومة والقضيّة، فقال وقوله الحقّ: ﴿كلّ نفس ذائقة الموت وإنّما توفون أجوركم يوم القيامة﴾[2]. ذلك للمصلحة المنطوية في أثنائه، والمنفعة المستسرّة من ورائه، فلينظر كلّ أحد منكم لنفسه، وليعلم أنه مستثمر ما أنبت في غرسه، وأنه على شفير رحلة وأوفاز[3]، وفي دار نقلة ومجاز. ولو كان لأحد من المخلوقين أن يجد عن ذلك مُعرَّجًا أو ينتهج إلى الخلود منهجًا، لآثر الله أولاهم بأثرته، وأحقّهم بمزيّته، رسوله المصطفى، وأمينه المُرتضى، محمَّدًا صلّى عليه وسلّم، وشرَّف خطره وعظَّم، لكنّه عزّ وجلّ اختار له الأَعْوَد[4]، وسلك به المسلك الأَقْصَد، وجعل لنا فيه أُسوة، وبه أفضل القدوة، فقال: ﴿إنّك ميّت وإنّهم ميّتون﴾[5]. فالحمد لله الذي لا ينبغي البقاء إلاّ له، ولا يمتنع الفناء إلاّ منه، الذي أحسن إذ برّأنا، وأحسن إذ تَوفّانا، وصنع لنا بما أقرّ وارْتَجع، وخار لنا فيما أعطى وانتزع، ونصب لنا معالم الهداية المقرّبة من أطاعه إلى دار القرار، ومُتبوّأ الأبرار، وجنّبنا مجاهل الغِواية، السائقة من عصاه إلى جحيم النار، وحصير الكفّار[6]. وإنّ أمير المؤمنين فلانًا، رحمة الله، عليه كان عبدًا استخلصه للخلافة، واختصّه بالأمانة، وحمل ثقيل أعبائهما وأهّله لرفيع سنائهما، فأطاع الله في سِرّه وجهره، وأدّى الأمانة في قوله وفعله، وحمل الأمّة على فرائض كتابه الواضح برهانه، وسُنّة رسوله

---

(١) سنة تسع وعشرين وثلثمائة، توفي الراضي بالله أبو العبّاس أحمد بن المقتدر، وكانت خلافته ستّ سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وهو من أفاضل الخلفاء، ومن أدباء وقته، وله شعر رقيق، فمن نظمه على سبيل الاستشهاد:

يصفرّ وجهي إذا تأمّله ... طَرْفي ويحمرّ وجهه خجلا
حتّى كأن الذي بوَجنته ... من دم جسمي إليه قد نقلا

ويقال إنّه ختم الخلفاء في عدّة أمور، فمنها، أنه آخر خليفة له شعر يُدوَّن وآخر خليفة خطب كثيرًا على منبر وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل إليه الندماء، وآخر خليفة كانت له نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه وأموره، على طراز الخلفاء المتقدّمين. وعند وفاته اجتمع الوزراء وأصحاب الدواوين والقضاة والعلوية والعبّاسية، وبايعوا ابراهيم بن المقتدر، ولقّب بالمتّقي لله، وذلك في العشرين من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة، واستمرّت خلافة المتّقي ثلاث سنين وخمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، وخلفه أبو القاسم عبد الله بن المكتفي ولقّب بالمستكفي.

(٢) من الآية: ١٨٥، من سورة آل عمران.

(٣) يقال فلان على أوفاز أي على سفر، وفي حديث عن علي كرّم الله وجهه، كونوا منها على أوفاز.

(٤) الأعْوَد: الأكثر عائدة ونفعًا.

(٥) الآية: ٣٠، من سورة الزمر.

(٦) حصير الكفّار: طريقهم؛ وبئس الضيق. الحصير: الحبس، قال الله تعالى ﴿وجعلنا جهنّم للكافرين حصيرًا﴾ [من الآية ٨ من سورة الإسراء].

الراجح ميزانه، لا يألوهم في ذَبّ عدوّهم، وصون حريمهم، واجتلاب حظّهم، وحماية سربهم، وإعذاب شربهم، وكفّ ظالمهم، وإنصاف متظلّمهم، وتقويم جائرهم، وتعديل مائلهم. ثمَّ صار إلى ربّه مصير آبائه الطاهرين، ولحق بهم، صلوات الله عليهم أجمعين، بعد أن قضى ما عليه، وقدّم خير الزاد بين يديه، واستحقّ رحمة ربّ العالمين، والثناء الطيّب من المسلمين، وقد قام أمير المؤمنين بالأمر قيامه، وسدّ مكانه، وأقرّ الله الأمانة به في نصابها، وأضافها منه إلى كُفْئها، فنهض مضطلعًا، وحمّل مستقلاً، وقال سَدَدًا[1]، وفعل رَشَدًا، وأصلح جاهدًا، وأحسن رافدًا، وسكنت بسياسته الدهماء[2]، وشملت على يده النعماء، ولذّ الهجوع، واطمأنّت الضلوع، وعمّ الأمن، وانجبر الوهن، وانتظم الشمل، واستحصف الحبل[3]. واجتمع من بحضرته من أهل بيته وقوّاده، ومواليه وغلمانه، وجنده وشاكريّته، على متابعته، واعطوا صفقة إيمانهم بمشايعته، عن صدور نقيّة منشرحة، وآمال مُنبسطة مُنفسحة، قد أيمن الله طائرهم وأسعد طالعهم، وقضى بالخير لهم وجمع على الإلفة كلمتهم، فما اكتأبوا للمنعيّ إليهم، حتَّى اغتبطوا بالمستخلف عليهم، ولا أجهش باكيهم عند الرزيّة[4]، حتَّى استهلّ ضاحكًا للعطيّة. فللّه على ذلك شكر خالص يبلغ الحقّ ويقضيه، ويمتري المزيد ويقتضيه، وأمير المؤمنين، يرى أنك أحقّ من ضرب في أيامه بسهمه، وأخذ منها بوافر نصيبه وقسمه، فأجاب الداعي إلى بيعته، والمهيب إلى طاعته، ناظرًا لدينه ودنياه، ومصلحًا لأُولاه وأُخراه؛ وهو يأمرك أن تأخذ البيعة على نفسك، وجميع أوليائه المقيمين قبلك، ليكونوا لاحقين فيها بنُظرائهم، وجارين مجرى قُرنائهم، ويعدكم بإدرار العطاء، وإسباغ[5] الحباء[6]، وإقرار كلّ منكم بالمنزلة التي هو بها، ثمَّ الإيفاء عليها إذا استحقّ التجاوز عليها، فاعمل على المحدود من ذلك لك مبادرًا، واصمد له مثابرًا، وانهض إليه مُهطعًا، وقم به مسرعًا، واقرأ هذا الكتاب على من يليك من أولياء المؤمنين، وأماثل المسلمين، ثمَّ مُرْ به أن يُقرأ على منابر جوامعهم، ومحتشد ومحفل عوامهم، ليشتركوا في عمله ويتلاحقوا في فهمه، ويستشعروا العزاء عن إمامهم الماضي، والاغتباط بقائمهم الوالي. واكتب إلى أمير المؤمنين، بما يكون منك في إحكام ذلك وإبرامه، والانتهاء إلى غاية استكماله وإتمامه، إن شاء الله.

---

(١) السدد: مقصور من السداد.

(٢) جماعة الناس قال:

فقدناك فقدان الربيع ولَيتنا ... فديناك من دَهمائنا بألوف

(٣) استحصف الحبل: شدَّ فتله.

(٤) الرزيّة: المصاب الشديد.

(٥) أسبغ، تقول أسبغ النعمة أي أتمّها.

(٦) الحباء (على غير القياس): العطاء.

نسخة كتاب، أنشأه عن الطائع لله، إلى ولاة الأطراف وسائر النواحي، عند عوده إلى داره، وزوال الوحشة بينه وبين الأمراء، وقد بنيت المخاطبة فيه على ما يُسقط اللائمة عن الفريقين، ويوجبها على المماليك العُصاة خاصّة، وذلك في رجب سنة أربع وستّين وثلثمائة[1]

أمّا بعد، فالحمد لله ناظم الشمل بعد شتاته، وواصل الحبل بعد بتاته، وجابر الوهَن إذا انثلم، وكاشف الخطب إذا أظلم، القاضي للمسلمين بما يضمّ نشرهم، ويشدّ أزرهم، ويحفظ الإلفة عليهم، وإن شابت ذلك في الأحيان شوائب من الحدَثان، فلن يتجاوز بهم الحدّ الذي يوقظ غافلهم ويُنبّه ذاهلهم، ثمَّ إنّهم عائدون إلى أفضل ما أولاهم وعوّدهم، ووثق لهم ووعدهم، من ائتمان سربهم[2]، وأعذاب شربهم، وإعزاز جانبهم، وإذلال مُجانبهم، وإظهار دينهم على الدين كلّه ولو كَرِه المشركون. وإذا شاء جلّ ذكره أن يمتحن عباده بتلك الشوائب، ويبلوهم ببعض النوائب، أجراها على أيدي الأشقياء، الذين تبت أيديهم، وضلّت مساعيهم، وكشفها بأيدي الأنقياء الذين نقيت جيوبهم، وسلمت عيوبهم، لتكون الفتنة التي جرّها أولئك نقمة عليهم، يُصْلَون بحرّها وشرّها، ويلقون في مغبّتها ما أعدّ الله للناكثين الخالعين، وتمحيصًا عن هؤلاء ينتفعون بتهذيبه وتأديبه، وتنجلي لهم عواقبه عن ثواب الصابرين المحتسبين، فلا يخلو، جلّ ثناؤه، من حكومة عدل ينزلها مع الإنعام والانتقام، ومن استحقاق شكر على منافع يظهرها ويسرّها للأنام[3]. وصلّى الله على أتمّ بريّته خيرًا وفضلاً، وأطيبهم فرعًا وأصلاً، وأكرمهم عُودًا ونِجارًا، وأعلاهم منصبًا وفخارًا، محمَّد رسوله المصطفى وأمينه المرتضى، وعلى آله الطيّبين الأخيار، الفاضلين الأبرار، الذين أذهب عنهم الرجس وطهّرهم عن الأدناس، وجعل مودّتهم فرضًا على الناس، وسلّم تسليمًا باديًا عائدًا غاديًا رائحًا، لا يقف عند غاية إلاّ تجاوزها وتعدّاها، وأوفى عليها وتخطّاها، إلى أن يكون لربّ العالمين مرضيًا، وللمادّة من رحمته مقتضيًا. والحمد لله الذي آثر أمير المؤمنين بالخلافة، واختصّه بالإمامة، واستخرجه من سرّ العنصر الكريم، واستخلصه من معدن الشرف الصميم، وحاز له مواريث آبائه الراشدين، صلوات الله عليهم أجمعين، الذائدين عن حوزته، القائمين بحجّته، العامرين لبلاده، الراعين لعباده، الآمرين بما أمر،

(١) هي الكائنة، التي أشار إليها الكتاب الأول من هذا المجموع.

(٢) في الحديث، من أصبح آمنًا في سِربه، قيل هي بكسر السين أي في نفسه لأنَّ السرب بالكسر النفس، وقيل بفتح السين أي مذهبه ووجهه، وقيل بل بالكسر، لكن معنى أنه آمن في أهله وماله ونعمه لأنَّ السرب ما للرجل من أهل ومال، ومنه سمّي قطيع الظباء والقطا والنساء سربًا.

(٣) الأنام: الخَلق.

الناهين عمّا حظر، ونصبهم علمًا يهتدي به المهتدون، ومُقتفى يقتدي به المقتدون، ودليلاً من اتّبعه فاز وغنم، ومن عدل عنه ضلّ وندم، وإليه، جلّ ثناؤه، رغبته في توفيقه للوفاء بعقوده، والوقوف على حدوده، والانتهاء في لمّ الشعث، ورأب الثأي، وسدّ الخلل، وتعديل الميل، إلى حيث يدنيه من رضاه، ويقرّبه من زلفاه، ويسعده في دينه ودنياه، وأولاه وآخراه. والحمد لله الذي أيّد أمير المؤمنين بالأولياء الميامين، الذابّين عن الدين، ركن الدولة أبي علي، وعضد الدولة أبي شجاع، أدامْ الله بهما الإمتاع، وعنهما الدفاع، ومن لِتلوهما من أسرتهما المطيعة لربّها، الناصحة لإمامها، المؤدّية للمفترض عليها، الناهضة بالحقّ اللازم لها، التي لم تزل عن الدولة محاماتها، وعن الحوزة مُراماتها، وللطاعة سعيها، وعلى المشايعة نشؤها، فما يعاديهم مُعادٍ إلاّ كان عدوًّا لله، ولأمير المؤمنين، مستحقًّا للعنته ولعنة اللاعنين، ولا يواليهم مُوال إلاّ كان في ذمام أمير المؤمنين داخلاً، وتحت عصمته حاصلاً، وللأَثَرة عنده حائزًا. والله يبارك لأمير المؤمنين فيهم، ويحفظ عليه الذخيرة منهم، ويمتعه بضروب نعمه، وصُنوف آلائه، التي من أحسنها موقعًا وأبيَنها أثرًا، إطاقة هؤلاء الكُفاة الولاة، وحملهم الأعباء عنه، واستقلالهم دونه، بالملمّ إذا أعضل، والصعب إذا أشكل، بقدرته.

وقد عرفت حال الطائفة من غلمانهم الناشزة عليهم ببغداد، وأنَّ العادة منهم كانت زائغة عن السداد، ومُنكَّبة عن الصواب والرشاد، وأنَّ تلك الحالة أدّتهم إلى التمادي في غارات شنّوها، وفتن شبّوها، وهنوات ارتكبوها، وآثار احتقبوها[1]، حتَّى كشف الله على يد عضد الدولة أبي شجاع، رعاه الله، تلك الغيابات، وأنقذ به من تلك النكايات، وحرس عليه فخر الأثر فيها، وأحرز له حسن المقام في تلافيها، بزنده الواري[2]، وجدّه العالي، وطائره الأيمن وطالعه الأسعد، ومناقبه التي يوجب أمير المؤمنين تقديم القَدَم ببعضها. فكيف بمن اشتمل على جميعها، ولم يَفُتهُ شيء منها، فأحسن الله جزاءه من مجتهد مُصلح، وساعٍ في الخير مُنجح، فلقد نعش الأمر بعد إشفائه[3]، وتداركه الله في آخر ذَمائه[4]، وأقرّه في حقيقة نِصابه، وأعلاه بعد تولّيه وذهابه، واستحقّ على أمير المؤمنين خصوصًا، وعلى أهل الملّة والذمّة عمومًا، أن يعرفوا حقّه، وينشروا فضله، ويغتبطوا بالموهبة فيه وعنده. وكان من

(١) أصل الاحتقاب: شدّ شيء في موخر الرحل أو القَتَب، ويطلق على الاحتمال فيقال احتقب فلان الإثم، كأنه جمعه وشدّه من خلفه.

(٢) زَنْده الواري، الزند: العود الأعلى الذي يُقتدح به النار، (ماسورة المسدّس) بلغة العصر. وورت النار: اتّقدت، (وهي عمليّة إطلاق النار في لغة العصر)، غير أنه أراد بها الكناية، فالعرب تقول: (فلان واري الزند) أي ناجح مفلح.

(٣) نَعَش كأنعش، والإشفاء: إشراف على الهلاك.

(٤) الذماء: بقيّة الحياة أو بقيّة الروح في المذبوح، وحركته عند الموت.

أعظم ما أقدم عليه أولئك العبيد، المضرّون بالملّة، الصادّون عن سبيل الله، أن اتّبعوا المطيع لله، صلوات الله عليه، عند ابتداء الفتنة، وقد برز عن قصره، هاربًا إلى مقرّ نصره، ومجتمع أوليائه وعبيده، وأعوانه وجنوده، فردّوه وقسروه، وحبسوه وحصروه، وعلموا منه، رحمة الله عليه، الإباء لهم، والإنكار لفعلهم، والازورار عنهم، والبراءة منهم، فنالوه بالهضيمة، واستحلّوا فيه العظيمة، جاهلين ما افترض الله له على كلّ مسلم مؤمن، ومستبصر في دينه موقِن، ولا سيّما مع علوّ سِنّه وتأثّل أمره، وما عرّف الله من بَركَة إمامته، وأبان من يُمن ولايته، وأنه كنف الأمّة، مكين سنة، يكلؤهم فيها وهم وادعون، ويستيقظ وهم هاجعون، ويدأب وهم قارّون، ويتحفّظ وهم غارّون، ولا يألو جهدًا في تسكين دهمائهم، وجمع أهوائهم، واجتلاب الحظوظ لهم، ودفع الخطوب عنهم. فلو لم تكن هذه حاله في وجوب حقّ الأئمّة، وانعقاد أمر الملّة به، وأنه السائس الراعي، الخليفة الوالي، بل كان رجلاً من أفناء[1] المؤمنين، قد أوجب الدين إعزازه، وحظّر ابتزازه، واقتضت الكبرة أن يُبرّ ويُعان، والشيبة أن يُوقر ويُصان، لكأنّ الذي ارتكبوه منه خلافًا على الله، ذي الجلال والإكرام، وعلى رسوله عليه الصلاة والسلام، وداعيًا إلى أن تبرأ منهم الذمّة، وتحلّ بهم النقمة، ويجاهدوا جهاد من خلَع الطاعة، وفارق الجماعة، وارتكب الشنعة، وابتدع البدعة. ولمّا رأى هؤلاء العبيد الأُبّاق، الفُجّار الفُسّاق، أنهم قد أوحشوه واستوحشوا منه، وقبضوه وانقبضوا عنه، وأنهم شِرذمة قد توافت جيوش الإسلام إليها، وأطلّت عليها، وآذنتها بنوازل الحُتوف[2]، وقوارع المَخُوف، فاتّفقت على فضّ جموعها، والغضب لله في سوء صنيعها، وأنها من هذه الحال بعرض التشتيت والتشريد، وعلى شفا التطويح والتطريد، وأنه، رحمة الله عليه، لا يستقلّ بالنهضة إن طالبوه بها، ولا بالهزيمة إن عرّضوه لها. أكرهوه على أن خلَع نفسه، واضطرّوا أمير المؤمنين، إلى الانتصاب بموضعه، وكان كلّ واحد منهما نازلاً تحت إرادتهم، وذاهبًا مع مشيئتهم، وخائفًا أن يجرّ عليه الالتواء إن اَلتوى، ما لا يُستدرك ولا يُتلافى. وعمل أمير المؤمنين على بذل الحُشاشة في دفع العظيم، والذبّ عن الحريم، واستنقاذ الوالد الكريم، وأن يسلك مع هؤلاء الطغاة البغاة، مسلك المستميل لهم، المظهر لمعتقده فيهم، المُراعي لفرصة التميّز عنهم، والتحيّز دونهم، والتروّع[3] إلى أولياء دولته، وأغذياء نعمته، فعانى منهم شدّة متعبة، من إحراق المنازل والمحال، ونَهْب الذخائر والأموال، وإباحة كلّ

(١) أي، على فَرض أنه كان من أخلاط المؤمنين.

(٢) الحُتوف، مفردها (الحَتف) أي المنيّة.

(٣) الفزع.

محظور حرام، وإهراج[١] الرعاع[٢] والعوام، وسفك الدماء التي أمر الله بحقنها، وجعل الخلود في جهنّم لمن أراقها، وهو في خلال ذلك يثنيهم بالرفق، ويصدّهم عن الخرق، ويردّهم في بعض أفعالهم إلى الرضى، اجترارًا[٣] لهم إلى الطاعة، وفي بعض الكراهية تطريقًا إلى الكفّ والمراجعة، حتّى انتهى إلى أن ساعدهم[٤] على ما سألوه إيّاه من خروجه، وإخراج المطيع لله، رحمة الله عليه، معه لمحاربة مواليهم وملاّك نواصيهم، ومن يليهم من أولياء أمير المؤمنين، وخيار أفاضل المسلمين، الذين لا تصحّ الإمامة لمن اتّخذوه حربًا، وصاروا دونه حزبًا، لكنّها إنّما تخلص من الأسباب المعلّة لها، والعوارض القادحة فيها، بدخولهم في البَيعة، وانقياد من وراءهم من الكافّة. فصارت تلك الحركة التي جُشّمها المطيع لله، صلوات الله عليه، داعية إلى العلّة التي نالته، وترامت به إلى انقضاء نَحْبه[٥]، والانتقال إلى جوار ربّه، لأنّ قوّته قصّرت عن حملها، وقُدرته عجزت عن ثِقلها، فانصاف الوِزْر[٦] الحادث به إلى أوزارهم، وزاد في سيّء أفعالهم، ونيّة أمير المؤمنين مع ذلك، في إعلان ما يُعلَن من موافقتهم، وإبطان ما يُبطَن من مفارقتهم، نيّة شهد الله بصفائها، واطّلع على نقائها، وسمع منه دعاء، لا يزال يرفعه في أعقاب الصلوات، وأوقات المناجاة، بأن يُتعس جدودهم، ويُضرع خدودهم، ويحسم عن الدين والدنيا معرّتهم[٧]، ويكفّ عاديتهم ومضرّتهم. وحقيق على الله أن يفعل ذلك بهم وقد خالفوا فرائضه، وعطّلوا سُننه، وبدّلوا أوامره، ونقضوا أحكامه، وحصلوا بين إمام يلقى الله بالظلامة منهم، وانتصاب إمام بعده يعصب اللعنة بهم، وسخط موال تربّوا في عَرَصات[٨] دُورهم، وارتضعوا دُرّة نعمائهم، فجازوهم بالمحاربة، وأبدوا لهم صفحة المجاذبة، وجهلوا الحقّ الذي يلزمهم أن يعرفوه لهم ويحفظوه فيهم. ولمّا نزلت بهم النوازل، وهبلتهم الهوابل[٩]، وأظلّهم البوار، واستمرّ بهم العِثار، وغشيَتْهم جيوش أمير المؤمنين، المنوطة بحامي البَيضة وراعي الحَوزة، عضد الدولة رعاه

---

(١) هرج الناس: وقعوا في فتنة واختلاط وقتل. والإهراج (قياس نادر) ويعني ذلك أيضًا.

(٢) الرعاع: سفلة الناس.

(٣) الاجترار، (افتعال) من جرّ الناس يجرّهم جرًّا واجترارًا (لتوكيد المبالغة).

(٤) من لفظ ساعدهم، هنا معنى السماح كما في لغة الأتراك.

(٥) انقضاء نحبه (كناية) عن موته.

(٦) الوِزر: الإثم.

(٧) المعرّة: المساءة والأذى، والأمر القبيح.

(٨) العَرَصات، مفردها (العَرصة): ساحة الدار.

(٩) هبلتهم الهوابل: ثكلتهم أمّهاتهم، من هَبِلته أمّه، أي: ثَكِلته والمعنى أصابته المصائب.

الله، ففرّقهم فرقًا، وأطارهم شِققًا، وقسّمهم شَعاعًا وأيدي سبا[1]، وأنجز فيهم مواعيد الله، وأذاقهم سوء عاقبة ظنونهم الكاذبة، وقتل منهم من أذن الله في تعجيله، وهزم من أملى الله له غاية تأجيله، حالوا بين أمير المؤمنين، وبين اختياره في الانقطاع عنهم، والإقامة بعدهم. فسار إلى تكريت مسيرًا ظاهره ظاهر انحياز وحذر، وباطنه باطن غنيمة وظفر، إلى أن أجاب الله دعاءه، وحقّق رجاءه، وجعل الفئة التي إليها انصبابه، وعليها اعتماده، وإن كان نازحًا عنها، هي الظاهرة على الفئة التي لها اجتنابه، وعنها انحرافه، وإن كان حاصلاً فيها[2]، ولم يزل يُعمل الحيلة في المفارقة لهم، والخلاص منهم، إلى أن يسّر الله ذلك وأعانه عليهم، بما أوقعه بين أولئك المفلولين من اختلاف الأهواء، واختلال الآراء، وانتكاث العزيمة، والتياث الصريمة[3]. فتمزّقوا في البلاد كما تمزّق الريح رجل[4] جراد، ولاذ الأكثر منهم بمواليهم، وألجأتهم الفاقة إليهم، على غير عهد ولا أمان، ولا عقد ولا ضمان، بل على حكمهم فيهم، فإن نفذ بالعقوبة فبالحقّ الواجب نفاذه، أو عدل إلى الإقالة فبالحلم الراجح عُدوله. وذلّل الله حينئذٍ لأمير المؤمنين صعبتهم، وحطّم صُعدتهم[5]، وأقدره على أن يباديهم بالمباينة التي كان يخفيها، ويستعمل معهم التقية بما ينافيها، فانثنى إلى مدينة السلم، سالمًا في نفسه وخاصّته، محروسًا في أسبابه وحاشيته، مجموعًا بينه ومن ناصَحه وليّه، وأمينه وصفيّه، عضد الدولة، أحسن الله به الإمتاع، وحرس عليه الموهبة فيه، ومَن معه مِن مواليه، وعبيده ونُصّاره وجنوده، قد أُعفِيت ظهور ركابهم، وآبت البركة بإيابهم، وأصبح بهم الأمن شاملاً، والعدل فائضًا، والخلل مسدودًا، والفتق مَرتوقًا، وكتاب أمير المؤمنين هذا، وأعداء الدولة وزعماء الفتنة بين قتيل مرمّل[6]، وأسير مكبّل، وهارب مقلول[7]، ومستأمَن مقبول، قد نزعوا سرابيل الاستكبار، وادّرعوا جلابيب الصغار[8]، وأيقنوا أنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين ولا يصلح عمل المفسدين. فالحمد لله ناصر أولياء أمير المؤمنين

---

(١) شعاعًا وأيدي سبا بمعنى واحد: التفرّق والشتات.

(٢) روى ابن الأثير في تاريخه، أنَّ المماليك كانوا أخذوا الخليفة معهم كارهًا، طِبق ما يدّعيه هذا الكتاب.

(٣) الالتياث: الاختلاط. والعزيمة والصريمة واحد.

(٤) الجراد الكثير، أو القطعة العظيمة من الجراد، والجمع أرجال، وهو من الجموع التي جاءت على غير لفظ الواحد، كقولهم صُوار لجماعة البقر، وخَيْط لجماعة النعام، وعانة لجماعة الحُمُر.

(٥) الصعْدة: القناة التي تنبت مستقيمة، لا تحتاج إلى تثقيف، والجمع صِعاد.

(٦) ملطّخ بالدم، ورُوي من قول أبي أخزم الطائي:

إنَّ بنيَّ رمّلوني بالـدمِ ... شِنْشِنَة أعرفُها من أَخْزَمِ

(٧) المقلول: المنهزم.

(٨) نزعوا سرابيل الاستكبار، وادّرعوا جلابيب الصغار: أي أنهم ذلّوا بعد استكبار، والجلابيب والسرابيل من (الثياب) أوجبت الكناية استعمالها على هذا المعنى.

ومُديلهم، وخاذل أعدائه ومذيلهم[1]، ومُحِلّ القارعة، بكلّ من كان عنه منحرفًا، وعلى نفسه مسرفًا، وعن سُبُله صادفًا، وعن أمره مخالفًا، وأمير المؤمنين يسأله مجتهدًا، ويرغب إليه مبتهلاً، أن يُوزِعه[2] شكر ما أنعم به عليه، ويُعينه على الاستقلال بما وكّله إليه، ويجعل الملّة التي ألمّت به وبالمسلمين، ثمَّ تجلّت عنه وعنهم أجمعين، آخر النوائب ومنتهاها، وتاريخها وانقضاها، ويتولاّه في نفسه وفيهم، بمستأنف نعمة تجبر ثَلمها، وتأسو كَلْمها[3]، وتُعفي أثرها[4]، وتُنسي ذكرها، ويوفّر قسطك، وأقساط الصالحين معك، من هذا الدعاء الذي يعمّ به أمير المؤمنين الأمّة، ويستنزل بالإخلاص فيه الرحمة، إنّه على ذلك قدير وبه جدير، وقد كانت الشبهة دخلت على كثير من الرعايا الديّانين، لحصول أمير المؤمنين، كان[5] مع تلك الطائفة الباغية، التي يبرأ منها بقوله وفعله، ويلعنها في سرّه وجهره، وظهور ما ظهر منهم من المناكير، التي نستعيذ بالله من الرضا بها، والميل إلى مَن فارقها، وارتكبها من الأحوال التي لا حاجة بنا إلى شرحها، مع قُرب العهد بها. ولمّا انكشف اللبس ووضح الحقّ، انقادت الخاصّة والعامّة إلى طاعته، وأعطت صفقة إيمانها بمبايعته، وبرَد اليقين منها في صحّة دعوته، وثبوت حجّته، ودخل الناس أفواجًا في التسليم له والصلاة خلفه، ولم يبقَ شاكّ إلاّ استيقن، ولا مُعتاص[6] إلاّ أذعن[7]، ولا مُخالف إلاّ أطاع، ولا متوقّف إلاّ انقاد، وأمير المؤمنين يأمرك بأخذ البَيعة على نفسك، وعلى جملة الأولياء قبلك، بصدور منكم منشرحة، وآمال منفسحة، وقلوب موافقة، وآراء متطابقة، وأن تشهرها وتظهرها، ليتلاحق في معرفتها الوجوه والإتباع، ويستوي في العلم بها الخواص والعوام، فتكون الجماعة على ثقة من كفالة أمير المؤمنين لها، وذبّه عنها، ونَظْمه أمورها، وسدّه ثُغورها، ومحاماته عنها، ومُراماته دونها. فافعل ذلك بالغًا أقصى مبالغ الرشد المصيب، والعارف اللبيب، وأنّه إلى أمير المؤمنين، ما تأتيه فيه، فإنّه يتطلّعه ويُراعيه، إن شاء الله.

---

(١) الإذالة: الإهانة، وفي الحديث، نهى النبيّ (ﷺ) عن إذالة الخيل، وهو امتهانها بالعمل والحمل عليها.

(٢) يوزعه: يُلهمه.

(٣) الكَلْم: الجرح.

(٤) تُعفي الأثر: تمحوه وتزيله.

(٥) كان، زائدة، هنا.

(٦) كلّ من عصى فهو عاصٍ، وعصيّ، ومعتاص (للمبالغة) وهي من عصى عصيانًا.

(٧) أذعن: انقاد وخضع.

وكتب عن المطيع لله، إلى عضد الدولة أبي شجاع باللقب[1]

أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين إذا صنع صنيعًا راعاه، وإذا غرس غرسًا أنماه، وإذا أولى نعمة أسبغها، وإذا أسدى عارفة تمّمها، ولا سيّما في أعيان دولته، وأنصار دعوته، الذين أنت، بحمد الله ومَنّه، غرّة فيهم، وصفوة عنهم، بمشهور استقلالك ووفائك، ومأثور كفايتك وغنائك، وتأدّبك بآداب ركن الدولة أبي علي، ومعزّها أبي الحسين، تولّى الله كفايتهما، وتخلّقك بأخلاقهما الحميدة، واستمرارك على طرائقهما الرشيدة، التي أوضح الله سدادها، وأنار منهاجها، وعرّف يُمنها، وعوّد البركة منها. وأمير المؤمنين يسأل الله الإمتاع بك، والدفاع عنك، وحراسة ما وهب منك، والمعونة على المعتقَد فيك، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل. وقد كان أمير المؤمنين لمّا تخيّل فضلك، وتبيّن حزمك، وعوّل فيما يتولاّه

---

(١) أبو شجاع عضد الدولة فنّاخسرو، بن أبي علي بن بويه، الملقّب بركن الدولة، أول من خوطب بلقب الملك في الإسلام، وأول من خطب له على المنابر في بغداد بعد الخليفة. كان ملكًا جليلاً عظيم القدر، نبيه الذكر، لم يبلغ أحد في زمانه من الملوك ما بلغه من علوّ الشأن وعزّ السلطان وفخامة الدولة وشدّة الصولة، وهو واسطة عقد بني بويه، حاز مواريث جميع أعمامه وأولادهم من الممالك، وضمّ إلى ذلك الجزيرة والموصل، وتمكّن من أقاصي البلاد ونواصي العباد، وانقاد له بخزائن الذلّ كلّ صعب القياد. وكان على بطشه وصولته فاضلاً محبًّا للفضلاء مُجلاً للعلماء، قصدته الشعراء بأسناء المدايح وأتحفه العلماء ببدائع التصانيف، صنّف له أبو علي الفارسي، كتاب الإيضاح والتكملة في النحو، والصابي صاحب هذه الرسائل، كتاب التاجي في أخبار بني بويه، وكتب إليه أبو منصور الفتكين التركي متولّي دمشق، كتابًا مضمونه أنَّ الشام قد دان له في وصار يده، وزال عنه حكم صاحب مصر، وإن قوّاه عضد الدولة بالأموال والعدد، حارب القوم في مستقرّهم، فكتب إليه عضد الدولة هذه الكلمات، المتشابهة في الخطّ ممّا يدلّ على طول باعه وهي، «غَرّك عِزّك فصار قصار ذَلك ذُلّك فاخْشَ فاحِشَ فِعلك فَعلك بهذا تهدا». ولم يلبث الفتكين أن انهزم في واقعة مع العبيدي صاحب مصر، وأُخذ أسيرًا، ويروى لعضد الدولة شعر، اشتهر منه أبيات تجبّر في أحدها وتجاوز الحدّ، وقيل إنّه لم يفلح بعده مطلقًا وهو قوله:

ليس شرب الراح* إلاّ في المطر ... وغناء من جَوارٍ في السحَرْ

غانيات سالبات للنُّهى* ... ناعمات في تضاعيف الوتَرْ

مبرزات الكأس من مطلعها ... ساقيات الراح مَنْ فاق البشرْ

عضدُ الدولة وابنُ ركنها ... ملكُ الأملاك غلاّبُ القدرْ

* الراح: من أسماء الخمرة، لأنَّ صاحبها يرتاح إذا شربها، والأصل في الكلمة، الارتياح والنشاط.

* النّهى: العقل.

فقيل إنّه لمّا حضرته الوفاة، لم يكن لسانه ينطق إلا بتلاوة: «وما أغنى عنى ماليه هلك عني سلطانيه». وكانت وفاته بعلّة الصرع يوم الاثنين ثامن شوال سنة ٣٧٢ هـ بدار السلام، ودفن هناك بدار الملك، ثمَّ نقل إلى الكوفة ودفُن بمشهد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وعمره سبع وأربعون سنة وأحد عشر شهرًا وثلاثة أيام رحمه الله وعفا عنه، وهو الذي أظهر قبر عليّ عليه السلام وبنى عليه المشهد، وأنفق عليه الأموال الطائلة، ومن أجل مآثره البيمارستان العضدي، المنسوب إليه في بغداد، في الجانب الغربي منها ليس في المعمور أبدع من ترتيبه غرم عليه أموالاً لا تُحصى.

وهو الذي قصده أبو الطيّب المتنبّي وامتدحه وقال فيه:

وقد رأيتُ الملوكَ قاطبةً ... وسِرْتُ حتّى رأيتُ مولاها =

من أعماله عليك، وفوّض تدبير ذلك إليك، شرّفك بالتكنية، ونزّهك عن التسمية، رفعًا لدرجتك وإشادة لذكرك، ودلالة على منزلتك، وإبانةً عن موقعك. فما زالت آثارك تبعث بصيرته على اختصاصك، وأفعالك تحثّ عزيمته على استخلاصك، حتّى استحققت عنده النهاية، واستوجبت من تكرمته العناية، فلقّبك عضد الدولة، وأضاف ذلك إلى الكنية، وذكّرك بها في مجلسه، وبين خواصه وأهل حضرته، وحباك بخِلَع أنفذها إليك، ولواء جدّد به العقد لك، وفرس مختار من دوابّه، بمركب كامل من مراكبه. ورأى أن يُظهر ذلك في الخاص والعام، ليظهر في القرب والبعد، ويعلم الجماعة نيّة أمير المؤمنين في اصطفائك، وطوّيته في اجتبائك، فتولّ ما أهّلك له من الإكرام، ووسمَك به من الإعظام، والجميع

= وقال فيه القصيدة التي ملخّصها:

يقول بشِعب* بَوّان* حِصاني ... أَعَنْ هذا يُسارُ إلى الطعانِ

أبوكُم آدمٌ سَنَّ المعاصي ... وعلمكم مفارقة الجنانِ*

فقلتُ إذا رأيتُ أبا شجاع ... سلَوتُ عن العباد وذا المكانِ

فإنّ الناس والدنيا طريقٌ ... إلى مَن ما له في الناس ثاني

* الشِّعَب: سواقي الأودية.
* بَوّان: اسم وادٍ.
* الجِنان: مفردها جنّة.

ومدحه بغير ذلك، وودّعه بقصيدته الكافية، التي كانت وداعًا منه لنفسه، وذلك في صدر شعبان عام ٦٥٤ هـ، وفيها يقول:

أروحُ قد ختمتَ على فؤادي ... بحُبّك أن يَحِلَّ به سواكا

وقد حمّلتني شُكرًا طويلاً ... ثقيلاً لا أُطيق به حَراكا

أحاذر أن يَشُقَّ على المطايا ... فلا تمشي بنا إلاّ سِواكا*

لعلّ اللّه يجعله رحيلاً ... يعين على الإقامة في ذَراكا

فلو أنّي استطعت خفضتُ طرفي ... فلم أُبصر به حتّى أراكا

وكيف الصبر عنك وقد كفاني ... نَداك المستفيضُ وما كفاكا

ومَن اعتاضَ عنك إذا افترقنا ... وكلّ الناس زُورٌ ما خَلاكا

وما أنا غيرُ سهمٍ في هواء ... يعود ولم يَجِدْ فيه امتِساكا

* السِّواك: السَّير الضعيف.

ولمّا قُتل المتنبّي وهو سائر عنه، ونُسب قتله إلى فاتك بن أبي جهل الأسدي وجماعة من بني أسد، قام راثيه محمّد بن عبد الله النصيبي، يستجيش عضد الدولة على بني أسد لكونهم أوقعوا بضيفه، فقال:

أبا شجاع فتى الهيجا وفارسها ... ومشتري الشكر بالإنفاق والصفد*

هَذي بنو أسدٍ جاءت بمُوْدِيةٍ* ... صمّاء نائحة هدّت ذُرى أُحُدَ*

سطَت على المتنبّي من فوارسها ... سبعون جاءته في موج من الزردِ*

حتّى أتت وهو في أمنٍ وفي دَعةٍ ... يسير في ستّةٍ إن تُحصَ لم تُزدِ

* الصَّفَد والأصفاد: المكافآت والأُعطيات.
* مُودية: مُهلكة.
* أُحُد: جبلٌ معروف يقع شمالي المدينة المنوّرة.
* الزَّرد: الدرع، أو نوع من الدروع المزرودة. =

مقرّون بهذا الكتاب، وواصل مع أحد خدم أمير المؤمنين الخواص، بإذن الله. فاعلم ذلك حفظ الله النعمة فيك، من رأي أمير المؤمنين وأمره، وقابل ما أصارك إليه بواجبه وحقّه، وثِق بتقدّم مكانك منه، وتوَكّد سببك لديه، وكاتبه فيما تستأنف مُتلقّبًا مُتسمّيًا، وكاتب من سواه متلقّبًا متكنّيًا، والبس خِلَعه عليك، وابرز فيها لمن يليك، سائرًا على حملانه[1]، وناشرًا لإحسانه، مغتبطًا بمنّته، مبتهجًا بمنحته. وأجب عن هذا الكتاب بوصوله إليك، وموقع مُتضمَّنه لديك إن شاء الله.

=كَرَّت عليه سِراعًا غير وائيةٍ ... فغادرته قرين الترب والثأدِ*

من بعد ما أعملت فيهم أسِنّتهُ ... طعنًا يفرّق بين الروح والجسدِ

فاطلب بثأر فتًى ما زلت تعضده ... لله دَرّك من كَهفٍ* ومن عَضدِ*

أذْكِ العيون عليهم أيّةً سلكوا ... وضيّق الأرض والأقطار بالرصدِ*

شرّدهم بجيوشٍ لا قوام لها ... تأتي على سَبَدِ* الأقوام واللبدِ*

* الثأد: الثرى، وقرين الثرى والتراب: الميت.

* الكَهف: الملجأ.

* العضد: المُعين والنصير.

* الرَّصَد: الرُّقباء والحُرّاس الذين يرصدون.

* السّبَد: الشّعْر. اللّبد: الصوف. (ولا سَبَدَ له ولا لَبَد): تُضرَب لمن لا شيء له.

واستجاشه أيضًا ثابت بن هرون الرقي النصراني في رثائه للمتنبّي الذي مطلعه:

الدهر أخبثُ والليالي أنكدُ ... من أن تعيش لأهلها يا أحمدُ*

فقال:

يا أيها الملك المؤيّدُ دعوة ... ممَّن حَشاه بالأسى يتوقّدُ

هذي بنواسد بضيفك أوقعت ... وحوت عطاءك إذ حواه الفَرقدُ*

وله عليك بقصده يا ذا العُلا ... حقّ التحرّم، والذمامُ الأوْكدُ

* أحمد: هو أبو الطيّب المتنبّي (أحمد بن الحُسين الجعفي).

* الفرقَد: النّجم، كأنه أراد القول: إنّ أمثال المتنبّي يترفّعون عن الثّرى ليكون النجم مثواهم. وهو أرجح عندي من القول إنّه الأرض المستوية أو ما صَلُبَ منها.

(١) الحُمْلان: ما يُحمل عليه من الدواب، في الهِبة خاصّة.

وكتب عنه أيضًا إلى أبي الجيش، اسحق بن ابراهيم ابن زياد، صاحب اليمن، في أمر أبي الحَمد، داود بن أحمد العلوي الحسنيّ الحجازيّ

أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين، وإن عمّ أهله برعايته، وشملهم بكنافته، وسوّى بينهم فيما يمتدّ عليهم من ظلّه، وينزلهم به من إحسانه وطَوله، يرى أن يخصّ أماثلهم بفضل التقديم والاجتباء[1]، ويزيدهم من الأثَرة والاصطفاء، إنصافًا إلى التطبيق بينهم، وعدلاً في الترتيب لهم. وليعلموا أنَّ غايات المنازل عنده، لا تُدرك ونهاياتها لا تُبلَغ، إلاّ باجتماع شرف الأخلاق إلى شرف الأعراق، وكرم الآداب إلى كرم الأنساب، فيتنافسوا من الفخر في أعلاه، ويحرصوا على السبق إلى مداه، والله يهب لأمير المؤمنين في ذلك وفي سائر ما يأتي ويذَر[2] ويُورِد ويُصدِر، توفيقًا يُجريه فيه على أفضل العادة، وأحسن الشاكلة، وحسب أمير المؤمنين الله، ونعم الوكيل. ولمّا ورد داود بن أحمد العلوي، حضرة أمير المؤمنين، تصفَّح أحواله، فعلم سدادها، وتأمّل مذاهبه فعرف رشادها، ووجد فيه مصطنعًا، ورآه للعارفة موضعًا، فرتّبه مع أعيان أهله، وقدّمه إلى غاية مِثله، وأبان عن رأيه في اختصاصه، ومعتقده في استخلاصه، وأمر له من جليل حبائه وجزيل عطائه، بما شاع خبره وظهر أثره، صلة لرَحِمه، وقضاء لحقّه، وقيامًا بالواجب فيه له، وعرف أمير المؤمنين منه، في عرض المفاوضة، وأضعاف المباحثة، حالك في مساعيك الصالحة، وآثارك الواضحة، ومذاهبك المحمودة، ومواقفك المشهودة، في نصرة الدين، وحياطة المسلمين، ومجاهدة أهل الشقاق، ومعاندة ذوي النفاق، وتطهير تلك الأصقاع من الضلال والمعرّة، وتهذيبها من الفساد والمضرّة. فوقع ذلك من أمير المؤمنين موقعًا، زادك من جميل رأيه، وأفادك الزلفى لديه، ورأى أن يذكره لك لتستمرّ على ما اقتضاه، وتدوم على ما استدعاه، وتعرف لداود بن أحمد حقّ ثنائه عليك، كما عرف أمير المؤمنين حقّ صدقه عنك، وتسلك في الإيجاب له سبيله، وتحتذي فيه تمثيله، وتقوم بما ألزمك أمير المؤمنين القيام به من خلافته، فيما غاب عنه من أسبابه وشؤونه، وصيانته في علائقه وأموره، حتّى يجري جميعها أحسن مجاريه وعلى أفضل ما يُؤْثِره أمير المؤمنين فيه. فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين، واعمل به، وكن عند أحسن الظنّ بك، واحمله واجبه بما يأتيه، فإنّه يتطلّعه ويراعيه، واجرِ على رسمك، في إنهاء ما يحتاج إليك من جهتك، ويتشوّف علمه من أحوال عملك، إن شاء الله.

---

(١) الاجتباء: الاختيار والاصطفاء.

(٢) يَذَر: يترك ويدع.

وإلى أبي تغلب، فضل الله بن ناصر الدولة، أبي محمَّد الحسن بن عبد الله بن حمدان، بتلقيبه عدة الدولة

أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين، إذا تأمّل نعم الله التي أسبغها عليه، وظاهرها لديه، واختصّه بجليلها، وتوحَّده[١] بجزيلها، وأهّله لادّراع ملابسها، واستحقاق نفائسها، رأى أنَّ من أجلِّها مَحَلاًّ، وأبهاها أثرًا، وأسناها خطرًا، وأولاها بالعائدة عليه في نفسه وخاصّته، وأبناء دولته ودعوته، ما حمّله الله من أعباء خلافته في أرضه، وألزمه من تأدية حقّه فيها وفرضه، أن وفّقه، جلّ وعزّ، للإصابة في اصطفاء مَن يصطفي من ثِقاته، واجتباء من يجتبي من كُفاته، وإقرار صنائعه في المعارض، الحافظة لأصولها، المطيلة لفروعها، وإلقاء عوارفه في المنابت المنشئة لزروعها، المزكية لربوعها، وأن جعل ركن الدولة، أبا علي، مولى أمير المؤمنين، أمتعه الله، شيخ أوليائه المقدّم عليهم، وكبيرهم المعظَّم فيهم، وسابقهم الذين يطوون عقبه، ويقفون أثره، ويناطون برعايته، ويدبرون بسياسته، وأن وهب لأمير المؤمنين وله عضده، وأتاه من عزّ الدولة أبي منصور، مولى أمير المؤمنين، حفظه الله، الشهم الندب، والبطل النجد، والشهاب الثاقب، والسهم الصائب، والنصيح المأمون، والنجيح الميمون، ومن عرّف الله أمير المؤمنين صواب الفاتحة والخاتمة، فيما يشير به ويرتئيه، وصلاح العاجلة والآجلة فيما يقتضيه ويمضيه، فما يعدم الابتهاج، في جميع ما يُسدي ويلحم وينقض ويُبرم، ولا يخاف الندم في سائر ما يأتي ويَذَر ويُورد ويُصدر. والله يديم لأمير المؤمنين الهداية والتسديد، ويمدّه بالعون والتأييد، ويحرس عليه هذه الدوحة، النفيس جوهرها، المهذّب عنصرها، الطيّب جناها، الظليل ذراها، التي شرّفها بغرسه، واستخلصها لنفسه، وسقاها بسجله[٢] ورعاها بعينه، مستثمرًا بها البرَكة في أموره، والفسحة في تعميره، والنصر لرايته، والإعلاء لكلمته، وسكون الدهماء للمسلمين في أيامه، وتكافؤهم في شمول أنعامه، رفيغًا[٣] معاشهم، أثيثًا[٤] رياشهم، آمنًا سربهم، صافيًا شربهم، ويريه في كلّ ما يعتمده من حظّ وحزم، ويجتهده من رأي وعزم، أحسن ما أتاه عبدًا كلّفه واستكفاه، وإمامًا استحفظه واسترعاه. وما توفيق أمير المؤمنين إلاّ بالله، عليه يتوكّل وإليه يُنيب، وقد علمت، كلأك[٥] الله، ما دأب فيه عزّ الدولة

---

(١) توحَّده: اختصّه وحده.

(٢) السجل: الدلو العظيمة الملأى ماء، ولا يقال لها وهي فارغة سَجْل.

(٣) الرفيغ: الطيِّب الخصيب.

(٤) الأثيث: الكثير.

(٥) كَلأ، تقول: كلأ الله فلانًا: حرسه وحفظه.

أبو منصور، مولى أمير المؤمنين، أمتع الله ببقائه، ودافع عن حَوبائه، من التمهيد لمحلّك، والتنجّز لاصطناعك وتقليدك، والمشورة بتقديمك وتقريبك، حتَّى جُمعت لك الأعمال المردودة إليك، وعُوِّل في حربها وخراجها عليك، وشُرِّفت بالتكنية، ونُزِّهت عن التسمية، وشُورِف بك محلّ أبيك، وقُدِّمت على كبراء أهلك وذويك، وقرن لك سالف الأثرة بحادثها، ووصل تالدها بطارِفها. وما زال على ممرّ الأوقات، وتكرّر الحالات، أن كرّر خطاب أمير المؤمنين في أمرك، وفهم ما ينهيه إليك، من كلّ أثر يكون لك، وأُطنِب في وصف ما أنت ملتزمه ومجرّد له، من حمل الأموال، وضبط الأعمال، وحراسة الديار، ومجاهدة الكفّار، وسدّ الثغور، ورمّ الأمور، ودلّ على أنَّ مواقفك في الردّ عن الحوزة، والذبّ عن الملّة، مقتضية باتّصالها أن تتّصل إليك المجازاة عنها، والتكرمة القاضية حقّها، وأنك بما أبان الله من عقلك وحِجاك [١]، ورشدك وهداك، وغنائك ووفائك، وانقيادك وإعفائك، وبُخوعك [٢] وطاعتك، وإخلاصك ومشايعتك، ومجاورتك من تجاور من أمم الكفر، وعُصَب الشرك، حقيق بأن توفى أقصى المنازل الشريفة، وترقى إلى أعلى المراتب المنيفة، ليكون خطرك في نفوس الأولياء المنوطين بك عظيمًا، وذكرك في صدور الأعداء المحادّين لك مهيبًا، وأن لا تؤخّر عن الغاية التي سمت إليها همّتك، وطمحت نحوها مُقلتك، وأوجبها لك ولاؤك ونصحك، وكان لها، ومن أجلها اجتهادك وكدحك. وأمير المؤمنين يرعيه فيما ينهيه من ذلك، سَمْع مَن قد تعوّد منه نصح الجَيب، وسلامة الغيب، وقول الحقّ، واعتماد الصدق، وعوّده قبول المشورة، والذهاب مع الإرادة، والإسعاف بالمحبّة، والإجابة إلى الطِلْبة، ولا سيّما إذا كانت لمثلك من أعيان الدولة، ونُجَباء الجملة، قد برزت في أثرك العظيم، وفزت بمقامك الكريم، فيما تمّ بالأمس، من أسر الدمستق، بتدبيرك السديد الموفق، هذا إلى ما يرعاه أمير المؤمنين، من قديمك في الخدمة وحديثك في العصمة، وأنسابك الوكيدة، وخلائقك الحميدة، الشاهدة باستحباب ما يُلتمس لك واستحقاق ما يُرغِّب ويرغب فيه منك. ولمّا انكفأ عزّ الدولة تولاّه الله عن متوجَّهه، كان إلى ناحيتك وأعمالك، بعد إماطته شوائب المعاملة بينه وبينك، ونيابته عن أمير المؤمنين في عقد ما عقد معك، وأخذ ما أخذه عليك، وتقرير ما قرّره لك، سأل أمير المؤمنين أن يَسِمك بلقب يشفع الكِنية، ويوصلك إلى البغية، ويبيّنك عن الأصحاب والنظراء، ويميّزك عن الأتراب [٣] والأكفاء،

(١) الحِجى: العقل والفطنة.

(٢) بَخع بالحقّ: أقرّ به.

(٣) الأتراب هنا الأمثال، وعلى ذلك فسّر ثعلب قوله تعالى: عربًا أترابًا.

ويجدّد لك عقد لواء، يعلم به أنك مستقرّ على الولاية، متعلّق من أمير المؤمنين بحبل الرعاية. وكان ورود ذلك على مقدّمات عنده قدّمها، وأسباب لديه أحكمها، ومنزلة في نفس أمير المؤمنين قد تمهّدت، ومزيّة قد تحصّلت، فأجابه إليها إجابة المستصوب لك فيه، المهيب إليه بك، الموجب عليك استدامته بالولاء الصحيح والإخلاص الصريح، والوفاء بشروط الطاعة وحدودها، ومواثيق البيعة وعهودها، وعقد لك لواء بيده يلوي إليك الأعناق الآبية، ويعطف عليك القلوب النابية، وأمر بحمله مع خِلَع كاملة تُفاض عليك، ومركوب بمركبه يقاد إليك، وطوق وسوار، قد صيغا من خالص التبر، ورُصّعا بفاخر الدرّ، زادك أمير المؤمنين إيّاهما على معهود الرسوم، وجعلهما جزاء لك عن ذلك الأثر العظيم، ولقّبك عدة الدولة اشتقاقًا لذلك، من إعداده إيّاك لكفاية المهمّ، واعتداده بك في دفع الملمّ. وذكرك بهذا اللقب في مجالس الحفلة وخلوات الأنسة، ورسم لأكابر أوليائه وأصاغرهم، وأقاصيهم وأدانيهم، أن يتأسّوا من ركن دولته أبي علي، بأكبر الأسوة، ويقتدوا من عزّ الدولة أبي منصور بأفضل القدوة، فيما يعرفانه من هذا الحقّ الذي جُعل لك في جاري المفاوضات والمحاورات، ومتردَّد المكاتبات والمراسلات. فاشكره، حفظك الله، على الرتبة التي نلتها، والمحلّة التي حللتها، والمفخر الذي ارتديت جماله، واللباس الذي سحبت أذياله، وكاتب أمير المؤمنين متلقّبًا متسمّيًا، ومن سواه متلقّبًا متكنّيًا، وابرز للخاصّة والعامّة في خِلَعه، سائرًا على حملانه، ناشرًا لإحسانه، مبيّنًا لمن قَرُب وشطّ، وعلا وزنه وانحطّ، أنك تناولت أطراف معاليك، وأحرزت غايات أمانيك، بالطاعة التي هي عزّ من استشعرها وثمال[1] من انتمى إليها، وبالمساعي الصالحة التي هي زاد من ادّخرها، ومعقل من عوّل عليها، وبالسبب الذي وصلك، بركن الدولة أبي علي، وعزّ الدولة أبي منصور، رعاهما الله؛ إذ كانا الوسيلة عند أمير المؤمنين لكلّ قدم يقدّمها، والذريعة في كلّ صنيعة يصنعها. واكتب إلى أمير المؤمنين، كتبًا تجعل مصادرها إلى عزّ الدولة، تولاّه الله، ليكون عرضها من يده ووصولها من جهته، مشتملة على ما يراعيه من استقامة أحوالك، وصلاح أعمالك، وموقع هذه النعمة المُسداة إليك، وأثرها في الدفع منك، وما تتلقّاها به من الاعتداد والنشر، وتناله بها من الصيت والذكر، إن شاء الله.

(١) الثمال (بالكسر): الملجأ والغِياث، ومنه قول أبي طالب في مدح الرسول (ﷺ):

وأبيضُ يُستسقى الغَمام بوجهِهِ ... ثِمالُ اليتامى عصمة للأراملِ

وكتب عن الطائع لله، بتلقيب عصمة الدولة، أبي دلف سهلان بن مسافر

أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين يعتمد إسداء النعم، حيث تُستدام وتُرتَبط، ويُجتنب إيداعها حيث تُكفَّر وتُغمَط، ويتخيّر لها أطيب المغارس وأزكاها، وأولاها بأن يحلولى وأحراها، وإذا لاحت له من ناشئ في دولته لوائح النجابة، وظهرت فيه أدلّة اللبابة، ووجده سالكًا منهاج الطاعة، وداخلاً فيها مع الجماعة، ومتسربلاً سرابيل الولاية، ومتحلّيًا بحلى الغناء والكفاية، رفعه عن الوقوف عند رتب المتوسّطين، وجذب بضَبْعه[1] إلى غايات السابقين المتقدّمين، ولا سيّما إذا كانت له مع هذه الفضائل، موات ّ[2] من ذرائع أُخَر ووسائل. وإنَّ اجتماع هذه المجتمعات لمن يجتمعن له، تمنع من ترجيح النيّة في اصطناعه واختصاصه، وتبعث على إمضاء العزيمة في اصطفائه واستخلاصه، وأمير المؤمنين يسأل الله أن يوفّقه من السعي لأحمَدِه وأرشَدِه، ومن الرأي لأحصفه وأسَدِّه، ويوليه في الذي يُبرم من ذلك ويقدّم ويوخّر، ويأتي ويذَر، أفضل ما عوَّده خلفاءه في بلاده، وأمناءه على عباده، وما توفيق أمير المؤمنين، إلاّ بالله، عليه يتوكّل وإليه يُنيب. وقد علمت، كلأك الله، أنَّ عزّ الدولة أبا منصور، أيّده الله، نازل من أمير المؤمنين المنزلة التي يتفرّد بفضيلتها، ويستبدّ بمزيّتها، مشاورة له في الأمور، ورجوعًا إليه في التدبير، وسماعًا لشهادته، وذهابًا مع دواعي نصيحته، وأنَّ القريب عند أمير المؤمنين مَن قرّبه، والبعيد مَن بعّده، والموثوق به من وثّقه، والظنين من اتّهمه، والجائز في نقده من جوّزه، والزائف من زيّفه، ولم يزل على مرور الأوقات بأمير المؤمنين وبه فيما يتفاوضانه، وتتابع المجلس منهما فيما يتحاورانه، يقرّر لك في نفسه منزلة أنشأها إنشاء التربية، وترقّى فيها من غاية إلى غاية، إذكارًا بحقوقك، وحقوق أبيك في الخدمة، واعتلاقكما واحدًا بعد واحد علائق الذمّة، وحصول ما حصل لك وله، من الحقّ المحفوظ والعهد المحروس، في ورودكما الحضرة مرّة بعد مرّة، وطيّكما بساطها، وإجابتكما داعيها، وإجمالكما الآثار فيها، إلى أن ثبت في نفس أمير المؤمنين أنك بالإخلاص والنصيحة، والطاعة الصحيحة، وتلك المواتّ القديمة والحديثة، والحرمات التليدة والطريفة، والمعاضدة لعزّ الدولة أبي منصور، أيدّه الله، والمضافرة، والمتابعة والموازرة، وهو الذي لا تتقدّم الأقدام عند أمير المؤمنين عليه، ولا تترتّب بعده، إلاّ به مُستحقّ بأن تُلحَق بجُلّة الأولياء وأكابرهم،

---

(١) الضبع: وسط العضد، وقيل العضد كلّه، حتّى الإبط، وأخذ بضبعه: أي أعانه وقوّاه.

(٢) مواتّ، تقول: متّ إليه بقرابة: وصل إليه، وماتّه: أذكره المتات أي القرابة، وأشار الصابئ هنا إلى المتّة وهي مفرد مواتّ، والتي هي القرابة، وكذلك الوسيلة.

وتُضاف إلى أعيانهم وأماثلهم، فيما وسموا به من ميسم التكريم، وأشعروه من شعار التعظيم، وبلغوه من النهاية التي أنت وهُم فيها، دون عزّ الدولة أبي منصور، أيّده الله، وخالصة أمير المؤمنين من أهله، رعاهم الله فائقون على غيرهم، زائدون متقدّمون، وأنَّ عزّ الدولة أبا منصور، أيّده الله، بعد تمهيده من ذلك ما مهّد، وتوطيده ما وطّد، سأل أمير المؤمنين أن يحلّك محلّ من تعتصم الدولة باجتبائه، وتزدان بازديانه[1]، وأن يشرّفك بلقب مشتقّ من ذلك، ينضاف إلى التكنية وينوّه بها عن التسمية، وأوجب أمير المؤمنين له فيك ولك في نفسك، إنالة المأمول، والإسعاف بالسول[2]، وذكرك بالتكنية، ولقّبك عصمة الدولة، وسمع ذلك منه في مواقف الحشد والحفلة، ومجالس الأنس والخلوة، وعقد لك لواء بتقليد أعمالك، وعهد إليك عهدًا ترجع إليه بسيرتك وأفعالك، وأمر لك بخِلَع تامّة تُفاض عليك، ومركوب بمركب يُقاد إليك. فتلقَّ، حفظك الله، ذلك أجمع، بشكر الله تعالى، على أن أحلّك محلّ مُستحقّيه، ورفعك إلى طبقة مُستوجبيه وأهليه، على سنن الاستقامة، التي هي الحِرْز الحَريز، وبها العزّ العزيز، ومنها تنشأ البركات، وعنها تتمّ الصالحات، واتبع موالاتك أمير المؤمنين، بموالاتك عزّ الدولة أبا منصور، أيّده الله، واعلم أنك كلّما زدت في ذلك رغبة وعليه مثابرة، استفدت أَثَرة، والبس خِلَع أمير المؤمنين عليك، وابرز لمن قبلك من أوليائه ورعاياه، على حملانه[3] المقود إليك، وانصب لواءه أمامك، وكاتبه خاصّة متلقّبًا متسمّيًا، وكاتب من سواه متلقّبًا متكنّيًا، فبذاك جرت العادة، وله علّة إن كنت لا تعلمها، فأمير المؤمنين يعلّمك إيّاها، وغيرك ممّن يقرأ كتابه هذا دالاً لك ولهم على رسوم الخلافة وآدابها، والمسلك المسلوك في مفاوضاتها ومكاتباتها، وهي أنَّ اللقب تكرمة لا يكتب إلاّ بأمير المؤمنين ومنه، فإذا انتهى الواصل إليها على عنوانات كتبه إليه، كان في ذلك كالمجدّد للشكر عليها، والمحدِّث بالنعمة فيها، وقبلها أمير المؤمنين قبول ما لم يَجرِ إلاّ بأمره، ولم يَجز إلاّ بإجازته، والتكنية تكرمة يتعاطاها الناس بينهم متقارضين[4]، ويتداولوها متفاوضين، فإذا شرّف أمير المؤمنين أحدًا من خاصّته، كان داخلاً مع الناس فيها، واحتاج إلى تميّز منهم، بأن

---

(١) تزدان بازديانه: تتزيّن بزينته.

(٢) السول: السؤل (مخفّف).

(٣) حملانه: ما يُحمل عليه من الدواب، وخصوصًا من الهبات.

(٤) التقارض بين اثنين أن يمدح كلّ منهما صاحبه، ويستعمل في الذمّ أيضًا، فإن كان بالظاء غلب استعماله في المدح.

تُقبل منه ولا تُردّ عليه، وأجب عمّا كوتبت به، جوابًا يُعلَم معه أنَّ النصيحة استقرّت لديك استقرار المطمئن القاطن، ولم تعرّس تعريس[1] المستوفز الظاعن، إن شاء الله. وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر، يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ستّ وستّين وثلاثمائة.

(١) النزول في وجه السحَر، وقيل نزول القوم في سفر من آخر الليل، يقعون فيه وقعة للاستراحة، ثمَّ ينيخون وينامون نومة خفيفة، ثمَّ يثورون مع انفجار الصبح سائرين، ومنه قول لبيد:

قَلَّما عَرَّسَ حتّى هِجتهُ ... بالتباشيرِ من الصبحِ الأُوَلْ

وكتب عنه أيضًا، عند غلبة عضد الدولة على الأمور، وذهاب عزّ الدولة إلى كلّ واحد من ولاة الأطراف[1]

من عبد الله عبد الكريم، الإمام الطائع لله أمير المؤمنين، إلى فلان، سلام عليك، فإنَّ أمير المؤمنين يحمد إليك الله، الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يصلّي على محمَّد عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلّم. أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين الذي ناط الله به الإمامة، وحمّله من أعباء السياسة واصطفاه له، من القيام بأمر الأمّة، والصون لحريم الملّة، يتصرّف على الأصلح فيما يتجدّد من عزائمه ويَعُنّ من آرائه، بحسب أوقات ذلك التي تصدر فيها عنه، ويحرج الأمر به منه، سالكًا أفضل مذاهب أمناء الله في أرضه، المؤدّين لفرضه، حماية للبيضة، وحياطة للحوزة، وتجشّمًا لكلف في ذلك تستسرّ كثيرًا عن جماهير الناس، الذي لا يدرك عَيانهم إلاّ الظواهر دون البواطن، ولا تحيط درايتهم إلاّ بالبوادي دون الكوامن. ومن تقلّد ما تقلّده، وانتصب لما نصب له، أدّته ممارسة الأشياء وملابستها، واضطرّته حياطة هذه الدهماء وحراستها، إلى أن يقدّم في بعض الأحيان العمل بما لا يعتقده ولا يُؤْثره، وأن يؤخّر في بعضها ما يستصلحه ويستوفقه، إلى أن يتمكّن كلّ التمكّن منه. فإذا بدت من أفعال أمير المؤمنين بادية لا يرتضيها، فإنّه سائقها إلى الزوال والاضمحلال، وإذا اكتنّت في نفسه خافية يرى أنَّ الصواب فيها، فإنّه صائر بها إلى التمام والاستكمال، ولو شاء معهما أوجده الله من القدرة، وكنفه به من أسباب العزّ والنصرة، أن يقود المستصعبات عليه بخزائم الإهانة والصغار، ويتناولها بجواذب الإكراه والاقتسار، لَمدّ إلى ذلك يدًا أطال الله باعها، ومكّن في الأرض لها، لكن رُبّ مكيدة هي أوجى[2] وأحدّ من المبادأة، وخبيئة هي أنكى وأشدّ من المفاجأة. ولولا فضل[3] الرعاة على الرعايا بُعد مطرح النظرة، واستشفاف غيب العاقبة، لاستوت الأقدام، وتقاربت الأفهام، واستغنى المأموم عن الإمام، وهذا مذهب أمير المؤمنين، وعذره في الصبر على شوائب دُفع منذ ولّي الأمر إليها إلى أن أزاحها، وأقذاء صمد لها إلى أن أزالها، وأيدٍ كانت محيطة بسريره[4] ومستولية على تدبير أموره، ولم يزل يرصدها يدًا بيد، ويبتّ منها ساعدًا ساعدًا، تخلّصًا منها إلى اليد التي هي عتاده وعدته، وبها بطشه

---

(١) سنة سبع وستّين وثلثمائة، وقد تقدّم خبر ذلك.

(٢) مِن وَجَأه باليد والسكّين: ضربه.

(٣) أراد أن يقول، أنَّ هنالك في الناس، فاضل ومفضول، وليس جميع الخلق، برأيه، سواء.

(٤) السرير، (ها هنا): العرش، وكرسي المُلك.

وقبضته، وإليها حقيقة إشارته وإيمائه، ومعها وثائق طاعته وولائه، حتَّى إذا صرح المخض[1] عن زبدته، وأدّى إلى المحض من صفوته، وخرج أمير المؤمنين خروج القدح المُعلّى إلى إرادته، وانتهى إلى الغاية القصوى من أمنيته، أظهر للناس ما كان مطويًّا عنهم، ومخبوًّا في أثناء تدبيره لنفسه ولهم، ليشركوه في المحلولى من ثمرته، والمعسول من مذاقته، ويشملهم بذلك رفيع المعاش، وأثيث الرياش[2]، وصلاح الحال ورخاء البال. وأمير المؤمنين يسأل الله، أن يجعله في جميع الذي استرعاه واستكفاه، من الأوضحين سبيلاً، والأرشدين دليلاً، والأنجحين سعيًا، والأربحين متجرًا، وأن لا يخليه في معاقد آرائه، ومواقع أغراضه، ومرامي أوطاره، ومطامح أفكاره، من إعزاز يتولاّه به، وتأييد يَزِله إليه، ومعونة تُدرّ عليه أخلافها[3] وتوطّأ له أكنافها[4]، وما توفيق أمير المؤمنين إلاّ بالله، عليه يتوكّل وإليه يُنيب.

وقد علمت، كلأك الله، أنَّ المطيع لله، صلوات لله عليه، منذ أفضى الله بالخلافة إليه، قلّد أزِمّة أموره، عماد الدولة أبا الحسن مولى أمير المؤمنين، وأقرّه من التشريف والتنويه، والإعلاء والتنبيه، بالمقرّ الذي قصرت دونه خطى المجارين، وغضّت عنه لواحظ[5] المبارين، ونزل أخويه ركن الدولة أبا علي، ومعزّ الدولة أبا الحسين، مولَيي أمير المؤمنين بعده، المنازل السنّية التي أوجبها لهما النسب إليه، واقتضاها فيهما السبب منه، فلم يزل نصيحًا في متصرّفاته، نجيحًا في متوجّهاته، إلى أن حضرته الوفاة، وصادف ذلك منه بلوغ عضد الدولة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين، أيّده الله، مبالغ الرجال، وانتهاءه في الفضل إلى حدّ الكمال. فلمّا أُونِس منه رشده[6]، وورّى في الخيرات زَنده[7]، وظهرت فيه شواهد النجابة، وأعلام اللبابة، ومخايل الاستقلال والوفاء، ودلائل الاضطلاع والغناء، رأى أنه أهل لموضعه منه، وأحقّ بوراثة ذلك المحلّ عنه، فنصّ عليه فيما جعله المطيع لله، رحمة الله عليه، النصّ فيه عليه، وسلّم أعماله ومقرّه وما نفذ فيه أمره ونهيه إليه، ثمَّ مضى لسبيله رشيدًا في مساعيه، مصيبًا في مراميه، وقد أحسن الارتياد، وأخلص في الاجتهاد، واستحقّ من الله وخليفته وجماعة عباده وخليقته، أصلح الدعاء وأطيب الثناء. فلمّا استقرّ

(١) قالت العرب: «وبعد المَحض يخرج اللبن الصريح» أي على أفضل ما يكون.

(٢) الأثيث من الرياش: الجديد الفاخر من الأثاث.

(٣) الأخلاف: الضروع، محالب الناقة خاصّة.

(٤) الكنَف: الظلّ والجانب، والحفظ والإحاطة.

(٥) غضّت عنه اللواحظ: بمعنى قصّرت العيون عن إدراكه، فترك غباره في عيونهم وكان السابق في المباراة.

(٦) تقول: أُونس منه رشده: أي بلغ، واهتدى.

(٧) ورّى في الخيرات زَنده: كناية عن إفاضته في الخيرات والمسارعة إليها.

عضد الدولة أبو شجاع أيّده الله في تلك الأَثَرة، وأحرز منه قَصَب السبق والمفخرة، اقتضاه حسن أدبه، وكرم نِجاره ومركبه، أن ذهب بنفسه عن انتحال الرئاسة على أبيه، وكره أن يستبدّ عليه بما حصل له من المحلّ النبيه، فخفّض له جناح الأبناء، ووفّاه حقوق الآباء، ونبذ إليه مقاليد الأمر، وتطأطأ له عن ذلك القدر، وقابل ذلك ركن الدولة أبو علي، بأن قبله منه ظاهرًا، وتوخّاه بالإنصاف باطنًا، فكان لا يُورد ولا يصدر إلاّ عن مشاورته، ولا يحلّ ولا يعقد إلاّ عن مطالعته لكبره، وإن كان ولده في نفسه وعظمه وإن كان سليله في صدره. ولمّا اجتمع له في اللبّ والتحصيل، والرأي الأصيل، والنصر الباهر، والعزّ القاهر، وأوجب المطيع لله، صلوات الله عليه، لركن الدولة أبي عليّ الحقّ الذي تمهّد له بين ذلك الأخ الكبير، وهذا الولد الخطير، متابعًا في كلّ رأي يراه، وغير مُضايَق في هوى يهواه، حتَّى انتهى في مساعدته، وبلغ من مسامحته، إلى أن أمضى له في معزّ الدولة أبي الحسين أخيه، إيثاره ومحبّته فيه، من استخلافه على هذه الحضرة التي إليها دعوة الداعين، ومنها تعقد رايات الدين، وجرت الأمور عند ذلك بوساطته، على ما المحمود منه منسوب إلى ركن الدولة أبي عليّ، ومعروف له والمذموم محتمل بسببه، ومُغضى عنه من أجله، إلى أن قُبض[1] معزّ الدولة، والأحوال ماضية على الأكثر من سدادها، والأقلّ من فسادها، وكان المطيع لله، رحمة الله عليه، يرى أنَّ الأضمّ للنشر، والأوصل للحبل[2]، والأعود في العاقبة، والأجمع للكلمة، متابعة ركن الدولة أبي عليّ مولاه، على ما يعتمده ويتوخّاه، غير مستكثر ذلك له، مع الوكيد من سببه، والجميل من أثره، والعالي من قدره، والواجب من حقّه. ثمَّ إنَّ هواه ترامى به، إلى إقرار بختيار بن عزّ الدولة على ما كان أبوه مرسومًا[3] به، ومستخدمًا فيه، على أصول قُدِّر فيه أن يتمسّك بها ويبني عليها، وشروط ظنّ به أن يلتزمها وينتهي إليها، من تعظيم ما عظّم الله من حقّ الخلافة، والنزول منها على أحكام الطاعة، والانتساب إلى موالاة ركن الدولة أبي عليّ، وعضد الدولة أبي شجاع، أيّده الله، وأن يكون إيراده وإصداره عن رأيهما وأمرهما، وانتماؤه واعتزاؤه، إلى مجدهما وفخرهما. فما زال بختيار يسيء الاختيار، ويتنكّب الصواب، ويتجنّب الصلاح، ويمزّق الأموال، ويعرّض الدولة للزوال، ويُهّرج الأولياء أشدّ الإهراج، ويحملهم على أعوج المنهاج، ويخرّب الأوطان، ويشتّت

---

(١) قُبض: مات.

(٢) ضمّ النشر، ووصل الحبل، كلّها تعني: أزال الفرقة، وجمع بين الناس؛ ووَصْل الحبل: المصاهرة.

(٣) مولّدة أي قائمًا بما هو مرسوم له من الخدمة أو هي، موسومًا به.

الأقران، ويقتل الكفاة، ويستكفي الغُواة، إلى أن بلغ من فاسد سيرته، وضالّ طريقته، إلى أن استكتب محمَّد بن بقية، المحيط بكلّ خلة دنية، وهو صغير حقير، ناقص مغرور، وليس له نصيب من صناعة ولا كفاية، ولا حظّ من فهم ودراية. فجذب بضبعه من أخسّ مطارح الاتّباع، وأخفض منال الرعاع، إلى معالي الأمور التي ليس كفؤًا لها، ولا حقيقًا بشيء[1] منها، فما تمّ لَعَمر الله، لبختيار أن يرقّعه، لكن تمّ عليه أن يتّضع معه، فكانت آثاره كآثار صاحبه، في إخراب البلاد، وظلم العباد، واجتثاث الفروع، واقتلاع الأصول، وإنشاء الملاحم بين الديلم والأتراك من عساكر أمير المؤمنين، واستثارة العيّارين[2] والأوغاد. فبلغ الجهد من المسلمين أقضى مبالغه، وسلك الضرّ منهم أبعد مسالكه، وعند ذلك، أحسّ المطيع لله، صلوات الله عليه، من نفسه الكبر والوهل، وكثرة الأوصاب[3] والعلل، فنظر لدينه وللمسلمين بأن يسلّم الأمر إلى أمير المؤمنين، فلبسه على حين النهاية من اختلاله وانحلاله، وبعده عن سنن نظامه واعتداله، وفزع[4] ركن الدولة أبو عليّ، في تلك الخطوب الجليلة، والجروح الرغيبة[5] إلى عضد الدولة أبي شجاع، مولى أمير المؤمنين أيّده الله؛ إذ هو سيف الله الفاصل، وسنانه العامل، والذخيرة في الملمّات، والعدّة للحادثات، ومن ليس له إذا شهد عديل، ولا منه إذا غاب بديل، ولا يقاربه في مناقبه مقارب، ولا يجاذبه مجاذب، فاستدرك الدولة واستخلصها، وحاط عليها وحصّنها، وأقشعت[6] على يده تلك الزلازل، وانحسمت بيمينه تلك النوازل. وعرف إذ ذاك بختيار قدر نفسه فانحطّ إليه، وعلم عجزه فاعترف به، واستجار بعضد الدولة، أيّده الله، من ضعفه عمّا حمله، وقصوره عمّا أهّل له، وبريء إليه، من التدبير، براءة ابتداها، وأعطى صفقة يمينه بها، وأشهد على نفسه بوجوبها ولزومها، راغبًا في ذلك غير مرغوب إليه، ومتبرّعًا غير مُكْرَه عليه. وشرقت[7] الحال بينه وبين الجند المرسومين، كانوا به شروقًا تناهى إلى استيحاشه منهم، ومصيره إلى عضد الدولة، أيّده الله، مستعديًا عليهم، فضافه عضد الدولة، أيّده الله، في داره، وحماه في نفسه وماله، وحريمه وحاله، وقد كان أمير المؤمنين في ذلك الوقت، على جملة وحشته منه، ونِفاره من أجله، عن

---

(١) الحقيق بالشيء: الجدير به.

(٢) العيارون: المفاخرون والمعابون (ضدّ). الأولى من (عاير) والثانية من (عار).

(٣) الأوصاب، مفردها الوصب: وهو المرض والألم الدائم، والضعف والفتور.

(٤) فزع: استغاث.

(٥) الواسعة، وكلّ ما رغب فقد اتّسع.

(٦) أقشع كانقشع.

(٧) اختلطت، ويقال شرق ما بينهم بشرّ إذا وقع الشرّ بينهم.

موطنه وداره، للأسباب التي يُستَغنى عن شرحها، مع قرب العهد بها، فلمّا وقع ظلّ عضد الدولة أبي شجاع، أيّده الله، على هذه البلاد، أنس أمير المؤمنين بالعود إليها، وثنى عِنانه نحوها، وأيقن أن سينحسر به عنها الدرن[1] ويتطهّر منها الدنس، واجتمع معه اجتماعًا سكن له الجأش[2]، وارتفع معه الإيحاش[3]، ثمَّ إنَّ عضد الدولة أيّده الله عطفته على بختيار عواطف الآباء والأعمام، وأطّت[4] به إلى الأخذ بيده شواجر الأنساب والأرحام، وذهب مع إيثار شيخه ركن الدولة، في تنفيس خناقه والإمساك من رماقه[5]، فقاد تلك النبوة الواقعة بينه وبين الرجال إلى الإسفار، وصارت تلك الثورة منهم إلى الاستقرار، واستخلفه على ما كان بعِل[6] به من التدبير، ورسم له رسومًا رجع إليها في الأمور، وأعاده إلى منزله مخلوعًا عليه محبورًا[7]، مكرّمًا موفورًا. فلم يرِمْ[8] أن جازاه عن هذه النعمة السابغة، والمِنّة الصافية، بما أظهره من خلع طاعته والنكث بمعاهدته، والارتكاس[9] في قديم غوايته، والتتايع[10] في سالف عمايته، بعد إيمان مغلّظة، عاد وقد حنث في جميعها، وفسخ عهد مواثيقها، مجترئًا على الله ذي الجلال والإكرام، بريئًا منه ومن رسوله محمَّد عليه السلام، مطلّقًا للنساء، مُعتقًا للإماء، محرّمًا للحلال، خارجًا عن كلّ ملك ومال، وانصرف عضد الدولة أبو شجاع، أيّده الله، إلى أعمال فارس، مُلقيًا حبل بختيار على غاربه[11]، مستيقنًا لوخم مصايره وعواقبه، وأمير المؤمنين متألّم من فراقه، متلهّف على مقامه، عالم أنَّ الضرورة قائدة إلى عودته، وأنَّ حضرته فقيرة إلى نصرته، وأنَّ هذه الكُلوم الأليمة، لا يأسوها إلاّ مِثله من ذوي الحزم والصريمة[12]. وكان رحيله عنه على مواقفات بينهما مكتومة مصونة،

(١) الدرن: الوسخ وكذلك الدنس.

(٢) الجأش: القلب والصدر.

(٣) أوحش المكان إيحاشًا: صار موحشًا بذهاب الناس عنه.

(٤) حَنت.

(٥) الرماق، تقول رمّقه بالشيء: أمسك رمقه به، والرمق: بقيّة الحياة، والرماق كذلك (على غير القياس).

(٦) بَعِلَ بأمره بعلاً فهو بَعِل، بَرِمَ فلم يدرِ كيف يصنع فيه.

(٧) يقال حَبرَني هذا الأمر، أي سرّني.

(٨) لم يبرح من رام يَريم بمعنى برح يَبرح، ولكن أكثر استعماله في النفي.

(٩) الارتكاس: الارتداد.

(١٠) التهافت، يقال: تتايعوا في الشرّ إذا تهافتوا فيه، والسكران يتتايع، أي يرمي بنفسه من السكر، وتتايع الحَيران رمى بنفسه في الأمر من غير تثبُّت، ومنه قوله (ﷺ): "ما يحملكم على أن تتايعوا في الكذب كما يتتايع الفراش في النار".

(١١) ألقى الحبل على غاربه كناية عن أنه أخلى سبيله، وترك أمره إليه ليفعل ما يشاء. والغارب (لغةً): الكاهل، وهو ما بين السنام والعنق.

(١٢) الصريمة: العزيمة.

ومعاهدات محفوظة مخزونة، واتّصلت بينهما مكاتبات ومراسلات، باطنات خافيات، لم ينقطع تراجعهما إيّاها، إلى أن أغناهما الله بالاجتماع عنها، وحدث الحادث في ركن الدولة أبي عليّ، رحمة الله عليه، بعد أن عهد إلى عضد الدولة، أيّده الله، عهدًا جرى مجرى الردّ لوديعته، والنزول له عن منزلته، في إعتاق ما كان معتقًا، وتدبير ما كان بنظره منتظمًا مُستوسقًا، والرئاسة على أهله وولده وجيوشه وعساكره، وأخذت له بأمر أمير المؤمنين وإذنه، إيمان كإيمان البيعة على كلّ عام من البطانة، وخاص ودانٍ من أهل الدولة وعاصٍ، فما راع أمير المؤمنين إلاّ نزوة[1] من بختيار، ووزيره الحامل للأوزار[2]، إلى الخلاف عليه، ومنازعته المحلّ الذي أفرده الله به. وترامت بالرجُلَين الشقوة إلى المسير إلى الأهواز، دُلوفًا[3] إلى مقارعته وتقريرًا لمقاومته، من حيث لم يجعل الله لهما إليه نسبة في خطر ولا قدر، ولا صيت ولا ذِكر، ولا عُدّة[4] ولا عدّة، ولا بأس ولا نجدة، ولا مال ولا حال، ولا هيبة ولا همّة، ولا نهضة ولا استطاعة. وسألا عند ذلك أمير المؤمنين، تشريفهما والتفويض إليهما، والمساعدة لهما والمسير معهما، ما كان الحظّ عنده في الوقت، إظهار الإجابة إليه، والعمل عليه، وأسرار النقض له والفسخ لعقده، تصوّنًا عن جريرة مخالفتهما، واستجنانًا[5] من نتيجة مجاهرتهما، وما ترك مع ذاك، أن أودع مسامع خواصه، وأهل الثقة عنده، حقيقة رأيه في إنكار ما أظهر عنه، وإكبار ما حمل عليه. فلمّا انتهى أمير المؤمنين إلى الأهواز، ورأى أنّ الحرب آخذة أهبتها ومشمّرة عن ساقها، وكان حاصلاً منها في الجانب الذي يأباه ويجتويه[6]، ومحولاً بينه وبين الجانب الذي يُؤْثره ويصطفيه، انقلب إلى داره، وخلّى بين بختيار وما شاء من اختياره، فلم يلبث أن دارت عليه الدائرة، وصُلِيَ بالنائرة، التي يداه أوكتاه، وفوه نفخ[7] لها، وأجفل عن متوجَّهه الذي قال فيه رأيه، وموقفه الذي ضلّ فيه سعيه، هزيمًا كليمًا، مغلوبًا، مسلوبًا، محروبًا، مقتول الأصحاب، مفلول الأحزاب، هاربًا من إطلال عضد الدولة، أيّده الله، عليه وإحاطته به، ناجيًا من ذُباب سيفه[8]، وسرعان خيله. فلولا

---

(١) مِن نزا إلى الشرّ.

(٢) الأوزار، مفردها (وزر): الآثام.

(٣) دَلَفَ الجيش (دُلوفًا): إذا تقدّم.

(٤) عُدّة: ما أعددته لحوادث الدهر من مال وسلاح. والعِدّة: الجماعة والعدد، تقول (لديّ عدّة أصدقاء).

(٥) استتارًا.

(٦) يكرهه.

(٧) مثل يضرب لِمَن يَجني على نفسه.

(٨) ذُباب السيف: حدّه (الذي يُضرب به).

إبقاؤه عليه، وحبسه الأعِنّة عنه[1]، وتذمّمه[2] من أن يقنص نفسه بيده، فتكون عليه غَميزة[3]، قد باعده الله عنها، ونزّهه عن السعي لها، لكان ذلك المصرع مُنقضى أجله، ومُنقَطع أمله، فلم يزل يرحل متراجعًا عن مقر بعد مقر، ومقام بعد مقام، وهو يراسل ويكاتب عضد الدولة أبا شجاع، أيّده الله، بالاستعطاف والاسترحام، ويناشده ويذاكره بماسّة الأنساب[4] والأرحام، وقبض على محمَّد بن بقية وسَمَل عينيه، وأنفذ إلى عضد الدولة أبي شجاع، أيّده الله، تقرّبًا به إليه، وإحالة بالذنوب السابقة عليه، وتطوّع بختيار بيمين غَموس[5]، حلف بها لحاجته إلى أن يعلق بعصمتها، ويأوي إلى ذمّتها، مشتملة على أن يوالي عضد الدولة، أيّده الله، في ظاهر أمره وباطنه، وشاهده وغائبه، وسأله أن يخلي بينه وبين الرحيل إلى أعمال الشام، متحلّيًا بلباس طاعته، نازعًا لسربال مقاطعته، متشرّفًا بخِلَع يفيضها عليه، ويزيل بها مَعرّة[6] العصيان عنه. فعاود عضد الدولة، أيّده الله، أحسن عاداته في كظم غيظه، ومغالبة غضبه، وقبل منه التوبة والإنابة، وأسعفه في هذه الطلبة والإجابة، وأنعم عليه بالخلعة، فالتحف بجمالها، وسحب فضل أذيالها، وأمهله حتَّى صار إلى الجهة التي اختارها، وعند ذلك ما أشاع أمير المؤمنين من خفايا سرّه، وأذاع كوامن صدره من جميل رأيه في عضد الدولة أبي شجاع مولاه، أيّده الله، الذي هو وليّ أمره وحامي حريمه وكافي مهمّه ودافع مُلِمّه[7]، وتلقّاه عند قربه من مدينة السلام بالترحيب والإكرام، والتقديم والإعظام، وأعطاه من المراتب أعلاها، ومن المنازل أسماها، وأنفذ أمره في شرق البلاد وغربها، وما قرب وبعد منها، وفوّض إليه التقليد، والصرف والحلّ والعَقد، والرفع والخفض، والإبرام والنقض، ولم يؤهّل أحدًا من خلق الله، لأن يساويه في رتبه، ولا يوازيه في منزله، ولا يخرج عن طاعته المقرونة بطاعة أمير المؤمنين في كلّ منحى ينحوه، ومغزى يغزوه، لما جمع الله به شمل الأمّة، وأحصف[8] به حبل الملّة، وسدّ بكفايته خلل الدولة، وشدّ بصرامته أركان الصولة، أن

---

(١) حَبَسَ عنه الأعنّة كناية عن أنه لم يرغب في محاربته. والأعنّة، مفردها (عِنان) وهو مِقوَد الفرس، وما نسمّيه نحن (لِجام).

(٢) استنكافه.

(٣) عيب.

(٤) ماسّة الأنساب: القرابة.

(٥) اليمين الغَموس: التي تَغمس صاحبها في الإثم ثمَّ في النار، وقيل هي التي لا استثناء فيها، وقيل هي التي تقطع بها الحقوق، وقيل أن يحلف الرجل وهو يعلم أنه كاذب، ليقتطع بيمينه مال أخيه.

(٦) المعرّة: الإثم والمساءة.

(٧) دافع مُلمّه: الذي يدفع عنه المُلمّات أي النوازل الشديدة والمصائب العظمى.

(٨) أحصف: شدّ وأحكم.

يبينه عن سائر من كنّى ولقّب، وشُرِّف وقُدِّم، بميسم من مياسم التفخيم، تتأخّر الغايات عنه، وتتنزّل لهم دونه. فأضاف إلى ما كان متلقّبًا به من عضد الدولة، اللقب بتاج الملّة، وأفاض عليه خِلَعًا نفيسة، وحباه بتاج ذهب وسوار وطوق مرصّعة كلّها بالجواهر الفاخرة، وبحملان رائع من خيله، بمركب ثقيل من مراكبه، وعقد له بيده لواء على جميع ما نفذ فيه أمر أمير المؤمنين، ونودي وأعلن فيه بشعار المسلمين، من برّ الأرض وبحرها، وسهلها وجبلها، وبدوها وحضرها، وقاصيها ودانيها. وصارت حضرة أمير المؤمنين منه بعد الطوائف التي ساءت فيها آثارها، وعظمت عليها مضارها، في الحَرَم الأمنع، والظلّ الأمتع، والعزّ الأقعس[1]، والحِمى الأشْوَس[2]، وأعادها الله إلى أفضل ما كانت عليه في قديم الأيام وحديثها، وسابق الأوقات ولاحقها، من قدرة ومكاثرة، وثروة ومفاخرة، واستصعاب على المحاولة، وارتفاع عن المطاولة. فاعلم، رعاك الله، ذلك من رأي أمير المؤمنين وأمره، وأقدِر ما أنعم الله به منه بقدره، واعرف لتاج الملّة وعضد الدولة أبي شجاع، مولى أمير المؤمنين، أيّده الله، محلّه المنيف، ومكانه الشريف، ومنزلته التي جلّت عن مزاحمة القرناء، وعلت عن مضارعة النظراء، ووفِّه هذا الحقّ، وكن له بحسبه معاملاً في المحاورة والمخاطبة، والمناجاة والمكاتبة، والطاعة والمشايعة، والموافقة والمتابعة، إن شاء الله، والسلام عليك.

---

(١) الأقعس: الثابت والمنيع.

(٢) الأشوش: صفة للجريء والمتكبّر، واستعارها (ها هنا) للحِمى الشديد المنعة.

وكتب نسخة الكتاب إلى عضد الدولة بالتشريف المذكور، وزيادة التلقيب له بتاج الملّة[1]

من عبد الله عبد الكريم، الإمام الطائع لله أمير المؤمنين، إلى عضد الدولة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي عليّ، مولى أمير المؤمنين، سلام عليك. فإنَّ أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يصلّي على محمَّد، عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا بعد، أطال الله بقاك وأدام عزّك، وأمتع أمير المؤمنين بك، وبالنعمة فيك، فإنَّ أمير المؤمنين إذا سبغت مواهب الله عليه فيما يَزله من خير، إلى كافّة المسلمين وإليه، رأى أن يتأدّب بأدبه سبحانه، في الحديث بها، والنشر لها، حسب الذي فرضه الله في مُحْكم كتابه، إذ يقول: ﴿وأمّا بنعمة ربّك فحدّث﴾. ولمّا كان مُبين النعمة ومُشيعها، ومُظهرها ومُذيعها، مؤدّيًا من هذا الفرض ما لا يسع إغفاله، وممتثلاً من الأمر ما لا يحلّ إهماله، وكان فاعلوه من عباد الله يتنجّزون بالشكر، زيادة قد سبق الوعد لهم بها، وعلق عندهم رهنها، فكلّما كثر نشر الناشر، وشكر الشاكر، تضاعفت له تلك الزيادة، ودرّت عليه أخلاف المادّة، وكان من الأربحِين أعمالاً والأرشدِين أفعالاً، وهذا رأي أمير المؤمنين وعقده، ومعتمده وقصده، وهو من مذاهب الصلاح وأنحاء الصواب، التي يسأل الله أن يحسن دلالته عليها، وإرشاده إليها، وما توفيق أمير المؤمنين إلاّ بالله، عليه يتوكّل وإليه يُنيب.

وإنَّ أمير المؤمنين، أيّدك الله، لمّا جمع الله شملك إليه، ووصل حَبْلك به، وأناله أمنيته في اشتمالك على أموره، واكتنافك لسريره، وحملك الأعباء عنه، ونهوضك بالمُلمّات دونه، آثر طالبًا للأصلح، وسالكًا للمذهب الأوضح، أن ينيلك من شرف المكانة عنده، وكرم الزلفى لديه، غاية لم ينلها من أولياء السلطان نائل، ولا بلغ إلى إدراك أثرتها وحيازة مفخرتها بالغ. وأوجب أن يقدّم أمام ذلك نبذًا[2] من مناقبك، التي استحققت بها ما أهّلك له، وذروًا[3] من مساعيك، التي استوجبت معها ما أهاب به إليك، لتعلم أنه ما حاباك[4] فيما حَباك[5]، ولا ركب الهوىٰ فيما أعطاك، وليتبيّن للناس جميعًا من ناقص وراجح، ودان ونازح، أنَّ المساعي عند أمير المؤمنين مقوّمة، والمراتب بحسبها مرتّبة، وأنَّ هذه المعالي

(١) إلى هذا اللقب نَسَبَ الصابي تاريخه لبني بويه، المسمّى بالتاجي.

(٢) النبْذ: الشيء القليل.

(٣) الذرو: من القول اليسير منه.

(٤) حابى: مال منحرفًا عن العدل.

(٥) حبا: أعطى.

الطامحة إنّما استبدّت بها لاستبدادك بالخِلال الصالحة، فيصمد الأولياء وإن قصرت بهم الهمم عن مجاراتك، وأخّرتهم القُدَر عن مداناتك، لإحراز أكثر ما يستطيعونه من الأمد، الذي يجري إليه العامل المجتهد. وقد علمت، أيّدك الله، أنّ أمير المؤمنين حين تجلبب جلباب الخلافة، وادّرع شعار الإمامة، قاسى كلّ صيلم [١] صمّاء، وداهية دهماء، من الفتن المشبوبة بين الديلم والأتراك، والحروب الناشئة بين الخواص والعوام، وأنّ أمير المؤمنين، لو خلا من إفساد المفسدين وإثارة المثيرين، لَما تمكّن من إطفاء ما اضطرم، ولا استقلّ بإخماد ما احتدم، مع انفراده من الإخوان، وخلوّه من نصحاء السلطان، فكيف وقد كان الأمر معكوسًا، بغيبة من يحمل عنه، وحضور من يجني عليه. ولو شرع أمير المؤمنين في عدّ مقاماتك قبل خلافته، ومواقفك المشكورة قبل إفضاء الأمر إليه، من بلاد كانت مغلقة ففتحها، وأمور كانت مختلفة فنظمتها، وأعداء كانوا متصارعين [٢] مستكبرين فأذللتهم، وأولياء كانوا مغمورين [٣] مقهورين فأعززتهم، وأطراف كان أربابها مستوحشين فآنستهم، ونافرين فتألّفتهم [٤]، ومصارمين [٥] فوصلتهم، ومنابذين فاستملتهم، لطال القول وتضاعف، وتواتر الثناء وترادف، لكنّ أمير المؤمنين يكل ذلك السالف، إلى المتعالم منه المتعارف، ويقتصر على شرح ما جرى في أيامه ليوفي المذموم ممّن استولى على أمره، حقّه من الذمّ والطعن، والمحمود ممّن حسم داءه واجبه من الشكر والحمد. وظاهر أيّدك الله، أنّ بختيار بن معزّ الدولة، هو كان الجاني على هذه الحضرة، بسوء سيرته، ولؤم ملكته، وبُعده عن فلاح المُفلِحين، ونجاح المُنجِحين، وطرائق أهله أجمعين، واستهلاكه الأموال، وإخرابه الأعمال، وإثارته تلك الشحناء [٦] بين طبقات العوام والأولياء، حتّى تغصّصوا [٧] بالرزايا، وتساقوا كؤوس المنايا، وشملهم البلاء، وعمّمهم الجلاء، وأنّ كاتبه محمَّد بن بقية، المجتمع معه في كلّ مُخزية دنيّة، ضامّه [٨] في هذا الإفساد وضافره، وعاونه عليه وآزره، وأنّ أمير المؤمنين، لم يزل نافرًا منهما وحربًا لهما، وبعيدًا من الأنس بهما، والسكون إليهما، إلى أن وردت، أيدّك الله، مدينة السلم

---

(١) الداهية، لأنها تصطَلِم.

(٢) من قولهم صعَّر خدّه وصاعره، آماله من الكبر، وفي التنزيل: «ولا تُصَعِّر خدّك للناس» وقُرِيء ولا تُصاعِر.

(٣) بمعنى خاملين، والمغمور من الرجال: الذي ليس بمشهور.

(٤) تألّفه بمعنى استماله وألفه.

(٥) مصارمون: مقاطعون، والأصل فيها، صَرَمَ الشيء أي قطعه.

(٦) الشحناء: العداوة، امتلأت بها النفس.

(٧) تغصّصوا: غصّوا (على المبالغة) والرزايا، مفردها رزيّة: وهي المصيبة العظيمة.

(٨) ضامّه: انضمّ إليه.

في سنة أربع وستّين وثلثمائة. وقد شخص أمير المؤمنين عنها، عاملاً على أن يستوطن بلادًا غيرها، وأن لا يثني وجهه عنها، فلمّا أتاه خبرك في الاشتمال عليها، ووردت كتبك عليه بمسئلة العَود إليها، واستكان بختيار لك، واستكنّ تحت ظلّك، وعلم أمير المؤمنين، أنَّ لا أمر له مع حضورك، وظنّ أنه لا خلاف عليك منه في مغيبك عنه، عاد إلى دياره واطمأنّ على سريره، ووجدك قد حصدت بسيفك أعداء الدولة، واستنقذتها من بين أظفار المحنة، وطمست آثار الجَور، ونصبت أعلام العدل، ودعوت إلى طاعة الله جلّ ذكره، وطاعة رسوله، صلّى الله عليه وسلّم، المصطفى، وخليفته في أرضه المرتضى، وأقررت المضاجع بعد نُبوّها[1]، وسكّنت الأفئدة بعد وَجيبها[2]، فكان العيش ما أقمت رغيدًا، والجناب خصيبًا، والحقّ منصورًا، والباطل مقهورًا، إلى أن عزّ منك الرأي في متابعة شيخك، ركن الدولة أبي عليّ، مولى أمير المؤمنين، تجاوز الله عن فرطاته، وأقاله من عثراته، في التخلية بين بختيار، وهذه الديار، لا جُرْمَ[3] أنه بدأ بعقوقه وثنّى بعقوقك، وذهب عن واجب حقوقه وحقوقك، وردّ حضرة أمير المؤمنين إلى أسوأ حالاتها، وشنّ عليها أنكر غاراتها، وكان لله في ذلك، سرّ قد ظهر الآن، في إبانة النفع في إقبالك إليها، والضرر في انصرافك عنها. ولم يجد أمير المؤمنين إذ ذاك مَفزعًا[4] إلاّ إليك، ولا مطلبًا للصلاح إلاّ من جهتك، فكاتبك واستقدمك واستدعاك وأعجلك، حتّى إذا بلغ الكتاب أجله حَين[5] الله بختيار، لينجز البوار، بأن بتّ حِباله منك، وقطع عصمته عنك، وفارق العزّ بمفارقتك، وارتدى رداء الذلّ بمنابذتك، وأفضت الحال بينكما، إلى أن أفضت إليه، من الوقعة التي كشفت عن غرّته وعاره، وفضيحته وشَناره[6]. وأقبلت أنت، أيّدك الله، إلى حضرة أمير المؤمنين، طاردًا له منها، ومائطًا[7] دَرَنه عنها، وموقعًا ظلّك الظليل عليها، وجالبًا يُمنك ورشدك إليها، فأقشعت الكُربة، وأفرجت اللزبة[8]، وأقبلت النعمة، وشملت الموهبة، وثبتت ولاية أمير المؤمنين منك في نصابها، وأضيفت إلى كفؤها، وتحصّلت لأحقّ الناس بها، وأقدمهم سَببًا[9] فيها، وأولاهم

---

(١) من نبا به المضجع: لم يجد عليه قرارًا.

(٢) اضطرابها.

(٣) لا جُرْم؛ ولا جَرَم أي لا بدّ ولا محالة، أو، حقًّا. ومعناها النحوي يفيد القسم، وهي هنا ليست كذلك.

(٤) المَفزع: الملجأ، تقول: فزعوا إليه، أي لجأوا إليه.

(٥) قرّبه للهلاك.

(٦) الشنار: العار، وقيل هو أقبح العيب.

(٧) يقال ماط وأماط بمعنى، أزال ونحّى.

(٨) اللزبة: الشدّة، ومثلها الأزْبة، ويقال سنة لَزْبة أي شديدة، قال في اللسان: والجمع لَزْبات بالتسكين لأنه صفة، ووردت كذلك في شعر المتنبّي.

(٩) السيب: العطاء.

بتقدّم الرتبة لديها. واقتضت هذه النعماء المتمهّدة والسرّاء المتجدّدة، أن يحدّث أمير المؤمنين بها، ويوضح للناس ما ثلج في صدره منها، وأنه يقابلك، أيّدك الله، بأفضل ما قوبل به الوليّ المبارك، والظهير المشارك، بسطًا ليديك، وإعلاءً لكلمتك، وإشادة [1] لذكرك، وإعظامًا لخَطرك، وتقليدًا لك ما نفذ أمره فيه، من شرق الأرض وغربها، وأقاصيها وأدانيها، وبرّها وبحرها، وسهلها وجبلها. وعقد أمير المؤمنين بذلك لواء لك، وجعل كتابه هذا عهدًا في يدك، وأكبرك عن المخاطبة بوصايا العهود ورسومها، وأوامرها ونواهيها، لارتفاع طبقتك عنده عن ذلك، وعلمه بأنّ لك من نفسك باعثًا على المصالح، ودليلاً إلى المراشد والمناجح، وأمر لك بخِلَع سلطانية، وحملان رائع، بمركب ثقيل، وتاج وطوق وسوار مرصّعة بالجوهر الثمين، وأضاف لك إلى اللقب بعضد الدولة، اللقب بتاج الملّة؛ إذ كانت آثارك الجميلة، وأياديك الصالحة، موجبة ذلك، وداعية إليه ومقتضية له، وباعثة عليه. وخرج أمره بأن توفى هذا الحقّ، في محاورتك ومكاتباتك، إفرادًا لك باللقبَين، عمّن لقّبه باللقب الواحد، وإنافةً بك على غايات الباقي منهم والبائد، فتلقَّ تاج الملّة، وعضد الدولة، أبا شجاع، أطال الله بقاك، ذلك أجمع، بالحيازة له والاشتمال عليه، وكن عاملاً بحسبه فيما تستوفيه من هذا الحقّ، في المكاتبات الصادرة عنك والواردة إليك، واستَعِن بالله يُعِنْك، واسترشده يُرشِدْك، واعتضِد به يَعضُدْك، واشكره يَزِدْكَ، إن شاء الله.

(١) المعروف، أشاد ذكره وأشاد به.

وكتب عنه إلى رعيّة قد خرجت عن الطاعة

أمّا بعد، أحسن الله توفيقكم، فإنَّ الشيطان لا يزال يكسو الخدَع والشبهات، سرابيل الحجج والبيّنات، ليستفلّ[١] بها الأحلام، ويستزلّ بها الأقدام، وتتّجه له المداخل على عقول ربّما استركّها واستضعفها، ومال بها إلى موارد غوايتها، وأزالها عن سنن هدايتها، وأراها الحقّ مَحالاً، والرشد ضَلالاً، والخطأ إصابة، والخَطَل أصالة. بذلك جرت منه العادة، وقامت عليه الشهادة، واستحقّ أن تعصب عليه اللعنة، وتتوقّى منه الفتنة. وإذا كان ذلك كذلك، فحقيق على كلّ ناظر لنفسه، وحافظ لدينه، أن يتحرّز من الوقوع في أشراكه المبثوثة، وحبائله المنصوبة، وخطاطيفه الحُجْن[٢]، التي تجتذب القلوب، وتغتال الألباب، وتورد الموارد، التي لا صدر عنها، ولا انفكاك منها، وأن يتّهم هواجس فكره ووساوس صدره ويعرضها على نظره وفحصه، وتأمّله وبحثه، فإذا خلصت من الشوائب، وسلمت من المعايب، وضاقت على الشيطان فيها حيَله، وانحسمت عنها غيَله[٣]، وخولف فيها الهوى الذي قليل ما يشاكلها ويضاهيها، وكثير ما يخالفها وينافيها، كان إتيانه ما يأتيه منها، عن نيّة لا شكّ معها، ووثيقة لا طعن عليها، ويقين من السلامة في أُولاها وأُخراها، والسعادة بفاتحتها وعُقباها. وقد علمتم، رحمكم الله، أنَّ هذا الشيطان اللعين، نازغ[٤] لكم منذ حين، وأنكم على ثبج[٥] من خطة فتنة قد لمعت بوارقها، وزمجرت رواعدها، وجرّت على المسلمين الفرقة التي لا شيء أضرّ منها، ولا أنفع من تجنّبها والنزوع عنها، قال الله وهو أصدق القائلين وأكرم المنعِمين: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[٦]. ومن خالف آدابه وسننه، وتنكّب مناهجه وسبله، فقد خسر دنياه وآخرته، وأضاع عاجلته وآجلته، وتبوّأ مقعده من النار، واستحقّها استحقاق الكفّار والفجّار، والله يُضلّ من يشاء ويَهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١) استفلّ من الفَلّ أي الكسر، ومنه حديث عليّ رضي الله عنه: يستزلّ لُبك ويستفلّ غَربك، أو هو استفلّ بمعنى، أصاب من الموضع العَسر شيئًا قليلاً.

(٢) الخطاطيف، جمع خُطّاف وهو حديدة حجناء تُعقل بها البكرة من جانبيها، فيها المحور، قال النابغة:

خطاطيفُ حُجْنٌ في حبال متينةٍ ... تمدّ بها أيدٍ إليك نوازع*

* نوازع: جواذب.

(٣) الغيَل: الشرور.

(٤) نازغ، تقول: نزغ الشيطان بينهم أي أغوى بعضهم على بعض.

(٥) ثبج كلّ شيء، معظمه ووسطه وأعلاه.

(٦) من الآية: ١٠٣، من سورة آل عمران.

وتواترت إلى أمير المؤمنين أخبار أهمّته، وأنباء أرمضته[1]، من اجتماع طوائف من أحداثكم، على أمر خرجوا فيه عن طاعته، ونكثوا بيعته، ممّا أظهروه من مشايعة، مَن لم يجعل أمير المؤمنين له ولاية عليكم، ولا سبيلاً إلى تقلّد شيء من أموركم، بل هو مقيم من عناده وبعيث في بلاده، على مركب سيستوعره، ومشرب سيستمرّه[2]. وهذه حال لا ينتظم لكم معها نظام، صلاة ولا زكاة، ولا مناكحة ولا محاكمة؛ إذ كان ذلك إنّما يصحّ أن يتولاّه أمير المؤمنين، أو من يقلّده إيّاه، أو يستخلفه عليه من أوليائه الراشدين، وأمّا إذا اقتديتم فيه بيدٍ قد خرجت عن عصمته، وسقطت من جملته، وبرئت ذمّته منها، وأُنبتّت الأسباب بينه وبينها، فأنتم في هذا الفعل حارجون[3] آثمون، غاوون ضالّون، وكلّ راض منكم به، فقد أسخط آلهه ونبيّه وإمامه بالنصّ من قوله الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[4]. فما عذر أحدكم غدًا، يوم يُجزى المحسن عن حسناته والمسيء عن سيآته، إذا لقي ربّه، وقد خالف أوامره مفرّطًا، وقارف[5] نواهيه متورّطًا، وسمع آياته فتعدّاها، وتجاوز حدوده وتخطّاها، وأمير المؤمنين، يستعيذ بالله لنفسه ولكم من زلّة القدم، وعاقبة الندم، ويسأله أن يردّكم إلى الأولى، ويلهمكم التقوى، ويَصدف بكم عن المناهج المُغوية، والموارد المخزية، بحَوله وطَوله. ولو كنتم، والله يعصمكم، كفّارًا لأوجب أمير المؤمنين على نفسه، أن يبدأكم في الدعاء إلى الحقّ، بالقول الأحسن والطريق الألين، رجاء أن يعطف الله بكم إلى الهدى، ويشعركم شعار أهل الحِجى، من حيث لا يُسفك لكم دم، ولا يُنتهك محرّم. فأمّا وأنتم مسلمون مؤمنون، لكنّكم مخطئون غالطون، فأحرى وأولى، أن يصبر عليكم لتتّزعوا، ويتأنّاكم لترجعوا، ويقيم في أنفسكم الحجّة، ويردّكم إلى سواء المحجة[6]، لكن قد جعل الله لذلك حدًّا محدودًا وأمدًا معلومًا، ومتى قلّ انتفاع أمير المؤمنين منكم، وأطلتم عناءه فيه، ورآكم على المعصية مُصرّين وللنقمة مُستجرّين، فهل يجد بدًّا من تسريب العساكر إليكم، وإطلاق أعنتها عليكم، وهل يُماز[7] لها حينئذٍ، بريئكم من سقيمكم، وبَرّكم من أثيمكم، ألا ترون إلى قول الله: ﴿واتّقوا

---

(١) أوجعته.

(٢) يستمرّه: يجده مرًّا.

(٣) آثمون من الحرج وهو الإثم، وفي نسخة، خارجون.

(٤) من الآية: ٥٩، من سورة النساء.

(٥) قارف: قارب (الذنوب خاصّة)، ويعني هنا أنه قارب ما نهى الله عنه.

(٦) المحجّة: جادّة الطريق ووسطه. فكأنه قال: سَواء السبيل.

(٧) يُماز: يتميّز (على غير القياس).

فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة﴾[1]. وأيّ فتنة هي أعظم من طاعة الشيطان ومعصيّة السلطان، والعيث في الدمار والديار، واتّباع السفهاء الأغمار، الذين يحملونكم على أشنع خطّة، ويلجئونكم إلى أضيق ورطة، هيهات ما أضلّ ذلك من رأي، وأسوأه من اختيار، وأبعده من سداد وصواب، وأخلقه بعائدة نَكال ووَبال. وأمير المؤمنين يُعذر ويُنذر، ويَعِظ ويَزجر، ويُخوّف ويُحذّر، ويعيد ويكرّر، إبقاء عليكم، ورعاية للحقّ الذي يوجبه فيكم، فمن رجع القهقرى، ونزع وارعَوى، فالتوبة تنفعه، والإنابة تنعشه، والعفو يسَعه، والحلم يغمره، ومن دام على لجاجه وأصرّ على اعوجاجه، فجيوش أمير المؤمنين تطرقه، وعساكره ترهقه، والمعاصم تلفظه[2]، والمعاقل تسلمه، والشقي من كان معه، والسعيد من بريء منه.

(١) من الآية: ٢٥، من سورة الأنفال.

(٢) في الحديث: ويبقى في كلّ أرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم أي تقذفهم.

وكتب عن الطائع لله، إلى عضد الدولة أبي شجاع بن ركن الدولة أبي عليّ

من عبد الله عبد الكريم، الإمام الطائع لله، أمير المؤمنين، إلى عضد الدولة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي عليّ، مولى أمير المؤمنين، سلام عليك، فإنَّ أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يصلّي على محمَّد، عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلّم. أمّا بعد، أحسن الله حفظك وحياطتك، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة فيك، فإنّك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين، بحيث يقتضيه تأهيله إيّاك لها وإنافته بك إليها، ألاّ يصبر منك على حدوث قطيعة، ولا يغضى لك على اعتراض جفوة، ولكنّه يوجب في الحقوق بينه وبينك، والأواصر المتَهدة[1] عنده لك، أن يَجمّ[2] صفوة الحال عمّا يشوبها، وينقّيها ممّا يعيبها، ويتأنّاك إلى أن تعود من ذاتك، إلى ملازمة طبعك السليم وسننك المستقيم. ويعتقد أنك منه كالعين الناظرة، التي تُصان عمّا يقذيها، واليد الباطشة التي تُحفظ ممّا يَدويها[3]، وأنك من الطبقة المنيفة، وذوي الأنفس الشريفة، الذين يصلحون على الإكرام، ويسمحون مع الإجمال، ويعرفون حقّ ما يُتناولون به من الملاينة، ويسلك بهم من طريق المحاسنة، وما يضع أمير المؤمنين ذلك منك بحمد الله ومَنّه، إلاّ عند المحقّق لظنّه، والمصدّق لمخيّلته، والمغتبط بفعله، والمفترض لشكره. وقد كان أمير المؤمنين كاتَبك، أحسن الله الإمتاع بك، من الأهواز، بما قدّر أنه كاف في كفّك عن الزحف إليها، والهجوم عليها، وبذل لك من نفسه، وعن عزّ الدولة، أمتع الله بكما، وحماه من استمرار الشغب بينكما، أفضل ما يبذل لمن يستل ما في نفسه من ضغينة[4]، ويستخرج ما في صدره من دفينة[5]، ويتابع في كلّ إيثار وبُغية، ويُبلّغ كلّ أمل وأمنية، ما كان ذلك داخلاً في الاستطاعة، وحاصلاً تحت الإمكان والطاقة. ووجد عند عزّ الدولة أبي منصور، أدام الله إمتاعه بكما، الإذعان[6] للطاعة والمسارعة، غير مشاحّ[7] ولا منافس، ولا متثاقل ولا متقاعس، ولا عادل عن الأولى بكما، والأوصل للرحم بينكما، فلم يكن منك عند ورود الكتاب عليك، ما أمله أمير المؤمنين فيك، ممّا يلائم سداد طرائقك

(١) الأواصر المتَهَدة: الروابط ذات (التسوية والإصلاح) أو القائمة على ذلك.

(٢) أجمّ: أراح أو جمع.

(٣) من الدوى وهو المرض والضنى.

(٤) الضغينة: الحقد.

(٥) الدفينة: كلّ ما يُستر ويُدفن (مجازًا) في النفوس والصدور.

(٦) الإذعان: الخضوع والانقياد.

(٧) مُشاحّ: مُماحك. يستأثر بالشيء، ويمنعه عن غيره.

ومساعيك، لكنّك سرت إلى موضع كذا، ودخلته على سبيل المنازعة، التي تَلِف فيها من المسلمين، قتلاً وغرقًا وضيعة وجهدًا، العدد الكثير، الذي مِثلك من تحرّج[1] منه وأباه، وكرهه وتوقّاه. ولمّا رآك أمير المؤمنين مجريًا إليه، وحاملاً نفسك عليه، مع المعلوم من نخوتك، والمأثور من تذمّمك[2]، أيقن أنَّ تلك الحفيظة غالبت حلمك، ودافعت كظمك[3]، فتجشّمت لها ما جشمَتْك[4] عن حرارة قلب بردّتها، وغلّة صدر نَقَعتها، وحاجة نفس قضيتها، وتحلة قسم أبررتها[5]، فأوجب أمير المؤمنين أن يعاود مكاتبتك بالقول الألين، واللفظ الأحسن، إغراقًا في استصلاحك إلى غايته، وأخذًا من الحزم عليك بأوكَده، وألزمه وخرج أمره، عند فاجئة خبر الوقعة له، بإنفاذ فلان لتأدية رسالة، هي عن أمره وإذنه، وأتبعها بهذا الكتاب تأميلاً أن يصادفك. وقد اكتفيت واشتفيت، وانتهيت واتّقيت، وانتقلت عن مركب المَغيظ[6] الثائر، إلى مركب المراجع الساكن، فيجمع لك إلى الغرض الذي أصبته، وإن تعسّفت الطريق، حُسن التوفيق، والانصراف عنه إلى ما هو أزين بك منه، والعدول إلى استئناف الجميل، بين أمير المؤمنين وبينك، وصلة ما أمر الله به من سبب فلان، ولم يقم على ما يشتّت الإلفة، ويفرّق الكلمة، ويُفرّع الوحشة، ويُشعِّب الفتنة، ويُمكِّن الأعداء منكما، ويطَّرق لهم[7] عليكما، بعد أن كانت أعينهم عنكما مغضوضة، وأيديهم عن القدح في دولتكما ونعمتكما مقبوضة. وقد علمت أنَّ هذا الخلاف بينك وبين من جعله الله منك، وخصّصه بك، يؤدّي إلى طمع طوائف من الأعداء المنحرفين عنكما، والجند المُطيفين بكما، فيتّخذونه سوقًا، ويجعلونه إلى استئكال الأموال طريقًا. وإذا كان بينك وبين أمير المؤمنين منيرًا مسفرًا، وكان عزّ الدولة، على متابعتك وموافقتك ماضيًا مستمرًّا، فالأروَح لقلبك، والأربح لمالك، والأصلح لحالك، أن تتقبّل ما جنح إليه معك، وأن تكون هذه الكُلَف ساقطة عنك.

وأمير المؤمنين الآن يأمرك بما يأمر به الداخل في بَيعته، والنازل على حكم مشايعته، من استدامة رأيه فيك، الحسن الجميل، وثنائه عليك العريض الطويل، بالاستجابة إلى ما دعاك

---

(١) كفّ وتأثم.

(٢) التذمّم: الاستنكاف، يقال: لو لم أترك الكذب تأثّمًا لتركته تذمّمًا.

(٣) كظم، تقول كظم غيظه إذا حبسه وأمسك على ما في نفسه منه.

(٤) تجشّم: تكلّف على مشقّة.

(٥) حلل اليمين تحليلاً وتَحلة كفرها، وقولهم فعلته تَحلة القسم، أي لم أفعل إلاّ بمقدار ما حللت به قسمي، ومنه قول العرب: ضربته تحليلاً ووعظته تعذيرًا، أي لم أبالغ في ضربه ووعظه، قال ابن الأثير: هذا مثل في القليل المفرط القلّة، وهو أن يباشر من الفعل الذي يقسم عليه المقدار الذي يبرّ به قسمه، ويحلّله.

(٦) المَغيظ، مَن أغظته أي مَن أغضبته.

(٧) يطّرق لهم: يجعل لهم طريقًا.

إليه، والطاعة له فيما حضّك عليه، والوقوف بحيث انتهيت، وترك الزيادة على ما بلغت، وتدبير حضرة أمير المؤمنين، ومن بها من عزّ الدولة، ومَن دونه مِن الناس أجمعين، بما يتعمّد أن لا يكون فيه شطَط عليهما، فإنّهما يتعمّدان أن لا يقع خلاف منهما. ومتى فعلت ذلك ضمَمت النشر، وحصّلت الأجر، ووصلت الحبل، وجمعت الشمل، وحقنت الدماء، وسكّنت الدهماء، وقُوبلْت من أمير المؤمنين، بالنهاية من تشريفه وتكريمه، والغاية من تقديمه وتعظيمه، ومن عزّ الدولة، وهب الله لأمير المؤمنين التوفيق لكما، وصلاح ذات البَين منكما، بأفضل ما قابل به الولد والده، والأصغر كبيره، وكان ومَن بعده ومَن دونه مسلّمين لك، مُقرّين بفضلك، وأن تكنّ الأخرى، والله المعيذ منها، احتاج أمير المؤمنين بالضرورة التي لا خيار معها، ولا لوم على مَن أُلجئ إليها، إلى أن يفارق دياره ويهاجر أوطانه، ويضرب في البلاد منحازًا عن الفتنة، وناجيًا إلى جنب السلامة، ثمَّ يكون ظاهر ذلك مباينًا لموجبات فضلك ودينك، ولمعتقده فيك ولك، ولم يؤمن أن يتدنّس من ذكرك، ما ترتفع عنه بخطرك وقدرك، وقد كان في حقّ السياسة عند أمير المؤمنين، أن يطيل كتابه هذا بعِبَر يذكّرك بها، وأمثال يضربها، وآيات يتلوها، وأخبار يأثرها، وأن يشير عليك باتّباع أقصد الطرق، وأرشد الخُلق، لكنّه عالم بأنك الحُوَّل القُلَّب[1]، المحنّك المجرّب، الثاقب في درايته، الغزير في روايته، المرتفع عن منزلة مَن يوقظ مِن غفلته، ويستهب من سُنّته[2]، وأنك ترجع إلى نفس أمّارة بالخير، بعيدة عن الشرّ، توّاقة إلى لباس الفخر، مدلولة على سُبُل البرّ، محقوقة[3] بأن تتنزّه عن سوء قالة[4] القائلين، وأحاديث المتحدّثين، وعن أن تنسب إلى ما قد باعدك الله عنه، من مفارقة كرمك إذا ظفرت، وإسجاحك إذا ملكت[5]. فاعمل في ذلك، أمتع الله أمير المؤمنين بك، وكفاه محذور كلّ خطّة فيك، بما هو الأَولى بفضلك والأحرى بمثلك، والأخلق بكمالك، والأليق بمحمود خلالك، وأَجِب عن هذا الكتاب، وعمّا يقدّم من الرسالة جوابًا يحسن موقعه، وينشر لك علم الدين والمروّة معه، إن شاء الله. والسلام عليك ورحمة الله، وكتب فلان بن فلان، يوم السبت لثمانٍ خَلَون من ذي الحجة سنة ستّ وستّين وثلثمائة.

---

(١) رجل حوّل قلّب: محتال بصير بتقليب الأمور.

(٢) يستهب من سُنّته: يسأل الهبة منها.

(٣) محقوق به كحقيق به أي خليق له وجدير به.

(٤) القالة كالقال والقيل.

(٥) الإسجاح: حسن العفو، وفي المثل السائر للعفو عند المقدرة، ملَكْتَ فاسْجَح، قالته عائشة لعليّ رضي الله عنهما يوم الجمل، حين تغلّب على جماعة طَلحة والزبير ووقعت عائشة في أسره.

وكتب نسخة كتاب، إلى أبي تغلب ابن حمدان

أمّا بعد، أحسن الله توفيقك وحفظك وحياطتك، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة فيك. فقد عرفت خبر مسير أمير المؤمنين عن داره للأمر الذي انتشر عليه، وظنّ أنه لمباشرته إيّاه، يعود إلى نظامه ويستقرّ في نصابه، وتنحسم عنه أسباب الخلاف والوحشة، ودواعي الشتات والفرقة. وقد علمت أنَّ أمير المؤمنين لم يُجشمك إلى هذه الغاية، معاونة له على شيء، ممّا حفّزه وأرهقه، وألمّ به وطَرقه، وقد كلّف ذلك غيرك ممّن ليست له ما لك من المنزلة، وإنّما ذهب أمير المؤمنين في ذلك، إلى أن يتّخذك لأشدّ الشدّة، ويعتقدك[1] للعاقبة، إن احتاج فيها إلى النجدة. وقد انتهت الحال به في الأمر الذي أومأ إليه، إلى ما اقتضاه الرجوع منك، إلى تلك العدّة التي اعتدّها، والذخيرة التي استظهر بها، ورأى أن يهيب بك في الدفع عن بيضة الإسلام، ومدينة السلام، وأن تدعو إلى ذلك كلّ مَن يليك، من جند أمير المؤمنين المرتزِقة ورعيته المطوَّعة، وهو يأمرك بالعمل على ما رسمه، وأن تبلّغ هذه الطوائف قوله، وتُخرج إليهم أمره، وتبعثهم أن يُجيبوا نداءه، ويلبّوا دعاءه، ويجتمعوا معك على المسير إلى مستقرّه، والمثول ببابه، وإبلاء العذر[2] معه، في هذه العظيمة، التي هو مُشفٍ عليها، وواقف بإزائها. فقد جعل الله الطاعة له، والجهاد معه، فريضة، مشكورًا من أدّاها وسارع إليها، مذمومًا من أغفلها وتثاقل عنها. فاعمل كلأك الله بذلك ولا تخالفه، وقدّمه ولا تؤخّره، وأجب عن هذا الكتاب بوقوفك عليه، وانتهائك إليه، وبالوقت الذي يكون مسيرك، وبالعدّة التي تتكامل لك، إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكُتب يوم كذا.

---

(١) اعتقد: جمع، كأنه أراد أن يقول: إنّه يدّخرك لهذا الأمر ويجمعك له.

(٢) إبلاء العذر: تبيين وجه العذر، بما يرفع اللوم أو العمل إلى حدّ بلوغ العذر، وفي حديث بَرّ الوالدين: أَبْلِ اللهِ تعالى عُذرًا في بِرّها.

وكتب أيضًا إلى جماعة أهل البصرة

أمّا بعد، فقد علم فاضلكم بما سمع ووعى، ونقل وروى، ومفضولكمْ بما بالغ فيه واجتهد، وسلّم له وقلّد، أنَّ الطاعة مفروضة على الجمهور، وبها قوام الأمور، وأنَّ الله حضّ عليها وأرشد إليها في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، وأنَّ من الآداب التي أدبنا بها معشر المسلمين أن نتفاوض الإلفة، ونتجنّب الفرقة، وتتّفق منّا الكلمة، وتجمعنا العصمة، بقول الله: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾[1]. وبالأثر عن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم؛ إذ يقول: "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد[2] على مَن سواهم" وإنَّ الخارج عن هذا الإجماع فاسق مارق، حقيق بأن يُوعَظ ويُرشد، ويُوقف ويُسدّد، فإن أطاع، وإلاّ جُوهِد حتَّى يرجع إلى عمود الطاعة، وزمرة الجماعة، وغير ذاهب عنكم أنَّ الأئمّة إنّما تقتدر على سياسة الأمّة، وتستقلّ بالأعباء المضلعة بأعوانها وكُفاتها، ورجالها الحاملين عنها، وأنها لو رامت أن تلي كلّ الأمورِ بنفوسها فيما جلّ ودقّ من شؤونها، وقرُب وشطّ من أعمالها، لأعجزها ذاك إعجازًا، يدخل معه الخلل ويعود بالوهن والشلل، لكنّها لم تزل ترتّب رجالها مراتبهم، وتحمّلهم طاقتهم، وتقسّم الولايات بينهم، وتنقلها عن واحد إلى واحد منهم، وليس لهم أن يعتاصوا[3] ولا يمتنعوا، ولا يخالفوا ولا يعارضوا. وقد سبق من أمير المؤمنين، ما سبق ممّا حفظه عنه الشاهد بمشهده، والغائب بما تواتر إليه، وصحّ عنده أنَّ فلان، ابن فلان، سيفه ومِجنّه[4] ونابه وعدّته، وأنَّ الموافق له مطيع محمود، والمخالف عليه عاصٍ مذموم، وأولياء أمير المؤمنين جميعًا بعده مرتّبون مراتبهم، مقرّون على أمورهم، لا يراد منهم إلاّ الطاعة والانقياد، وإجراء الأمور على النظام والسداد. وقد كان فلان على معرفة بحقّ فلان، وإيجابٍ له، ورعاية لما بينه وبينه، وكان أمير المؤمنين يتبع إيثاره وموجبات الرأي عنده، في حمله على ظاهر الطاعة، واستدامة ما يبديه من المجاملة، إلى أن انحرف وخالف، وجاهر وكاشف، فبدأه أمير المؤمنين، وفلان، بالملاطفة، ودعَواه إلى المواصلة، ونهَياه عن المقاطعة، وعرّفاه ما في عاقبة العصيان، من سخط الله جلّ جلاله، ورسوله عليه صلواته وسلامه،

---

(١) من الآية: ١٣، من سورة الشورى.

(٢) اليد: الولاية، والسلطان، والقوّة، والجماعة الواحدة المتماسكة.

(٣) اعتاص، تقول اعتاص الأمر (اعتياصًا) عليه: اشتدّ وامتنع، والتاثَ عليه فلم يهتدِ إلى الصواب.

(٤) ترسه.

وأهابا به إلى التمسّك بالعصمة، والمقام على شروط البَيعة، التي هي كالأطواق في الأعناق، والجوامع[1] في المعاصم، فأبى إلاّ المغالطة في المراسلة، والغفلة عن الإجابة، والتوثّب على البلاد، والانتهاك للعباد، وضَرْب وجه السلطان بالقوّة التي أعطاه، والسيف الذي قلّده إيّاه. ولمّا رأى أمير المؤمنين ذلك، سار بنفسه ولم يَكِل الأمر إلى غيره، وأمل فيه أن يوجب له، ويصغي إليه، ويقبل منه، وينتهي إلى أمره، فكان على جملته في سياقة الجيش إلى الأعمال، متوثّبًا عليها ومُستحلاً لدماء وأموال أهلها، بغير عهد، ولا عقد، ولا حجّة، ولا وثيقة، بل على بصيرة من المخالفة في ذلك لأمير المؤمنين، والخروج عن إجماع المسلمين. فما ترك أن كاتبه بما يجب عليه، وراسله بما لم يَحُك[2] فيه، فحينئذٍ خاف أمير المؤمنين على حُشاشة نفسه التي حفظها، عائد عليه خصوصًا، وعلى الأمّة عمومًا، فنصب فلانًا للمقارعة، وندَبه للممانعة، وانحاز إلى حيث يأمن فيه من بادرة الفتنة، وفاجئة الوقعة، وكان منه ما كان، ممّا قد عرفتموه وتحقّقتموه، من الإيقاع بعسكر أمير المؤمنين، وسفك دماء المسلمين، حتَّى كأنه مجاهد في سبيل الله، أو مُبلٍ في ثغر من الثغور، وقد قَذيَت عين أمير المؤمنين بهذا الفادح العظيم، والزرء الأليم. وآمل منكم، يا معشر أهل البصرة، الغناء والنصرة، وكذلك ما مال إليكم، وقرب منكم، وكتب هذا الكتاب ليُقرأ عليكم.

وأمير المؤمنين يعلمكم، أنَّ عزّ الدولة[3]، يده التي يبطش بها، وعدّته التي يُعوِّل عليها، ويأمركم بالجهاد معه والنصر له، والكَون[4] على كلّ مخالف عليه ومنازع له. وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم، بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم، وجعلكم في أضيق حَرج، من التقصير أو التعذير، أو المراقبة أو المخاتلة، وليس لكم صلاة ولا زكاة، ولا عقد ولا مناكحة، و لا معاملة، إلاّ مع طاعته والإخلاص له، سرًّا وجهرًا وقولاً وفعلاً. فاعلموا ذلك من رأي أمير المؤمنين، واعملوا عليه، واعتمدوه وانتهوا إليه، إن شاء الله.

(١) جمع جامعة، وهي الغَلّ لأنها تجمع اليدين إلى العنق، قال: ولو كُبِّلت في ساعديّ الجوامع.

(٢) يؤثّر ويرسخ.

(٣) مجرى السياسة الآن مع عزّ الدولة بختيار، والمقصود بفلان في هذا الكتاب، هو عضد الدولة.

(٤) الكون على كذا أي كونوا على كذا. كتبها على (المصدر المُعرَّف).

وكتب عن المطيع لله، في أيام أبي محمَّد الحسن بن محمَّد المُهَلَّبي، في نقل سنة إحدى وخمسين وثلثمائة

ونقلت سنة خمسين وثلثمائة الخراجية[١]، إلى سنة إحدى وخمسين وثلثمائة في خلافة المطيع لله، وإمارة معزّ الدولة، ووزارة أبي محمَّد الحسن بن محمَّد المُهَلَّبي، بكتاب أنشأه أبو اسحق، وهو يومئذٍ صاحب ديوان الرسائل، نُسخته.

أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين لا يزال مجتهدًا في مصالح المسلمين، وباعثًا لهم على مراشد الدنيا والدين، ومهيبًا[٢] بهم إلى حسن الاختيار، فيما يُوردون ويُصدرون، وصواب الرأي فيما يُبرمون وينقضون، فلا يلوح له خَلّة على أمورهم إلاّ سدّها[٣] وتلافاها، ولا حال عائدة بحظّ عليهم، إلاّ اعتمدها وأتاها، ولا سنّة عادلة إلاّ أخذهم بإقامة رسمها، وإمضاء حكمها، والاقتداء بالسلف الصالح، بالعمل بها، والاتّباع لها. وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها، وتجهله العامّة بقصور أذهانها، وكانت أوامره فيه خارجة إليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله، وأماثل عمّاله، والذين يكتفون بالإشارة، ويجتزئون بيسير الإبانة والعبارة، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ، وإيضاح المعنى، إلى الحدّ الذي يلحق المتأخّر بالمتقدّم، ويجمع بين العالم والمتعلّم، ولا سيّما إذا كان ذلك ممّا يتعلّق بعَمالات الرعية، ومن لا يعرف إلاّ الظواهر الجليّة دون البواطن الخفيّة، ولا يسهل عليه الانتقال من العادات المتكرّرة إلى الرسوم المتغيّرة، ليكون القول المشروح، لمن برز في المعرفة مُذكّرًا، ولمن تأخّر فيها مُبصّرًا، ولأنه ليس في الحقّ أن تُمنع هذه الطبقة، من بَرْد اليقين[٤] في صدورها، ولا أن يقتصر على اللمحة الدالّة في مخاطبة جمهورها، حتّى إذا استوت الأقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به، وفِقْه[٥] ما دعوا إليه، وصاروا فيه على كلمة سواء، لا يعترضهم شكّ الشاكّين، ولا استرابة المُستريبين، اطمأنّت قلوبهم، وانشرحت صدورهم، وسقط الخلاف بينهم، واستمرّ الاتّفاق فيهم، واستيقنوا أنهم مَسوسون على استقامة من المنهاج، ومحروسون من جرائر الزيغ[٦] والاعوجاج، فكان الانقياد منهم، وهم دارون عالمون، لا مقلّدون مسلِّمون، طائعون

(١) النواقل من الخراج، في الأصل: ما يُنقل من قرية إلى أخرى، والمعنى هنا، من سنة إلى أخرى.

(٢) داعيًا.

(٣) قوله؛ سدَّ الخلّة (ها هنا) بمعنى تلافي الخلل، أو سدّ العَوَز.

(٤) بَرْد اليقين، والحقّ: ثباته.

(٥) فِقْه، (اسم) وفَقِهَ (فعل) أي عَلِمَ وفَهِمَ تمامًا.

(٦) الزيغ: الميل، قال تعالى: «ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» أي لا تُمِلْنا عن الهُدى والقصد، ولا تُضِلَّنا.

مختارون، لا مكرهون مجبرون. وأمير المؤمنين، يستمدّ الله المعونة في جميع أغراضه ومراميه، ومطالبه ومغاديه، مادة من صنعه تقف به على سنن الصلاح، وتفتح له أبواب النجاح، وتُنهضه لما أهّله بحمله من الأعباء، التي لا يدعى الاستقلال بها إلاّ بتوفيقه، ولا التوجّه فيها إلاّ بدلالته وهدايته، وحسب أمير المؤمنين الله، ونعم الوكيل.

وأمير المؤمنين، يرى أنَّ أولى الأقوال أن يكون سَددًا، وأحرى الأفعال أن يكون رشدًا، ما وُجد له في السابق من حكمة الله، أصول وقواعد، وفي النصّ من كتابه، آيات وشواهد، وكان مفضيًا بالأمّة إلى قوام من دين ودنيا، ووفاق من آخرة وأُولى، فذلك هو البناء الذي يثبت ويعلو، والغرس الذي ينبت ويزكو، والسعي الذي تنجح مساعيه وهواديه[1]، وتُبهج عواقبه وتواليه، وتنير سبله لسالكيها، وتوردهم النحور والثغر[2] من مقاصدهم فيها، غير ضالّين ولا عادلين، ولا منحرفين ولا زليلين. وقد جعل الله، عزّ وجلّ، لعباده من هذه الأفلاك الدائرة، والنجوم السائرة، فيما يتقلّب عليه من اتّصال وافتراق، ويتعاقب عليها من اختلاف واتّفاق، منافع تظهر في كُرور الشهور والأعوام، ومرور الليالي والأيام، وتناوُب الضياء والظلام، واعتدال المساكن والأوطان، وتغاير الفصول والأزمان، ونشوء النبات والحيوان. فما في نظام ذلك خلل، ولا في صنعة صانعه زَلل، بل هو مَنُوط بعضه ببعض، ومحفوظ من كلّ ثَلم ونقض، قال الله عزّ وجلّ: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلاّ بالحقّ﴾[3]. وقال: ﴿أَلم ترَ أنَّ الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كلّ يجري إلى أجَل مُسمّى﴾[4]. وقال: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها﴾[5]. وقال: ﴿والقمر قدّرناه منازل حتَّى عاد كالعُرجون القديم﴾[6]. ففصّل تعالى في هذه الآيات، من الشمس والقمر، وأنبأنا في الباهر من حِكَمه، والمُعجز من كَلِمه، أنَّ لكلّ منهما طريقًا سُخِّر فيها، وطبيعة جُبل عليها، وأنَّ تلك المباينة والمخالفة في المسير، يؤدّيان إلى موافقة وملاءمة في التدبير. فمن هناك زادت السنة الشمسية فصارت ثلثمائة وخمسة وستّين يومًا وربعًا، بالتقريب المعمول عليه،

(١) أوائله، والهادية من كلّ شيء أوّله.

(٢) جمع ثُغرة، وهي نُقرة النحر فوق الصدر.

(٣) الآية: ٢٩، من سورة لقمان.

(٤) من الآية: ٣٨، من سورة ياسين.

(٥) ومن الآية: ٣٩، من سورة ياسين.

(٦) الآية: ٢٥، من سورة الكهف.

وهي المدّة التي تقطع الشمس فيها الفلك مرّة واحدة، ونقصت السنة الهلالية، فصارت ثلثمائة وأربعة وخمسين يومًا وكَسْرًا، وهي المدةّ التي يجامع فيها القمر الشمس، اثني عشرة مرّة. واحتيج إذا انساق هذا الفصل، إلى استعمال النقل الذي يطابق إحدى السنتين بالأخرى إذا افترقتا، أو يداني بينهما إذا تفاوتتا، وما زالت الأمم السالفة تكبس زيادات السنين على أفنان[1] من طرقها ومذاهبها، وفي كتاب الله تعالى شهادة بذلك؛ إذ يقول في قصّة أهل الكهف: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعًا﴾. فكانت هذه الزيادة بإزاء ذلك الفصل، في السنين المذكورة على التقريب، فأمّا الفُرْس فإنّهم أَجرَوا معاملاتهم على السنة المعدّلة، التي شهورها اثنا عشر شهرًا، وأيامها ثلثمائة وستّون يومًا، ولقّبوا الشهور اثني عشر لقبًا، وسمّوا أيام الشهر منها ثلثين اسمًا، وأفردوا الأيام الخمسة الزائدة، وسمّوها المُسترَقة، فكبسوا الربع في كلّ مائة وعشرين سنة شهرًا. فلمّا انقرض ملكهم، بطل في كبس هذا الربع تدبيرهم، وزال نَورُوزهم[2] عن سَنته، وانفرج ما بينه وبين حقيقة وقته انفراجًا، هو زائد لا يقف، ودائر لا ينقطع، حتّى أنَّ موضوعهم فيه يقع في مدخل الصيف، وسينتهي إلى أن يقع في مدخل الشتاء، وسينتهي إلى أن يقع في فصل الصيف ويتجاوزه. وأمّا الروم فكانوا أتقن منهم حكمة وأبعد نظرًا في عاقبة، لأنهم رتّبوا شهور السنة على أرصاد رصدوها، وأنواء[3] عرفوها، وفضّوا الخمسة الأيام الزائدة على الشهور، وساقوها معها على الدهور،

---

(١) ضروب.

(٢) النيروز والنوروز واحد، وهو فارسي معناه يوم جديد.

(٣) الأنواء جمع نوء، والنوء: النجم إذا مال للمغيب، ويُجمع أيضًا على نوآن، قال حسّان بن ثابت الأنصاري:

ويثربُ تعلم أنا بها ... إذا قحط الغيث نوآنها

وقيل النوء هو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه وهو نجم آخر يقابله من ساعته في المشرق في كلّ ليلة إلى ثلاثة عشر يومًا، وهكذا كلّ نجم منها إلى انقضاء السنة، ما خلا الجبهة فإنَّ لها أربعة عشر يومًا، وتسمية السقوط نوءًا من الأضداد، وقيل سُمِّي نوءًا لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع أي نهض. وكانت العرب تنسب الأمطار والرياح والحرّ والقرّ إلى الأنواء إذا سقط منها نجم وطلع الآخر، فيقولون، مطرنا بنوء الثريّا والسِّماك، وهلمّ جرّا، قال أبو عبيد: الأنواء ثمانية وعشرون نجمًا معروفة المطالع في أزمنة السنة كلّها، من الصيف والشتاء والربيع والخريف، يسقط منها في كلّ ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته، وكلاهما معلوم مُسمّى، وانقضاء هذه الثمانية والعشرين كلّها مع انقضاء السنة، ثمَّ يرجع الأمر إلى النجم الأول مع استئناف السنة المقبلة. وكانت العرب في الجاهلية إذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا، لا بدّ أن يكون عند ذلك مطر أو رياح، فينسبون كلّ غيث يكون عند ذلك، إلى ذلك النجم، قال شمر: هذه الثمانية وعشرون التي أراد أبو عبيد، هي منازل القمر، وهي معروفة عند العرب وغيرهم من الفرس والروم والهند، ينزل القمر كلّ ليلة في منزلة منها، ومنه قوله تعالى: (والقمر قدّرناه منازل)، وقد رأيتها بالهندية والرومية والفارسية مترجمة، قال: وهي بالعربية فيما أخبرني به ابن الأعرابي:

الشرَطان	الجَبْهة	الشَّولة
البُطَين	الخَراتان	النَّعائم
النّجم	الصَّرْفة	البَلْدة =

وكبسوا في كلّ أربع سنين يومًا، ورسموا أن يكون إلى شباط مضافًا، فقرّبوا ما بعّده غيرهم، وسهّلوا على الناس أن يقتفوا أثرهم. لا جرم أنَّ المعتضد، صلوات الله عليه، على أصولهم بنى ولمثالهم احتذى في تصيير نوروزه اليوم الحادي عشر من حزيران، حتَّى سلم ممّا لحق النواريز في سالف الأزمان، وتلافوا الأمر في عجوز سِنّي الهلال عن سِنّي الشمس، بأن جبروها بالكبس، فكلّما اجتمع من فضول سِنّي الشمس ما بقيَ بتمام شهر، جعلوا السنة الهلالية التي يتّفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالاً، فربّما تمّ الشهر الثالث عشر في ثلاث سنين، وربّما تمّ في سنتين، بحسب ما يوجبه الحساب، فتصير سنتا الشمس والهلال عندهم، متقاربتين أبدًا لا تباعد ما بينهما. وأمّا العرب، فإنَّ الله عزّ وجلّ فضّلها على الأمم الماضية، وورّثها ثمرات مساعيها المُتبعة، وأجرى شهر صيامها، ومواقيت أعيادها، وزكاة أهل ملّتها، وجزية أهل ذمّتها، على السنة الهلالية، وتعبدها[1] فيها برؤية الأهلّة، إرادة منه أن تكون مناهجها واضحة، وأعلامها لائحة، فيتكافأ في معرفة الفرض، ودخول الوقت الخاص منهم والعام، والناقص الفطنة والتامّ، والأنثى والذكر، وذو الصغر والكبر، فصاروا حينئذٍ يجتبون في سنة الشمس، حاصل الغلاّت المقسومة، وخراج الممسوحة، ويجتبون في سنة الهلال، الجوالي والصدقات، والأرحاء[2] والمقاطعات، والمستغلاّت، وسائر ما يجري على المشاهرات.

وحدث من التداخل والتعاضل من السنين، ما لو استمرّ لَقَبح جدًّا وازداد بُعدًا؛ إذ كانت الجباية الخراجية في السنة التي تنتهي إليها، تُنسب في التسمية إلى ما قبلها، وواجب مع هذا أن تُطرح تلك التسمية وتُلغى، ويُتجاوز إلى ما بعدها ويُتخطّى. ولم يجز لهم أن يقتدوا بمخالفيهم في كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر، لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهر الحرُم عن مواقعها، وانحرفت المناسك[3] عن حقائقها، ونقصت الجباية عن سِنّي الأَهِلّة

= الدبران	العوّاء	سَعد الذابح
الهَقْعة	السِّماك	سَعد بلع
الهَنْعة	الغَفْر	سَعد السُّعود
الذراع	الزباني	سَعد الأخبية
النَّثْرة	الإكليل	فَرْغ الدَّلو المقدَّم
الطرف	القلب	فَرْغ الدَّلو المؤخَّر
		الحُوت

(ملخَّصًا عن اللسان)

(١) تعبّد لله العبد بالطاعة أي استعبده.

(٢) الأرحاء: قِطَع من الأرض، تستدير وترتفع عمّا حولها أو مطاحن القمح.

(٣) جمع منسِك بفتح السين وكسرها هو المتعبّد، ويقع على المصدر والزمان والمكان، وقد سمّيت أمور الحجّ كلّها مناسِك.

بقسط ما استرقه الكبس منها، فانتظروا بذلك الفضل، أن تتمّ سنة أوجب الحساب المقرّب أن تكون كلّ اثنتين وثلاثين شمسية، ثلاثًا وثلاثين سنة هلالية، فنقلوا المتقدّمة إلى المتأخّرة نقلاً، لا يتجاوز الشمسية، وكانت هذه الكلفة في دنياهم مُستسهلة مع تلك النعمة في دينهم.

وقد رأى أمير المؤمنين، نَقْل سنة خمسين وثلاثمائة الخراجية، إلى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة الهلالية، جمعًا بينهما، ولزومًا لتلك السنة فيهما. فاَعمل بما ورد أمر أمير المؤمنين عليك، وما تضمّنه كتابه إليك، وأمر الكُتّاب قبلك، أن يحتذوا رسمه فيما يكتبون به إلى عمّال نواحيك، ويخلّدونه[1] في الدواوين من ذكورهم[2] ورفوعهم[3]، ويقرّرونه من دروج الأموال، وينصبونه من الدفاتر والأعمال، ويبنون عليه الجماعات والحسبانات، ويوعزون بكتبه من الروزات والبراآت. وليكن المنسوب كان من ذلك، إلى سنة خمسين وثلاثمائة، التي وقع النقل عنها، معدولاً به إلى سنة إحدى وخمسين التي وقع النقل إليها. وأقم في نفوس من بحضرتك من أصناف الجند والرعيّة، وأهل الملّة والذمّة، أنَّ هذا النقل لا يغيّر لهم رسمًا، ولا يلحق بهم ثلمًا، ولا يعود على قابضي العطاء بنقصان ممّا استحقّوا قبضه، ولا مُؤدّى حقّ بيت المال بإغضاء على ما وجب أداؤه، فإنَّ قرائح أكثرهم فقيرة إلى إفهام أمير المؤمنين، يؤثر أن تزاح فيه العلّة وتسدّ به منهم الخَلّة؛ إذ كان هذا الشأن لا يتجدّد إلاّ في المداد[4] الطوال، التي في مثلها يحتاج إلى تعريف الناشي وإذكار الناسي. وأجب بما يكون منك جوابًا يحسن موقعه لك، وكتب الحسن بن محمَّد، إن شاء الله[5].

---

(١) يخلّدونه: يُبقونه.

(٢) ذكورهم: ذِكْرُهم له، أو ما ذكروه.

(٣) الرفوع: المرفوعات، كلّ ما ترفعه إلى مَن هو أعلا منك، (وهو جمع على غير القياس).

(٤) المِداد: الأزمنة.

(٥) إنْ شاء الله، متعلّقة بقوله يحسن موقعه كما لا يخفى.

وكتب عن الطائع لله، إلى أصحاب الأطراف، بتكرمة بختيار بن معزّ الدولة

أمّا بعد، فإنَّ من سنن العدل التي يُؤثر أمير المؤمنين أن يحيّيها، وآداب الله التي يرى أن يأخذ بها ويقتفيها، إثابة المحسن بإحسانه، والإيفاء به على أقرانه، والمجازاة له عن أسدّ مساعيه وصائب مراميه، بما يكون قضاءً لما أسلف وقدّم، وكفاء لما أكّد وألزم، واضعًا ذلك مواضعه، موقعًا له مواقعه، مطيفًا به بين أولياء دولته، وأنصار دعوته، يحسب الذي عرف من بلائهم وشهر من مواقف غنائهم، ولا يستنكر جزيلاً استحقّه أكابرهم، ولا يحتقر صغيرًا يستوجبه أصاغرهم، شحذًا لبصائرهم في طلب الغايات، وبعثًا على إدراك النهايات، وتوفية لهم ما صار في ضمنه من إطالة أيديهم إلى ما تصدّوا لنَيله، وتقديم أقدامهم إلى حيث اجتهدوا في بلوغه، كذاك أنزل ربّ العالمين إذ يقول: ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾. وعلى مثله استمرّت سيرة السلف الصالح، من أمراء المؤمنين، وأئمّة المسلمين، الذين أمير المؤمنين متّبع لدليلهم، وحاذٍ على تمثيلهم، وذاهب على آثارهم في كلّ غرس غرسوه، وبناء أسّسوه، ومفخرة أثّلوها[1] ومكرمة أصّلوها، وأمير المؤمنين يستمدّ في ذلك هداية تؤدّيه إلى المقصد، وتُوصِله إلى المعتمد، وإصالة تؤمنه من غلط الرأي وخطأ الاختيار، ومعونة تُفضي به إلى سداد المنحى وإصابة المغزى. وما توفيق أمير المؤمنين إلاّ بالله، عليه يتوكّل وإليه يُنيب. وقد علمت وعلم غيرك بعَيان ما أدركته الأعمار، وسماع ما نقلته الأخبار، أنَّ الدولة العبَّاسية التي رفع الله عماد الحقّ بها، وخفض منار الباطل، لم تزل على سالف الأيام ومتعاقب الأعوام، تعتلّ تارة وتصحّ أطوارًا، وتلتاث[2] مرّة وتستقلّ مرارًا، من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع، وبناؤها ثابت لا يتضعضع، فإذا لحقها الاجتثاث، وحدثت فيها الأحداث، كان ذلك على سبيل التفهيم والتأديب، والاضطلاع والتهذيب، لمعشر كالأنعام[3] رتعوا في كلأها[4] سائمين[5] ولهوا عن شكر آلائها ذاهلين، فيوقظهم الله من تلك السِّنَة[6]، وينهضهم من مضجع الغفلة، ويجعل ما يحلّه بهم، في خلال ما يضطرب من دهمائهم[7]، ويشتدّ من

---

(١) أصّلوها وعظّموها.

(٢) تختلط.

(٣) الأنعام، مفردها (النعم): وهي الإبل والبقر والغنم.

(٤) الكلأ: العشب.

(٥) السائمين ـ أعطاها جمع العاقل ـ أي السائمة: التي خرجت إلى المرعى.

(٦) السِّنَة: النوم.

(٧) الدهماء: العامّة.

لأوائهم[١]، عظة لهم إن امتدّت بهم السنون، ولغيرهم إن اخترمتهم المنون[٢]، حتّى إذا انتهت هذه الحال إلى حيث أراد الله بهم، من الكفّ والردع وسبّبه لهم من النفع والصُنُع[٣]، بعث لإقرار الأمر في نصابه وحفظه على أصحابه، وليًّا نجيبًا من أوليائهم، وعبدًا مخلصًا من أصفيائهم، فلا تلبث أن تعود الدولة على يده غضّة العود، معتدلة العمود، جديدة اللباس، متينة الأمراس[٤]. وهنالك يُكذِّب الله آمال المعاندين، ويخيّب ظنون المُحادِّين ويردّهم بغصّة الصدور وشجى[٥] النحور، ويكون النفر الذي تجري هذه المَنقبة[٦] على أيديهم، وتتمّ النعمة فيها بمساعيهم، أعيانًا على العصور وولاة على الجمهور، وكالشركاء للأمّة، المساهمين وذوي اللحمة المناسبين. وتلك كانت منزلة معزّ الدولة أبي الحسين، مولى أمير المؤمنين، نفعه الله، بما توفّاه عليه من عزّ الطاعة، ونَظم إلفة الجماعة، والاجتهاد فيما رَبَّ الدين[٧] ولمّه، وتلافى نشره وضمّه، فإنّه لبس الأمر وقد دبّ الفساد فيه، وصدئت بصائر أهليه، وصار حظّهم مُنتهيًا مُضاعًا، وفَيئهم مقتَسَمًا شَعاعًا[٨]، وآثار دينهم طامسة، ومعالمه دارسة[٩]، ورؤوس أوليائه ناكسة، وعيون أعدائه متشاوسة[١٠]. فلم يدع، أحسن الله مكافأته، طرفًا مأخوذًا إلاّ ارتجعه، ولا حقًّا معاونًا عليه إلاّ انتزعه، ولا عدوًّا باقيًا إلاّ قمَعه، ولا جبّارًا طاغيًا إلاّ صرعه، شاهرًا سيفه على كلّ مُنتمٍ للولاية بزعمه ودعواه، أجنبي عنها بسرّه ونجواه، إلى أن ذلّل الرقاب بعد استصعابها وإبائها، وأضرع الخدود[١١]. بعد صعرها[١٢] والتوائها، ورتق الفتوق بعد تفاقمها واستفحالها، ودمل الجروح بعد إعيائها وإعضالها، وأعاد السلطان على ما كان خُرِق من هيبته، وصان ما انتُهِك من حرمته، وصاحب خدمة

---

(١) اللأواء: الشدّة.

(٢) اخترمتهم المَنون أي ماتوا.

(٣) الصنع، مفردها (الصنيع) وهو الإحسان (مطلقًا).

(٤) جمع مرَس.

(٥) أشجاه: أغصّه.

(٦) المنقبة: الفعل الكريم الحسن.

(٧) رَبَّ الدين: أصلحه، من قولك لفلان: «أصلح الله دِينك» أي جعلك أنتَ صالحًا.

(٨) الشعاع المتفرّق، ومنه تطاير القوم شَعاعًا، وذهب دمه شَعاعًا، ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: ستَرون بعدي ملكًا عضوضًا وأمّة شَعاعًا.

(٩) المعالم الدارسة، دَرَسَت المعالم: امّحت وذهبت آثارها.

(١٠) التشاوس والشوس: النظر بمؤخّر العين كبرًا أو غيظًا، أو يكون ذلك خلقة، ويقال أشوس، والعامّة تقول أشوص لمن ينظر بمؤخّر عينه، ولكنَّ أهل اللغة على أنها بالسين أكثر منها بالصاد.

(١١) منه حديث علي: أضرع الله خدودكم، أي أذلّها.

(١٢) صَعَر الخدّ: التواءه، تهاونًا وكبْرًا.

المطيع، صلوات الله عليه، منذ أفضى الله بخلافته إليه، مصاحبة سلك فيها سبيل وفاقه، وبعد عن غشّه ونفاقه، وأخلص له إخلاصًا، ساوى فيه بين سرّه وجهره، وألّف بين عالنه وباطنه. واستمرّ على ذلك بقيّة عمره، وثميلة مدّته[1]، إلى أن قبضه نقيّ الصحيفة من درَن العيوب، خفيف الظهر من محمل الذنوب، فاتبعه المطيع لله، صلوات الله عليه، الدعاء الذي هو خير الزاد، وأنفع العَتاد، وأقرب الوسائل إلى ربّ العالمين، وأعْوَدها بأجر المأجورين، وجازاه بأن أقرّ تلك الرتبة العليّة، والمحلّة السنّية، على ولده وسليله، ونظيره في النجابة وعديله، عزّ الدولة أبي منصور، بن معزّ الدولة أبي الحسين، مولى أمير المؤمنين، لا إقرار المُحابي له فيما لم يستحقّه، ولا السامي به إلى ما ليس أهله، بل عن فضائل تكانفت[2]، وآثار تناصرت، لم يكن له في شيء منها مقارن يزاحمه بمنكبه، ولا مقارب يجاريه بسعيه، وذلك أنه تقيَّل خلائق[3] عزّ الدولة وراثةً، واشتمل عليها حيازةً، وتوقّل[4] في هضاب معاليه صاعدًا، وفي صِعاب مراقيه ساميًا، واستولى على شرف الترتّب والتأدّب، بين إمام تلك صنائعه، ووالد هذه ذرائعه، وقرن إلى تلك المناقب التي أكسبه إيّاها عظيم سعادته، وحبسها عليه كريم ولادته، مناقب توابع استأنفها، ومحاسن شوافع استقبلها، ومطالب لذواهب المجد والفخر أدركها وتناولها، ومغانم من عوائد الشكر والحمد ملكها وتخوّلها. ولم يزل للمطيع لله، رحمة الله عليه، خير ظهير حفظ سريره، وأفضل نصيح دبّر أموره، يدأب له وهو قارّ[5]، ويحوط من ورائه وهو غارّ[6]، ويسهد عنه إذا رقد، ويهبّ معه إذا استيقظ، ويوليه في كلّ ما يجتمعان فيه، يدًا من الطاعة يلين له لَمْسها، ويخشن على أعدائه مسّها، إلى أن استوفى في الخلافة أمدًا لم يستوفه أحد من الخلفاء قبله، ناجيًا فيه من الغوائل التي كانت تغول أعمارهم، وتجري على أيدي السفهاء من خواصهم، والجهّال من جندهم، مَذودًا[7] عنه في ذلك العمر السديد كلّ عدوّ، ممنوعًا عنه كلّ مكروه وسوء، ممتثلاً رأيه في كلّ مطلوب، مُبتغى هواه في كلّ محبوب. فلمّا صار، رضوان الله عليه، من السنّ العليا والعلّة العظمى، بحيث يحرج أن

---

(١) ثميلة مدّته: بقيّة عمره، والثميلة (لغةً): هي بقيّة الماء في الوادي، وبقيّة العَلَف والطعام في الجوف. والمدّة (ها هنا): سنوات العمر.

(٢) تكانفت: انضمّ بعضها إلى بعض. قالت العرب: "فلان لا يُزاحَم بمنكب" أي: لا يُجارى ولا يُنافَس. والمنكب (لغةً): مُجتَمَع رأس الكتف والعضد.

(٣) تقيّل أخلاقه: تشبّه بها.

(٤) وقل وتوقَّل: صعد.

(٥) قارّ: ساكن، لا يتحرّك، وقَرَّ: ثَبَتَ وسَكَنَ.

(٦) غافل.

(٧) مَذودًا وذَودًا وذِيادة عنه: الدفع عنه.

يقيم معه على إمامة قد كَلّ أن يحملها وضعف عن النهوض بعبئها، خلع ذلك السربال على أمير المؤمنين خلع الناص[1] عليه، المسلّم إليه، خارجًا إلى ربّ العالمين وجماعة المسلمين من الحقّ في حسن إيالتهم وسياستهم، ما استقلّ واضطلع، وفي حسن الارتياد[2] لهم حين حسر وظلع[3]. وعزّ الدولة أبو منصور أمتع الله ببقائه ودافع عن حوبائه، متصرّف في جميع ذلك على حكم التزمه. وفرض افترضه، في رعاية ما أسلف من الصنيعة واستحفظ من الوديعة، لا يخرجه عن الطاعة هوى يميل إليه، ولا غرور يعرج عليه، لكنّه فيها على المنهج الأوضح والمتجر الأربح، والسنن الأقوم والمنعقد الأسلم. فكان فعله بعد عجز المطيع لله، خصّه الله بالرحمة والصلاة، ونصّه على أمير المؤمنين أنهضه الله بما أولاه واسترعاه، في وقود الأولياء إلى الرضى به وجمع الكلمة على الدخول في بَيعته، وإزالتهم عمّا كانوا عليه من اختلال الرويّة وتشتّت الآراء، جازيًا لفعل المطيع لله، صلوات الله عليه، بعد وفاة عزّ الدولة أبي الحسين، إذ أقرّه مقرّه، ونصّبه منصبه، وجرى ذلك مجرى الديون المقارضة والحقوق المفاوضة، وإن كان كلّ من الفريقين قد أضاف إلى الحقّ فيما ابتدا، وقضى إحراز الحظّ للأمّة فيما ارتأى. وأتى هذا على نوائب قاساها عزّ الدولة أبو منصور وعاناها، وشدائد باشرها وصابرها، وحوادث كانت فرّقت بين دار أمير المؤمنين وداره، وباعدت جواره عن جواره، ولم يكتب الله في شيء منها استحالة عن الولاء، ولا على أمير المؤمنين إخلالاً بالوفاء. ولمّا كان قد استفاد في زمان تلك الفرقة، تجربة تثبت له أنّ لعزّ الدولة حظًّا من كرم الضريبة لا يُداني، وشأوًا في يُمن النقيبة لا يُجارى، ووجده وأهله، أمتع الله أمير المؤمنين بهم، وحرس عليه الموهبة فيهم، مشرّفين أولاً بالتكنية والتلقيب لهم وشرفًا بإجابتهم إلى مثل ذلك في اللائذين المتّصلين بهم، رأى من أوجب الحقّ عنده وألزم الأمر له، بأن يبيّن عزّ الدولة بشعار من الإكرام وميسم من الإعظام، لا يساويه فيهما مساوٍ ولا يوازيه في إحرازهما موازٍ، إشارة إلى موقعه اللطيف ودلالة على محلّه المنيف، وتمييزًا له عن الأكفاء وإيفاءً به على النظراء؛ إذ هو مستبدّ عليهم بأثر مغاداة مجالس أمير المؤمنين ومراوحتها، والتمكّن منها في أوقات حشدها وخلواتها، والاقتدار فيها على ترتيب الرتب وتأخيرها، وإقرار النعم وتخويلها[4]. فجدّد أمير المؤمنين هذه المساعي السوابق، والمعالي

(١) نصّ عليه: عيّنه.

(٢) الاختيار.

(٣) أعيى وضعف.

(٤) تخوّل النعمة: تعهّدها.

السوامق[١] التي يلزم كلّ دان وقاص، وعام وخاص، أن يعرف حقّ ما كرم له منها، ويتزحزح[٢] عن سرير المماثلة له فيها مزايا ثلاثًا، أُولاهنّ أن شابكه في اللحمة كما شاركه في النعمة، وناط بينه وبينه بصهر، يتّصل سببه يوم انقطاع الأسباب، ويثمر غرسه في الوالد والأحقاب، فيكون الناشئ منهم في مستقبل الأعمار، ومستأنف الأدوار، ضاربًا بعِرقَيه[٣] إلى أمير المؤمنين وإليه. والثانية أن أمر بالدعاء له في المكاتبات عنه، بما لم يكتب به عن إمام إلى وليّ، ولا مات بحقّ، واقفًا به في ذلك، على حدّ سأل عزّ الدولة الوقوف عليه، واستعفى من التجاوز له، لزومًا لعادته في إعظام الإمامة، والإخبات[٤] للخلافة، وخَفْض الجناح[٥] لها، وغضّ الطرف دونها، والاستكثار للقليل من تشريفها، والاستعظام لليسير من تكريمها، وإن كان أمير المؤمنين موجبًا له من ذلك، استغراق الغايات، واستيعاب النهايات، وهو أن يصدر الكتاب إليه، أطال الله بقاك، وأدام عزّك وتأييدك، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة فيك، ويُدعى له عند ذكره في الكتب إلى أمير المؤمنين، بأيّده الله. والثالثة أن جمعه أمير المؤمنين إلى نفسه في استخدام الوزراء، وأشركه معه في تقليد الأولياء، وإن عرف لنصير الدولة الناصح أبي طاهر، حقّ تقدّمه في الكفاية والغناء، وإبرازه في الاستقلال والوفاء، وقيامه بكلّ مهمّ طرق، ودفاعه لكلّ مُلِمّ أرهق، وسدّه من هذه الحضرة التي هي قبّة الإسلام وواسطته، وسَنامه وغاربه[٦]، مكانًا لم يسدده مثله، ولم يملأ غيره.

فعزّ الدولة أبو منصور، ابن معزّ الدولة أبي الحسين، مولى أمير المؤمنين، أيّده الله الآن، المستعلى على الأقران، الفائت لغايات أهل الزمان، المتبوّيء للرتبة العليا والمتسقرّ في غايتها القصوى، ونصير الدولة الناصح أبو الطاهر، الجامع لوزارتهما، الحامل للأثقال دونهما، الحائز شرف المناب عنهما، الجاري مجرى واحد منهما. وقد أمر أمير المؤمنين أن يُوفى من الحقّ أكثر ما وُفيه وزير وازر وظهير ظاهر، في قديم وحديث، وبعيد من العهد وقريب، وحظّر على سائر الأولياء والخدم، من ذي سيف وقلم، أن تسموا نفسه إلى تَسمّ بأسمه،

---

(١) من سَمَقَ أي ارتفع، وأصله في النبت والنخل.

(٢) هذه هي الفقرة التي أغضبت عضد الدولة، وحفظها للصابي حتّى كان استيلاؤه على بغداد، فنكبه تلك النكبة التي هاضت جَناحه، وصيَّرت إلى الشقاء غُدُوَّه ورَواحه.

(٣) ضاربًا بعرقَيه إليه: يُمتّ إليه بالقرابة من أبيه وأمّه.

(٤) الخشوع والتواضع، وفي التنزيل العزيز: فتُخْبِتَ له قلوبهم.

(٥) خَفْض الجناح كناية عن اللّين والسكون.

(٦) السنام والغارب كناية عن الرفعة والعلوّ. فَسَنام كلّ شيء أعلاه ولم يعني بها (ها هنا) حدبة ظهر الجمل وسواها.

وأن يوسَم بوَسمه، لأنه حقّ من حقوق الخلافة لا ينحله[1] أمير المؤمنين من صنائعه أجمعين، وإن كثر عددهم وتقدّمت مراتبهم وتوجّهت وسائلهم، إلاّ من كان ماثلاً بين يديه، وعارضًا للأعمال عليه، وجاريًا هذا المجرى في تمكين السبب عنده وحسن البرّ لديه. فاعرف لعزّ الدولة أبي منصور، أيّده الله، قدر ما وفر من النعم عليه، ولنصير الدولة الناصح أبي طاهر، ما خُصَّ به وأُزلِّ إليه، وقم بذلك الحقّ الأول باديًا، وهذا الحقّ الثاني مثنيًا موفيًا. وأجب أمير المؤمنين بوصول كتابه إليك، وامتثالك الأمر الوارد فيه عليك، وتلقّيك إيّاه، بما يعدّك في الأوضحين سبيلاً والأرشدين دليلاً، إن شاء الله. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.
وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر، يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ستّ وستّين وثلاثمائة.

(١) نَحَلَه الشيء، ينحله: أعطاه إيّاه، ويقال نُحْل المرأة مَهْرها، وفي الحديث الشريف ما نحل والد ولدًا من نُحْلٍ أفضل من أدب حَسَن، والنحل، بضمّ أوله، العطيّة من غير عوض ولا استحقاق.

وكتب عن الطائع لله، إلى عضد الدولة، بعد وقوع الوحشة بينه وبين عزّ الدولة، عند ورود الخبر بمسير عضد الدولة متوجّهًا إلى الأهواز، ماضيًا للحرب في عساكره، وحصوله بأرّجان، في سنة ستّ وستّين وثلاثمائة دعاء إلى السلم واستكفافًا عن الحرب[1]، الله الهادي

أمّا بعد، فإنَّ أمير المؤمنين إذا احتاج في استصلاح وليّ من أوليائه، وصفيّ من أصفيائه، إلى إطالة قول في ما ألان الغلظة، ولطّف القسوة، وذكّر بموجبات الحقّ والحرمة، وملزمات العهد والبيعة، وجَدك ممّن يستغنى فيه ذلك بالوثيق من دينك، والصحيح من يقينك، والوافر من حزمك، والراجح من حلمك، والمجتمع فيك، من خلال النجابة وخصال اللبابة؛ إذ كنت ترجع في الطاعة والمشايعة، والتحصيل والمعرفة، إلى منشأ كرم، وعرق مجد، وقديم متّصل بحديث، وتليد مشفوع بطريف. فأمير المؤمنين يرى أنَّ تعبه فيما يحاوله من لمّ شعث ورمة، ورأب ثأي وربة[2]، يقلّ معك من حيث يكثر مع غيرك لهذه المناقب، التي لا يراها إلاّ لك وللشجرة الطيّبة، التي منها مركبك وإليها مُنتسبك، وهذا هو السبب الداعي إلى تخفيف التثييب[3]، وتنكّب التكثير في الأمر الذي كاتبك فيه، وإن كان من الشؤون العظيمة المقتضية الاستفراغ في القول، واستنفاد الوسع والطوق، وما يزيدك أمير المؤمنين علمًا بما أحبّه الله للمسلمين جميعًا من الإلفة، وكرهه من الفرقة، وأنه أمر بتلك حتمًا، ونهى عن هذه جزمًا، هذا على أنَّ لا اتّصال منهم إلاّ الدين وحده، وأمّا إذا انضافت إليه شواجر الرحم ونوائط اللحم[4]، فقد ضاعف الله توكيدها، وضيّق العذر في الإخلال بها. ولم يزل أمير المؤمنين منذ نزغ[5] الشيطان بينك وبين عزّ الدولة أبي منصور، أيّدكما الله، مغموض الجفون على قَذى، منطوي الجوانح على أذى، وقِيذًا[6] من أن تنتقص نعم الله عنده فيكما، بتنافس يقدح في نفاستكما، وتقاطع يعترض ذات بينكما، وما ترك الاهتمام بذلك والارتماض[7] له، والقلق من أجله والفكر فيه، إلى أن انتهى إلى مهاجرة داره، ومفارقة استقراره، ومسيره في

(١) قد تقدّم خبر مسير عضد الدولة إلى العراق، والحرب بينه وبين ابن عمّه عزّ الدولة، وهي التي آلت إلى استيلاء عضد الدولة على بغداد، وانهزام بختيار، وقتله في السنة التالية.

(٢) لمّ الشعث ورمّ الشعث ورأب الثأي وربّ الثأي كلّها بمعنى أصلح الفساد.

(٣) لعلّه التثويب بمعنى التوجيع.

(٤) شواجر الرحم ونوائط اللحم: تعني جميعها قرابة الدم والنسب.

(٥) دخل بفساد، ومنه قوله تعالى ﴿وإمّا ينْزَغنّك من الشيطان نَزْغٌ* فاستَعِذْ بالله﴾.

★نَزْغٌ: وسْوَسة، أوصارف. للشيطان خاصّة.

(٦) محزون القلب.

(٧) التوجّع.

الأشهر التي يصوم بعضها فريضة، وبعضها نافلة، مع حمَّارة القيظ وشدّته[1]، والحاجة إلى الاكتنان[2] من سَمومه ووقدته. وأعتقد أن يبتديك بالدعاء، إلى أرشد الطريقة، وأحسن الخليقة، في الإيجاب له، والقبول منه، والتصرّف على مراده، وإيثاره والزوال عن جوالب عتَبه وإنكاره، ولا سيّما وأنت وعزّ الدولة أبو منصور، في الملاحاة[3] التي خرجتما إليها، والوحشة التي ألممتما بها، بمرأى ومسمع، من أباعد وأقارب، إن يكن منهم وليّ صديق فقد سُؤْتماه وعَقَقْتماه، أو عدوّ فقد كفيتماه وشفيتماه، وما يختار ذلك مثلكما ممّن تقدّمت قدمته، وعلت منزلته، وبَعُدَ صيته، ونبه ذِكره، وظاهر ما بينكما ظاهر، أنت المحجوج فيه، لأنه ما تطرّق إليك عملاً، ولا أفسد عليك أمرًا، ولا أودعك ثارًا، ولا أوجد لك إليَّ ما أتيته سبيلاً. وقد يجوز أن تكون بلاغات المتنحّين هاجتك، وحكايات المتسوّقين أحفظْتك[4]، وأن تكون أنكرت من الصفاء تكدّرًا، ومن الودّ تغيّرًا. فأين الاستعتاب بالحسنى والاستعادة إلى الأولى والأخذ بفضل من قدّمته السنّ والحِنكة، وتحلّى بالثبات والمسكة، وألاّ كاتبت أمير المؤمنين بما هجس في نفسك، وصرّحت إليه بحوجاء[5] صدرك، والْتمست منه، ما عساك أن تبلغه منه بالملاطفة والموادعة، دون المخاشنة والمنازعة. والآن فللطاعة شعار مثلك من ادّرعه، وغيرك من نزعه، وكتاب أمير المؤمنين هذا وهو وعزّ الدولة أبو منصور، أمتعه الله بكما، لصلحك مؤثران، وعلى عهدك محافظان، وما عليك منهما خلاف في أثَرة تحبّ أن تُحرزها، ورتبة تروم أن تفرعها، وردّ رسم كانت النبوّة أسقطته، والجفوة رفعته، وإعطائك خالصة الصدر، صادقة الودّ، ما لم يقع اشتطاط في طلب لا يمكن مثله، ولا تحتمل الأحوال بذله، ممّا الأعود عليك منه سكون جأشك، واستراحة قلبك، وأنس القلوب بك، ورضى الله عنك، ودعاء أمير المؤمنين لك، وثناء المسلمين عليك. فتأمّل كلام أمير المؤمنين وموعظته وإرشاده وهدايته، وأطع أمره في إخراج حسيكة صدرك[6]، ودفينة غِلّك، وانزل له عن كلّ ما ركبت هذا المركب بسببه، واعتَضْ بحسن الأحدوثة عن جميع ما شرعت في طلبه، فإنّك تحقن الدماء، وتُسكّن الدهماء، وتطيع الإمام، وتصل الرحم، وتأخذ بالوثيقة، وتسلك مناهج العقل والفضل والحَصافة. ومتى خالفت ذلك كنت بإزاء الأضداد من هذه المساعي

(١) شدّته: رويت بتشديد الراء وتخفيفها، والأكثر التشديد، وجاءت في كلام عليّ رضي الله عنه.

(٢) الاستتار.

(٣) المخاصمة: وهو في الحديث الشريف، نهيت عن مُلاحاة الرجال.

(٤) أحفظتك: أغضبتك.

(٥) يقال، ما بصدره من الأمر حَوجاء ولا لَوجاء ولا شكّ ولا مريّة، كلّه بمعنى واحد.

(٦) حقدك.

الصالحة، التي يرتفع قدرك، أن تُعرض عليك فتأباها، وتدخل في جملة المذمومين، ممّن صدف عنها وتعدّاها. وأجِب أمير المؤمنين عن هذا الكتاب، فقد أنفذ به خادمًا من داره، وهو ينتظر من أثره ما ينتظر، ممّن حسن اختياره، وكرم نِجاره[1]، ثمَّ يتلوه من مستأنَف المكاتبة، ومستقبل المخاطبة والمراسلة، ما ينتهي بإذن الله إلى الغاية الحميدة، والخاتمة السديدة، فيجمع الله الشمل ويصل الحبل ويرتق الفَتق، ويرقع الخرق، إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله.

(١) أصله.

نسخة كتاب نفذ من واسط، إلى سبكتكين الحاجب عند عصيانه، وقرن مع الجواب الذي كتبناه من قبله

أمّا بعد، أطال الله يا أخانا على الطاعة اللائقة بك، والهداية المشاكلة لفضلك، بقاك، وأدام عزّك وتأييدك وسعادتك، وسلامتك ونعمتك وكفايتك، وأمتعنا بك في عَود إلى المعهود منك، وانصراف عمّا نزغ الشيطان به لك، ولا أخلانا منك. ومن إجابة هذه الدعوة فيك، فإنَّ أولى ما اعتمده العاقل وأتاه، وذهب إليه وتوخّاه، أن يعرف الحقّ عليه فيؤدّيه، كما يعرفه له فيقتضيه، وأن يتحرّز في مجاري كَلِمه ويتوقّى في مساعي قدمه ممّا يُوتغ[1] الدين ويُسخط ربّ العالمين، وإذا نزلت عنده نعمة قراها[2] بغاية شكره وحمده، وأحسن ضيافتها بمنتهى وسعه وجهده، وصانها عن عواقب إنكاره وجحده، ووقاها من جرائر كفره وغَمْطه؛ إذ كان للنعم شرط من الشكر، لا تريم[3] ما وجدته ولا تقيم ما فقدته، وكثيرًا ما تُسكر الواردين حياضها، ويُعشي عيون المقتبسين إيماضها، فيذهلون عن الامتراء لدرّتها[4]، ويعمهون[5] عن الاستمتاع بنضرتها، ويكونون كمن أطار طائرها لمّا وقع، ونفّر وحشها لمّا أَنِس، ولا يلبثون أن يتعرّوا من جلبابها، وينسلخوا من إهابها[6]، ويتعوّضوا منها بالحسرة والغليل، والأسف الطويل. ونعيذك بالله من استمرار ذلك بك، ونسأله أن يأخذ قبل التمادي فيه بيدك بقدرته، وأنت، أدام الله عزّك، الراجح الذي قد حلب الدهر أشطره[7]، وعرف خيره وشرّه، وخرج عن حدّ الحداثة، وارتفع عن عذر الغَرارة[8]، وتجلّل بملابس الكهول، وتحلّى بحلى أهل العقول، وقَبُح بك أن تهفو هفوة الجذع[9]، وقد قَرِحْت واحتنكْت[10]، وأن تغلط غلط الصرورة[11]، وقد مارست ودارست، وقد أجرى الله لك

---

(١) يفسد.

(٢) أضافها.

(٣) لا تبرح.

(٤) امتراء الناقة: مَسْحُ ضَرعها لتَدُرّ.

(٥) العَمه: التحيّر، قيل، العَمَه في البصيرة كالعمى في البصر.

(٦) الإهاب: الجلد من الغنم والوحش ما لم يُدبغ، وفي الحديث، أيما إهاب دُبغ فقد طهر.

(٧) حلب فلان الدهر أشطره أي خَبرَ ضُروبه، ومرّ به، خيره وشرّه وشدّته ورخاؤه، تشبيهًا بحَلْب جميع أخلاف الناقة ما كان منها حفلاً وغير حفل، ودارًا وغير دارّ، ولها خِلفان قادمان وخِلفان آخران وكلّ خِلفَين شطر.

(٨) الغَرارة: حداثة السنّ.

(٩) الجَذَع: الشابّ الحَدَث، لا تجربة له في الأمور.

(١٠) قَرِحَ واحتنك: بلغ مبلغ الرشد، أو مبالغ الرجال، ومرتبة الحكمة.

(١١) أصل معنى الصرورة: الرجل الذي لم يحج، أو الذي لم يعرف النساء، مأخوذ من الصرّ وهو الحبس والمنع.

على أيدينا، ويد الأمير معزّ الدولة نضّر الله، وجهه، قبلنا نعمًا ما ندّعي عليك شيئًا منها، إلاّ وأنت له مسلّم، ولسان حالك به متكلّم؛ لأنَّ ذلك السيِّد الماضي، غفر الله له، أعطاك ما لم تسمُ لك إليه همّة، وخوّلك ما لم تبلغه منك أمنيّة، وفضّلك على ألوف كثيرة من عبيده وأوليائه، وقُروم[1] كريمة من أدانيه وأقربائه. وإنّما ظنّ بك الإيفاء عليهم في الوفاء، فأوفى بك عليهم في الرتبة، واستشعر فيك الإبرار في الحفاظ[2]، فجعلك لنا كالعدّة، ولم يدرُ في خَلَده، رحمه الله، أنَّ مثل إحسانه إليك يكفر، ومثل متجره فيك يخسر، وقد جذب بضبعك من مطارح الأرقّاء العبيد، إلى مراتب الأحرار الصيد[3]، وأوطأ الرجال عَقِبك[4]، وكثّر مالك ونَشَبك، وعظّم خطرك وقدرك، وأبعد صيتك وذكرك، وانتهى بك من الأثَرة والثروة، إلى ما أقدرك الآن على المخالفة والمكاشفة، اللتين كنت عنهما بالعُدول حريًا حقيقًا، وباستعمال ضدّهما وليًّا خليقًا[5]. وإن تأمّلت، أيّدك الله، صنيعنا بك بعده، وجدته أحسن وأجمل، وأوفر وأجزل، لأننا ملكنا الأمور ودبّرنا الجمهور، وقدرنا على أن ننفع ونضرّ، ونسوء ونسرّ، وننقص ونزيد، ونرتجع ونعيد، فلم نثلم لك مالاً، ولم نغيّر عليك حالاً، ولم ننزع عنك عادة، ولم نقطع مادّة، ولم نبززك[6] لباس الكرامة، ولم نعدمك ظلّ السلامة، بل زدناك على ما كنت تحويه، وأعطيناك أكثر ممّا ترومه وتبتغيه. وكنت في أيامنا مرفهًا موفّرًا[7]، مصونًا موقّرًا، مرفوعًا عن بِذْلة الخدمة[8]، محمولاً على دالّة الحرمة، مسامحًا بما تطلبه، مسوَّغًا ما تقترحه، مشفّعًا فيما تسأله، مجابًا إلى ما تلتمسه، نقرب من قرّبت، ونبعد من أبعدت، ونرضى ما رضيت، ونكره ما كرهت. إقطاعاتك مُقَرَّة عليك، وموادّك منصبّة إليك، لا تعرف إلاّ الصبوح والغَبوق[9]، والتمتّع بالمآرب والأوطار، واعتقاد الذخائر الدثرة[10]

---

(١) جمع قَرْم، وهو فحل الإبل، يُترك من الركوب ويكرم عن المهنة، فهو مُقرم وقيل للسيِّد الشريف المعظم، قرم ومقرم تشبيهًا بذلك، ومنه قول علي: أنا أبو حسنِ القَرْم.

(٢) المحافظة على العهد، والمحاماة عن الحرّ، ومثله الحفيظة، وتأتي الحفيظة بمعنى الغضب أيضًا.

(٣) جمع أصْيَد وهو الذي لا يستطيع الالتفات لعلّة، وقد استُعير للملوك، لأنهم لا يلتفتون يمينًا ولا شمالاً، ولكلّ من يرفع رأسه كبرًا.

(٤) فلان وطيء الناس عقبه أي مشوا على أثره.

(٥) الخليق: الجدير.

(٦) بزّه الشيء: نصبه إيّاه.

(٧) صاحب وفر.

(٨) بذلة الخدمة: ثوبها الرثّ المُمتَهن، وشيء مُبتذَل (اشتقاق منها).

(٩) شرب الصباح والمساء.

(١٠) الكثير، وقيل الدثر بالفتح: المال الكثير لا يُثنّى ولا يُجمع، فيقال: مال دثر، وأموال دثر، وقيل بل يُجمع وفسّروا قوله (ﷺ)، ذهب أهل الدثور بالأجور، بأنَّ الدثور جمع دثر بمعنى المال الجمّ، وهنا قد ورد الدثر مؤنّثًا.

النفيسة، وبناء الأبنية الرفيعة المشيدة، ونحن في نوائب تلمّ بنا، وجوائح[1] تبلغ منّا، بين مال ينكسر على ضماننا، وزيادات نلتزمها لأوليائنا، ومؤن يعجز عنها الحال، وكلف تزيد على الاستغلال، وعدوّ نَنْهد له ونساوره[2]، ووجه يتعلّق علينا، فنشخّص له ونباشره، من حيث لا نبتديك ولا تبتدينا بإسعاد في شدّة، ولا بإسعاف عند ضغطة، ولا ترى لنا ما يراه الشريك لشريكه، فضلاً عن المولى لمليكه[3]. ما زلت تترقّى في اطِّراح الحقوق، واستعمال العقوق، إلى أن صرت لا تحضر عندنا في مجلس ولا تركب معنا في موكب، ولا تهنّئنا بعطيّة، ولا تعزّينا عن رزيئة، وتدّعي مع ذلك علينا أنّا نبغيك الغوائل، وننصب لك الحبائل، ونَشْره إلى[4] حيازة مالك، لا بدلالة تقيمها، ولا عن حجّة تدلي بها، إلاّ الإرادة منك أن يتداول الناس دعواك، ويتفاوضوا شكواك، فيتخمّر[5] في نفوسهم، ويتقرّر في قلوبهم، أنَّ لك رخصة في المركب الذي ارتكبته، وفسحة في الإثم الذي احتقبته[6]. وبالله لو كانت التهمة منك لنا واقعة بحقّها، ومقرونة بشاهدها، لكانت طاعتك إيّانا مظلومًا متحيّفًا، أزيَن بك من مخالفتنا متقصّبًا[7] متنصّفًا. فكيف وعلاّمَ الخفايا[8] والعيوب، والمطّلع على الضمائر والقلوب، يشهد عليك باستحالة ما تذكره، ولنا بصفاء ما نُضمره، وإنّا بريئون من كلّ ما قلت وزعمت، وظننت واتّهمت، ولو كنّا نريد بك سوءًا لكان مرامه أسهل وأيسر، وطريقه أقصر وأخصر، ولانتهزنا فيك فرصًا كثيرة، منها شغب غلمانك عليك، وإحاطتهم بك، وهربك منهم وحيدًا، وخروجك من بينهم فريدًا، وقد علمت أنّا وقَيناك منهم، وكفيناك إيّاهم، وأنفذنا إليك مَن حَماك وحرسك، وصانك وكلأك[9]، وفعلنا في ذلك ضدّ فِعلك، في إفساد غلماننا علينا، وتربية الوحشة في قلوبهم منّا.

ومنها فرصة الحمية من الديلم، عند فتك الأتراك بخمار الشرطي، وقد كانوا يتنزّون[10] لك، ويتلهّفون عليك، ويرون أنك سبب التبسّط الذي تبسّطوه والحدث الذي أحدثوه،

(١) الجائحة: النازلة العظيمة التي تجتاح المال، من قَحط أو فتنة، وكلّ ما استأصل المال، فقد جاحه واجتاحه.

(٢) نقصده ونُواثبه.

(٣) مليكه: مالكه.

(٤) نشره إليه بمعنى نطمع به، طمع الشره إلى (الطعام).

(٥) يتقرّر.

(٦) احتقب: جمع للإثم خاصّة.

(٧) من القَضْب وهو الذمّ والشتم.

(٨) علاّم الخفايا: الله سبحانه وتعالى.

(٩) كلأه كلاءة: حفظه وحرسه، قال الله تعالى: ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار﴾.

(١٠) يتوثّبون بك.

ونحن نمنعهم وندفعهم، ولا يجدون عندنا مسامحة فيك، ولا تخلية عنك، ومنها فرصة حضور أبي دلف سهلان بن مسافر، قربنا، أدام الله عزّه، وقد كان يمكن الاستظهار به في شيء لو أردناه وأمر لو حاولناه. فوالله في الأوقات كلّها لم نرضَ بقطع لحبلك، ولا بإضاعة لحقّك، بل كنّا إلى الوقت الذي خرجت فيه إلى ما خرجت، نحفظك حفظ السمع والبصر، ونعتدّك للتصاريف[1] والغِيَر[2]، ونراك على العِلاّت التي نعرفها والهَنات التي نعلمها، الأخ الذي لا بدّ منه، والعَلْق[3] الذي لا عوض عنه. ولقد كنّا نعجب من تلك الظنون التي تعترضك، والجفاء الذي يبدو منك، في ادّعاء الغدر علينا، ونَسْب المكر إلينا، وفي مضادتك إيّانا في إقصاء من نُدني، وإدناء من نُقصي، من جماعة من الناس، لا حاجة بنا إلى ذكرهم هذا. ونحن نتجشّم لك الجشَم، التي إن رمنا استقصاء شرحها، أوفت وجلّت، وطالت وأملّت، إلاّ أننا نذكر البعض منها تنبيهًا لك، إن كنت غفلت، وإذكارًا إن كنت نسيت. ألا ترى أننا شريناك، بائعين بك كلّ وزير وظهير، وكبير وصغير، وأنك ذممت من شيرذاذ بن سرخاب شيئًا لم تقم به بيِّنة، ولا وضحت عليه دلالة، وكان منّا كجلدة بين العين والأنف[4]، فأبعدناه. واتّهمت العبّاس بن الحسين، أكفى ما كان لنا، فصرفناه ونكبناه. واخترت محمّد بن العبّاس فقرّبناه وقلّدناه. وأفسدك العبّاس بن الحسين من بعد عليه، فانحرفتَ عنه وملتَ إليه، وأردت منّا أن نصرف هذا ونعيد ذاك، فما راجعناك ولا خالفناك. ثمَّ ظهر من العبّاس بن الحسين في وزارته الأخيرة، ما ظهر من العظائم، وارتكب ما ارتكب من الجرائم، التي كان في الحقّ أن نأخذك بها، ونرجع عليك بدركها، لضمانك عنه ما ضمنت، وتوسّطك من أمره ما توسّطت، فاحتملناها لمّا كنت لها راضيًا، وأبيناها لمّا صرتَ لها كارهًا؛ كلّ ذلك طلبًا لمرادك وإيثارك، واحتراسًا من استيحاشك ونفارك. ووفّق الله لنا من الناصح أبي طاهر، أدام الله عزّه، من سدّ ذلك المكان، وَفاق فيه الأقران، ونصح في كلّ قول وفعل، واستقلّ بكلّ عبء وثقل، وجهد نفسه في صلة ما بيننا وبينك، وتهذيب ما يجمعنا وإيّاك، فما استقرّ في موضعه ولا سحب أذيال خِلَعه، حتّى بُلِّغت عنه البلاغات، فسمعتها، وحكيت لك فيه المحالات فقبلتها، وشرع في أن تشمئزّ منه وتنحرف عنه، والضرر عائد علينا فيما تأتيه ونتابعك

(١) التصاريف: المصائب والنوازل.

(٢) غِيَر الدهر: أحداثه.

(٣) العَلْق (ويجوز فيها الكسر): كلّ نفيس من كلّ شيء، (عَلِقْتَ به) أي أحببته.

(٤) قال عبد الله بن عمر، في ابنه سالم:

يُديرونني عن سالمٍ وأريغهُ ... وجِلدة بين العين والأنف سالِمُ

فيه، لأنه أورثنا ملامة وندامة، وعلّق علينا شناعة وضراعة[1]، واختلّت أعمالنا باختلاف الأيدي المتعاقبة، واضطربت شؤوننا بتوغّر الصدور النقيّة، وظنّ الناس أنَّ ذهابنا معك إلى أغراضك، وانقيادنا إلى مَرامك وغاياتك، عن التياث[2] حزم وصريمة، وانتكاث رأي وعزيمة، وأنَّ إمرارنا تلك النكبات على أولئك الطبقات، من سوء رعاية لمن نصح لنا، ونقصان وفاء لمن خدمنا. وتالله، ما كان ذلك إلاّ توفيرًا للوفاء والرعاية عليك، وإغراقًا فيهما لك.

وما عسيت، غفر الله لنا ولك، أن تقول[3] إذا تناولتك الألسنة العاذلة وتناقلت حديثك الأندية الحافلة، وقد دلفت بالحرب، إلى فناء كبيرتنا وسيِّدتك وأخوَينا ومولَيَيْك[4] أدام الله عزّهم، فأزعجتهم وروّعتهم، وغصبتهم وحربتهم[5]، وأخرجتهم عن الأوطان، وطوّحت بهم في البلدان، وأحرقت دُورهم التي فيها درجت، ومنها خرجت، وقلّدت نفسك من أمورهم عارًا لا يرحضه[6] الاعتذار، ولا يعفيه[7] الليل والنهار. وها أنت أيّدك الله مُشْفٍ على مسلك هو أوعر، وخطّة هي أنكر، تحقّقك بمحاربتنا، وتصدّيك لمغالبتنا، وما معك جيش تظنّ أنه ينصرك إلاّ غلماننا الذين هم، بين حازم يوافقك ليسلم عليك، وينافقك إلى أن يجد لنفسه فرصة الانسلال منك، وبين غِرّ يريد منك ما إن أعطيته جميعه، صفرت يداك، وإن منعته بعضه آثر عليك سواك، وأصغرهم يضيف نفسه إليك، إضافة الرفيق، وإن زدت عليه في القدرة، ويصاحبك مصاحبة القرين، وإن فقته في البسطة، وأنت ناصب نفسك بينهم منصب الذبال[8]، الذي يُستضاء به وهو يحترق، ويُنتفع به وهو يَمَّحِق. وعلّك تظنّ أنَّ هرب الهاربين منهم إليك، وإكبابهم ومثابرتهم عليك، إيثار لك علينا، وازورار إليك عنّا،

---

(١) الضراعة: الذلّ.

(٢) التياث: التباس.

(٣) أن تقول: وما عساك.

(٤) لمّا وقعت الفتنة بين الأتراك والديلم في الأهواز، وتعصّب بختيار لهؤلاء، كتب لوالدته وإخوته أن يذيعوا خبر موته ويجلسوا للعزاء في بغداد، فإذا حضر سبكتكين التركي، قبضوا عليه مكيدة منه دبّرها. وأرسل كتابه هذا على أجنحة الطير، فلمّا وصل، فعلوا ما أمرهم، فسأل سبكتكين عن الخبر فلم يجد نقلاً يوثق به، فارتاب وخاف المكيدة، ولم تلبث أن وصلت رسل الأتراك بالنبأ اليقين، فأرسل سبكتكين إلى أبي اسحق بن معزّ الدولة، أخي بختيار، يخبره أنَّ الحال قد فسدت بينه وبين أخيه، وأنه لا يرى العدول عن طاعة مواليه، وإن أساءوا إليه ويدعوه إلى الولاية، فأطلع والدته على ذلك فمنعته، فعندها حضر سبكتكين دارهم ودخلها وأحرقها وأخذ أبا اسحق وأبا طاهر ابنيّ معزّ الدولة ووالدتهما، ومن كان معهما أسرى، فاسألوه الانحدار إلى واسط فأذن لهم.

(٥) حَرَبَه: يحربه إذا سلب ماله فهو حَريب ومَحروب، والحَريبة مال الرجل، وفي حديث الحُدَيبية [وادٍ قريب من مكّة، اشتهر بالبَيعة التي حدثت فيه، وبالصلح الذي أُبرم بين الرسول (ﷺ) والمكّيين سنة ٦ للهجرة/٦٢٧م] «وإلاّ تركناهم محروبين»، أي مسلوبين منهوبين.

(٦) يغسله.

(٧) يدرسه.

(٨) الذبال: الذي يوضع في مِشكاة الزجاجة التي يُستصبح بها أي الفتيلة.

وليس ذاك كذلك، بل قلوبهم إلينا أميَل، وأعينهم نحونا أصوَر [1]، لأنهم غرائس أيدينا، وأغذياء نعمتنا، وعقائل أموالنا، وأشبال عريننا، نحنو عليهم حنوّ الجِلّة الرائمة [2]، ويلوذون بنا لياذة السخال [3] الراضعة، ولولا الحفائظ [4] بينهم وبين الديلم، التي كنت أنت السبب فيها، والمُسدي والملحم [5] في تمكّنها وتراميها، لما زال منهم عنّا زائل، ولا مال إليك مائل، وتلك الوحشة الآن مُؤْذِنة بالزوال، مُسفرة عن الاتّصال. ألم يبلغك ويبلغهم أنَّ أكثر الديلم في عسكرنا، أنكروا على الأقلّ ما أتوه من منافرتهم ومشاغبهم، وخالفوا عليهم من مهاجرتهم ومغاضبتهم، وأنَّ الجماعة تحالفت بين أيدينا باليمين الغَموس [6]، على زوال ما في النفوس، والعود إلى التصافي والاجتماع على التراضي، وأننا قد عفونا عن غلماننا، الذين معك وبذلنا لمن جاءنا الآن وعند الإمكان، إقرار حاله وماله عليه، ومتابعة الأنعام والإحسان إليه. فما هذه الثقة منك، بأنهم يخاطرون لك بنفوسهم وأحوالهم، ويخرجون لك عن ديارهم وأوطانهم، ويوتغون أديانهم [7] بإسخاط باريهم، ويجرحون مرؤاتهم بعصيان مواليهم، ومن أضعف ما اعتصمت به، وأوهن ما عوّلت عليه، أن دعوت أدون [8] طوائف العوام إلى الكَون معك [9]، وأهبت [10] بهم إلى الذبّ عنك، ورضيت لنفسك أن تكون عليهم أميرًا، ورضيتهم أن يكونوا لك جندًا، وأبحتهم السلب والنهب، وحكّمتهم في المُهَج والحرم، وأطلقتهم إطلاقًا قد أعوزك أن تضبطه، وأعجزك أن تكفّه، ومكّنت في نفوسهم أننا معتقدون للإيقاع بهم والاستباحة لدمائهم، فإن كانت هذه الإخافة، التي أودعتها أسماعهم، وأشعرتها قلوبهم عن ظنّ ظننته، فقد ذهبتَ فيه بعيدًا. ألا تعلم، أيّدك الله، أنهم مختلطون بجماعة لا يحصرها العدد، من مشايخ ديّانين، أهواؤهم معنا، وصُلَحاء مستورين موالين لنا، وأنَّ السوء لا يخلص إلى واحد من هؤلاء الأحداث الأغمار [11]، إلاّ بعد إتيانه على الكُثر

---

(١) أشدّ ميلاً.

(٢) جِلَّة الإبل: مسانّها [المسانّ من الإبل، المعمَّرة ، الطاعنة في العمر] والرائمة، العاطفة على ولدها، يقال: ناقة رائمة ورَؤوم ورائم.

(٣) جمع سَخْلة، وهي ولد الشاة من المعزّ والضان.

(٤) الأحقاد.

(٥) المُسدي والملحم للأمر: المتمّم له.

(٦) اليَمين الغَموس: اليمين الكاذبة، لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثمَّ في النار. وعن ابن مسعود: إنّها من أعظم الكبائر.

(٧) يوتغون أديانهم: يُفسدونها.

(٨) أدون، من، دون، وأفعل التفضيل منه، على خلاف القياس، إذ ليس له فعل.

(٩) إلى الكون معك أي إلى أن يكونوا معك.

(١٠) دعوتهم.

(١١) جمع غمر، وهو الجاهل.

من أولئك الأخيار الأبرار، وأنه لا تعدل عندنا فائدة الانتقام من الظالم، مضاضة[١] الاجتياح للمظلوم.

وإن كان ذلك على سبيل المكيدة لنا، بإيحاش رعايانا منّا، والاستجاشة بهم علينا، إنّها لمكيدة لا تضرّ، وحيلة لا تستمرّ؛ إذ كنّا قد أشهدنا الله، وملائكته وأنبياءه وأولياءه، عليهم السلام، أنّا قد عفونا ومننّا، وحلمنا وكظمنا، بأنَّ الجماعة الجانية علينا من الرعيّة في حلّ وسعة، من كلّ ذنب وجريرة، ما وقفوا حيث انتهوا، وانصرفوا عمّا أتوا، ولم نرضَ لهم بالصفح والغفران، حتَّى أضفنا إليهم الفضل والإحسان، ورفعنا عنهم، ما كان يؤخذ منهم لك، ولنظرائك، من ضرائب الغنم المجلوبة، والأمتعة التي يحملها الحجيج، صادرة وواردة، هذا إلى غيره من مُؤنٍ اعتقدنا إزالتها، ونوائب نوينا حَسْمها، وأبواب برّ نسأل الله المعونة عليها، وحُسن الجزاء لنا بها.

ونعود معك إلى ذكر الحرب، التي أنت مجتهد في أن تشبّ بيننا نارها، وتطير شَرارها، فيا ليت شعرنا، بأيّ قدم تواقفنا وراياتنا خافقة على رأسك، ومماليكنا عن يمينك وشمالك، وخيلنا موسومة بأسمائنا تحتك، وثيابنا محوكة في طرزنا على جسدك، وسلاحنا مشحوذ لأعدائنا في يدك. والله لو لم يكن بيننا فرق غير هذا، لكان كافيًا في الاستظهار عليك، فكيف وها هنا فروق كثيرة ومقاييس بعيدة، منها أنَّ غلماننا الذين معك، يلقوننا بهيبة الأبناء لآبائهم، والمماليك لمُلاّكهم، وإنّا نلقاهم على ثقة بأنَّ الله يردهم علينا ردّ الضالّة على ناشدها ويوصلهم إلينا إيصال الظلامة إلى مستحقّها، ومنها أنّا أهل بيت عوّدنا الله أن ينصرنا على كلّ باغ، ويمكّننا من ناصية كلّ طاغ، مدًّا منه، جلّ اسمه، في عمر دولة لنا، لا يمكن المخلوقين جميعًا أن يقرّبوا لها أجلاً قبل أوانه، ولا يطرقوا عليها خللاً في غير إبّانه[٢]، ولا يضرّنا الله مع تفضّله الذي نُعوّل عليه، والتآلف الذي نرجع إليه، بكيد الكائدين، ولا حسد الحاسدين. وهذه العساكر التي معنا، وأنت تعرفها متحاشدة لدينا، ومتحالفة على نصرنا، والأمير السيِّد ركن الدولة، والأميران؛ عضدها ومؤيّدها، أطال الله بقاهم، وعدّتها أبو تغلب، أدام الله عزّه، وسائر مَن في أكناف الأرض وأطرافها، وأوساطها وأثباجها[٣]، مطلّون

---

(١) مضّ (مضاضة): ألِم من وجع المصيبة.

(٢) وقته.

(٣) أثباجها (هنا): أعاليها.

عليك، متوجّهون إليك، قد امتعضوا[1] لنا، وتوافوا لمعاونتنا، وليس منهم فئة إلاّ وهي بمن معك وافية إذا انفردت، وعليهم زائدة إذا تجرّدت، فما ظنّك بالحال مع اجتماعها واتّفاقها، وإسراعها واستباقها. وكيف لا يهزّك مضجعك ولا ينبو بك موضعك، وقد قطعت العصمة بيننا، وبتت قرابتك منّا، وأحوجتنا إلى أن نتحرّز منك، بعد أن كنّا نتحرّز بك، وأن ندافعك عن حال كنّا ندافع عنها لك، وأن نذكرك للعدوّ والصديق بما تذكر به العُصاة، بعد أن كسوناك شعار السلاطين والولاة، وأيّ شيء أقبح بمثلك من أن تسلب الاسم الجميل، وتنبز النبز[2] القبيح، في عصر السنّ والحنكة وأوان الثبات والمسكة، وأن يقال فيك إنّك بعلت[3] بحمل الأنعام، وأرنت[4] على طول الجمام. وعزيز علينا أن نسمع ذلك فيك فنرضاه، وقد كنّا نسخطه ونأباه، وأن يخلد في بطون الصحائف، غلطنا وغلطك، في إحساننا وإساءتك، وحفظنا وإضاعتك، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وما كنّا لنلقاك، لقاك الله وَهَداك وألهمك تُقاك، لقاء المحاربين إلاّ بعد أن نقدّم إليك تقدمة المعذرين، أخذًا بأدب الله في دعائك إلى رشدك، والصدوف بك عن غيّك، وتقليدك البغي فيما بيننا وبينك، ولأننا لم نيأس إلى هذه الغاية، من أن تعود ونعود، كما كنّا وكنت؛ إذ كان الله قادرًا على أن يكشف الخطب، ويذلّل الصعب، ويدني البعيد، ويلين الشديد، وكان الأمير السيِّد ركن الدولة، وكنّا نقيلك إذا استقلت[5]، ونعذرك إذا اعتذرت. وبالله ما ذلك من جهتنا متعذّرًا، وإن كان من جهتك متيسّرًا، فإن فعلت، ورددت الأمور إلى حقوقها ورسومها، وأزلت كلّ ما أحدث من تغييرها وتبديلها، واستظهرت لنفسك بما تحبّ أن تستظهر لها به، فإنَّ الله يعفو عمّا سلف، ويحسن في المؤتَنف[6]، وإن أبيت وتماديت، فالحجّة متوجّهة عليك، والجيوش من كلّ ناحية منصبّة إليك، ولا تأخُّر لها عنك، ولا عائق لنا دونك، والله يحكم بيننا وبينك، وهو المطّلع على سرّنا وسرّك، والمجازي لنا ولك، والسلام. وكُتب يوم الاثنين، لثمان ليال خَلَون من المحرّم، سنة أربع وستّين وثلاثمائة.

---

(١) غضبوا.

(٢) النبَز: اللقب.

(٣) بعل بالشيء: دهش أو برم ولم يدرِ كيف يصنع.

(٤) الأرن: البطر، والجمام إراحة الدابة.

(٥) أقال الله عثرته، دعاء بالصفح عنه، وفي الحديث ﴿أقيلوا ذوي الهيآت عثراتهم﴾، والاستقالة طلب الإقالة. وفي حديث ابن الزبير، قلت لا أستقيلها أبدًا، أي لا أقيل هذه العَثْرة ولا أنساها.

(٦) في المستقبل.

نسخة كتاب، عن عزّ الدولة، إلى الطائع لله، كُتب من واسط، وأُنفذ إليه سرًّا مع الجواب المتقدّم

كتابي، أطال الله بقاء الأمير، وأدام عزّه وتأييده، ونعمته وكفايته، وتوفيقه وحراسته، يوم الاثنين لثماني ليالٍ خَلَون من المحرّم، عن شمول السلامة، واستقامة ما يراعيه الأمير من أموري، والحمد لله ربّ العالمين. وقد أجبت الأمير، أدام الله عزّه، عن كتابه الوارد مع العلويّ المندوب بحمله، جوابًا، نيّته على أن يقرأه من عرّضه له، وكتب عنه الابتداء الذي أوجبه. أصحّ الله لي منه ما فسد، وعرّفه من حقّي ما جحد، فمهما كان فيه من ملاطفة وموافقة، فهو، أيّده الله، المخصوص به للحقّ الذي التزمه له ولأبائه، ولأئمّتنا الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين، ومهما كان فيه من استقصاء وموافقة[1]، فالمراد به مَن يُسوّغ لي أن أتصرّف في الإهابة به، إلى الحقّ من الخشونة والرفق، لاحتمال ما بيني وبينه ذلك، مطيعًا كان أو مخالفًا، ومجاملاً أو مكاشفًا. وأفردت هذا الكتاب بنصيحة للأمير أدام الله عزّه، وهو أحقّ من تأمّلها وتصفّحها، وأنعم الفكر فيها وتدبرّها، وهي أنَّ رسالة من أومأت إليه، وفّقه الله لرشده، وصدف به عن غيّه، أتتني مع كوهيار الديلمي يسألني فيها صلحًا ليست له بيننا قاعدة، ولا أظنّ أسبابه إلاّ متباعدة، ويزعم أنه متى منع من ذلك ورأى الجيوش عليه متوافرة، وإليه متقاطرة، رحل ومَن معه إلى صاحب المغرب[2]، فأطاعه ودان له، وجذبه وجاء به. والأمير، أيّده الله، يعلم أنَّ للدولة العبّاسية، حرسها الله، منّا ركنًا لا يطار بنواحيه[3]، وعضدًا لا يُفتّ فيه[4]، وعزًّا لا يُضام، ومؤيّدًا لا يُرام، وعدّة لا تخلف[5]، وأنَّ أكثر بلاد الإسلام في أيدينا وأيدي أهل طاعتنا بالتفويض من الخلفاء الراشدين إلينا، والعقود التي أمرّوها[6] لنا، وإنّا جميعًا مترافدون متعاضدون، متوازرون متضافرون، قد اتّفقنا على أن نستدرك ما حدث ونكشف ما كرث، وأنَّ الشرذمة التي ببغداد، لو ضوعِفت مرّات كثيرة، لم تفِ مَن نقوده من عساكر الديلم، والجبل وأصناف الأمم، وأنَّ المسلمين ببغداد غير مجتمعين ولا مصطلحين، ولو اجتمعوا واصطلحوا لكانوا جزءًا لا يتجزّأ ممّن تحت ألويتنا. وما أظنّ الرجل إلاّ صائرًا إلى الجهة التي ذكرها، إذا كثر الناس عليه، ودنا الزحف إليه، ولا

(١) واقفه على كذا: سأله الوقوف عليه، كاستوقفه.

(٢) الخليفة الفاطمي.

(٣) لا محلّ للطيران بجوانبه، كناية عن المنعة والركانة.

(٤) يقال: فتّ في عضده، وهدّ ركنه.

(٥) يريد بهم، ركن الدولة بن بويه، وابنه عضد الدولة وعزّ الدولة، ابن عمّه، ومؤيّد الدولة أخا عضد الدولة، وعدّة الدولة ابن حمدان.

(٦) أحكموا عقدها.

ذريعة له لديها أعظم من أن يسلم الأمير، حرسه الله، فيها، فيكون الأمر لم يزل عنه وحده، بل عن كلّ عبّاسي كريم بعده. ومن أدلّ دليل على صحّة ما توعّدنا به لا مكّنه الله منه، أنه كان يسعه لمّا ردّ المطيع لله وأسره، وحجر عليه وحصره، أن يقرّه على أمره ويتجمّل بصيانته، وكان إكراهه إيّاه على المساعدة له في محابه، أيسر قباحة عليه من ابتزازه سربال عزّه، لكن رآه شيخًا يضعف عن الأسفار الطويلة، والمطارح البعيدة، فنصّب الأمير، أيّده الله، لأنه أنهض بها وأقدر عليها، استعدادًا للداهية الدهياء والخطّة الشنعاء، اللتين نسأل الله الإعاذة منهما، والوقاية من محذورهما. وإذا عرض الأمير، أيّده الله، هذا القول على تمييزه، كنت بالنصيحة له أولى ممّن اتّخذه سوقًا، وجعله إلى الفتنة طريقًا، وقد مكث المطيع لله مصونًا مُرفّهًا، مكرّمًا موقرًا، مخطوبًا له، مذبوبًا عنه[1]، ثلاثين سنة، لم يبلغها أحد من الخلفاء قبله، وما زلنا له مشايعين ولأعدائه مقارعين، إلى أن حدث ما حدث من غلماننا، الذين إذا لم يَفوا لنا، فالأحرى أن لا يفوا لغيرنا، ومتى تصفّح الأمير، أيّده الله، السيَر المسطورة، والأخبار المأثورة، في أيام المماليك القدماء ببغداد، وسُرَّ مَن رأى[2]، وجد سائر الخلفاء فيها، من المتوكّل، والمستعين، والمعتزّ، والمهتدي، رحمة الله عليهم، مُغتصبين مستشهدين، مفتوكًا بهم، مسفوكًا دماؤهم، مُستحَلاً كلّ حرام فيهم، مُرتكَبًا كلّ عظيم منهم، وهذا المتّقي لله، رضوان الله عليه، بالأمس قد أخذت له على تورون[3] بيعة مستأنفة مؤكّدة عند عَوده من الشام إلى العراق، وأشهد على نفسه الله، جلّ اسمه، وأنبياءه وملائكته، ثمَّ القضاة والشهود، والشيوخ والوجوه، بالوفاء له بما ثبت فيها ممّا وقعت عليه عينه، حتَّى غدر به، ونقض ميثاقه، وفعل في أمره ما هو معروف مشهور، من حيث لم يمهله فواقًا[4]، ولا أبلعه ريقًا، ولا طلب عليه علّة، ولا ركب فيما أحلّه به حجّة ولا شُبهة. فاتقِ

---

(١) مذبوبًا عنه: مدافعًا عنه. من ذبَّ أي حامى، ودفع ومنع.

(٢) سُرَّ من رأى: هي سامرّاء، مدينة في العراق، بناها المعتصم العبّاسي.

(٣) أمير الأمراء في خلافة المتّقي، كان المتّقي قد ولاّه الإمارة، ثمَّ حصلت بينهما وحشة في خبر يطول شرحه، فأصعد المتّقي إلى الموصل نزيلاً عند بني حمدان ومكث مدّة، ثمَّ ضجر من طول الإقامة عندهم، فراسل طورون في العودة، وأنفذ إليه الحسن بن هرون وأبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمي. فلقيهما تورون راغبًا في الصلح وبمحضر جمهور من القضاة والعُدول والعبّاسيين والعلويين، حلف يمين الأمانة للخليفة، فكتب الرسل إليه بذلك، وكتب أيضًا الناس بما شاهدوا من تأكيد اليمين، فانحدر المتّقي من الرقّة إلى بغداد، وأرسل من يحدّد اليمين على تورون، فجدّدها وسار ليلتقي بمولاه، فتلاقيا بالسندية، وعند إقباله عليه ترجّل وقبّل الأرض، وقال: ها أناذا وفيت يميني والطاعة لك. ثمَّ أنزله في مضرب مع حرمه وكحّله، فسمل عينيه، فارتفع الصياح وارتجّت الأرض فأمر تورون بضرب الدبادب لئلاّ تُسمع صيحتهم، فخفيت أصواتهم، وانحدر بهم والمتّقي أعمى، وبايع المستكفى بالله وهو عبد الله بن المكتفي بالله، عليّ بن المعتضد بالله أبي العبّاس أحمد بن أبي أحمد الموفق بن المتوكّل على الله، يجتمع مع المتّقي في المعتضد، وتاريخ هذه الواقعة سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة.

(٤) الفواق: الخطّ الكامل والفرصة. وبالضمّ هي شهقة النزاع والموت.

الله أيها الأمير، وقاك الله في نفسك النفيسة، ودولتك الهاشمية، وأخرج من قبضة من لا يؤمن عليك، بل هو معتقد ما قُدّم ذكره فيك.

وتوصّل إلى أن تُخلص إليَّ وتُقدم عليَّ، ولو بأن تستدعى بعض البادية ممّن تُرغبه الأرغاب، ويسلك بك على طريق الكوفة، وتعرفني صحّة عزمك، لأنفذ من هؤلاء الأعراب من أثق به، حتَّى إذا صار على مسافة قريبة منك، خرجت إليه، فخدمك والرجال معه، ومن أضمّه من خواص الأسباب إليهم، وليرسم الأمير، أدام الله عزّه، لمن وراءه، حرسهم الله، أن يسيروا، فإنّهم بإذن الله ينجون ويسلمون، ولا طلب على أمثالهم إذا كان هو، أيّده الله، بعيدًا عنهم. ولينتهز الفرصة قبل فَوتها، وما دام مالكًا لنفسه غير مستظهَر عليه، ولا يتعاظمه ما أشرت به، فإنَّ التكلّف له أخفّ محملاً من ذهاب الأصل، ووقوع الندم، والعياذ بالله، وأنا أُشهد الله، وحَمَلَة عرشه، وأنبياء وحيه، والمسلمين جميعًا في أقطار الأرض، على أني آخذ البيعة للأمير، أدام الله عزّه، على نفسي وأهلي، وكلّ نازح عنّي وقريب منّي، وأدعو الناس إليها وأزيلهم عن الكراهة لها، وأضيف إلى ضياع خدمته بالسواد[1]، ما ارتفاعه في كلّ سنة ثلاثون ألف دينار، وأحمل إلى حضرته ساعة يصل إلى عسكره هذا، ضعف ما يتركه وراءه من مال وثياب وسلاح ودوابّ وآلة وفرش. أكون وأولياؤه ركن الدولة، وعضدها، ومؤيّدها ومَن في حزبنا وتحت طاعتنا في أقاصي البلاد وأدانيها، قيامًا دونه ومرامين[2] عنه، ومعيدين له إلى داره ومقرّ عزّه؛ إذ كانت الطائفة الغالبة على بغداد، لا تثبت لعسكر من العساكر المطلّة عليها، ولا هي مقيمة إلاّ ريثما تقرب منها. وبالله أحلف مجتهدًا، وبحقّ محمَّد رسوله، صلّى الله عليه وسلّم، وبكلّ يمين يلزم المسلم إبرارها، ولا يسوغ لهم الحنث[3] فيها، لأَفِيَنَّ بكلّ ما بذلته، واجتهدنّ في المزيد عليه، ولقد صدقت في الرسالة الواردة مع كوهيار الديلمي، وما أحلتها عن جهتها، ولا أضفت إليها ما ليس منها، والسلام. وأنا أتوقّع جواب هذا الكتاب، والأمير، أطال الله بقاءه، أعلى عينًا، وما يراه في إصداره إليَّ، والتعجيل به عليَّ، إن شاء الله.

(ووقّع عزّ الدولة في آخر هذا الكتاب بخطّه).

هذا، أطال الله بقاء الأمير، كتابي والذي فيه، من ضمان ويمين لازم لي. وكتب عبده عزّ الدولة بخطّه.

---

(١) السواد: المال الكثير، والعدد الكثير.

(٢) رامى دونه: دافع وناضل.

(٣) الحَنث: عدم الوفاء بالقَسَم (اليمين).

نسخة كتاب قرئ على منبر واسط، أيام عصيان المماليك ببغداد

من عزّ الدولة أبي منصور، بن معزّ الدولة أبي الحسين، مولى أمير المؤمنين، إلى جماعة مَن بواسط من الأشراف والعوام والخواص والأتباع، سلام عليكم. فإنّا نحمد إليكم الله، الذي لا إله إلاّ هو، ونسأله أن يصلّي على محمَّد عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلّم. أمّا بعد، أحسن الله بكم الرعاية، وتولاّكم بالصون والكفاية، فقد علمتم أنَّ سبكتكين، مولى معزّ الدولة، عبد من عبيدنا، نستحقّ رقّه مملوكًا، وولاءه[١] مُعتَقًا، وقد فرض الله لنا عليه طاعة لم يقتصر على تركها، حتَّى خرج إلى الغاية من ضدّها، وأوجب له علينا إمساكًا بمعروف، لم نقف به عند حدّه، حتَّى تجاوزنا إلى نهاية شططه وسَرفه، وأنه لمّا حاز من صنيعتنا ما لم يَحُزه نظير له، في قديم ولا حديث، ولا سابق، ولا لاحق، نزت به البطنة[٢] وأدركته الشقوة، فكشف القناع، وقطع العصمة، واستجاز المحظور، وارتكب العظيم، واستغوى من غلماننا أهل العذر والجهل، حتَّى غلب بهم على أهل الوفاء والفضل، ووثب وثبة اللصّ الكامن والذئب الخاتل، وأحرق المنازل، وهتك الأحرار، وسبى الرقيق، ونهب المال، واستحلّ الحرام، واحتقب[٣] الآثام، وعطّل السنن، وأضاع الفرائض، وأظهر البدع، وقمع الشيع، وبخس أهل البيت، عليهم السلام، حقوقهم، وآثر عليهم أضدادهم، إلحادًا[٤] في الدين، وإسخاطًا لربّ العالمين، واغترارًا بجولة جالت له، إنّما هي سحابة صيف، عن قليل تقشع. وكذلك يفعل الأخرق الجاهل، والغافل الذاهل، والخائن الذي قد أذن الله في قطع أُكله[٥]، وأدناه من حاضر أجله، ونحن نتوكّل على الله كثيرًا في حسم الداء، ومقابلته بأنجع الدواء، والصمد لعدوّ الله وعدوّنا هذا، بالجيوش الحاضرة، والأمداد المتوقّعة، حتَّى يدرك منه مُنيم[٦] الثار، ولله الإذن والمشيئة، ومنه النصر والمعونة. وتأدى[٧] إلينا، رعاكم الله، أنَّ هذا المعون المأفون[٨]، استمال طائفة من رعيّتنا وحملهم على مشاركته، فلمّا فعلوا ذلك

(١) الولاء للمُعتَق، وفي الحديث نهى عن بيع الولاء وعن هبته أي ولاء العتق، وهو إذا مات المعتق ورثَهُ مُعتقه أو ورثَة مُعتقه، وكانت العرب تبيعه وتهبه فنهى عنه.

(٢) نَزَت بهم البطنة: يُضرب لمن لا يحتمل النعمة، ويبطر.

(٣) احتقب فلان الإثم كأنه جمعه واحتمله من خلفه حقيبةً.

(٤) ألحد: عدل عن الحقّ وأدخل فيه ما ليس منه.

(٥) رزقه.

(٦) المُنيم، تقول أصاب الثأر المُنيم: الثأر الذي فيه وفاء طِلْبَته.

(٧) انتهى.

(٨) الضعيف العقل.

وحصلوا منه تحت غلط يحذرون غائلته، وخطأ يتّقون بائقته[١]، مكّن في نفوسهم أنّا عليهم حاقدون، وللانتقام منهم معتقدون، إيحاشًا لهم منّا وتنفيرًا، وحيلاً[٢] عليهم وتدبيرًا، ولكي يصيروا زيادة في لفيفه، وجُنّة[٣] من مخوفه، فيتهوّكوا[٤] ولا يزدجروا، ويردوا ولا يصدروا، والله على ذلك حسيبه، وبه طليبه، ومعاذ الله، كلأكم الله، أن نكون نحن أو واحد من أوليائنا اعتقدنا في هؤلاء النفر الجُناة، والسفهاء الغُواة، إلاّ الصفح والغفران، والمنّ والإحسان. وكيف نستجيز أن نُحِلّ بهم مكروهًا، ونحن نعلم أنهم لا يُمازون[٥] عن أضعاف لهم كثيرة، من المسلمين المؤمنين، القارّين المستورين، وأنَّ السوء لا يخلص إلى الواحد من أولئك الفجّار، إلاّ بعد إتيانه على العدد الجمّ من هؤلاء الأبرار، ولكنّا نقول قولاً قد علم الله استواء باطنه وعالنه، واتّفاق سرّه وجهره، إنّا قد صفحنا عن أحداث رعيّتنا بمدينة السلام، وعفونا وحلمنا وكظمنا، ووهبنا جناياتهم لشيوخهم وأماثلهم، وأخلصنا النيّة في أن لا نؤاخذهم بجريرة، ولا نقابلهم على كبيرة أتوها ولا صغيرة، ولا نقطع عنهم عصمة، ولا ننقض لهم ذمّة، ولا نطلق عليهم يدًا بانتصاف ولا انتصار، ولا مطالبة بذَحْل[٦] ولا ثار، ما كانوا عن الغلط نازعين راجعين، والتوبة منه معتقدين مخلصين. وقد سمحنا لهم بعد تغمّد الجرائم، وهبة العظائم، بالضرائب المأخوذة من الأغنام، ومن كلّ ما يحمله تجّار الحجيج من بزّ[٧] وغيره، فإنَّ تلك الضرائب كانت واصلة إلى المماليك ولم نكن نستطيع إزالتها، ولا نتّسع لتعويضهم عنها، ولأنهم تبسّطوا في المطالب، وضاقت بنا في كفّهم المذاهب، وعجز الارتفاع[٨] عن إقناعهم، وانقطعت الحيل في إرضائهم، وكان هذا العبد الخبيث يبعثهم على سوء الأدب، والاشتطاط[٩] في الطلب، وينقلهم عن العادات الجميلة التي نشأوا عليها وأخذوا بها، أسرارًا لما أظهره من النكث، وسياقة لهم إلى ما أجروا إليه من

---

(١) البائقة: الشرّ.

(٢) حيلة، قيل فيها، ما له حيلة ولا محالة ولا احتيال ولا محال ولا حول ولا حويل ولا أحيل بمعنى واحد.

(٣) وقاية، وفي الحديث، «الإمام جُنّة»، لأنه يقي المأموم الزلل، وفي حديث الصدَقة، كمثل رَجُلَين عليهما جُنّتان من حديد.

(٤) التهوّك: السقوط والتهوّر، والتهوّك التحيّر، ومنه في الحديث الشريف، لمّا أتاه عمر بصحيفة أخذها من بعض أهل الكتاب «أمتهوّكون فيها يا ابن الخطّاب».

(٥) يُمازون: يُماز ويتميّز بمعنًى واحد (بخلاف البناء على المجهول).

(٦) الثأر، وقيل الحقد، والجمع، أذحال وذُحول.

(٧) البَزّ: السلاح، والثياب.

(٨) ارتفاع الأموال.

(٩) اشتطّ: أفرط وجاوز القدر المحدود.

الغدر. والله حقيق بأن يرفع عنه حلمه ويسلمه إلينا بذنبه، ويمكّننا من ناصيته التي نحن نملكها، وإن أبقَ وعنده نستحقّها، وإن أنكر وجحد، وقد كنّا لما ملكنا الاختيار بالأهواز، أزلنا عن الرعيّة بها مؤنًا مجحفة وكلفًا باهظة، وسمحنا لأهل عسكر مكرم، بجملة عظيمة عن ضرائب الدقيق والأقوات، وأزلنا رسم ذلك وحسمناه، ومحوناه وعفّيناه. وكذلك نفعل بكم وبالرعيّة في ممالكنا، والله الشاهد علينا بما ننويه ونخلص فيه، من الرفق والأناة والأفضال والإنعام، ومدّ الظلّ الظليل، على كلّ لائذ بنا وحاصل في كنفنا، وهو جلّ وعلا المعين المرشد، والموفق المسدّد. وأهل مدينة السلام إخوانكم في الإيمان، وخلطاؤكم في المعايش، وقد أحببنا أن يعرفوا من جهتكم ما سمعتم من قولنا، وعرفتم من رأينا، ليثقوا به ولا يشكّوا، ويسكنوا إليه ولا يرتابوا ولا ينزعجوا. فاعملوا، حفظكم الله، على تأدية ذلك مكاتبة ومراسلة، وتقريره في نفوسهم سرًّا وعلانية، وكونوا وهُم، إليه مطمئنّين، وبحسبه عاملين، إن شاء الله.



نسخة تذكرة إلى القرامطة[1]

(١) لمّا كان للقرامطة ذكر شهير في تاريخ الإسلام، وكانوا ممّن يهمّ الوقوف على أمرهم، أحببنا أن نورد هنا ملخّص خبرهم معوّلين في أكثره على ابن الأثير رحمه الله لكونه ثقة في أخبار المشرق، فنقول:
سنة ٢٧٨ ظهر قوم بسواد الكوفة يُعرفون بالقرامطة، كان ابتداء أمرهم، أنّ رجلاً قدم من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة، فكان بموضع يقال له النهرين يُظهر الزهد والتقشّف، ويأكل من كَسْب يده، ويكثر الصلاة، ويقول: إنّ الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كلّ يوم وليلة، وكان مع ذلك يدعو إلى إمام من آل البيت، فلبّى دعوته جمع كثير، فكان يأخذ من الرجل من بني دعوته ديناراً ويزعم أنه للإمام، واتّخذ من جماعته اثني عشر نقيبًا، وقال لهم: أنتم كحواري عيسى بن مريم. فشغل أهل هاتيك النواحي بما رسم لهم من الصلوات، وكان للوالي في تلك الكورة ضياع، رأى تقصير الأكرة في عمارتها، فسأل عن السبب، فأخبروه بخبر الرجل فأخذه وحبسه، وعزم على قتله، وجعل مفتاح البيت الذي سجنه فيه تحت وسادته، واشتغل بالشرب، فرقّت لحال الرجل جارية في البيت، فانتظرت الوالي إلى أن نام، فأخذت المفتاح وأخرجت الرجل وأعادت المفتاح إلى مكانه. فلمّا أصبح الوالي، فتح الباب لكي يقتله فلم يجده، وشاع خبر هذه القصّة، فازدادت فتنة الناس بهذا الرجل، وقال أصحابه: إنّه رُفع، وظهر في ناحية أخرى، ورآه بعضهم فسألوه عن قصّته فقال لهم: لا يمكن أحدًا أن ينالني بسوء، وخرج إلى ناحية الشام خوفًا من الولاة وهذا هو المسمّى بقرمط، وقيل إنّه مُحرّف عن كرميّته ومعناه بالنبطيّة أحمر العينين، وذلك أنه مرض مرّة، فأخذه إلى بيته رجل اسمه كرميته، لقّب بذلك لحمرة عينيه، فأقام عنده حتّى نَقَه، وسُمّي بعدها كرميّته باسم مضيفة.
وكان فيما حكى عن القرامطة من مذهبهم، أنهم جاؤوا بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الفرج بن عثمان وهو من أهل قرية يقال لها نصرانة، داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدي وهو أحمد بن محمَّد بن الحنفية وهو جبريل. وذكر أنّ المسيح تصوّر له في جسم إنسان، وقال له: إنّك الداعية، وإنّك الحجّة، وإنّك الناقة، وإنّك الدابة، وإنّك يحيى بن زكريا، وإنّك روح القدس، وعرّفه أنّ الصلاة أربع ركعات، ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها، وأنّ الآذان في كلّ صلاة أن يقول المؤمن: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أنّ لا إله إلاّ الله مرّتين، أشهد أنّ آدم رسول الله، أشهد أنّ نوحًا رسول الله، أشهد أنّ ابراهيم رسول الله، أشهد أنّ موسى رسول الله، أشهد أنّ عيسى رسول الله، أشهد أنّ محمَّدًا رسول الله، أشهد أنّ أحمد بن محمَّد ابن الحنفيّة رسول الله، وأن يقرأ في كلّ ركعة الاستفتاح، وهي من المنزل على أحمد بن محمَّد بن الحنفيّة، والقبلة إلى بيت القدس، وأنّ الجمعة يوم الاثنين، لا يعمل فيه شيء، والسورة الحمد لله بكلمته، وتعالى باسمه، المتّخذ لأوليائه بأوليائه، قل إنّ الأهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرّفوا عبادي سبيلي، اتّقوني يا أولي الألباب، إلى أن يقول ثمَّ يركع ويقول: سبحان ربّي ربّ العزّة وتعالى عمّا يصف الظالمون يقولها مرّتين، فإذا سجد قال، الله أعلى الله أعلى الله أعظم الله أعظم، ومن شريعته أن يصوم يومين في السنة وهما المِهرجان والنيروز، وأنّ النبيذ حرام والخمر حلال، ولا غسل من جَنابة إلاّ الوضوء كوضوء الصلاة، وأنّ من حاربه وجب قتله، ومن لم يحاربه ممّن يخالفه، أخذ منه الجزية ولا يأكل كلّ ذي ناب ولا كلّ ذي مخلب، انتهى.
وسنة ٢٨١، كان رجل من البحرين يُعرف بيحيى بن المهدي، قصد القَطيف فنزل على رجل من أهلها يعرف بعلي بن المعلى بن حمدان مولى الزياديين، وكان من غُلاة الشيعة، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي، وأنّ ظهوره قد قرب، فجمع ابن المعلى شيعة القطيف وأقرأهم الكتاب الذي مع يحيى، فأجابوه وأجاب غيرهم، وكان فيمن أجاب، رجل يقال له أبو سعيد الجنابي، كان يبيع للناس الطعام، ثمَّ غاب يحيى بن المهدي وجاء بكتاب يزعم أنه من المهدي إلى شيعته، يقول لهم فيه: قد عرفني رسولي يحيى مسارعتكم إلى أمري، فليدفع إليه كلّ منكم ستّة دنانير وثلثين، فدفعوا له، ثمَّ غاب عنهم مدّة وعاد بكتاب مثل الأول فيه أن أدفعوا إليه خمس أموالكم، ففعلوا أيضًا. وسار يحيى على هذا النمط يُظهر كتبًا، يزعم أنها من المهدي ويدعو في قبائل قيس وكلاب وعقيل ومعه أبو سعيد الجنابي، وعظم أمرهما، ولا سيّما أبو سعيد المذكور، فإنّه التفّ عليه جماعة من الأعراب والقرامطة وأغار على أطراف البصرة، فكتب أحمد بن محمَّد بن يحيى الواثقي متولّي البصرة إلى المعتضد بذلك، فأمره بإدارة سور حول البصرة. ثمَّ أغار القرامطة على نواحي هجر ودنوا من البصرة، فرجع الواثقي يطلب المدد فأنفذ الخليفة المعتضد العبّاس بن عمرو الغنوي، العامل كان عنده على فارس، فولاّه اليمامة والبحرين وضمّ إليه ألفَي رجل، وأمره بمحاربة القرامطة، فسار إلى البصرة واجتمع إليه كثير من الأعراب والمتطوّعة، فقصد بهم أبا سعيد الجنابي فاقتتلوا أول يوم، ولكن لم يسفر القتال عن شيء. وفي اللّيل أنفض عن الغنوي كثير من الأعراب، فلمّا اقتتلوا في اليوم التالي دارت الدائرة عليه، وأُخذ أسيرًا واحتوى الجنابي على معسكره جميعًا، وأحرق الأسرى، إلاّ العبّاس الغنوي، فإنّه أطلقه إلى مولاه المعتضد، وسلّمه دَرْجًا [الدَّرْج: ما يُكتب فيه، يقال: أنفذته في دَرْج الكتاب» أي في طيّه] ملصقًا وقال له أوصله إلى الخليفة فإنّ لي فيه أسراراً، فأوصل العبّاس الكتاب، فقال المعتضد: والله ليس فيه شيء، وإنّما أراد أن يعلمني أنني أنفذتك إليه في العدد الكثير، فردّك فردًا، وفتح الكتاب فوجد كما ظنّ. وفي تلك السنة فاجأ بدر غلام الطائي القرامطة، فأوقع بهم وأهلك منهم، ولكنّه رجع عنهم أخيرًا خوفًا من خراب السواد [العدد الكثير] لكونهم فلاّحيه، فقد كان العمّال =

= منذ ذلك الوقت لا يغفلون عن عمارة البلاد وتكثير فيئها، ولا يُغلّبون أهواءهم على مصلحة الملك.
وكان لقرمط داعٍ اسمه ذكرويه بن مهرويه، فلمّا رأى تتابع جيوش المعتضد على القرامطة في سواد الكوفة، واشتمال القتل عليهم، أرسل أولاده يستغوي الأعراب، فأجابه منهم بنو القليص بن ضمضم بن عدي بن خباب، من أفخاذ كلب بن وبَرة، فبايعوا زكرويه ولقّبوه الشيخ، وزعم أنه محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن اسمعيل بن جعفر بن محمَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وادّعى أنَّ له في البلاد مائة ألف تابع، وأنَّ ناقته التي يركبها مأمورة، فإذا ساروا على أثرها صحبهم النصر كيفما توجّهوا، وأتاه جماعة من بني الأصبع تسمّوا بالفاطميين وأجابوا دعوته، فأرسل إليهم المعتضد غلامه شبلاً من ناحية الرصافة فقتلوه، وأحرقوا مسجد الرصافة، وأكثروا العَيث، ومنها ساروا إلى الشام وعليها طغج بن جف، عامل هرون بن خُمارويه بن أحمد بن طولون، فهزموه مراراً وعاثوا في نواحيه، وذلك سنة ٢٨٩، وفيها سرح المعتضد إليهم جيشًا ظفر بهم في سواد الكوفة، وأخذ رئيسًا لهم يقال له أبو الفوارس، فأحضره بين يديه وقال له: أخبرني، هل تزعمون أنَّ روح الله تعالى وأرواح أنبيائه، تحلّ في أجسادكم فتستعصمكم من الزلل وتوفّقكم لصالح العمل، فقال له، يا هذا إن حلّت روح الله فينا فماذا يضرّك، وإن حلّت روح إبليس فماذا ينفعك، فلا تسأل عمّا لا يعنيك، وسل عمّا يخصّك. فقال المعتضد فما تقول فيما يخصّني، قال القرمطي أقول إنَّ رسول الله (ﷺ) قُبِضَ وأبوكم العبّاس حيّ، فهل طلب الخلافة، أم هل بايعه أحد من الصحابة، ثمَّ مات أبو بكر، واستُخلف عمر، وهو يرى موضع العبّاس فلم يوص إليه، ثمَّ مضى عمر لسبيله وجعلها شورى في ستّة أنفس، ولم يدخله فيهم، فبماذا تستحقّون أنتم الخلافة وقد اتّفق الصحابة على دفع جدّك عنها، فعذّ به المعتضد وقتله.
وسنة ٢٩٠ في ربيع الأول، سير طغج بن جف أمير دمشق، جيشًا لمحاربة القرامطة عليهم غلام له اسمه بشير، فهزمهم القرامطة وقتلوا بشيراً، وفيها حاصر القرامطة دمشق وضيّقوا بها، وأيقن أهلها بالهلكة، وبعثوا بالصريخ إلى بغداد ومصر، فأمدّوهم، واشتدّت الحرب، وقُتل الشيخ مقدّم القرامطة على باب دمشق، فخلفه أخوه الحسين وسمّى نفسه أحمد وتكنّى بأبي العبّاس، ودعا الناس فأجابه أهل البوادي، لما ركب في طباعهم من حبّ العَيث والنهب والانفلات من الخضوع للأحكام، وكان له في وجهه شامة يزعم أنها آيته، فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه إليه، وانصرف عنهم، ثمَّ سار إلى أطراف حمص فغلب عليها، وخُطب له على منابرها، وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين، وأتاه ابن عمّه المسمّى عبد الله بن أحمد بن محمَّد بن اسمعيل فلقّبه المدثّر، ولقّب غلامًا من أهله المطوّق، وأخذ يجوب البلاد عاثيًا مفسداً، فاتكًا هاتكًا سافكًا، لا يُبقي حتّى ولا على النساء، ولا على الصبيان في المكاتب، وقتل البهائم، فلم تنج منه حماه ولا المعرَّة ولا بعلبك. وامتدّ صريخ هذه الديار إلى بغداد، وارتفع عويل الناس إلى السماء، فأعمل الخليفة في غزو القرامطة وكفّ عَيثهم، وخرج بنفسه إلى الشام، وأرسل قائداً اسمه أبو الأغر لمقاتلة صاحب الشامة بعشرة آلاف فهزمهم القرمطي، ونجا أبو الأغر بألف رجل فقط انحاز بهم إلى حلب. فقصده القرمطي فدافعه أهل حلب فرجع عنهم، ثمَّ رجع الخليفة المكتفي إلى الرقّة، وأخذ يبعث من هناك البعوث لحرب القرامطة في الشام، وفي تلك السنة تواقع بدر مولى ابن طولون وصاحب الشامة، فانهزم صاحب الشامة وهلك من القرامطة خلق كثير، ولحق فلّهم [تقول قومٌ فَلٌّ أي منهزمون] بالبادية، فسرح المكتفي في أثرهم الحسين بن حمدان، وكبس ابن بانو أمير البحرين حصنًا لهم هناك، فأوقع بمن فيه، واستولى على القطيف مقام خليفة أبي سعيد زعيمهم.
وسنة ٢٩١، سار محمَّد بن سليمان الكاتب، من قبل الخليفة المكتفي لتتبّع آثار القرامطة، فالتقاهم على مسافة اثني عشر ميلاً من حماه، لستّ خَلَون من المحرّم [مِن خلا أي مضى، تقول: «فعلتُه لخمس خَلَون من الشهر» أي مَضَيْن]. فاصطلت الحرب فانهزم صاحب الشامة وأصحابه، واستلحمهم جند الخليفة، وفرّ صاحب الشامة ومعه ابن عمّه المدثّر وغلامه المطوّق، وساروا يريدون الكوفة، فانتهوا إلى الدالية من أعمال الفرات، وقد نفد ما معهم من الزاد، فأرسلوا أحد أصحابهم ليشتري لهم ما يحتاجون، وكمنوا وراء ربوة هنالك. فلمّا انتهى رسولهم إلى القرية ارتابوا في حالته، وسألوه عن أمره فاضطرب في الجواب، فأحضروه عند متولّي الناحية خليفة أحمد بن كشمرد، فاستقصى منه الخبر، فأخبره بأنه رسول صاحب الشامة، وأنه وراء رابية هناك منتظر رجوعه. فأرسل هذا من جاء به وبمن معه وكانوا ثلاثة نفر، ومضى بهم إلى ابن كشمرد، فأرسلهم إلى الخليفة وكان في الرقّة، ودخل صاحب الشامة الرقّة على جمل ذي سَنامين [السنام: حَدْبة في ظهر البعير (الجَمَل)، والجَمَل الفارسي ذو سَنامَين]، وبين يديه المدثّر والمطوّق، فسار بهم الخليفة إلى بغداد، وأدخل صاحب الشامة دار السلام على فيل وأصحابه على جمل، ثمَّ جيء به وضرب مائتي سوط، وقطعت يده وكوي، وأخذوا خشبًا فجعلوا فيها نارًا ووضعوه على خواصره، فجعل يفتح عينيه ثمَّ يغمضهما، وما زال إلى أن ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة، فكبّر الناس لذلك، ونُصب رأسه على الجسر، وقتل جماعة من رؤساء القرامطة كانوا وقعوا في اليد، واستأمن منهم جماعة فأمنوهم وأحسنوا إليهم، وكاد أمرهم يضمحلّ، لولا أنَّ زكرويه كتب إليهم يشدّدهم ويقول لهم إنَّ مّما أُوحيَ إليه أنَّ صاحب الشامة يُقتل، ولكن ذلك لا يمنع ظهورهم فيما بعد.
وسنة ٢٩٣، أنفذ زكرويه بن مهرويه، بعد قتل صاحب الشامة، رجلاً كان يعلم الصبيان اسمه عبد الله بن سعيد، ويكنى أبا غانم، يدعو الأعراب إلى شيعته، فأجابه رجل من بني زياد اسمه مقدام بن الكيال، وبعض الطوائف المنتمية إلى الفواطم وغيرهم من بني العليص وصعاليك =

= من بطون كلب، ولمّا اجتمع له منهم جمهرة سار إلى الشام والعامل عليها وعلى الأردن أحمد بن كيغلغ، وكان بمصر يحارب الخلنجي، فخرج للقائه نائب ابن كيغلغ صالح بن الفضل، فهزمه القرمطي، وأهلك قسمًا من عساكره، ثمَّ أمن المنهزمين وغدر بهم وقتل صالحًا وعاث في نواحي البثينة وحوران. وقصد دمشق فدفعه أهلها، فانكفأ قاصدًا طبرية، وقد انحاز إليه بعض جند دمشق، فواقعه يوسف بن ابراهيم نائب ابن كيغلغ على طبرية، فانهزم، ثمَّ استأمن فأمنه ثمَّ قتله القرمطي صبرًا، وعاث في تلك النواحي، فجهّز الخليفة عسكرًا عقد لواءه لحسين بن حمدان، وسيّره في أثر القرامطة، فخاموا عن اللقاء وقصدوا السماوة فطاردهم إليها، فأخذوا ينتقلون من بادية إلى بادية، ويغورون مياهها حتّى انقطع عنهم لعدم الماء، فعزّزه الخليفة بمحمَّد بن اسحق بن كنداج في جيش، وأمرهما بالمسير إلى القرامطة كلّ من جهته ففعلا. ولمّا أحسّ القرامطة بذلك قام منهم رجل من الكلبيين اسمه الذئب فقتل زعيمهم عبد الله بن سعيد وسار برأسه إلى المكتفى متقربًا به طالبًا الأمان عليه، فأمنه بل أحسن جائزته وكفّ عن قومه.

ووقعت الفتنة بين القرامطة بعد قتل عبد الله المذكور، وطلب منهم فئة الأمان فأعطوه، وعَنَدَ منهم بقيّة أقامت على مائين بالبادية، يعرف أحدهما بالدمعانة والآخر بالحباله، فأرسل إليهم زكرويه رسولاً يدعى القاسم بن أحمد، يشدّدهم ويدعوهم إلى الكوفة، ويقول لهم: إنَّ يوم موعدهم قد حضر، وإنّه قد بايع له من أهل الكوفة أربعون ألفًا، فساروا إليه في ثمانماية فارس ومعهم الداعي المسمّى بالقاسم بن أحمد، وقد ضربوا عليه قبّة، وقالوا: هذا أثر رسول الله، ونادوا يا لثارات الحسين، ومعناهم الحسين بن زكرويه المصلوب ببغداد، وكان شعارهم، يا أحمد، يا محمَّد وهم يعنون بهما، ابنَي زكرويه المقتولَين، وكانوا حاملين الأعلام البيض فلم يمل إليهم أحد من أهل الكوفة، ودفعوهم عنها، وأرسل الخليفة جملة من قوّاده وغلمانه مثل وصيف بن صوارتكين التركي والفضل ابن موسى بن بغا، وبشر الخادم، والإفشيني وغيرهم لأجل قتالهم. فانصرفوا نحو القادسية، وكانوا قد أخرجوا زكرويه من جبّه، وذلك أنه كان منقطعًا في جبّ بقرية الدرية، أقام به سنين كثيرة وعلى الجبّ باب حديد مُحكم، وكان إذا خاف الطلب، جعل عند الباب تنورًا، وقامت امرأة تسجُر التنور فلا يفطن أحد لما وراءه. وكان ربّما اختفى في بيت خلف باب الدار التي بها يسكن، فإذا انفتح باب الدار انطبق على باب البيت، وإذا دخل أحد إلى الدار لم يفطن لما وراء الباب، فلّما استخرجوه، حملوه على الرووس، وقيل إنّهم سجدوا له، فأعلمهم أنَّ القاسم بن أحمد هو من أعظم الناس عليهم منّة، لكونه ردّهم إلى الدين بعد أن كادوا يمرقون منه، وأنهم إن أطاعوه بلغوا آمالهم، ورمز لهم رموزًا ذكر فيها آيات من القرآن الكريم، فسّرها على الوجه الذي أراده، ثمَّ احتجب، فحملوه وهو محجوب، ودعوه بالسيِّد، وعُهد بالنظر في أمورهم إلى القاسم بن أحمد. ثمَّ وافتهم جيوش الخليفة بالصوّان، فاقتتلوا، وقيل إنَّ القرامطة أرصدوا كمينًا وراء جيش الخليفة، فانهزم هؤلاء وأعمل القرامطة فيهم السيف، وامتلأت أيديهم من الغنائم، وقتل من الجند نحو ألف وخمسمائة سوى الغلمان، فعظمت نكاية هذه الوقعة ببغداد، وندب الخليفة إلى نزال هذه الفئة، ابن كنداج وضمّ إليه من الأعراب بني شيبان وغيرهم. فارتحل زكرويه إلى نهر المثنية، ثمَّ نهض من هناك يريد الحاج، فبلغ السلمان ثمَّ نزل بواقصة، ثمَّ بعقبة الشيطان، حيث التقى بالقافلة الخُراسانية فناوشها القتال فأذاقته من مرّ كفاحها ما ردّه عنها، واحتجّ بأنه رجع عنها إذا لم يكن فيها نائب للسلطان، فاطمأنّ الحاج وساروا، ولمّا اطمأنّوا جدّ في أثرهم فأوقع بهم. ثمَّ ارتحل إلى الهبير، فوصلت القافلة الثالثة فأصلاها القتال، فقاتلته ثلاثة أيام ثمَّ استسلم إليه رجالاتها من شدّة العطش فاستأصلهم وجمع القتلى كالتلّ، وأرسل خلف المنهزمين من يبذل لهم الأمان، فلمّا رجعوا بذل فيهم السيف، وارتكب الفظائع، وكان من القتلى يومئذٍ أبو العشائر بن حمدان، وكانت نساء القرامطة يطفن بالماء على الصرعى، فمن طلب الشرب قتلته. وقيل إنَّ عدّة القتلى بلغت عشرين ألفًا، ولمّا علمت سائر القوافل ما حلّ بمن تقدّمها، امتنعت بفَيْد[أي تحصَّنت فيها ولم تخرج منها، وفَيْد هي قرية في نصف طريق مكّة]، منتظرة ورود عساكر الخليفة، فسار زكرويه إليهم يعرض عليهم الأمان، فلم ينخدعوا له، فحصرهم فامتنعوا منه بحصنين هناك، فسار عنهم إلى الساج.

ولمّا وصلت أخبار هذه النكبات إلى مدينة السلام فتّت في عضد الخليفة، وفي أعضاد الأمّة، فجهّز المكتفى الجيوش وسيّرها في أول ربيع الأول، وعقد عليها لوصيف بن صوارتكين، فسار على طريق حفان، فالتقى بالخبيث زكرويه وقرامطته في ثامن ربيع الأول، فاقتتلوا يومهم وحجز بينهم الليل، وباتوا يتحارسون، ثمَّ بكّروا إلى القتال، ففي اليوم التالي، ولّى القرامطة منهزمين، وهلك منهم خلق كثير، ووصل جند السلطان إلى زكرويه، فأصابه أحدهم بضربة على رأسه بلغت دماغه فمات على أثر هذه الضربة، وأُرسلت جيفته إلى دار السلام وسُير رأسه في البلاد، وسبيت نساء القرامطة، وانهزم بقيّتهم إلى الشام حيث أوقع بهم الحسين بن حمدان وتتبّع الخليفة آثارهم في العراق، فقتل بعضًا وحبس بعضًا. وسنة ٣٠٠ قتل أبو سعيد الجنابي كبير القرامطة، قتله خادم له صقلبي في الحمّام، وكان قد استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر البحرين، واستفحل أمره وعظم شأنه، وعهد بالأمر إلى ابنه سعيد فضعف عن حمله وغلبه عليه أخوه أبو طاهر سليمان أشهر رجال القرامطة. قال ابن الأثير وكان شهمًا شجاعًا، وقبل ورود الخبر بقتل أبي سعيد، كان الخليفة المقتدر قد كتب إليه كتابًا ليّنًا في معنى إطلاق مَن عنده مِن الأسرى، وفيه يناظره ويقيم الحجّة على فساد مذهبه، فبلغ الرسل البصرة، فأتاهم مقتل أبي سعيد فأعلموا الخليفة، فأمرهم بالمسير إلى ولده أبي طاهر، فجاءوا أبا طاهر فأكرم وفدهم، وأطلق الأسرى وأجاب على الكتاب. =

= وسنة ٣١١ فاجأ أبو طاهر القرمطي البصرة بألف وسبعمائة رجل، وتسلّق السور بسلالم من شعر، تحت الليل، فما انتبه أهلها حتّى كان أشياع قرمط في البلد ووضعوا في أهلها السيف، ونهبوا ما لا يحصى، وطرح الناس أنفسهم في الماء فغرق أكثرهم. وبعد أن أناخ أبو طاهر على البصرة سبعة عشر يومًا يقتل وينهب، غادر البصرة قاعًا صفصفًا، فأرسل إليها الخليفة المقتدر محمّد بن عبد الله الفارقي، ولكن بعد خراب البصرة.

وفي السنة التالية سار أبو طاهر وكان عمره سبع عشرة سنة فقط، لقطع طريق الحاجّ وهمّ رجوع من البيت الحرام، فأوقع بطلائعهم، فأشار أبو الهيجاء ابن حمدان على المتأخّرين منهم بالرجوع إلى وادي القرى، فاستطالوا الطريق ولم يقبلوا منه واستمرّوا سائرين على طريق الكوفة ومعهم أبو الهيجاء، فلاقاهم القرامطة وأوقعوا بهم وأسروا أبي الهيجاء وأحمد بن كشمرد وأحمد بن بدر عمّ والدة المقتدر. وسار أبو طاهر بالغنائم إلى هجر بلده، ووصلت الأخبار إلى بغداد فقامت قيامة أهلها، واجتمع نساء المقتولين على طريق الحجّ مع نساء الذين نكبهم الوزير ابن الفرات إذ ذاك، وجعلن ينادين أنّ القرمطي الصغير قتل المسلمين على طريق الحجاز، والقرمطي الكبير ابن الفرات قتل المسلمين ببغداد، وثار العامّة وكسّروا المنابر، وانعقد ديوان بحضور الخليفة، فأخذ نصر الحاجب يؤنّب ابن الفرات على إقصائه رجال الدولة وسيوف الخلافة لحزازات في صدره، وذلك مثل مونس الخادم وغيره، وقرّ الرأي على استدعاء مونس احتياطًا على الحضرة، ودفعًا للغائلة. وأمّا أبو طاهر فأطلق سبيل أبي الهيجاء بن حمدان والأسرى الذين كان أخذهم من الحاج، وبعث إلى المقتدر يطلب أن يوليه البصرة والأهواز، فلم يجبه إلى ذلك، فاحتدم غيظًا وسار يريد الحاج.

وكان المتقلّد لأعمال الكوفة وطريق مكّة، جعفر بن ورقاء الشيباني، فلمّا سار الحاجّ من بغداد سار بين أيديهم بألف رجل من بني شيبان، وسار معهم من قوّاد الخليفة مثل ثمل صاحب البحر، وجنى الصفواني، وطريف السكري، في ستّة آلاف رجل، فلقي أبو طاهر جعفرًا فقاتله فردّه إلى الكوفة، وتوافى عسكر المقتدر، فهزمهم أيضًا وأسر الصفواني، وعاد الحاجّ إلى بغداد، وزحف مونس المظفر ليزيح القرمطي عن الكوفة فألفاه قد أخلاها، ووقع الخوف في نفس الحضرة وانتقلوا إلى الجانب الشرقي.

وسنة ٣١٥، دخل أبو طاهر القرمطي الكوفة واستولى على ما فيها، فأنفذ المقتدر يوسف بن أبي الساج لإزالته عنها، فوصل ثامن شوال يوم الجمعة، وأرسل يدعو القرامطة إلى الطاعة وإلاّ فالقتال يوم الأحد، فأجابوه لا طاعة إلاّ لله تعالى، والقتال بُكرة غد. وفي اليوم التالي ضربت البوقات، فسأل أبو طاهر ما هذا، فقيل له فشل، فأجاب أجل، لم يزد على هذا، ثمّ تواقفوا، وكان القرامطة أقلّ جدًّا من الجند، فطمع هؤلاء فيهم، وظنّ ابن أبي الساج أنه يفنيهم عن آخرهم، وكاد يكتب البشارة بالظفر قبل اللقاء، فحمل أبو طاهر في معمعة القتال في نخبة من أبطاله، وصدقوا الحملة، فانكشف الجند وأُسِر يوسف القائد، ووصل المنهزمون إلى بغداد فاضطربت بمن فيها وعوّلوا على الرحيل عنها، فعزم مونس المظهر على الحركة، فبلغه أنّ القرامطة غادروا الكوفة إلى عين التمر، فأنفذ خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم عن عبور الفرات، فقصد القرامطة الأنبار فقطع أهلها الجسر، فنزلوا غربيها فأنفذ أبو طاهر رجالاً من أصحابه إلى الحديثة فأتوه بسفن، ولم يعلم أهل الأنبار بذلك، فعبر عليها ثلاث مئة رجل من القرامطة، فقتلوا الجند فهزموهم ودخلوا الأنبار وعقدوا الجسر. وبلغ ذلك بغداد فخرج نصر الحاجب ولحق بمونس، واجتمع هناك من عسكر الخليفة أربعون ألفًا ما عدا الغلمان، وكان معهم أبو الهيجاء بن حمدان، فساروا حتّى وصلوا إلى نهر زبارا عند عقرقوف على فرسخين من بغداد، فأشار أبو الهيجاء بن حمدان بقطع القنطرة التي على النهر فقطعوها، ووصل أبو طاهر حذاءهم، وحاول العبور فرأى القنطرة مقطوعة فلم يمكنه. ولمّا رأى بعض العسكر القرامطة، فرّوا بمجرّد الرؤية لشدّة ما كان في قلوب الناس من هيبتهم، فقال أبو الهيجاء لمؤنس كيف رأيت ما أشرت به عليكم، فوالله لو عبر القرامطة النهر لانهزم كلّ من معك ودخل القرامطة بغداد. فعاد القرامطة إلى الأنبار، فأرسل مؤنس صاحبه بليق بستّة آلاف لقتالهم وتخليص يوسف بن أبي الساج، فهزمهم القرامطة، وبعد الهزيمة فتكوا بيوسف المذكور وباقي الأسرى، هذا كلّه وعدّة القرامطة الذين كانوا مع أبي طاهر ألف وخمس مائة رجل وقيل ألفان وسبعمائة رجل، منهم سبعمائة فارس، حتّى قالوا إنّ المقتدر قال وقد بلغه قلّة عددهم: لعن الله نيّفًا وثمانين ألفًا يعجزون عن ألفين وسبعمائة، ولم يطمئن أهل مدينة السلام حتّى انكفأ القرامطة عن هيت ثمّ رجعوا عن الأنبار، وعاد مؤنس إلى بغداد فدخلها ثالث المحرّم سنة ٣١٦، وسار أبو طاهر إلى الدالية، فالرحبة، فالرقة وهو يعيث ويسفك الدماء، وضرب على الأعراب ضريبة على كلّ رأس دينارًا كانوا يحملونها إليه في مقرّ إمارته هجر، فسار مؤنس إلى الموصل وصمد إلى القرامطة في الرقة فساروا إلى الرحبة ثمّ تحوّلوا عنها إلى هيت، وهي بلدة حصينة، فدفعوهم عنها، فانقلبوا نحو الكوفة.

ولمّا تمّ ما تمّ لأبي طاهر من الظهور، وكان كثير بسواد العراق يعتقدون اعتقاده، وإنّما يكتمونه خوفًا من السلطان، أظهروا مكنون أمرهم، واجتمع منهم نحو عشرة آلاف رجل، فولّوا عليهم رجلاً يعرف بحريث بن مسعود، وخرجت طائفة أخرى منهم بعين التمر، وولّوا عليهم رجلاً يقال له عيسى بن موسى، وكانوا يدعون إلى المهدي. وسار عيسى هذا إلى الكوفة وصرف العمّال عنها، وسار حريث بن مسعود إلى أعمال الموفقي، وبنى بها دارًا سمّاه دار الهجرة، وأكثر كِلاهما العَيث، فأرسل المقتدر في أثر عيسى صافيًا البصري، وأنفذ لقتال حريث =

= هرون بن غريب، فظفر كلّ بمن قصده، ودارت الدائرة على قرامطة السواد واستؤصلوا قتلاً وأسرًا، وجيء بأعلامهم منكوسة إلى بغداد، وكان مكتوبًا عليها: "ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين".

وسنة ٣١٧، أتى القرامطة أفحش مخازيهم، وجاؤوا بالكبيرة التي أنست جميع موبقاتهم، وهي أنهم ساروا إلى مكّة فقتلوا الحجاج في وسط البيت الحرام، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه إلى هجر، ونهبوا مكّة، فخرج أميرها ابن محلب في جماعة من الأشراف يسألون أبا طاهر في أموالهم، فقتلهم أجمعين. قال ابن الأثير: وقُلع باب البيت [يريد به: بيت الله الحرام في مكّة]، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب، فسقط، وطُرح القتلى في بئر زمزم وغير ذلك، وبلغ هذا الأمر المهدي العلوي صاحب أفريقية، فكتب ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه، ويقول له قد حقّقت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت، وإن لم ترد الحجر الأسود وترد على أهل مكّة والحجاج ما سلبتهم إيّاه وترد الكسوة، فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة. فلمّا وصل إليه كتاب المهدي أعاد الحجر الأسود، وأعاد ما أمكنه من الأموال، وقال ابن أبي الدم في الفِرَق الإسلامية: إنّ الخليفة راسل أبا طاهر في ابتياع الحجر الأسود، فأجاب إلى ذلك، فباعه من المسلمين بخمسين ألف دينار، وقال صلاح الدين الصفدي في تاريخه: إنّ القرامطة أخذوا الحجر الأسود مرّتين، فيحتمل أنّ المرّة الأولى ردّوه بكتاب المهدي، والثانية ردّوه لمّا اشتُري منهم، أو بالعكس، والله أعلم.

وسنة ٣٢٣، خرج الناس من بغداد إلى الحجّ، فلمّا بلغوا القادسية اعترضهم أبو طاهر، ثاني عشر ذي القعدة، فلم يعرفوه أولاً فاقتتلوا، ثمّ خرج بعض العلوية من الكوفة وسألوا أبا طاهر الكفّ فأجابهم بشرط أن يرجعوا إلى بغداد، فرجعوا تلك السنة.

ولم يزل الناس مع هذه الفئة المارقة في شدّة وبلاء، إلى أن قتل أبو طاهر ابن أبي سعيد القرمطي عام ٣٣٢، فانكسرت بموته شوكتهم وخفّت وطأتهم، ولكن بقيت آثارهم، وكان منهم لعهد الطائع العبّاسي الملقّبون بالسادة الذين ورد في هذا المجموع، كتاب صادر إليهم من ديوان الخلافة، وكانوا ستّة أشخاص.

وسنة ٣٦٣، قصد القرامطة مصر وبثّوا السرايا في أطرافها، ووصل مقدّمهم الحسن بن أحمد إلى عين شمس، ووافاه خلق كثير من العرب، وكان من جملة من وافاه حسّان بن الجراح الطائي أمير العرب بالشام، ومعه جمع عظيم، فوقع الرعب في قلب المعزّ لدين الله العلوي صاحب الغرب، وكتب إلى القرمطي كتابًا يذكّره فيه أنّ الدعوة واحدة، وأنّ أسلافه إنّما كانوا يدعون لأسلافه ووعظه وأنذره، فكان جواب القرمطي: وصل كتابك الذي قلّ تحصيله وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك والسلام، فرأى المعزّ أن لا حيلة له إلاّ بإيقاع الفتنة بين أصحابه، فراسل ابن الجراح يستميله عنه ووعده بمال جزيل، فأجاب، ووقع الاتّفاق على مائة ألف دينار. فلمّا أحضروا المال ليبعثوا به إليه استكثروه فضربوا دنانير من الصفر وموّهوها بالذهب وجعلوا الذهب الخالص على وجوه الأكياس وحملوها إليه، فمشت عليه الحيلة، وعندما تواقع الجمعان انهزم بعرَبه وثبت القرمطي طويلاً إلاّ أنه عوّل أخيرًا على الهزيمة، فأُسر من أصحابه ألف وخمسمائة، وسرح المعزّ وراء فلّهم القائد أبا محمّد بن ابرهيم بن جعفر، في عشرة آلاف، فانهزموا مهرولين إلى بلادهم.

وسنة ٣٧٥، ورد منهم اسحق وجعفر البحريان الكوفة، وهما من السادة فملكاها وخطبا لشرف الدولة بن بويه، فخافهما الناس جدًّا لما كان باقيًا من سطوة هذه الطائفة، حتّى يقول ابن الأثير، إنّ عضد الدولة وبختيار أقطعاهم الكثير، وكان نائبهم في بغداد الذي يعرف بأبي بكر بن شاهويه، يتحكّم تحكّم الوزراء، فقبض عليه صمصام الدولة، فلمّا ورد القرامطة الكوفة كتب صمصام الدولة يسألهم عن سبب حركتهم، فذكروا أنّ السبب قبض نائبهم، ووصل أبو قيس الحسن بن منذر من أكابرهم إلى الجامعين، فجهّز إليه صمصام الدولة جيشًا عبروا إليه الفرات وهزموه ثمّ وقع أسيرًا مع جماعة فقُتلوا، فأعاد القرامطة الكرّة في جيش كثيف، فخذلهم الله أيضًا في هذه الوقعة وقتل مقدّمهم، وانجلوا بعدها عن الكوفة، قال ابن الأثير رحمه الله: وزال من حينئذٍ ناموسهم.

وسنة ٣٧٨، قام رجل يُعرف بالأصفر من بني المنتفق، فجمع جموعًا وزحف إلى القرامطة، وقتل مقدّمهم وأهلك منهم خلقًا كثيرًا، ودخل القطيف من بلادهم فاكتسحها وعاد بالغنائم إلى البصرة.

أمّا الحسن بن أحمد المذكور آنفًا، فقرأتُ ترجمته في كتاب فَوات الوفيّات، قال: مولده بالأحساء وتوفّي بالرملة سنة ستّ وستّين وثلثمائة، وهو ابن أحمد بن أبي سعيد الجنابي، غلب على الشام، واستناب على دمشق وشاح بن عبد الله، وقتل جعفر بن فلاح، ثمّ توجّه إلى مصر وحاصرها شهورًا، وكان يُظهر طاعة أمير المؤمنين الطائع.

قال القاضي في كتابه "الإشعار بما للملوك من النوادر والأشعار": إنّ أبا علي القرمطي قال في بعض الليالي لكاتبه أبي نصر بن كُشاجم، ما يحضرك في هذه الشموع، فقال: إنّما نحضر مجلس السيّد لنسمع كلامه ونستفيد من أدبه، فقال القرمطي بديهًا رحمه الله تعالى:

ومَجدولة مثل صدر القناة ... تعرّت وباطنها مُكتسي
لها مقلةٌ وهي روحٌ لها ... وتاجٌ على هيئة البرنسِ
إذا غازلَتها الصبا حركت ... لسانًا من الذهب الأملسِ =

صُرّ[1]، أطال الله بقاك، إلى حضرة إخواننا السادة[2] الفاضلين أدام الله عزّهم، واقرأ عليهم سلامنا وعرّفهم أننا على أفضل ما عهدوا بنا، من اعتقاد المودّة والتمسّك بعلائقها والمحافظة على وثائقها، وأننا ما فارقنا سالفًا ولا نفارق مستأنفًا، الظنّ الحسن بهم، والاعتقاد الجميل فيهم، والسكون إلى غضاضة عهدهم على مرور الزمان، وحصافة[3] عقدهم على تصرّف الحدثان، وأنهم لا يخلون بمراعاتنا ومشاركتنا، والكون معنا في سائر ما يخصّنا، حسب ما تقتضيه الأصول الجامعة لنا ولهم، والقواعد المتمهّدة بيننا وبينهم، التي ما منّا مَن خرج عن حدّ من حدودها ولا أضاع حقًّا من حقوقها. ونحن بحمد الله مستمرّون على رشد طرائقنا فيها، متحرّزون من كلّ ما يطرقها ويقذيها[4]. ثمَّ تذكر لهم، أدام الله عزّهم، أمر سبكتكين مولانا[5]، فيما ارتكب من كفر صنيعتنا واحتقب من غَمْط نعمتنا، وأنه اغتنم بعدنا كان عن مدينة السلام إلى الأهواز، واهتبل الغرّة في نبوة[6] جرت بين الديلم والأتراك، قد كان مثلها يجري في الأوقات، فنصلحه بأيسر النظر، ونتلافاه بأهون السعي، فأظهر مكنون سرّه وأبدى كامن شرّه، وفعل ما يفعله العبيد إذا أفسدها غامر الإنعام، وأرِنت[7] على طول الجمام[8]، واستغوى علينا طائفة من غلماننا، موّه عليها بالتخويف منّا والتحذير، ودخل عليها من طريق الإيحاش والتنفير، حتّى صارت ملومة مثله لا تعذر وواردة معه لا تصدر. وبسط جُهّال الرعيّة على مستوريها، وبعثها على قبائح شاركها فيها، وسلّطها على قتل النفوس وإفاضتها، وسفك الدماء وإراقتها، ونهب الأموال واستباحتها، وإخراب المنازل وتعفيتها. وجهر بعداوة أهل بيت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ومنابذتهم، والغَضّ

=وإن رُتِقت* لِنعاسٍ عُرَى	وقطعت من الرأس لم تنعسِ
وتنتج في وقت تلقيحها	ضياءً يجلى دُجى الحِندسِ*
فنحن من النور في أسعدٍ	وتلك من النار في أنحسِ

هذا ما رأينا أن نلخّصه من تاريخ هذه الفرقة، ليقف القارئ على مجمل أمرهم إذ كان يجده متفرّقًا في الكتب.

* رتق (الثوب)، ضد فتق: قرّب بين صدْعيه ولحمه، والعامّة تقول رثاه.

* الحِنْدِس: الليل الشديد الظلمة.

(١) في الحديث: أخرج ما تصرّه من الكلام، أي ما تجمعه في صدرك.

(٢) لقب ستّة من رؤساء القرامطة، كان يقال لهم السادة على ما سنذكره.

(٣) الحَصافة: جودة الرأي، ومُحكم العقل.

(٤) يقذيها، من القذى وهو كلّ ما يقع فيك ويؤذيك من الطفيليات. وفي العين (خاصّة). القذى (مجازًا) كلّ ما يقلقك ويضيمك.

(٥) المولى (هنا): العبد المعتق.

(٦) جفوة.

(٧) أرِنَت: نشطت وجمحت.

(٨) الجَمام (هنا): الراحة، وجمّ الناس: استراحوا.

منهم ومن شيعتهم، وأوصل الضرر والأذى إليهم، وآثر أضدادهم عليهم، وجعل شعاره كلمة النصب[1] وإسخاط الربّ، طمسًا لمعالم الدين وخلافًا لإجماع المؤمنين، وكذلك يفعل من حُرِم خير دنياه وآخرته، وحظّ عاجلته وآجلته، وانقطعت العصمة بينه وبين إلهه المُنزل لرزقه، ومولاه المالك لرقّه. ونعوذ بالله من مثل حاله الشنيعة وجنايته الفظيعة، ونسأله أن يصرعه ببغيه، ويقنعه بخزيه، ويجزيه جزاءه، ويردّيه رداءه، ويفضي به إلى ما أعدّه لأمثاله من سكن الجحيم، والعذاب الأليم. وتشرح لهم، أدام الله عزّهم، ما الأخوّة بيننا داعية إلى شرحه، من انكفائنا عن الأهواز إلى واسط، ونفوذ كتبنا إلى الأمير السيِّد ركن الدولة، والأمير عضد الدولة، باستدعاء أمداد من الرجال لم نجذبهم للاستكثار، ولا التمسناهم للاضطرار؛ إذ كنّا، ولله الشكر، في عدد وافر جمّ، وعسكر لَجِب[2] ضخم من الديلم والجبل، وأهل الوفاء من الأتراك، وأصناف الرجال والصعاليك الفتّاك، لكنّا جرينا على عادة لنا أهل البيت، في الاجتماع على كلّ ناجم، وإن كفانا التفرّد والتعاضد على كلّ ظالم، وإن أغنانا التوحّد، وأنهما، أدام الله عزّهما، قد حميا وارتمضا[3]، وأنِفا[4] وامتعضا[5]، وأنفذ الأمير السيِّد ركن الدولة، فتاه الأمير أبا الحسن، من الريّ في عسكر وافر المدد، وشخص الأمير عضد الدولة عن شيراز في جيش كثيف العدد، وأنَّ عدّة الدولة أبا تغلب، بن ناصر الدولة، أنفذ أخاه على مقدّمته إلى تكريت، وأخًا ثانيًا من طريق هيت، وبرز هو عن الموصل غضبًا لنا، وقضاء لحقّنا وانتهازًا للفرصة في التقرّب إلينا وتأكيد السبب بنا، وأنَّ كلّ نازع من الناس إلى عزّ وكرم، وراجع بنسبه إلى عرب أو عجم، قد نهد لهذا العبد نهود الواثب المتنزّي[6]، والثائر المتلظّي[7]، من أكابر وأصاغر، ليست بنا حاجة إلى الإطالة بذكرهم، للشائع الذائع من خبرهم، وأنه الآن محصور بمدينة السلام، لا يتجاوز سلطانه طرفَيها ولا

---

(١) النصْب والنصُب: كلّ ما عُبد من دون الله تعالى، والنصب بغض علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، والناصبية أو النواصِب، قوم يتديّنون ببغض آل البيت، رضوان الله عليهم.

(٢) عسكر لجب: ذو جَلَبة وكثرة.

(٣) حميَ وارتمضَ: احترق غيظًا.

(٤) أنِفَ: ترفّع وتنزّه.

(٥) امتعض: غَضِبَ.

(٦) المتنزّي: الواثب، تقول نزا: وثب.

(٧) المتلظّي: المغتاظ، تقول تلظّى فلان: التهب غيظًا.

يتعدّى ماصِرَيها[1]، قد صارت الدنيا عليه ككفة الحابل[2]، وضاق دونها مجال الجائل، ومعه من هؤلاء الغلمان الأغمار[3] والعوام الرعاع، مَن لا يقيم له وزنًا ولا يمتثل أمرًا، وإنّما نصبوه سلمًا لهم إلى الأموال المستهلكة والمحارم المنتهكة، والمآكل الموبية[4]، والموارد المودية[5]، وإذا ساعدهم في القبيح إلى غاية لم يقفوا عندها ولم يكتفوا، وإن نهاهم عن تجاوزها، لم يحفلوا به ولم ينتهوا. ولمّا تنبّه من عمهه[6] وتحلّم من سفهه وتذكّر سخط الله عليه، وتوافي أقاربنا والأباعد إليه، ورأى أنه محاط به ومأخوذ بناصيته، وأنه لا ثبات له على ما دَهَمه، ولا بقاء على ما غشيه، راسلنا مراسلة المستسلم واعتذر اعتذار المتندّم، والتمس أن نقرّ عليه من أعمالنا، ناحية يخدمنا فيها ويعيش بقيّة أيامه منها. وذكر أنه متى منع ذلك، صار إلى صاحب المغرب[7] وساعده على كلّ مراد ومطلب، فأجبناه بالمنع، وجبهناه[8] بالدفع، وأعلمناه أنه العبد الذليل والواحد القليل، والمهين عندنا قرب أو نأى، والحقير لدينا أطاع أم عصى؛ إذ كان مالنا نطلبه طلب الضالّة المنشودة، ونثق من الله بأن يعيده إلينا إعادة الظلامة[9] المردودة، بذلك جرت عندنا عادته فيه، وفي أمثاله وفي قُروم[10] مصاعب[11] من أعدائنا كانوا أعظم منه شأنًا، وأعلى يدًا ومكانًا، فأظفرنا الله بهم وحكم لنا عليهم، وأورثنا أعمارهم، وملّكنا ديارهم. فله الحمد كثيرًا والشكر دائمًا، وأولى الناس أن يكون للمولى المنعم متعصّبًا، وعن العبد الغامِط[12] منحرفًا، إخوتنا السادة أيّدهم الله بأصولهم الطيّبة، وأعراقهم

---

(١) ماصريها، الماصر: الحدّ، أي أنه لا يتجاوز حاجزَيها وحدَّيها.

(٢) كلّ ما استدار فهو كِفة بالكسر نحو كِفّة الميزان، وكِفّة الصائد وهي حبالته، وهو يريد هنا، أنَّ الدنيا صارت عليه ضيّقة مثل كِفّة الحابل، ولعلّ ذلك من قول القائل:

كأنَّ فجاج الأرض وهي عريضة ... على الخائف المطلوب كِفّة حابلِ

(٣) الأغمار، مفردها (غُمر وغَمْر): الجاهل، مَن لم يجرِّب الأمور.

(٤) الموبية: الكثيرة الوباء.

(٥) المودية: المُهلِكة. من ودأ: أهلك وأمات.

(٦) قالوا العَمَه في البصيرة كالعمى في البصر.

(٧) الخليفة الفاطمي بمصر، وكان كلّ من نقم على الدولة ببغداد يميل إلى الفاطمية، وربّما أقام لهم الخطبة مثل الأمير البساسيري، ومثل قرواش بن مقلد أمير بني عقيل، الذي خطب لهم بالموصل والأنبار والكوفة، وكان ابتداء الخطبة، الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب، وانهدّت بقدرته أركان النصب، وأطلع بنوره شمس الحقّ من الغرب.

(٨) جبهت فلانًا إذا رددته واستقبلته بما يكره.

(٩) المظلَمة، وهي اسم، ما أُخذ منك، وما تطلبه عند الظالم.

(١٠) القرْم: الفحل الذي يُقرم أي يُودع ويُعفى من الركوب.

(١١) المَصْعَب: هو الذي يُودع ويُعفى من الركوب والعمل، لأجل الفِحْلَة.

(١٢) الغامِط: الجاحِد. (غَمَطَ وغَمِطَ) الحقّ: إذا جحده.

النجيبة، وفضائلهم الظاهرة، ومناقبهم الباهرة، وما عندنا شكّ في ذلك فنبعثهم عليه، ولا نظنّ بهم الذهاب عنه فنردّهم إليه. وكيف نرتاب بمعادن الفضل والنبل الذين يجرون لنا ونجري لهم مجرى اللحمة والأهل، بل نحن عالمون بأنهم، أدام الله عزّهم، معنا في البراءة منه والازورار عنه، وأنَّ قلوبهم لا تُضمر، وألسنتهم لا تُظهر، إلاّ ما يوافق إيثارنا ويعمر سبيل الصلة بيننا، إلاّ أنَّ أبا طريف عديّ ابن محمَّد، أعزّه الله، عجل بأن صار إلى هذا العبد العاقّ[1] واللعين المشاقّ[2]، مصيرًا ربّما حُمل على المصافاة له، ونُسب إلى الرضى بفعله، وطرّق[3] للأباعد أن يسيئوا الظنّ بما بيننا، ويخوضوا في التياث ودّنا وانتكاث عهدنا. وحاشا لله، أن يكون ذلك كذلك، وقد كان لعمري، كتب إلينا كتابًا ألمّ فيه ببعض الاعتذار، فأجبناه بالقبول لقوله والبسط لعذره، وعلّينا الثقة به على الشكّ فيه، وأمرناه بالمصير إلى حضرتنا لنفاوضه مهمّات يكتب بها عنّا، فتأخّر تأخُّرا جرّ عليه هذا العتاب منّا. ونسألهم، أدام الله عزّهم، أن يرسموا له استئناف ما نحمده واستقبال ما نشكره، وأن يحضر مجلسنا ليغسل دَرَن حضوره مجلس العاصي علينا، وليسمع منّا ما يصير إلى إخواننا السادة، مُشافهًا به، أو يخدمنا وإيّاهم مكاتبًا، وليكون انكفاؤه سريعًا على التكرمة التي يستحقّها، ونراه أهلاً لها بإذن الله. وإذا أتيت على ذلك وحصلت الجواب عنه، وانصرفت إلينا بالنعمة الجليلة من سلامتهم وعافيتهم، والفائدة الجزيلة من كفاية الله إيّاهم، تحمّلت من أمثلتهم ما يُحتذى، ومن مراسمهم ما يُقتفى، إن شاء الله.

---

(١) العاقّ: المخالِف والعاصي.

(٢) المشاقّ: المخالِف والمعادي.

(٣) طرّق لهم (على غير قياس): مهّد لهم السبيل ليفعلوا كذا.

وعن عزّ الدولة إلى الفتكين

كتابنا يا أخانا، أطال الله بقاك، وأدام تأييدك وسعادتك، وسلامتك ونعمتك، وكفايتك ولا أخلى منك، يوم الخميس لثلاثٍ خَلَون من صفَر عن سلامة، والحمد لله ربّ العالمين. وكنّا نتوقّع كتابك، أدام الله عزّك، عند إمكان المكاتبة لك، وملكك فيها اختيارك بوفاة من يعزّ علينا، أن نستروح إلى فقده، ونسكن إلى كفاية الله أمره[1]، بعد أن كان لنا كالناب والظفر، والجُنّة من نوائب الدهر، تجاوز الله عن سيآته، وسامحه في فرطاته. فلمّا تأخّر ذلك، ظننّا أنَّ هذه الفرقة الواقعة بالجسوم قد أقامت في نفسك، أنها تجلب فرقة بالقلوب، وأنَّ الوحشة قد تمّت واستمرّت، والمصلحة قد أعوزت وتعذّرت. وكتبنا إليك مع الشريف أبي أحمد الحسين بن موسى، أيدّه الله، ما لا نشكّ في وصوله ووقوعه عندك موقعه، ولئن كان الجواب تأخّر فما أساء تأخّره ظنّنا، ولا قدح ذلك في جميل تقديرنا، لكنّنا نسبناه منك إلى التثبّت منك فيما تأتيه، وتحرّي الصواب فيما ترتئيه وتمضيه، ودعانا فرط التمسّك فيه واشتداد المنافسة فيك إلى أن نُشفع ذلك الكتاب بهذا، وأن نستعمل معك كما نستعمل مع المعلوم فضله، المرجو خيره، الموثوق منه بسداد الطرائق، وتهذّب الخلائق، والرعاية للحقوق، والمحافظة على العهود، والإيثار لمّا أطفأ نار الفتنة وأعاد ظلّ النعمة، ولأنَّ الماضي خفّف الله عنه، كان ينطوي على غِلٍّ قد تقادم، وفساد قد تعاظم، وأسباب للوحشة، هو مَلوم على سالف استشعاره لها، ومعذور في حادث انقباضه عنها، وحالك، أيّدك الله، خاصّة تضادّ حاله في ذلك وتنافيها، لأنك ما زلت مستودع سرّنا وجهرنا، ومشتكى حزننا وبثّنا، والكبير الأثير[2] عندنا، والخصيص المكين لدينا، ومن نستضيء في ظلم الخطوب برأيه، ونستجنّ[3] من سهام النوائب، بإخلاصه وولائه، ونخرج إليه بخفية الصدر، وحوجاء النفس والعجر والبجر[4]، التي يحتشم فيها الأخ الشقيق، والوالد الشفيق. وما تغيّر هذا الأنس بيننا، ولا انتكثت مرائره[5] بنا، إلى الوقت الذي سرنا فيه عن مدينة السلام، فإنّنا

---

(١) المراد به سبكتكين.

(٢) الأثير: المكرّم.

(٣) نستجنّ، من جُنّة، وهي السترة الواقعية من السلاح.

(٤) أصل العُجَر العروق المتعقّدة في الجسد، والبُجَر العروق المتعقّدة في البطن خاصّة، وقيل العُجَر في الظهر، والبُجَر في البطن، وإذا قيل، أفضيت إليه بعُجري وبُجري أريد أنني أخبرته بكلّ مساويٍّ [مساوئي (لغة) باتّحاد الهمز والياء وهما يقومان مقامًا واحدًا، تقول: أئمّة وأيمّة] ولم أكتم عنه شيئًا من أمري، واستُعير للهموم والأحزان، ومنه قول الإمام عليّ رضي الله عنه، حين طاف على القتلى مساء وقعة الجَمَل، ومعه مولاه قنبر، فوقف عند طلحة رضي الله عنه، وبكى، وقال: عزّ عليّ أبا محمَّد أن أراك معفرًا تحت نجوم السماء، إلى الله أشكو عُجْري وبُجْري.

(٥) انتكث المرائر: انتقضت العزائم.

ودّعناك بعد خلوة كانت لنا معك في الدار العزيّة، ومفاوضات طويلة شافية، ووصايا لك ليس مثلك من أضاعها وأغفلها، ولا من أعرض عنها وأهملها، مع فضلك المتعارَف وسدادك المتعالَم. وإنّك اليوم واحد هذه العساكر في الحزم، وفريدها في الدراية والفهم، وهذه الأصول المستحكِمة، والوشائج المتمكّنة التي قد تعاقبت عليها الليالي والأيام، وتطاولت بها السنون والأعوام، هي المُطمِعة لنا في عَودك معنا إلى الأَولى بك، والرجوع إلى المحقوق عليك، ومساعدتك على ما أصلحنا وأصلحك، وكان الحظّ فيه لنا ولك، لتأمن من شماتة الأعداء ومساءة الأولياء، وأن يَسِمَكَ الناس بالميسم الذي نربأ[1] بك عنه، ونصونك عن التعرّض له، مع المشهور من محاسنك ومناقبك، والمأثور من وفائك لمولاك، نضّر الله وجهه، الذي هو عوضك من الوالد، ولنا إذ نحن عوضك من الأخ. وقد تضمّن الكتاب الأول ما أنت، أدام الله عزّك، عارف به، ولسنا نُضيّق عليك البذل، ولا نقف فيه على حدّ، ولا نمتنع من النزول على حكمك في المزيد فيه، والإمضاء لما تُؤثره وتقترحه منه؛ إذ كنّا نُشهِد الله على نفوسنا بالوفاء لك به، وإنّا نُحِلّك محلّ الاسفهسَلار[2] المدبّر المستخلف على عساكرنا، الذي لا يجوز عليه أمر لغيرنا ولا يساويه أحد من النظراء عندنا، وإنّا نفردك بالمنزلة الكبيرة، ونشاركك في الحال والقدرة، ونساهمك في المال والثروة، ويكون معنى الأمر والنهي في يدك، وكلّهما موضوع عنك، ومتحمّل دونك؛ ولا ندع أن نعطيك المواثيق منّا والشهادات علينا بذلك كلّه، والإقطاع السنيّ والإفضال الغامر، وبسائر ما يجب أن يُحتاط فيه ويُستظهر به، في أصل وفرع، وعقد وشرط، وكثير وقليل، ودقيق وجليل، وللقوّاد والحجاب، والنقباء والغلمان أعزّهم الله، وإن كان في نفسك أن يجري ذلك أجمع على صورة أخرى، تكون فيها ساكن الجأش مالكًا للاختيار، أنفذت من يتكلّم عنك، ووسطت من يتوثّق لنا ولك، فلن تجد عندنا خلافًا عليك في كلّ ما عاد بالصلاح والاستقامة، والدّعة والسلامة، إيجابًا لحقّك وضنًّا بك وبلوغًا إلى آخر العذر معك، واعتمادًا لأن يطلع الله علينا. وقد بدأناك بالحسنة قبل السيّئة، ودعوناك لسائر دواعي الأنس والقربة، فإنّه، عزّ وجلّ، لا يخلينا من المعونة والتوفيق إن سوعدنا، أو من النصرة والإظهار إن بُغي علينا. والله يلهمك الأحسن والأزين، ويعيذك من الأقبح الأشين، فرأيك، أدام الله عزّك، في تذكّر ما ذكّرناك، وتقبّل ما أعطيناك، وربّ الأواصر بيننا وبينك، التي أوجب الله

---

(١) نرفعك عنه.

(٢) الأسفهسلار: كبير العساكر، محرّفة عن سبهسالار بالفارسية، وهي مركّبة من سباه أي عسكر وسالار قائد.

ربّها علينا وعليك، وتأمّل الجميل السالف والآنف، من قولنا وفعلنا، وابتدائنا وتعقيبنا، وحراسته من أن يتغيّر ويتكّدر من جهتك، أو جهتنا، وتقديم ردّ الشريف أبي أحمد، أيّده الله، بالجواب عن الرسالة على يده والكتاب معه، وبعده بما يسرّ الوليّ الودود، ويكبت العدوّ والحسود، موفق إن شاء الله.



نسخة كتاب أنشأه أبو اسحق ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الصابي، الكاتب عن الأمير عزّ الدولة، ابن معزّ الدولة، رحمهما الله، إلى أبي منصور الفتكين التركي[1] المُعزِّي، جوابًا عن كتاب ورد له من الشام سنة ستّ وستّين وثلاثمائة

(١) الفتكين التركي، مولى معزّ الدولة بن بويه، دخل في فتنة الأتراك مع الديلم التي أشرنا إليها في أول الكتاب، ولمّا توفّي سبكتكين التركي الذي تولّى كبر هذه الفتنة، قدم الأتراك الفتكين هذا، ولمّا هزمهم عضد الدولة وابن عمّه بختيار، سار الفتكين إلى الشام في طائفة صالحة من الجند، فوصل إلى حمص، فقصده ظالم بن مرهوب العقيلي أمير دمشق، من قبل المعزّ العلوي ليأخذه، فلم يتمكّن من أخذه، فعاد عنه، وسار الفتكين إلى دمشق على فساد من أحوالها وسَورة للجهل فيها، فخرج إليه أشرافها، ورحّبوا بقدومه وسألوه أن يقيم بينهم، ويملك بلدهم ويزيل سِمة المصريين التي يكرهونها لمخالفة الاعتقاد، ويكفّ شرّ الأحداث في البلد، فأجابهم إلى ما سألوا، ودخل البلد وضبط أموره، وصرف ريان الخادم، العامل من قبل المعزّ، وقطع خطبته، وخطب للطائع العبّاسي. وكان الأعراب قد استولوا على أطراف البلد، فقصدهم وشرّدهم وأزال معرّتهم [المعرّة: الإثم والأذى، والمساءة، والعيب والجناية والأمر القبيح]، وأبان عن شهامة، وثبات قلب، وحسن تدبير، فأحبّه القوم وتمكّن منهم، وكاتَب مع ذلك المعزّ مداراةً له، فأجابه يشكره ويطلب منه المسير إليه ليخلع عليه، فامتنع لعدم الثقة به، فتأهّب المعزّ لقصده، فمرض ومات، وولي بعده ابنه العزيز. وكان الفتكين قد قصد سواحل الشام وحصر صيدا وفيها ابن الشيخ، وظالم بن مرهوب وغيرهما من رؤساء المغاربة، فخرجوا إليه بعسكر وافر، فاستدرجهم وقتل منهم نحو أربعة آلاف، وتحوّل إلى طبرية فعاث فيها، فجهّز العزيز العساكر لقتاله وأنفذها مع جوهر القائد، فلمّا سمع الفتكين بمسيره جمع أهل دمشق وقال لهم: قد علمتم أنني ما ولّيت أمركم إلاّ عن طلب منكم، ورضى من صغيركم وكبيركم، وإنّما كنت مجتازًا، وقد أظلّكم هذا الأمر، وأنا سائر عنكم لئلاّ ينالكم بسببي أذى. فقالوا له لا نمكنك من فراقنا ونحن نبذل الأنفس والنفائس في هواك وننصرك، فاستحلفهم، فحلفوا له. ووصل جوهر في ذي القعدة سنة ٣٦٥ فأقام الحصار، واستمرّ القتال شهرين قتل فيه عدد وافر من الطائفتين، ولمّا رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة عليهم، أشاروا على الفتكين باستنجاد الحسن بن أحمد القرمطي، فكتب إليه بمكانه من الأحساء، فسار إليه، ولمّا علم جوهر بدنوّ القرمطي، خشي أن يقع بين عدوّين، فأفرج عن دمشق بعد مقام سبعة أشهر، ووصل القرمطي واجتمع بالفتكين، وتبعهما جمع كثيف من رجالات الشام والعرب قيل بلغوا خمسين ألفًا ما بين فارس وراجل. فأدركوا المغاربة في الرملة، واقتتلوا وقطع الفتكين الماء عن البلد، فانحاز جوهر إلى عسقلان، فحصره الفتكين والقرمطي وكان الزمان شتاء، فلم يمكن إيصال الذخائر من مصر إلى عسقلان، فاشتدّ الخناق بجوهر، وأكل جُنده الميتة، فجعل يراسل الفتكين ويبذل له المواعيد، فيهمّ هذا أن يفعل فيمنعه القرمطي، فزادت الشدّة على جوهر ومَن معه وعاينوا الهلاك، فأرسل جوهر إلى الفتكين يطلب منه الاجتماع به فتقدّم إليه واجتمعا راكبين، فقال له جوهر قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة وأريقت فيها الدماء ونهبت الأموال، ونحن المؤاخَذون بها عند الله تعالى، وقد دعوتك إلى الصلح والموافقة، وبذلت لك الرغائب فأبيت إلاّ القبول ممّن يُشِبّ نار الفتنة، فراقب الله تعالى وراجع نفسك وغلّب رأيك على هوى غيرك. فأجابه الفتكين أنا والله واثق بك في صحّة الرأي والمشورة منك، لكنّني غير متمكّن ممّا تدعونني إليه بسبب القرمطي الذي أحوجتني أنت إلى مداراته، فقال جوهر إذا كان الأمر كما ذكرت فإنّني أصدقك الحال تعويلاً على أمانتك وما أجده من الفتوة عندك، فقد ضاق الأمر بنا، وأريد أن تمنّ عليّ بنفسي وبمن معي من المسلمين فأعود إلى صاحبي شاكرًا لك. فأجابه الفتكين وحلف له على الوفاء به، وعرف القرمطي ذلك فعذل صاحبه وقال له: دعنا نهلكهم جوعًا أو نأخذهم بالسيف، فإنّ جوهر إذا رجع إلى صاحبه حمله على قصدنا بما لا قبل لنا به، فلم ينكث الفتكين، وأذن لجوهر في المسير، فلمّا وصل هذا إلى مصر قال للعزيز إن كنت تريدهم فاخرج إليهم بنفسك، وإلاّ فهم واصلون على أثري، فجهّز العزيز جيشًا جرّارًا وسار وجعل جوهر على مقدّمته، وتلاقى الجمعان بظاهر الرملة واصطفّوا للحرب في المحرّم سنة ٣٦٧. فرأى العزيز من شجاعة الفتكين ما أعجبه، فأرسل إليه في تلك الحال يدعوه إلى خدمته ويبذل له الولايات، وأنه يجعله المقدّم عنده، فترجّل الفتكين وقبّل الأرض بين الصفّين وقال للرسول قل لأمير المؤمنين لو قدّم هذا القول لأطعت وسارعت، وأمّا الآن فلا يمكن إلاّ ما ترى، ثمّ حمل على الميسرة فهزمها، فحمل العزيز بالقلب والميمنة فانهزم القرمطي وتبعه الفتكين، واستلحم المغاربة جمعهما وقتلوا نحو عشرين ألفًا وأسروا جملة وافرة، وبذل العزيز لمن أتاه بالفتكين أسيرًا مائة ألف دينار. وكان الفتكين في مُضيّه منهزمًا، قد جهده العطش، فالتقى بالمفرج بن دغفل الطائي وكان بينهما أنس قديم، فطلب منه ماءً ليشرب فسقاه وأنزله وأكرمه، وسار إلى العزيز فأعلمه بأسر الفتكين وطلب المال فأعطاه ما ضمنه، وسيّر معه من جاء به، فلمّا وصل إليه رأى من الإكرام والإعزاز ما لم يكن يخطر له في بال، وأخذه في صحبته إلى مصر وجعله من أخصّ المقرّبين عنده والمتحكّمين في ماله وجاهه، فعظم شأنه ووقعت المنافسة بينه وبين وزير العزيز يعقوب بن كلس، فدسّ هذا عليه مَن سقاه سمًّا فمات، وحزن عليه العزيز، واعتقل من أجله الوزير، وصادره وغضب عليه مدّة طويلة.

كتابنا يا أخانا، أطال الله بقاك، وأدام عزّك وتأييدك، وسعادتك وسلامتك، ونعمتك وكفايتك، وأمتعنا بك وبالموهبة فيك، ولا أخلانا منك، يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفَر سنة ستّ وستّين وثلاثمائة، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونعماءه، على أفضل ما عَوّد الله من تمام عزّه وتمكينه، ونفاذ أمره ونهيه. ونحن تحت الظلّ الظليل من الطاعة له، وفي المحلّ المنيف من الأثرة عنده، وأحوالنا في الاستقامة مستمرّة، وعلى المحبّة مستقرّة. والحمد لله ربّ العالمين، حمدًا يقضي الحقّ مُوفّى، والفرض مُؤدّى، ويستديم النعمة سابغة، ويرتبطها راهنة، ويحرسها علينا ظاهرة باطنة.

ووصل كتابك، أدام الله عزّك، مفتتحًا بتحميدات الفتوح وتصديراتها، ودالاً على تضمّنه البشرى بأعظمها وأفخمها، ومنتظمًا ضروبًا من القول، نحن نُجيب عنها الجواب الكافي في كلّ منها. وفهمناه وسكنّا منه إلى الجملة التي نشهد بها من سلامتك وعافيتك، وتماسُك أمرك وحالك، واعتددنا ذلك من مواهب الله لنا في نفوسنا، وفي كلّ مُنتمٍ إلينا ومختصٍّ بنا، واستدمنا منه أحسن ما عَوَّد وأَولى، وأجزل ما منح وأعطى، وهو فاعل ذلك بكرمه ومُجيب دعاءنا بلطفه، فأمّا ذلك التحميد، أدام الله عزّك، فلم نجده انتهى إلى ذكر عدوّ أسرته، ولا عسكر له كسرته، ولا خاتمة أمر اقتضت ما شببت به وسطّرته، بل كان مُنبئنا عن حروب دائمة، ومنازعات متّصلة، ومجاذبات مشتبَهة ومُشكّلة. ونرجو أن يهب الله لنا، ولنا فيك العاقبة الجميلة والإدالة العزيزة، والنصرة المحققّة، والآمال المصدّقة، والأقوال السائغ لك معها أن تبشّرنا، ولنا أن نهنئك وتتهنّأ النعمة بك بقدرته. وأمّا اعتذارك، أدام الله عزّك، من التأخّر عن حضرتنا التي هي وطنك، ومنها منشأوك، وأنت أحقّ مَن قام بها، ودبّر أمورها، واشتمل عليها، وتقدّمت منزلته فيها، واحتجاجك في ذلك بالعلائق القاطعة، والعوائق المانعة، والمجاهدة لمن يزينك أن تجاهده، ويشينك أن تنحاز عنه، فما ندفعك، أيّدك الله، عن نيّة في موالاتنا خالصة، وبصيرة في طاعتنا ثاقبة، وإنّك لنا من بين أوليائنا، الأخ النقيّ الحبيب، السليم من الريب، المأمون في القرب والبعد، الناصح في المشهد والمغيب، الذي مآثره إلينا منسوبة، وفضائله لنا محسوبة، وأموره كلها بنا منوطة، وعنّا غير متميّزة. ولم ندعك إلاّ إلى مقرّ من حضرتنا، هو بك إذا حللته أنيس، وعليك إذا فارقته محروس. ولعلّ الأحوال التي ذكرتها، أيّدك الله، واعتذرت باكتنافها إيّاك، تُسفر عمّا يسرّك ويسرّنا فيك، وعمّا يوجد لك السبيل إلى ما أردناه وأحببناه منك، ولله المشيئة، ومنه التوفيق، وبه القوّة، وعليه التعويل.

وأمّا اقشعرارك، أدام الله عزّك، من الكتاب الذي ذكرت أنه ورد عليك، وإنكارك منه ألفاظًا خالفت عادتنا عندك، فما نعرفه، ولا أُمِرنا به، ولا فكّرنا قط بمخاطبة لك بشيء تشمئزّ منه، ولا يقتضي محلّك لدينا ذلك ولا ما يقاربه، وكان في الحقّ لما خالف العادة وخرج عن الرسم والسنّة، أن تطّرحه اطّراح الواثق ببطلانه، أو تردّه إلينا ردّ المتثبّت فيه، ثمّ تجيب عنه حينئذٍ بحسب ما نذكره لك من صحّته أو سَقَمه، وألاّ تعجل إلى ما عجلت إليه من المناقضة بمعاريض[1] من القول، لولا مسامحتنا إيّاك فيها وإغضاؤنا لك عنها، وكراهيتنا أن تجري، أيّدك الله، معنا فيها جَرْيَ المسبوق إلى الغاية، المغمور بِلازم الحجّة، لكان لنا مسرح طويل في ردّها إليك وعكسها عليك، ولكنّا على ذلك أقدر، ومنه أمكن. وقد علمت أنّ عهدنا قريب منك بمكاتبة لك مستقيمة، ومراسلة مع أصحابك جميلة، وما كنّا لننقض ذلك ونفسخه، ولا لنبدّله وننسخه، إلاّ عن سبب موجب وعذر واضح، وما هاهنا، والحمد لله، شيء من ذلك، وما نظنّ الكتاب إلاّ باطلاً ونافذًا بخطّ صغير من الكتّاب، قد عجل إلى إنفاذه قبل عرضه، وحرّفه عن جميع أو بعض ما أُمر به. وإذا رددته، أدام الله عزّك، إلينا عرّفناك صورته، وتقدّمنا بعقوبة الجاني عليك وعلينا فيه، وكنت بعد هذا معتمدًا من كتبنا، على ما كان فيه خطّ لنا، أو لمشهور من كتّابنا، وكان مبنيًّا في خطّه ولفظه على ما يشهد له بالصحّة، ويُبعد عنه الاسترابة. وكيف جرت الأحوال، فأنت، أيّدك الله، أخصّ موقعًا وأرفع موضعًا، من أن يتشعّث[2] ما بيننا وبينك بأمثال هذه الأسباب، التي لا تحلّ عقدًا ولا تعلّ أصلاً، فليكن على هذا عملك، وإليه مرجعك، فقد أحلّك الله منّا محلاً بعيدًا في رفعته، وقريبًا من أَثَرته، إن شاء الله. ونحن، أدام الله عزّك، إلى معرفة أخبارك، أطابها الله متطلّعون، ولما تجري عليه أحوالك في الوجه الذي أنت بإزائه مُراعون، ولا سيّما مع ما دلّ عليه آخر كتابك، دون أوّله، من أنَّ الحال واقفة والحرب متّصلة، وعلى أنَّ لله عادة عندنا في إعلاء المُعتزي إلينا والمتعلّق بعصمتنا، والمخلص بطاعتنا، والمعلِن بشعارنا، أنت أحقّ من أجراه، جلّ وعزّ، عليها، وحمله على حُكمها ولم يخرج بنا وبه فيه عن شرطها، فرأيك يا أخانا، أدام الله عزّك، في مكاتبتنا من ذلك بالشافي من شرحك، والواضح من تلخيصك، موفّقًا إن شاء الله.

---

(١) المَعارِض: التورية بالشيء عن الشيء، وفي الحديث المرفوع أنَّ في المعاريض لمَندوحة عن الكذب [المَندوحة: السعَة. كأنه أراد أن يقول؛ في المعاريض ابتعاد عن الكذب]، وفي حديث عمر رضي الله عنه، أما في المعاريض ما يُغني المسلم عن الكذب؟ وفي حديث ابن عبّاس رضي الله عنه، ما أحبّ بمعاريض الكلام حُمْرَ النَّعَم.

(٢) يتشعّث: يتفرّق.

وورد جوابه فأجيب عنه بما هذه نسخته

كتابنا يوم الخميس لخمس ليال بقين من جمادى الأولى، ومولانا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، وأدام عزّه وتأييده، وتوفيقه وتسديده، جارٍ على أفضل ما أجرى الله عليه إمامًا خلّفه في أرضه، ونهض بواجب فرضه، دفعًا عن وليّه، وغضًّا من عدوّه، وإعلاءً لشأنه، ومدًّا لظلّ سلطانه، وقودًا لصعاب الأمور إلى مشيئته، وردًّا لها إلى إرادته، ونحن مستكنّون في ذراه[1]، راتعون في أكناف نعماه، نازلون منه المنزلة التي وقفت المنازل دونها، وتقاصرت الغايات عن بلوغها، حامدون لله على جميع ذلك حمد الشاكرين لآلائه، الناشرين لجميل بلائه. ووصل كتابك، أدام الله عزّك، جوابًا عن جواب كتابك المتقدّم، مفتتحًا بذكر البشرى التي جلّ موقعها وعظمت النعمة فيها، بما أصارك الله إليه من الاستعلاء والظهور، وكفاك إيّاه من المَخوف والمَحذور، وقضى لك به من عاقبة الفُلْج[2] والنصر، وخاتمة الظفر والقهر، وانصراف المغاربة عن مواجهتك، وانثنائهم عن منازلتك بضروب الضرورات، التي نقضت منهم العزيمة وأفضت بهم إلى الهزيمة، والأسباب التي ينطق الكتاب بجملتها، وتتابعت الأخبار بجليتها، (وفهمناه) ووقع منّا ألطف مواقع الصنع، لما فيه من فنون المصالح والنفع، ووجدنا منه بَردًا على قلوبنا، وشفاء لصدورنا، ووفّيناه واجبه من الاعتداد والاغتباط، بأن أذلّ الله من عازّنا[3]، وأعزّ من اعتزى[4] إلينا، وجعل شعارنا ناصرًا لمن ادّرعه[5]، مانعًا لمن امتنع به، محتومًا له أن يعلو بالعدد الأنزر على العدد الأوفر، وبالحزب الأضعف على الحزب المضعّف، مضيفًا لنا بهذه الفضيلة إلى زمرة أوليائه المجاهدين عن دينه، الذابّين عن حريمه، الذين يقول الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا﴾[6]. وكفانا وكفاك معتبرًا أن يكون أولئك النفر من غلماننا، حفظهم الله علينا وأحسن فيهم رعايتنا، وهم جزء يسير من أصناف الرجال المطيفة بنا والأجيال السائرة تحت راياتنا، وَفَتْ بتلك الطوائف التي وصفتها بالشدّة والنجدة، ونعتها بالقوّة والكثرة، لمّا أطاعت الله وأطاعتك، فيما أعدتها إليه من واجب موالاتنا،

---

(١) الذرى: الملجأ والموئل، وكلّ ما استترت به.

(٢) الفُلج: الفوز والظفر.

(٣) عازّنا أي عارضنا في العزّة.

(٤) اعتزى: انتمى.

(٥) ادّرع: لبس الدرع.

(٦) من الآية: ٦٥، من سورة الأنفال.

وسلكتها إيّاه من سنن مشايعتنا، ولم تكن هذه حالها أيام خلافها وأوان انحرافها. ونحن نحمد الله كثيرًا، ونسبّح له طويلاً، ونسأله أن يُهنينا ما وهب لك ولنا فيك. فبالله قسمًا لا يدخلها التجوّز، ولا يعلها التأوّل، أنَّ انحراف المكروه عنك، ومساعدة المقدور لك، محسوبان لدينا من أجلِّ منائح[1] الله لنا، وأجزل عطاياه عندنا، لأنه حفظ علينا منك وليًّا يتجاوز الأولياء في الأثَرة، ويُضارع ذوي اللحمة البَرَرة، وكشف في الذي تمّ على يدك لكلّ عدوّ مباين، وكاشح مُضاغن، أنَّ حوزتنا لا يستطيعها الرائم لها، إذا لم يستطع اللمة[2] من حماتها، وأنَّ دوحتنا لا ينحتها المنحى عليها إذا لم ينحت[3] الواحد من أعوادها. وصار ذلك كالآية الواعظة لمن انهمك في عدوانه وتهوّك[4] في طغيانه، وكالشكيمة[5] الكابحة، لمن أطلق البغي من عِنانه وجمح به في ميدانه. فمن اتّخذه برهانًا واقتنع به بيانًا، كفى من نفسه المخاطرة وكفينا فيه المساورة[6]، ومن تعقّبه بأباطيل زعمه واعترضه بأضاليل حكمه، كان متورّطًا على بصيرة وتجربة، وكنّا فيه على بيّنة من ربّنا وثيقة. وما خاطبناك، أدام الله عزّك، بذلك لظننا أنه ذاهب عليك ولا خافٍ عنك، ولا لأنك متميّز عنّا فيه، ولا خارج عن جملة أهليه، بل ليشيع ويذيع ويكون شجًى[7] في حُلوق من عادانا وعاداك، ووريًا[8] في أكباد من ناوأنا وناوأك، وإلاّ فنحن نعلم علم اليقين، ونحلف لو دعينا إلى اليمين، أنك الأديب اللبيب، السديد الرشيد، المجموعة له فضائل النفس من ذاته، وفضائل التنويه من أدواته، وأنك لم تكن في الذي جرى منك أيام نزغ الشيطان بين الفئتين من عسكرنا، عامدًا مصرًّا، بل كارهًا مضطرًّا، ولا كنّا لك عادلين بل عاذرين، ولا عليك مُحنقين[9] بل مُشفقين. فأمّا جماهير قوّادنا وغلماننا رعاهم الله، فمعلوم أنهم وإخوانهم من أوليائنا الديلم، إنّما تساقوا كؤوس الحِمام بعد كؤوس المدام[10]، وخرجوا إلى تنازع الأعداء بعد توادع الأصدقاء، تنافسًا فينا، وغيرة على المنزلة منّا، وطاعة للعصبيّة والنفوس الغضبيّة، التي لم يزل داؤها المُعضِل

---

(١) منائح، مفردها منحة: العطيّة.

(٢) الجماعة.

(٣) نَحَتَ العُود: براه، ونحى: أزال، والمعنى: أننا ما دمنا متّحدين فلن يقوى أحد علينا، فإذا تفرّقنا سَهُلَ القضاء علينا.

(٤) تهوّك: تهوّر، ووقع في الشيء بغير مبالاة ولا رويّة.

(٥) الشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس، تكبح جماحه (وهي من أقسام اللجام).

(٦) المساورة، ساوره (مساورة): واثبه أو وثب عليه.

(٧) الشجا: ما اعترض في الحَلْق من عظم ونحوه.

(٨) ورى النار (وَرْيًا): أوقدها، أراد بها نارًا في قلوب الأعداء والمناوئين.

(٩) حَنِقَ: اغتاظ.

(١٠) تساقوا كؤوس الحِمام بعد كؤوس المُدام أي لذَّ لهم الموت مثلما لذّت لهم الخمرة.

وخطبها المُشكل، قاطعَين بين المرء وأخيه، وابن العمّ وذويه، وما كان الفريقان كلاهما إلاّ كما قال البُحتري:

وفرسان هيجاءٍ تجيش صدورها	بأحقادها حتّى تضيق ذروعُها[1]
تقتّل من وَتْر[2] أعزَّ نفوسها	عليها بأيدٍ ما تكاد تُطيعها
إذا احتربت يومًا ففاضت دماؤها	تذكّرت القُربى ففاضت دموعُها

وليس في أحد الحزبين، إلاّ من كان له في الحزب الآخر، الصديق المعاشر والخليل المُراضع، ومَن يسؤه أن يفقد، ويحزنه أن يهلك، ومن لو أمكنه في تلك المواقف أن يستلّه من بين غائرة سهامها[3]، وفاجئة حِرابها[4]، لاستلّه استلال الوالد سلالته والمعلوق علاقته، وفي اجتماع البعض من ذلك إلى البعض، ما جعل الكلّ مصافيًا للكلّ. وها أنت، أدام الله عزّك، الآن والطائفة التي تليك، يرون الطائفة التي تلينا من رفقائكم مخالِطة عندنا لمن كانت له مُنازِلة، ومشابكة لمن كانت له مُقاتِلة، قد استقرّوا في الأوطان وتألفوا تألّف الإخوان، وتلافوا تلك الهنات[5] بعواطف الأحلام، ووطئوا عليها بأخامص الأقدام[6]، واستظلّوا من رعايتنا بظلّ لا تروعهم فيه رائعة ولا تغولهم غائلة، ولا يفقدون فيه شيئًا ألفوه من حنوٍ وإشبال[7] عليهم ورقّة ورأفة بهم. وحسبك، أيّدك الله، لمّا بعدت وبعدوا عنّا، وانتظم بعدكم شملنا، تنغّصنا بأن تستقرّ بنا نوى[8]، قلقت لها ركابكم، وتطمئنّ بنا دار تقاذفت عنها أشخاصكم، وودنا لو أنَّ النعمة تمّت والفائدة عمّت، بأن تعود تلك البقيّة عنكم إلينا عود الأنياب إلى أفواهها، والأظفار إلى برائنها، والنصول[9] إلى أجفانها[10]، والسهام إلى كنائنها[11]. وإذا كانت الآن تلك الحروب القاطعة والشدائد المانعة، قد أسفرت لك عن

(١) الذرع: بَسْط اليد، وفي الأمثال: «ضقت بالأمر ذرعًا» أي لم أقدر عليه.

(٢) الوَتْر والوِتْر: الظلم والانتقام فيه.

(٣) غائرة السهام: ما يكون في الحرب من السهام الماطرة.

(٤) فاجئة حرابها، الحِراب، مفردها (حَرْبة) وهي كالرمح تمامًا على أنها (أقصر) منه.

(٥) الهَنَات، مفردها (هَنَة) كناية عن كلّ اسم جنس، ومعناه: شيء.

(٦) أخامص الأقدام، مفردها (أخمص): ما لا يصيب الأرض من باطن القَدَم، وقيل القدم كلّها.

(٧) أشبل عليه: عطف، ومنه الشبل.

(٨) النوى: البُعد.

(٩) النصول: السيوف.

(١٠) الأجفان: أغماد السيوف (بيوتها).

(١١) الكنائن، مفردها (كنانة)، وهي جُعْبَة السهام.

حصول الإيثار، وملّكتك جهات الاختيار، فهذه الحضرة لك معترضة وعليك معروضة، فإن نزت بك إليها نوازي الشوق، وبعثتك نحوها بواعث التوق، كنت عائدًا منها إلى دارك وقافلاً إلى أوطانك، ووجدت عندنا أفضل ما يجده المقترح المستام والمتخيِّر المِعتام، من تَوسعة عليك وتفويض إليك ومعرفة بحقّك وإعلاء لمنزلتك، وكان كلّ واحد من قوّادنا، أعزّهم الله، وغلماننا، كلأهم الله، الذين يلونك، قابضًا لما كان يقبضه ومحمولاً على أجمل ما يعهده، وإن كان موضعك لك كافيًا، وبك مطمئنًا، ورضيته بدلاً، واتّخذته مَعقلاً، فنحن نمنحك خالصة الصدر، مع القرب والبعد، ونمحضك صفوة الودّ على الرغبة والرهبة، ونبذل لك المعاونة إن احتجت إليها والمعاضدة متى استدعيتها، وأنت، أدام الله عزّك، إلى ما تراه في الثقة بذلك والعمل عليه، والتحصيل له والسكون إليه، ومكاتبتنا بما يتولاّك الله به من مستأنَف تمكين وتأييد، ومستقبل تمهيد ومزيد، إن شاء الله.

ووقفنا على ما شبت، أيّدك الله، كتابك به، وتكلّفت الاحتجاج فيه، على الألفاظ التي ظننت أنّ المنشئ للكتاب عدل فيها عن صواب الطريقة، وتأوّل الحال الموجبة لها بخلاف الحقيقة، ولم يكن كتابًا مبنيًا على الابتداء، فيتّجه العتب منه ويطّرد الطعن عليه، وإذا قرنته، أيّدك الله، بما هو جواب عنه، ألفيت أنّ كلّ معنى من معانيه موضوع موضعه، ومقابَل به ما استجرّه. ولست، أدام الله عزّك، عندنا على تصرّف الأحوال والأقوال ممّن تدخل المناقضة بيننا وبينه، ولا ممّن نسلك سبيلها معه، فليكن جوابنا هذا حاسمًا للمادّة، ومانعًا من الإعادة، وجامعًا بيننا وبينك، على سلامة من الدخيلة، ونقاء من السريرة، إن شاء الله.



وكتب إلى الصاحب أبي القاسم اسمعيل بن عباد[1]، رحمه الله، وزير الأمير مؤيّد الدولة بن ركن الدولة، بأصبهان، استماحة

(١) هو أبو القاسم اسمعيل بن أبي الحسن، عباد بن العبّاس بن عباد بن أحمد ابن إدريس الطالقاني، كان نادرة الدهر في كرمه وأدبه، أخذ الأدب عن أحمد ابن فارس اللغوي، وعن أبي الفضل بن العميد، وغيرهما. قال أبو منصور الثعالبي في يتيمته [إشارة إلى "يتيمة الدهر" للثعالبي] في حقّ الصاحب: ليس تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علوّ محلّه في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، وتفرّده بالغايات في المحاسن، وجمعه أشتات المفاخر، لأنّ همّة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه. وقال أبو بكر الخُوارزمي الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ودبّ ودرج من وكرها، ورضع أفاويق [مفردها فِيْقَة، والأصل فيها، اسم اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين، ومثّلوها، فقالوا: "أرضعني أفاويق فضله"] دَرِّها، وورثها عن آبائه.

وهو أول من لقّب بالصاحب من الوزراء، لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له صاحب ابن العميد، ثمّ أطلق عليه هذا اللقب لمّا تولّى الوزارة وبقي علمًا عليه. وذكر الصابي في كتاب التاجي، أنه إنّما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيّد الدولة بن بويه منذ الصبا، وسمّاه الصاحب فاستمرّ هذا اللقب عليه واشتهر به، وسمّي به كلّ من ولّي الوزارة بعده، وكان أولاً وزير مؤيّد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، تولّى وزارته بعد أبي الفتح عليّ بن أبي الفضل بن العميد، فلمّا توفّي مؤيّد الدولة، استولى على مملكته أخوه فخر الدولة، فأقرّ الصاحب على وزارته، وكان مبجلاً عنده نافذ الأمر، واجتمع ببابه من الشعراء ما لم يجتمع بباب غيره، ومدحوه بغُرر القصائد، وأنشده أبو القاسم الزعفراني أبياتًا نونية من جملتها:

أيا مَن عطاياه تُهدي الغِنى ... إلى راحتي مَن نأى أودنا
كسوت المقيمين والزائرين ... كِسًا لم نَخَلْ مثلها مُمكِنا
وحاشيةُ الدار يمشون في ... صُنوفٍ من الخَزّ* إلاّ أنا

* الخزّ: الحرير.

فقال الصاحب، قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني، أنّ رجلاً قال له احملني أيها الأمير، فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية، وقال له، لو علمت أنّ الله سبحانه خلق مركوبًا غير هذا لحملتك عليه، وقد أمرنا لك من الخزّ بجبّة وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس، ولو علمنا لباسًا آخر يُتّخذ من الخزّ لأعطيناكه [أعطيناك إيّاه].

وكان بديع الأجوبة، حسن البديهة، رفع الضرابون إليه من دار الضرب، رقعة في مظلمة مترجمة بـ"الضرابين" فوقع تحتها "في حديد بارد". وكتب بعضهم إليه ورقة، أغار فيها على رسائله وسرق جملة من ألفاظه فوقع فيها "هذه بضاعتنا رُدّت إلينا"، وحبس بعض من عمّاله في مكان ضيّق بجواره، ثمّ صعد السطح يومًا فاطّلع عليه فرآه، فناداه المحبوس بأعلى صوته: فاطّلع "فرآه في سواء الجحيم"، فقال الصاحب: "اخسئوا فيها ولا تكلّمون". ونوادره كثيرة، وله تآليف جملة، منها المحيط في اللغة في سبعة مجلّدات مرتّب على حروف المعجم، وقد أكثر فيه من الألفاظ وقلّل الشواهد، والكافي في الرسائل، وكتاب الأعياد، وفضائل النيروز، وكتاب الإمامة، يذكر فيه فضائل عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، مع إثبات إمامة من تقدّمه، وكتاب الوزراء، وكتاب الكشف عن مساوي شعر المتنبّي، وله كتاب في أسماء الله تعالى وصفاته، وله نثر في أعلى الطبقات ونظم، نكتفي منه بهذا الأنموذج، قال في رقّة الخمر:

رَقّ الزجاج وراقتِ الخمرُ ... وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنّما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنّما قَدَحٌ ولا خمرُ

وقال في رثاء كثير بن أحمد الوزير وكان يكنّى بأبي علي:

يقولون لي أودى كثير بن أحمدٍ ... وذلك مرزوءٌ عليّ جليلُ
فقلت دعوني والعلى نَبْكِهِ معًا ... فمثل كثيرٍ في الرجال قليلُ

وقيل إنّ نوح بن منصور الساماني، كتب إليه سرًّا يستدعيه إليه ليوليه وزارته فاعتذر له، وكان من جملة أعذاره إليه، أنه يحتاج لنقل كتبه وحدها إلى أربعمائة جمل، وناهيك بهذا دليلاً على عنايته بالعلم، وكان مولد الصاحب لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة، سنة ستّ وعشرين وثلثمائة بأصطخر، وقيل بطالقان قزوين، ووفاته ليلة الجمعة ٢٤ صفر سنة ٣٨٥ بالريّ، ونقل إلى أصبهان. ولمّا توفّي أُغلقت له مدينة الريّ، واجتمع الخلق عند باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وفيهم فخر الدولة مخدومه والقوّاد، فلمّا ظهر نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبّلوا الأرض، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس، وقعد للعزاء أيامًا، وممّن رثاه أبو سعيد الرستمي بقوله: =

أنا أعتذر إلى سيِّدي، أطال الله بقاءه، من تأخّر كتبي عن حضرته الجليلة، بعذر إذا تأمّله حقّ تأمّله، وعرضه على نقده وتمييزه، وعرف صدق منطقه وخلوص مصدره، علم أنني مواصل بباطن مرادي [١]، وإن صرمت بظاهر فعلي، وملازم بخافي مقصدي، وإن أخللت مسلكي، وهو أنني جرّبت مكاتبته أيّده الله مواظبًا عليها، مكبًّا ومراخيًا [٢] بين أوقاتها، مُغبًا [٣] لأتبع أحبّ الأمرين إليه وأوقعهما لديه، فلمّا لاح لي أنَّ الإجمام [٤] أنفق، والترفيه أوفق، ووثقت بأنَّ رأيه عليَّ في الحالَين محروس النواحي والجوانب، محميّ الشرائع والمشارب، اقتصرت على أن أتعرّف أخباره وأُسرّ باستقامتها وانتظامها، وأتنسّم أحواله، وأسكن إلى اطرادها والتئامها، وأبتهج بما يصير، أيّده الله، من ذروة مرتبة يعتليها، وغارب [٥] مرقبة [٦] يمتطيها، وإن أدلّ المتحدّثين عنهما والسامعين بهما، على أنه لم يستوفِ بعد حظّه، ولم يستوعب قسطه، فإنَّ للدنيا مواعيد فيه، لا بدّ من أن ينجزها بمساعيه، وما أخاف في هذا القول، والحمد لله، من غلط الفراسة ولا كذب المخيّلة، ولا بمعارضة المعارض ومناقضة المناقض، ولا أعدم صحّة الشهادة وقيام الدلالة، وقبول المستمع، وتشيّع المتّبع. وكفى بعلم الله أنني أغتبط بنعمه، جلّ وعزّ، عنده، اغتباطي بها إذا كانت عندي، وأعتقد أنها في فِنائه [٧]، عمّره الله، مستقرّة الوطن قاطنة، وفي كثير من الأفنية قلقة الركاب ظاعنة [٨]، لبعد فضلاء الزمان عن مساواته في استحقاقها، ومداناته في استيجابها، واستبداده عليهم بحيازة ما يتفرّق فيهم، واستكمال ما يتقسّم بينهم، من أصل راسخ، وفرع شامخ، وحلم راجح، وقدر طامح، وأدب جزل، ومنطق فصل، وقريحة ثاقبة، ودراية صائبة، ونفس سامية، وكفّ هامية، وأوصاف لا تعبّر عنها بلاغة الفصحاء، ولا يحيط بها استحفاز الخطباء، ولا تجاريه

= ابعدَ ابنِ عبّادٍ يَهشّ إلى السرى ... أخو أمل أو يُستماحُ جوادُ
أبى الله إلاّ أن يموتا بموته ... فما لهما حتّى المَعاد معادُ*

* المعاد: يوم القيامة.

وبهذا القدر من ترجمته كفاية، رحمه الله تعالى.

(١) أي أنه يعلم أني أحبّه ولا أقطع صلتي به، وإن كان يظهر له منّي خلاف ذلك.

(٢) راخى: باعد.

(٣) أغَبّ: جاء يومًا وترك يومًا.

(٤) الإراحة.

(٥) الغارب: الكاهل، أو بين الظهر والسنام والعُنق.

(٦) المرقَبة: الموضع المرتفع.

(٧) فناء الدار: ساحتها ـ وفلان «قَلِق الركاب» كناية عن عدم الاستقرار في موضع.

(٨) ظَعَن: ارتحل.

فيها أقدام النظراء، ولا تزاحمه عليها مناكب الأكفاء، بل هي مُسلَّمة إليه إذا نوزع مُدَّعوها، ومُقرّ له بها إذا دُوفع مُنتحلوها. فالحمد لله على أن أعطى قوس السيادة منه باريها، وأضافها إلى كفؤها وكافيها، وفسخ به شرط الدنيا الفاسد، في إهداء حظوظها إلى أوغادها، ونقض له حكمها الجائر، في العدول بها عن نُجباء أولادها، وإيّاه أسأل سؤال الضارع إليه، الطالب لديه، أن يطيل بقاء سيِّدي الإطالة المترامية، ويوفيه أقصى المدد المتمادية، ولا يعدمه التوقّل في هضباته على رفاغة[1] من معاشه، والارتقاء إلى درجاته في سكون من جاشه، ولا يبتليه في شيء منها بعثرة ولا هفوة، وأن يبلغه مدى همّته العالية المُشتطّة، وأمنيتي له المنفسحة المنبسطة، فلا مزيد عليه، أيّده الله، لمفرط مسرف، ولا عليّ في هذه لمتطلّع مُتشوّف. وأمّا بعد أيّد الله سيِّدي الصاحب، فإنَّ نُوَب الدهر تتردّد مُذ سنون عليّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق، منيخة بنوازلها، ملقية بكلاكلها[2]، كالحة بوجوهها، كاشرة عن أنيابها، لتعاقب الأيدي الوالية علينا، وتدرّجها في الإساءة إلينا، وتزايدها في الفظاظة بنا وتجاوزها المنزلة إلى المنزلة في الاستئصال لأحوالنا. وقد توفّر قسطي في تأثيرها بحسب ضنّي بعرضي وصوني نفسي، وبذلي دونها مالي ووقايتي إيّاهما بما ملكت يدي، حيث لم أسأل المعونة أحدًا، ولا سمحت أن أستميح مسودًا ولا سيِّدًا، راجعًا إلى شيء ممّا يرجع إليه الناس من موروث تالد ومكتسب طارف[3]، حتَّى انتهت مغارمي إلى نحو خمس مائة ألف درهم، لم يبقَ لي بعدها ضيعة ولا منزلة، ولا باطن ولا ظاهر. فلمّا صارت صروف الدهر تتوغّل بعد التطرّف، وتُجحف بعد التحيّف، وصادف ما تجدّد عليّ منها في الوقت أشلاء منهوكة وأعظُمًا مبريّة، وحُشاشة مُشفية، وبقيّة مُودية[4]، فارقت الإيثار وأطعت دواعي الاضطرار، وجعلت أختار الجهات وأعتام الجنبات، لأنحو منها ما لا يعاب سائله إذا سأل، ولا يخيب آمله إذا أمّل، فكان سيِّدي، أدام الله عزّه، أولها إذا عددت، وأولاها إذا اعتمدت.

وكتبتُ كتابي هذا، بيدٍ يكاد وجهي يتظلّم منها إذ تخطّه إشفاقًا على مائه ممّا يهرقه، لولا الثقة بأنه أيّده الله يحقن مياه الوجوه ويحميها ويجمّها[5] ولا يقذفها، وخاصّة مَن كانت

---

(١) الرفاغة: هناء العيش والرغد.

(٢) أناخت بنوازلها وألقت بكلاكلها (كناية) عن المصائب والشدائد التي تحلّ به وتثقل عليه. أمّا المعنى اللغوي، أناخ الجمل: أبركه، والنوازل: المصائب الكبيرة، والكلاكِل مفردها (كلكل) صدر الجمل (خاصّة).

(٣) الطارف: المال المستحدث، ويقابله التالد.

(٤) حُشاشة مُشفية وبقيّة مُودية: روح مُشرفة على الموت. (لغة) الحُشاشة: بقيّة الروح، وأشفى المريض: امتنع وذهب شفاؤه، وهي خلاف (شَفِيَ). وأودى فلان: هلك، فهو: مُوْدٍ.

(٥) أجمّ الماء: تركه يجتمع.

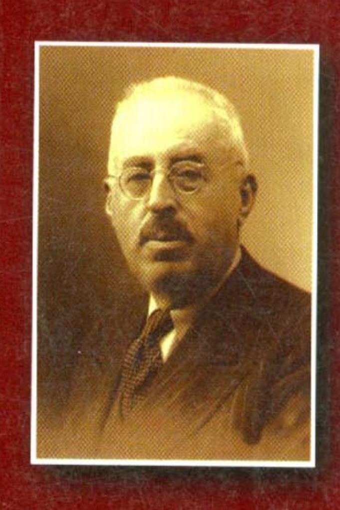
له في نفسه المزيّة التي لي على غيري، ممّن شحطت داره[1] من أوليائه وأودّائه بمشاهدتي شخصه الشريف، واعتلاقي حبله الحصيف، وكوني معه تحت ظلّ الدولة والجملة وعصمتهما، وفي ذمام الممالحة والمراضَعة وحرمتهما، والأسباب التي هَولها بكرم عهده حافظ، وبعين رعايته ملاحظ. وأنفذت درجه كتابًا إلى مولانا الأمير مؤيّد الدولة، سلكت فيه سبيل العبد اللائذ بمولاه، والخادم المحتاج إلى نَداه، وأشرت إلى ما كان سيِّدي، أيّده الله، قدّمه قبل هذا الوقت من ذكري وما تفضّل ومهّده من أمري، ورجوت استثمار تلك المقدّمة على يده وبركته، واستنجاحهما بيُمن طائره ونقيبته[2]، وكلّ ما يتأتّى من الجميع محسوب من جماله ومعدود في أفضاله، وزائد في أياديه البيض الزهر وعوارفه المحجّلة الغرّ، وسيِّدي الصاحب، أطال الله بقاه، وليّ ما يراه فيما سألت واقترحت، واشتططت واحتكمت، جامعًا لي من ماله وجاهه. فإنَّ تضاعف هذه المحن يقتضي مضاعفة ما يطوقنيه من المنن، لأكون ما عشت، طليقه من حبائلها وإسارها، وعتيقه من مخالبها وأظفارها، والإيعاز بإجابتي بما أبتهج له من طيب خبره وحاله، وأمتثله من عالي أمره ونهيه، إن شاء الله.

(١) شحطت داره: بَعُدَت.

(٢) النقيبة: النفس والعقل والمشورة ونفاذ الرأي، وهي الصفة الكريمة عمومًا.

فهرست المحتويات





١٨٦٩ _ ١٩٤٦

«فإنَّ من أطرف ما تطرف به أندية الأدب، ويُنْشَنُ من كنائن البلاغة في خزائن العرب... المختار من رسائل الصابي (الصابئ) المشهور، ... إذ كان كلامه من أجلّ ما ألقحته أصلاب الأقلام وحملت به بطون الأوراق... جامعةً بين متانة التعبير ورصانة الكلام، وبين نبالة الموضوع وفخامة المقام، ... ما بين العمد والأساطين في حضرة الخلائف والسلاطين.

[ولقد] أظفرني الجِدّ وأنا في دار الخِلافة بهذه النسخة النفيسة في إحدى المكاتب، مشتملة على أحسن ما دُوِّن من فصول هذا الكتاب، فاجتهدت في إبراز ذلك الأثر للعين، بعد أن علّقت عليه ما يناسب من شرح الوقائع... وإنَّ معرفة الوقائع التاريخية تزيد في حلاوة الكتب والرسائل، ...».

شكيب أرسلان